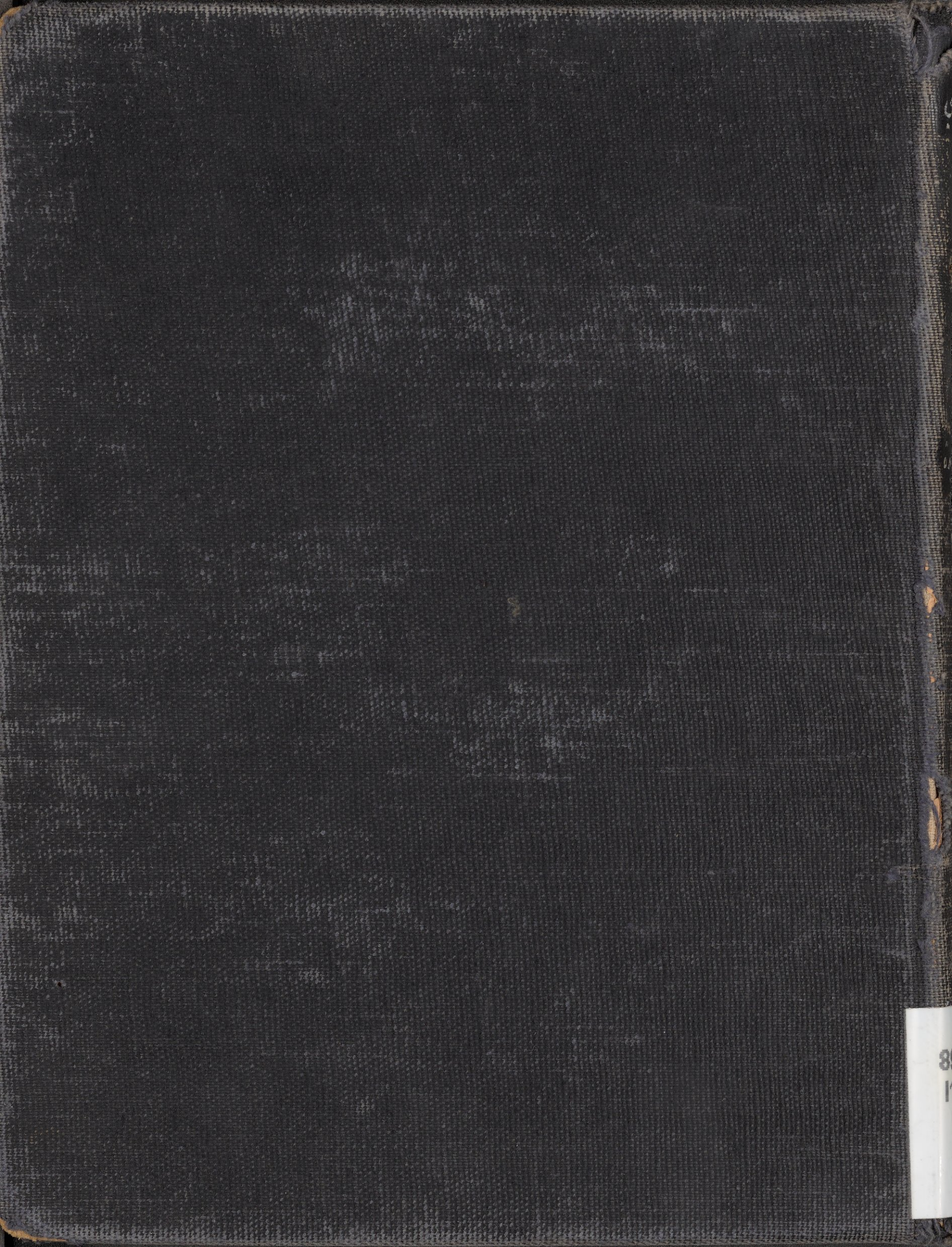




8
1

928.927
I132 dA
pt. 4 v. 1

Jafet Library

07 MAR 1995

DATE DUE

892.709

I 132 A

ph. 4

v. 1

c. 1

جامعة فؤاد الأول

كلية الآداب

مطبوع رقم ٢٦

الذخيرة في سائر الملوك البركة

تأليف

أبي الحسن علي بن بسام الشنبري

المتوفى سنة ٥٤٢ هـ

القسم الرابع — المجلد الأول

69107

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م

Cat. April 1950

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أخرجنا في ذي الحجة ١٣٦١ (ديسمبر ١٩٤٢) المجلد الثاني من القسم الأول من كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، ووعدنا القارئ أن نكافي طول انتظاره هذا المجلد الثاني بالمسارعة إلى إخراج المجلد الثالث. ولكن العوائق التي عوّقت نشر المجلد السابق عوّقت نشر هذا المجلد على كره منا، وضيق بإخلاف الوعد، واستحياء من الأدباء الذين انتظروا نشر هذا الكتاب واستعجلوه وسألونا صرات عنه.

وسيعجب القارئ حين يسارع إلى المجلد الذي طال تنظره فلا يجد المجلد الأول من القسم الثاني على الترتيب المألوف والنسق المعروف، ولكن يجد المجلد الأول من القسم الرابع. والذي أخرجنا عن النسق أنا ننتظر من القسمين الثاني والثالث نُسخاً في دور الكتب الأوربية نرجو أن نظفر بها بعد أن تضع الحرب أوزارها، وتعود الصلات بين الأمم سيرتها. فما استحسننا أن نُقدم على نشر هذين القسمين دون أن نستعين بتلك النسخ ونقرنها إلى النسخ التي بين أيدينا. وأما القسم الرابع من الكتاب فلا نعرف منه على وجه الأرض إلا النسخة التي بأيدينا^(*). فرأينا أن نفرغ منها إلى أن يتيسر استقصاء نسخ القسمين الآخرين.

(*) وهي نسخة الرباط التي أسلفنا وصفها في مقدمة الكتاب.

وقد اضطررنا اليأس من الظفر بنسخة أخرى إلى أن نعتمد على النسخة الوحيدة التي عندنا ، على صعوبة خطها ، وكثرة تحريفها . ولم يكن لنا معدى عن أن نخرج من هذه النسخة كتابا صحيحا جهد الطاقة . وزاد الأمر مشقة أن مشاركة الكتب الأخرى في نصوص هذا القسم من كتاب الذخيرة قليلة ، فما أمدتنا الكتب الأخرى حين فزعنا إليها لتصحيح نص أو إكماله إلا في الندرة .

وقد صححنا الكتاب ، وقومنا عوجه إلا في جمل لم نجزم بالصواب فيها فدللنا عليها في الحاشية ، وانتظرنا بها معونة القراء . ونعرض هنا أمثلة من التحريف الذي أدركناه وعرفنا الصواب فيه ليكون القارئ على علم بما لقينا في تصحيح النسخة . ورد في ص ٨٦ بيت أبي الفضل في النسخة على هذه الصورة :

إذا البدر جلا وجهه البر نوره فحده طلى فوق وجنته خال
فصححناه :

إذا البدر جلى وجنة البر نوره فجون الطلى من فوق وجنته خال
وكتب في ص ١٠٧ في الحديث عن ضعف الشعراء وتكلفهم « يهينمون بما لا ورق له من أسمائهم » وصوابها « يهينمون بما لا وذق له من سمائهم » .

وكذلك في ٢١٦ كتب بيت الحصري هكذا :

سرّيت وخليت السرى لصاحبتى فهذا الهوى يصبى وهذا الهوى يبضى
والصواب فيما رأينا ، أن يكتب البيت :

سرّيت وخليت الهوى لك صاحبي فهذا الهوى يُصبى وهذا السرى يُبضى
هذا إلى إهمال الناسخ في رسم الكلمات وفي مسائل النقط إهمالا
لا تكاد تخلو منه صفحة من الكتاب . فكلمة (جاد) يكتبها (داد)
(أمس) يكتبها (أنس) و(بزنى ثرونى) يثبتها (ترنى ترونى) و(خُداريًا)
يجعلها (حواريا) إلى غير ذلك من أنواع التصحيف والتحريف اللذين
نبهنا إلى قليل منها في حاشية الكتاب وأضربنا عن ذكر الكثير .

وهذا هو المجلد الأول من القسم الرابع . وهو القسم الذى جعله
المؤلف لمن طرأ على الجزيرة الأندلسية : « من هاجر إليها من تلك الآفاق ،
وطرأ عليها من شعراء الشام والعراق ، ممن تبجسح في ذراها ، وتسربل
نماها ، ونجم في أفلاكها ، وخيم في ظلال أملاكها » . وأثبت في آخره
« طرفا من كلام أهل المشرق وإن كانوا لم يطرأوا على هذا الأفق ؛ حدو
أبى منصور الثعالبي . فإنه ذكر في يتيمة نقرأ من أهل الأندلس » .

وقد صححه وقام على طبعه مع إشرافى الأساتذة عبد العزيز محمد
الأهوانى وعبد القادر القط ، ومحمد عبده عزام .

ونحن ندعو أدباء العربية أن يمدونا بما عندهم من نسخ الكتاب

أو نصوص في كتب أخرى تعين على تصحيحه لنخرج الكتاب على الوجه الأكمل . ونشكر للعلامة السيد عبد الحى الكتّانى بما تفضل فأهدى إلينا نسخة قيمة من القسم الثانى من هذا الكتاب .

وإننا لندرجو أن ييسر لنا نشر المجلدات الأخرى قريباً ، على الوجه الذى نبتغيه لهذا الكتاب القيم . والله المستعان

عبد الوهاب عزام
عميد كلية الآداب

القاهرة فى { ١٩ رمضان سنة ١٣٦٤ هـ
٢٧ أغسطس سنة ١٩٤٥ م }

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

- ذِكْرُ الْكِتَابِ الْوُزَرَاءِ ، وَالْأَعْيَانِ الْأَدْبَاءِ الشُّعْرَاءِ ، الْوَافِدِينَ
• عَلَى جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ ، وَالطَّارِئِينَ عَلَيْهَا ، مِنْ أَوَّلِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ
مِنَ الْهَجْرَةِ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا الَّذِي هُوَ سَنَةُ اثْنَيْنِ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَاجْتِلَابُ
مَا بَلَغَنِي مِنْ نَوَادِرِ أَخْبَارِهِمْ ، وَشَوَارِدِ أَشْعَارِهِمْ ، مَعَ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا ،
وَيُذَكَّرُ بِسَبَبِهَا .

- ١٠ قَالَ عَلِيُّ بْنُ بَسَّامٍ : قَدْ اسْتَوْفَيْتُ فِي ثَلَاثَةِ الْأَقْسَامِ ، مُجَلَّةً مِمَّا انْتَهَى إِلَى
مِنْ مُحَاسِنِ النَّثْرِ وَالنِّظَامِ ، لِمَنْ نَشَأَ بِالْجَزِيرَةِ مِنَ الْأَعْيَانِ الْأَعْلَامِ ، مِنْ أَوَّلِ
تَارِيخِ هَذَا الْمَجْمُوعِ إِلَى وَقْتِنَا . وَلِنُعْقِبَ ذَلِكَ بِحَوْلِ اللَّهِ وَتَأْيِيدِهِ بِذِكْرِ مَنْ
هَاجَرَ إِلَيْهَا مِنْ تِلْكَ الْآفَاقِ ، وَطَرَأَ عَلَيْهَا مِنْ شُعْرَاءِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ ، مِمَّنْ
تَبَحَّحَ ذَرَاهَا ، وَتَسَرَّ بِلِ نَعْمَاهَا ، وَنَجَّمَ فِي أَفْلَاقِهَا ، وَخَيَّمَ فِي ظِلَالِ أَمْلَاقِهَا .
١٥ وَلَمْ آتِ بِهَذِهِ الْفِرْقَةِ مِنْ أَرْبَابِ هَذَا الْفَنِّ الَّذِي أَنَا فِي إِقَامَةِ أَوْدِهِ ، مُتَعَزِّزًا
مِنْ ذِلَّةٍ ، وَلَا مُسْتَكْبِرًا مِنْ قِلَّةٍ ، وَلَا لَأَنِّي لَمْ أَجِدْ مِنْ أَعْيَانِ وَزَرَائِنَا وَكِتَابِنَا
مَنْ هُوَ أَبْعَدُ غَايَةً ، وَلَا أَبْهَرُ آيَةً ، وَلَكِنَّهُمْ أَسْنَدُوا إِلَى أَعْلَامِهَا ، وَتَرَدَّدُوا
بَيْنَ حَمِيمِهَا وَجَمَامِهَا ، فَصَارُوا مِنْ أَهْلِهَا بِالْوَفَادَةِ عَلَيْهَا ، وَخَلَعَ أَوْطَانِهِمْ إِلَيْهَا ؛
مَعَ أَنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ لَمْ يَسْمُ إِلَّا بِالْأَنْدَلُسِ ذِكْرُهُمْ ، وَلَا طَارَ إِلَّا بِمَدْحِ مُلُوكِنَا
شِعْرُهُمْ ؛ وَكَمْ فِي شُعْرَانِنَا مِمَّنْ عَاصَرَنِي وَلَمْ أَسْمَعْ بِذِكْرِهِ ، وَلَا وَقَعَ إِلَيَّ شَيْءٌ ؛

تجميع
٨

من شِغْرِهِ ، ولعلَّه كان أخلقَ بآن يُذْكَرُ ، وأحقُّ بأن تُتلى آيَاتُهُ وتُسَطَّرَ ،
لسكنَ يبلُغُ المرءَ جهده ، والإحاطةُ لله وحده .

وقد أثبتُ أيضاً آخرَ هذا القسم طرَفًا من كلامِ أهلِ المشرقِ ، وإن
كانوا لم يَطْرَأُوا على هذا الأفقِ ، حَدَّثُوا أبى منصورَ الثَّعَالِي ؛ فإنه ذَكَرَ في يَقيمَتِهِ
نَفَرًا من أَهْلِ الأندلسِ فَعَارَضْتُهُ أو نَاقَضْتُهُ ، والأدبُ مَيِّدانٌ يَلِيقُ به المِتَاحُ ،
ويستَحْسِنُ فِيهِ الجِراحُ .

٢ فَصْلٌ فِي ذِكْرِ الأَدِيبِ اللُّغَوِيِّ أَبِي العَلَاءِ صَاعِدِ بْنِ الحُسَيْنِ
البَغْدَادِيِّ ، وإثباتِ جُمْلَةٍ من نَظْمِهِ وَتَثْرِهِ ، معَ ما يَتَعَلَّقُ مِنَ الأَخْبَارِ
السُّلْطَانِيَّةِ بِذِكْرِهِ .

١٠ هُوَ صَاعِدُ بْنُ الحُسَيْنِ بْنِ عِيسَى ، البَغْدَادِيُّ ثُرْبَةً ، والطَّبْرِيُّ أَصْلًا ،
وَالرَّبْعِيُّ نَسَبًا ؛ يَنْتَمِي فِي رِبِيعَةِ الفَرَسِ ، وَكَانَ طَلَعَ عَلَى آفَاقِ الجَزِيرَةِ
فِي أَيَّامِ المَنْصُورِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ نَجْمًا مِنَ المَشْرِقِ غَرْبًا ، وَلِسَانًا عَنِ العَرَبِ
أُغْرَبًا . أَبَدَهُ مَنْ رَأَى وَسَمِعَ ، وَأَذَكَّى مَنْ طَارَ وَوَقَعَ . فَأَرَادَ المَنْصُورُ أَنْ
يُعَقِّ بِهَ آثَارَ أَبِي عَلِيٍّ البَغْدَادِيِّ الوَافِدِ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ قَبْلَهُ ، وَهَزَّهَ لَذَلِكَ فَالَنَى
سَيْفَهُ كَهَامًا ، وَسَجَّابَهُ جَهَامًا ؛ مِنْ رَجُلٍ يَتَكَلَّمُ بِمِلٍّ فِيهِ ، وَلَا يُوثِقُ عَلَى
مَا يَذَرُهُ وَمَا يَأْتِيهِ .

١٥ وَقَدْ أَجْرَى ^(١) ابْنُ حَيَّانٍ ذِكْرَهُ فَقَالَ : وَلَمَّا دَخَلَ قَرْطَبَةَ دَفَعُوهُ بِالْجُمْلَةِ

(١) فِي الأَصْلِ : « أَخْبَرَنِي » وَهُوَ خَطَأٌ .

عَنِ الْعِلْمِ بِاللُّغَةِ ، وَأَبْعَدُوهُ عَنِ الثِّقَةِ فِي عِلْمِهِ وَعَقْلِهِ وَدِينِهِ ، وَلِذَلِكَ مَا رَضِيَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا أَيَّامَ دُخُولِهِ إِلَيْهَا ، وَلَا رَأَوْهُ أَهْلًا لِلْأَخْذِ عَنْهُ وَلَا لِلِاقْتِدَاءِ بِهِ ، وَغَرَّقُوا كِتَابَهُ الْمُرْجَمَ بِالْفُصُوصِ ، فَهَا هُوَ إِلَى الْيَوْمِ فِي نَهْرِهِمْ يَغُوصُ .
وَقَدْ أَتَيْتُ أَنَا بِلَمَعٍ مِنْ أَعَاجِيبِهِ ، وَأُورِدْتُ غُرَائِبَ مِنْ أَكَاذِيبِهِ ، وَتَحَلَّلْتُ أَثْنَاءَ ذَلِكَ بُحْلَةً مِنْ نَظْمِهِ وَنَثْرَهُ ، مِمَّا يَشْهَدُ عَلَى ثُبُوتِ قَدَمِهِ وَشُهْرَةِ تَقَدُّمِهِ .

٢ فُصُولٌ مِنْ نَثْرِهِ فِي أَوْصَافٍ شَتَّى

اتَّصَلَ أَوَّلَ دُخُولِهِ الْأَنْدَلُسَ بِالْوَزِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْلَمَةَ . فَلَمَّا نَسِيبَ اسْتَعْطَفَ لَهُ الْوَزِيرَ أَبَا جَعْفَرٍ بْنُ الدُّبِّ لِيَشْفَعَ لَهُ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ سُلَيْمَانَ ، وَخَاطَبَهُ فِي ذَلِكَ بَعْدَةَ رَسَائِلَ ، فَكَانَتْ رُقَى لَمْ تَنْفَعْ ، وَوَسَائِلَ لَمْ تَنْجِعْ .

مِنْهَا فَصْلٌ يَقُولُ فِيهِ : لَمَّا جَمَعَ اللَّهُ طَوَائِفَ الْفَضْلِ عَلَيْكَ ، وَأَذْلَقَ بِكَ الْأَلْسُنَ ، وَأَرْهَفَ فِيمَكَ الْخَوَاطِرَ ، وَرَفَّرَفَ عَلَيْكَ طَيْرُ الْأَمَالِ ، وَنَفِضَتْ إِلَيْكَ عِلَاقُ الرِّحَالِ ، لَمْ أَجِدْ لَابِنَ مَسْلَمَةَ حِينَ عَضَهُ الثَّقَافُ ، وَضَاقَ بِهِ الْخِنَاقُ ، وَانْقَطَعَ بِهِ الرَّجَاءُ ، وَكَبَا بِهِ الدَّهْرُ ، مَلْجَأً غَيْرَكَ . فَمَطْفَكَ عَلَى وَالِهِ نَبْهَهُ النَّحْسُ مِنْ سِنَةِ السَّعْدِ ، وَأَيَقَظَتْهُ الْآفَاتُ مِنْ رُقْدَةِ الْغَفْلَةِ ، وَرَشَّقَتْهُ سِهَامُ الزَّمَانِ بِصُنُوفِ الْأَمْتِهَانِ ، حَتَّى لَقِبَ الْمَنِيَّةَ أُمْنِيَّةً ، وَسَمِيَ الْمَوْتَ فَوْتًا . وَمَنْ لَمْ يَكْتُبْ لَهُ الدَّهْرُ سِجِلًا ، وَلَا عَقَدَ لَهُ أَمَانًا ، وَلَا أَشْهَدَ عَلَى نَفْسِهِ نِقَةً ، فَلْيَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ ، وَمِنْ ثُبُوتِهِ عَلَى يَقِينِ الْخَبَرِ . وَلْيَعْلَمْ أَنَّ أَصْطِنَاعَ الْمَعْرُوفِ يَكْفِي الْمَرْءَ فِي سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ ، وَيُلْقَاهُ فِي طَرِيقِهِ ، وَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَارَبِهِ ، وَيُجَارِيهِ فِي أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ ، وَيَصْحَبُهُ فِي أَغْرَابِهِ عَنْ بَلَدِهِ .

وَفِي فَصْلِ مِنْهَا : غِيَانُكَ عَلَيْهِ وَعَلَى فِيهِ ، وَادْكُرْ تَعْلُقَ الْأَمَالِ بِهِ وَتَعْلُقَ

أَمَلِهِ بِكَ ، وَحَاجَةُ الرُّؤْسَاءِ إِلَيْهِ وَحَاجَتُهُ إِلَيْكَ . وَحَشَدْتُ لَكَ الْقَوْلَ ، وَاللَّهُ
تَعَالَى خَلَقَ الدُّنْيَا بِحَرْفَيْنِ ، وَإِنَّ السَّكَمَةَ لَتَرَقَأُ الدَّمَ ، وَالرُّقِيَّةَ لَتُخْرِجُ الْحَيَّةَ
مِنْ مَكَمَلِهَا ، فَإِنْ خَبْتُ مِنْ طِلَابِكَ نَثَرْتُ نِظَامًا — قَالَ :

يَا أَحْمَدَ بْنَ سَعِيدِ الْعَلَمِ الَّذِي أَوْفَى^(١) فَلِلْحَدَثَانِ عَنْهُ زَلِيلُ
أَخَذَ الْعِقَابُ مِنْ ابْنِ مَسْمَةِ الَّذِي حَكَمَ الْقَضَاءُ بِهِ وَغَالَتْ غَوْلُ
لَمْ تَبْقَ غَيْرُ حُشَاشَةٍ إِنْ أُدْرِكَتْ خَلَصَتْ وَإِنْ أَسْلَمَتْ فَهَوَ قَتِيلُ
بِيَدَيْكَ بَعْدَ اللَّهِ فَكُ إِسَارِهِ وَعَلَيْكَ فِي اسْتِنْقَاذِهِ التَّعْوِيلُ
فَارْحَمَ أَنْيْنَ أَبِي بَنَاتٍ لَمْ يُصَبْ لِدُمُوعِهِ عَلَى الْخُدُودِ مَسِيلُ
أَسْفَ الْفَرَاحِ عَلَى كَفِيلٍ كَاسِبٍ أَوْدَى فَلَيْسَ لَهُنَّ بَعْدُ كَفِيلُ
فَاجْعَلُهُ فِي يَمْنَى يَدَيْكَ فَإِنَّهَا سُورٌ تَحُوطُ الْمُسْتَجِيرَ وَغِيلُ
مَا ذَنْبُهُ إِلَّا الزَّمَانُ فَإِنَّهُ رِخْوُ الْيَدَيْنِ بِمَنْ يُحِبُّ مَلُولُ
كَلِمَاتُ الْوَرَهَاءِ تَنْقُضُ غَزْلَهَا وَالشَّاقِ تَمَلُّا قَعْبَهَا وَتَمِيلُ

٤ وَلَهُ مِنْ أُخْرَى إِلَى مُجَاهِدٍ يَصِفُ ظَهْرَهُ عَلَى خَيْرَانَ وَأُسْرَهُ لِمَجَاعَةٍ
مِنَ الصَّقَلَبِ :

١٥ كِتَابِي وَأَنَا مُسْتَطَارٌ فَرَحًا ، وَمُسْتَوْفٍ^(٢) مَرَحًا ، بِالْغَادِي وَالرَّائِحِ عَلَى
مِنَ الْبَشَائِرِ الَّتِي تُسَمِّعُ الشَّمَّ ، وَتُنْطِقُ الْبُكْمَ ، بَعْدُو نَجَا بَعْدَ مَا ظَنَّ أَنَّ
لَيْسَ نَاجِيًا ، وَخُنْزَوَانِي أَقْبَلَ فِي صِفَادِهِ عَانِيًا ، صُنْعًا مِنْ اللَّهِ أَسْأَلُهُ ضَارِعًا أَنْ
يَجْعَلَهُ عِنْدَكَ رَاسِيًا ، وَعَلَيْكَ مُحْيَا . فَإِنَّ الَّذِي آوَى إِلَيْهِ مِنْ تَطَوُّلِكَ يُبْدِي وَلُوعًا
وَيُغْرِى بِالنِّزَاعِ إِلَيْكَ ، وَالتَّزْوَعِ نَحْوَكَ . [وَمِ] مَا أُنْشَدَنِيهِ بِالْيَمَنِ أَبُو الْغَزْوَرِ

(٢) فِي الْأَصْلِ : « مُسْتَوْفٍ » .

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَوْفَى » .

الأعرابي لنفسه وقد حجَّ ابنه فقال يذكرُ شوقه إليه :

أَلَا لَيْتَ لِي عَيْنَانِ^(١) تَطْلَعَانِ عَلَى النَّأْيِ أَحْيَانًا وَتَنْصَرِفَانِ

فَإِنْ كَانَ خَيْرًا سَرَّتَنِي وَعَرَفْتُهُ وَإِنْ كَانَ شَرًّا ظَلَمْتَا تَكْفِيَانِ

ولما أتتني إحدى خرائطك الجزيرة ، وتبادرت التباشيرُ باحتلالِ المركبِ ،

كادَ الفرحُ يقضي عليَّ ، وينزعُ التماسكُ من يدي . ولولا أنني ثبتُ النخيرة ،

ومحصدُ المريرة ، لكنتُ كأمِّ أبي مُزبدٍ إذ بعثَ إليه^(٢) يحيى بنُ خالدٍ غلامًا ،

فقال لها : يا أمه ! وهب لي يحيى « غ » قالت : وما « غ » ؟ قال « لا » قالت :

وما « لا » ؟ قال : « م »^(٣) وطبقَ الميمَ على شفتيه ، فضرطت ، فقال : الحمدُ

لله ، لولا تقطيعُ الحروفِ لخريت . فضررتني إذا عندَ ورودِ المالِ ما كتبتُ به :

أَتَتِكَ الْخَرِيطَةُ وَالْمَرْكَبُ كَمَا اقْتَرَنَ السَّعْدُ وَالْكُوكَبُ ١٠

فَقَالُوا مَنْ الْوَاهِبُ الْمُسْتَقِلُّ عَقَائِلَ يَغِيَا بِهَا الْحُسْبُ

فَقُلْتُ^(٤) فَتَى أَصْفَرِي النَّجَارِ يَرْوَعُ بِهِ الْمَشْرِقَ الْمَغْرِبُ

يُحَكِّكُ أَسِيَّافَهُ بِالرَّذَى كَمَا حُكَّ بِالْهَانِي الْأَجْرَبُ

فَلَوْلَا شَجَاعَتُهُ مَا نَجَا وَلَكِنَّهُ حَوْلَ قَلْبُ

بَصِيرٌ بِتَوْسِيعِ سُبُلِ الْفِرَارِ إِذَا ضَاقَ بِالْمُرْهَقِ الْمُهْرَبُ ١٥

ومنها :

هَنَّاكَ أَبَا الْجَيْشِ مَنْ جَيْشُهُ أَسَارَى كُلَّهُمْ الرَّجَزُ

يَرِقُ^(٥) عَلَيْهَا السَّنَانُ الْحَقُودُ وَيَرْحُمُهَا الصَّارِمُ الْمُنْغَضُ

(١) كذا في الأصل وهي لفة .

(٢) في الأصل : « إليها » .

(٣) لا توجد بالأصل والسياق يقتضيها .

(٤) في الأصل : فقالت .

(٥) في الأصل : « يروق » .

وَهُمْ يَخْضِبُونَ صُدُورَ الْقَنَا وَأَنْمُلُهُمْ بَضَّةً تُخْضِبُ
وَلَمْ أَرِ مِنْ قَبْلِهِمْ فَارِسًا يَلِيقُ بِهِ الْحَلِيُّ وَالْمُذْهَبُ
فَإِنْ شِئْتَ أَنْ يَرْكَبُوا يَرْكَبُوا وَإِنْ شِئْتَ أَنْ يَرْكَبُوا يَرْكَبُوا
يَنْظُرُ هَذَا بِنَظَرٍ مُرِيبٍ ، إِلَى قَوْلِ حَبِيبٍ (١) :

قد جاءنا الرِّشَاءُ الذي أَهْدَيْتَهُ خِرْقًا وَلَوْ شِئْنَا لَقُلْنَا الْمَرْكَبُ
ومن أناشيد الثَّعَالِجِي فِي مَعْنَاهُ :

ونسائه لِمَطْمَـئِنِّ مَقِيمٍ وَرِجَالُ إِنْ كَانَتْ الْأَسْفَارُ
وقوله « يَرِقُّ » (٢) عليها السَّنَانُ « البيت ... كقول بعض أهل العصر .

لَعَلَّكَ يَوْمًا ذَا كَرَى فِي مُلَمَّةٍ يَلِينُ بِهَا قَلْبُ الْأَسِيرِ عَلَى الْقِدِّ
وَأَرَاهُ قَلْبَ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

وَعَظِيزٌ عَلَى الْأَيَّامِ كَالنَّارِ فِي الْحَشَى وَلَكِنَّهُ غَيْظُ الْأَسِيرِ عَلَى الْقِدِّ
وَأَرَى أَبَا الطَّيِّبِ أَلَمَ بِبَعْضِ الْإِلَامِ ، بِقَوْلِ أَبِي تَمَامٍ :

يَلْحَظُهُ فِي جِـدِّهِ هَزْلُهُ وَلَحْظُ (٣) الْأَسِيرِ حَلَقَاتِ كَبَلِهِ

٦ جُمْلَةُ أَخْبَارِ نَوَادِرَ ، جَرَتْ لَهُ مَعَ الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ :

اجتمع (٤) عِنْدَ الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ أَعْيَانُ الْأَوَانِ كَالزَّبِيدِ وَالْعَاصِمِ
وَابْنِ الْعَرِيفِ وَمَنْ سِوَاهُمْ ؛ فَقَالَ لَهُمُ الْمَنْصُورُ : هَذَا الرَّجُلُ الْوَاقِدُ عَلَيْنَا صَاحِدُ

(١) راجع ديوانه ص ٤١ .

(٢) في الأصل : « يروق » .

(٣) في الأصل : « لحظة » .

(٤) راجع الخبر في موج ٢ ص ٥٣ .

(١) راجع ديوانه ص ٤١ .

(٢) راجع ديوانه ص ٤١ .

(٣) راجع ديوانه ص ٤١ .

(٤) راجع ديوانه ص ٤١ .

يزعمُ أنه متقدّم في هذه الآداب التي أنتم سُرُجها الضاحية ، وأهلَّتْها السَّارية .
 وأحبُّ أن يُمتَحَنَ ما عنده . فوجّه إليه ، ودخلَ والمجلسُ قد احتفلَ فحجِلَ ،
 فرفعَ المنصورُ مجلسَه وآنسه ، وسألهُ عن أبي سعيدٍ السَّيرافي ، فزعمَ أنه لقيَه
 وقرأَ عليه كتابَ سيبويه . فبادرَه العاصميُّ بالسَّؤالِ عنُ مسئلةٍ من الكتاب ،
 فلم يحضُرْه فيها من جواب ، واعتذرَ أن النَّحوَ ليسَ جُلَّ بضاعتِه ، ولا رأسَ
 صناعَتِه . فقالَ له الزُّبيديُّ : فما تُحسِنُ أيُّها الشيخ ؟ قال : حِفْظَ الغريب .
 قال : فما وزن أولق ؟ فضحك صاعداً وقال : أمثلي يُسألُ عن هذا ؟ إنما
 يُسألُ عنه صبيانُ المكتب . قال الزُّبيديُّ : فقد سألناكَ ، ولا نشكُّ أنك
 تجهلُه . فتغيَّرَ لونه وقال : « أفعل » . قال الزُّبيديُّ : صاحبُكم مُمخِرِق ! قال
 له صاعد : إخالُ الشيخَ صِناعَتُه الأبنية ؟ قالَ له : أجل . قال صاعد : وبضاعتِي
 أنا حِفْظُ الأشعار ، وروايةُ الأخبار ، وفكُّ المُعَمَّى ، وعلمُ الموسيقى . قال
 فناظرَه ابنُ العَرِيفِ فظَهَرَ عليه صاعداً ، وجعلَ لا يجرى في المجلسِ كلمةٌ إلا
 أنشدَ عليها شعراً شاهداً ، أو أتى بحكايةٍ تُجانبُها ، فازدادَ المنصورُ عجباً .
 ثم أراه كتابَ النوادرِ لأبي عليٍّ فقال : إن أرادَ المنصورُ أُمليتُ عليَّ (١)
 مُقيديَّ خِدْمَتِه وكُتِّبَ دَوْلَتُه كتاباً أرفعُ منه قَدراً ، وأجلُّ خطراً ، أُدخِلُ
 فيه خيراً ممَّا أَدخلَه أبو عليٍّ . فأذنَ له المنصورُ في ذلك ، وجلسَ بجامعِ مَدِينَةِ
 الزَّاهِرَةِ يُنْصَلِّيُ كتابَه المترجَمَ بالفُصوص . فلَمَّا أَكَلَهُ وتَبَّعَهُ أدباهُ الوقتَ ،
 لم تمرَّ فيه كلمةٌ زعموا صِحَّتْها عندهم ، (٢) ولا خبرٌ ثَبَتَ لَدَيْهِمْ ، فقالوا للمنصور :
 رجلٌ [مقتدر] على تأليفِ الكذب [من عيون الأدب ، يُسندُها

(١) في الأصل : « مقيداً في ... » وعلى الهامش بنفس الخط « علي » قبل « مقيداً »
 وفي مختصر الذخيرة لابن ممتي : « أُمليتُ عليَّ مقيدى خدمته » .

(٢ — ٢) بهامش النسخة بنفس الخط . والكلمة الأولى بين القوسين رسمها أشبه بما
 أثبتناه . والثانية بياض بالأصل .

إلى شيوخ لم يرهم ولا أخذ عنهم^(٢)، حتى إنهم كلّفوا المنصور أن يأمر بتفسير^(١) كاغدي أبيض وتغيير بهجته ليدلّ على القِدم، ففعل: وترجم على ظهر ذلك السّفر بكتاب «النكت»^(٣) تأليف أبي الغوث الصّنعاني. فترامى إليه صاعداً حين رآه، وجعل يُقلّبُه، وقال: إني والله قرأتُه بالبلدِ الفلانيّ على الشيخ أبي فلان، وهذا خطه. فأخذه المنصور من يده خوفاً أن يفتحه، وقال له: إن كنت رأيته كما تزعم فعلامَ يحتوي؟ قال: ورأسك لقد بعدَ عهدي به ولا أنصُ منه شيئاً، ولكنّه يحتوي على لغةٍ منشورةٍ لا يشوبها شعرٌ ولا خبر. فقال له المنصور: أبعد الله مثلك! فما رأيتُ الذي هوأ كذبُ منك. وأمر بإخراجه وأن يُقذف بكتابِ الفصوص في النّهر، وفي ذلك يقول بعض شعراء العصر:

قد غاصَ في البحرِ كتابُ الفُصوصِ وهكذا^(٣) كلُّ ثَقِيلٍ يَغُوصُ
فجاوبه صاعداً بقوله:

عادَ إلى مَغْدِنِهِ إِنَّمَا تَوَجَدُ فِي قَعْرِ الْبَحَارِ الْفُصُوصُ
قال ابنُ بسّام: وما أحسبُ أن أحداً يجترئُ على إخراجِ تصنيف، وإبداء تأليف، يَضِيقُ عنه التّعديل، ويدفع في صدره النّقدُ والتّحصيل، لا سيّما وصاعداً عِلمَ أن قرطبةً — حسبَ ما ذكرنا — ميدانُ جِياد، وبلدُ جدالٍ وجِلاد؛ ولكنّه اشترطَ غيرَ المشهور، فلم يظفروا منه بكبير، وأعانهم هو على نفسه بما كان يتنفقُ به من تنخله وكذبه. ولم يكن عند ابن أبي عامر تحرير ولا بصرة بالنقد مشهور؛ وإلاّ فليس يخلو كتابُ الفصوص المذكورُ من غريبةٍ مسموعة، ولا من فائدةٍ رائقةٍ بديعة، ولكنّه خبرٌ وجدناه فنقلناه.

(١) في الأصل «بتفسير». (٢) كذا بالأصل ولعلها «النكت».

(٣) في الأصل: «كذا»، والتصحيح من مختصر الذخيرة لابن ممتي لوحة ٩٤.

وَأَدْخَلَ عَلَى الْمَنْصُورِ يَوْمًا وَرْدَةً فِي غَيْرِ أَيَّامِهَا ، لَمْ تَسْتَتِمَّ فَتَحَ كَمَايَهَا ،
فَقَالَ فِيهَا صَاعِدٌ عَلَى الْارْتِجَالِ :

أَتَتَكَ أَبَا عَامِرٍ وَرْدَةٌ يُذَكِّرُكَ الْمِسْكَ أَنْفَاسَهَا
كَعَذْرَاءٍ أَبْصَرَهَا مُبْصِرٌ فَعَطَّتْ بِأَكْمَامِهَا رَأْسَهَا

فسر بذلك المنصور . وكان ابن العريف حاضراً ، فحسده ، وجري إلى
مُناقضته ، وقال لابن أبي عامر : إِنَّ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ لَغَيْرِهِ ، وَقَدْ أَنْشَدْنِيهِمَا
بَعْضُ الْبَغْدَادِيِّينَ بِمِصْرَ لِنَفْسِهِ ، وَهُمَا عِنْدِي عَلَى ظَهْرِ كِتَابٍ بِخَطِّهِ . فَقَالَ لَهُ
الْمَنْصُورُ : أَرِنِيهِ . فَخَرَجَ ابْنُ الْعَرِيفِ وَرَكِبَ وَجَعَلَ يَحْتُ ، حَتَّى أَتَى مَجْلِسَ
ابْنِ بَذْرٍ ، وَكَانَ أَحْسَنَ أَهْلِ وَقْتِهِ بَدِيعَةً ، فَوَصَفَ لَهُ مَا جَرَى فَقَالَ :

عَشَوْتُ إِلَى قَصْرِ عَبَّاسِيَّةٍ وَقَدْ جَدَلْتُ النَّوْمَ حُرَّاسَهَا
فَأَلْفَيْتُهَا وَهِيَ فِي خِذْرِهَا وَقَدْ صَرَّعَ الشُّكْرُ أَنْفَاسَهَا
فَقَالَتْ : أَسَارِ عَلَى هَجْعَةٍ ؟ فَقُلْتُ : بَلَى ، فَرَمَتْ كَاسَهَا
وَمَدَّتْ يَدَيْهَا إِلَى وَرْدَةٍ يُحَاكِي لَكَ الطَّيْبُ أَنْفَاسَهَا
كَعَذْرَاءٍ أَبْصَرَهَا مُبْصِرٌ فَعَطَّتْ بِأَكْمَامِهَا رَأْسَهَا

وقالت : خَفِ اللَّهُ لَا تَقْضُحَنَّ مَ فِي ابْنَةِ عَمِّكَ عَبَّاسِيَّةً
فَوَلَّيْتُ عَنْهَا عَلَى عَفْوِيَّةٍ وَمَا خُنْتُ نَاسِي وَلَا نَاسَهَا

٩ فطار^(١) ابن العريف بها ، وعلَّقَهَا عَلَى ظَهْرِ كِتَابٍ بِخَطِّ مِصْرِيٍّ ، وَوَرَى
وَتَحْيَلَ بِمَدَادِ أَشْقَرٍ . وَدَخَلَ بِهَا عَلَى الْمَنْصُورِ ، فَلَمَّا رَأَاهَا اشْتَدَّ غَيْظًا عَلَى صَاعِدِ
وَقَالَ : غَدًا أُمْتَحِنُهُ ، فَإِنْ فَضَحَهُ الْامْتِحَانُ ، لَمْ يَبْقَ فِي مَوْضِعٍ لِي فِيهِ سُلْطَانُ .
٢٠ فَلَمَّا أَصْبَحَ وَجَّهَهُ عَنْهُ بِمَجْلِسِ حَفْلِ ، وَقَدْ أَعَدَّ طَبَقًا فِيهِ سَقَائِفُ مِنْ ضُرُوبِ

(١) فِي الْأَصْلِ : « فَصَارَ » وَالتَّصْحِيحُ عَنْ مَوْ (ج ٢ ص ٥٥)

النَّوَاوِيرُ [و] وَضَعَ عَلَى السَّقَائِفِ جَوَارِيَّ يَاسْمِينَ ، وَتَحْتَ السَّقَائِفِ بَرَكَةُ مَاءٍ حَصَاها اللَّؤْلُؤُ ، وَكَانَ فِي الْبَرَكَةِ حَيَّةٌ تَسْبِجُ . فَلَمَّا دَخَلَ صَاعِدٌ مُثَلَّ الطَّبَقُ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : إِنَّ هَذَا يَوْمٌ إِمَّا أَنْ تَسْعَدَ فِيهِ مَعْنَا ، وَإِمَّا بِالضَّدِّ عِنْدَنَا ، لِأَنَّهُ قَدْ زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ كُلَّ مَا تَأْتِي بِهِ دَعْوَى ، وَقَدْ وَقَعْتُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى حَقِيقَةٍ . وَهَذَا طَبَقٌ مَا تَوَهَّمْتُ أَنَّهُ مُثَلَّ بَيْنَ يَدَيَّ مَلِكٍ قَبْلِي فِي شَكْلِهِ ، فَصِفْهُ بِجَمِيعِ مَا فِيهِ . فَقَالَ صَاعِدٌ بِدِيهَةٍ :

أَبَا عَامِرٍ هَلْ غَيْرُ جَذْوَاكَ وَكِفُ
يَسُوقُ إِلَيْكَ الدَّهْرُ كُلَّ عَجِيبَةٍ
وَشَائِعُ نُورٍ صَاغَهَا هَامِرُ الْحَيَا
وَلَمَّا تَنَاهَى الْحُسْنُ فِيهَا تَقَابَلَتْ
كَمَثَلِ الظُّبَاءِ الْمُسْتَكِثَةِ كُنُوسًا
وَأَعْجَبُ مِنْهَا أَنَّهُنَّ نَوَاطِرُ
حَصَاها اللَّالِي ، سَابِحٌ فِي عُبابِهَا
تَرَى مَا تَشَاءُ الْعَيْنُ فِي جَنَابَاتِهَا
وَهَلْ غَيْرُ مَنْ عَادَاكَ فِي الْأَرْضِ خَائِفُ؟
وَأَعْجَبُ مَا يَلْقَاهُ عِنْدَكَ وَاصِفُ
عَلَيْهَا فَمِنْهَا عُبُقَرُ وَرَفَارِفُ
عَلَيْهَا بِأَنْوَاعِ الْمَلَاهِي الْوَصَائِفُ
تُظَلِّلُهَا بِالْيَاسْمِينِ السَّقَائِفُ
إِلَى بَرَكَةٍ ضُمَّتْ إِلَيْهَا الظَّرَائِفُ
مِنْ الرُّقْشِ مَسْمُومُ اللَّعَابِينَ رَاجِفُ
مِنَ الْوَحْشِ حَتَّى يَبْنِيَنَّ السَّلَاحِفُ

فَاسْتَعْرِبَتْ لَهُ يَوْمَئِذٍ تِلْكَ الْبَدِيهَةِ ، وَكَتَبَهَا الْمَنْصُورُ بِخَطِّهِ . وَكَانَ إِلَى نَاحِيَةِ سَقِيفَةٍ فِيهَا جَارِيَةٌ تَجْذِفُ بِمَجَازِفٍ ذَهَبٍ لَمْ يَرَهَا صَاعِدٌ ، فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : أَجَدْتَ إِلَّا أَنَّكَ لَمْ تَصِفْ هَذِهِ الْجَارِيَةَ ، فَقَالَ :

وَأَعْجَبُ مِنْهَا غَادَةٌ فِي سَفِينَةٍ
إِذَا رَأَاهَا مَوْجٌ مِنَ الْمَاءِ تَتَّقِي
مَتَى كَانَتْ الْحُسْنَاءُ رُبَّانَ مَرْكَبِ
تُصَرِّفُ فِي يُؤْنِي يَدَيْهَا الْمَجَازِفُ !
مُكَلَّلَةٌ تَصْبُو إِلَيْهَا الْمَهَائِفُ ^(١)
بِسُكَّانِهَا مَا أَنْذَرْتُهُ الْعَوَاصِفُ

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ وَفِي مَوْجٍ (ج ٢ ص ٥٦) « الْمَهَائِفُ » وَصَحَّحَهَا النَّاشِرُ إِلَى الْمَهَائِفِ .

فلم ترَ عَيْنى في البـلادِ حَديقةً تُنْقَلها في الرَّاحَتينِ المَناصِفِ^(١)
ولا غَرَوَ أنْ شاقَّتْ مَعاليكَ روضةً زَهَّتْها أَزاهيرُ الرُّبا والزَّخارفِ
فأنتَ امرؤٌ لو رُمْتَ نَقْلَ مُتَالِعٍ وَرَضوى ذَرَّتْها من سَطاكِ العواصِفِ
إذا قلتَ قولاً أو بدَّهتَ بديهةً فيَكُنَّي لها إني لمجدك واصِفِ
فأمر له المنصورُ بألفِ دينارٍ ومائةٍ ثوبٍ ، ما بين غلائلٍ وطيقانٍ وعمائمٍ ،
وأجرى عليه المراتبَ من ذلكَ اليومِ ثلاثينَ ديناراً ، وألحقَ في ديوانِ الشِّدْماءِ
معَ زيادةِ اللهِ بنِ مُضَرَ الطَّبْنِيِّ وابنِ العَريفِ وابنِ التَّيَّانِيِّ وغيرِهِم . والحَسَدُ
مَوْرُوثٌ ، وقديمٌ لا حَدِيثٌ ، وليسَ في الحيوانِ ، أخْبَثُ في ذاتِهِ من الإنسانِ .
وأذكرُ بِفِعْلةِ ابنِ العَريفِ في صاعِدٍ بعضَ ما مُنِيتُ أنا به في خَبرِ هذا
التَّصنيفِ معَ غيرِ واحدٍ من أَهلِ وَقْتي ، إذ سَرَدْتُ في بعضِ قَصَصِهِ كَلامَ ابنِ
حَيَّانِهِم ، وكانَ عَلى ما تَقَدَّمَ وَصَفُهُ مُتَكَلِّمٌ أوانِهِم ، فلَمَّا أَعُوْزَنِي لَفْظُهُ في بعضِ
ما سَأَلْتُ ، ولم أَجِدْهُ في كُلِّ حَدِيثٍ نَسَقْتُ ، رَجَعْتُ إلى نَحِيْزَتِي ، واستمطَرْتُ
غَرِيْزَتِي ، وماؤُها جامِدٌ ، ورَمادُها هامِدٌ كما قالَ سابِقُ :

أَخْلَقْتُ جِدَّتِي وَبَانَ شَبَابِي واستَراحتُ عِواذِي من عِتابِي
وأنا يومئذُ بِأَشْبِيلِيَّةٍ ، أَتَصَرَّفُ مُضْطَرًّا في بعضِ الأَعْمالِ السَّلاطَنِيَّةِ .
والكَلامُ إذا لم يَحْكُكْهُ قَلْبٌ فارِغٌ ، ولم يَسْبِكْهُ لُبٌّ من ظَلَماءِ الشَّغْلِ بازِغٌ^(٢) ،
لم يَرُقْ تَطَرُّيزُهُ ، ولم يَنْفَقْ إِبْرِيْزُهُ . وعلى ذلكَ لَمَّا اندرَجَتْ لِي فيه كَلِماتُ
رائِقاتٍ ، في أوصافٍ مُخْتَلِفَاتٍ ، وَبَلَّغْتُ فيه أَمَدَ المُرَادِ ، بِالْفَاطِطِ أَغْيَانٍ وَمَعَانٍ
أَفْرادٍ ، انشالَ عَلى فيها السَّكَّامِ ، انشِمالَ الغَمامِ ؛ قالوا : نَمَ ما صَنَّفَ ابنُ بَسَّامٍ
وَأَتَقَنَ ، لو لم يَسْتَعِنَ ؛ وما أَحْسَنَ ما قَصَصَ ، لو لَمْ يَتَلَصَّصْ . وللهِ دَرُّهُمُ ا

(١) في موه : الوصائف .

(٢) في الأصل : «فارغ» .

فالدَّأْمَاءُ لَا يَزِيدُ مِنَ الْقَرِيِّ ، وَذُكَاةٌ لَا تُضِيءُ مِنَ الدَّرِيِّ ، بَلْ دَرٌّ دَرٌّ
أَبَى الطَّيِّبِ مِنْ شَاعِرٍ نَطَقَ بِالْبِدْيِ ، وَجَرَى عَلَى عِثْقِ جَدِّهِ السِّكِنْدِيِّ فَسَبَقَ ،
وَاسْتَوَلَى عَلَى الْأَمَدِ بِقَوْلِهِ إِذْ صَدَقَ :

أَتَيْتُ بِمَنْطِقِ الْعَرَبِ الْأَصْمِيلِ وَكَانَ بِقَدْرِ مَا أَحْسَسْتُ قَيْلِي^(١)
فَعَارَضَهُ كَلَامٌ كَانَ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ النَّسَاءِ مِنَ الْبُعُولِ
وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَوْهَامِ^(٢) شَيْءٌ إِذَا احتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلِ

رَجَعَ . وَخَرَجَ الْمَنْصُورُ مَعَ صَاعِدٍ يَوْمًا إِلَى رِيَاضِ الزَّاهِرَةِ ، فَمَدَّ يَدَهُ إِلَى شَيْءٍ
مِنَ التُّرْنَجَانِ فَعَبِثَ بِهِ^(٣) وَرَمَاهُ إِلَيْهِ مُعَرِّضًا أَنْ يَصِفَهُ فَقَالَ :

لَمْ أَدْرِ قَبْلَ تُرْنَجَانِ عِبِثْتَ بِهِ أَنَّ الزُّمَرَدَ قُضْبَانٌ وَأَوْرَاقُ
مِنْ طَيِّبِهِ سَرَقَ الْأَتْرَجُ نَكْهَتَهُ يَقُومُ حَتَّى مِنَ الْأَشْجَارِ سُرَّاقُ !
كَأَنَّمَا الْحَاجِبُ الْمَنْصُورُ عَلَّمَهُ فِعْلَ الْجَمِيلِ فَطَابَتْ مِنْهُ أَخْلَاقُ
مَنْ لَيْسَ يُقْعِدُهُ مِنْ سُودٍ قَدَمٌ وَلَا تَقُومُ لَهُ فِي سَوَاةٍ سَاقُ
وَلَهُ فِي الْخَيْرِ :

بَعَثْتُ إِلَيْكَ مِنْ خَيْرِي دَارِي^(٤) مُحَرَّمَةً^(٥) كَأَوْرَاقِ الْعَقِيقِ
تَوَكَّلْ بِالْعَزُوفِ عَنِ التَّصَابِي وَتَصْطَادُ الْخَلِيعِ مِنَ الطَّرِيقِ
وَصَاعِدُ الْقَائِلِ :

لِي مِنْ سِرِّ بَنِي الْعَبَّاسِ خِلٌّ وَجَلِيسُ

(١) الديوان ج ٢ ص ٧٥ ، والرواية فيه : « عاينت » .

(٢) رواية الديوان : « الأفهام » . (٣) في الأصل : « بها » .

(٤) موه ج ٢ ص ٦٧ : « روض » .

(٥) في الأصل : « محرمة » والتصحيح عن موه

شهدَ المجدُ عليه أنه العلقُ النفيسُ
فإذا جالسُهُ لم تذرِ من منا الجليسُ

وهذا كقول ابن زرارة :

لي صديقٌ ، غلِطْتُ ، بل لي مولى
نلتقي التقاءَ رُوحٍ بِروحٍ
ليس في الأرضِ من يميّزُ منا
عاشقاً في اللقاءِ من معشوقٍ

وقال :

قلتُ له والرقيبُ يُعجِلُه مُودّعاً للفراقِ : أين أنا ؟
فدّعَ كفاً إلى ترائبِه وقال سِرّاً وادِعاً فأنت هنا

وأنشد المنصورُ يوماً قصيدةَ أبي نُواس « أجارةَ بيتينا أبوكِ غيورُ »
فعرّضَ عليه أن يُعارضه . فأبى صاعداً من ذلك إجلالاً لأبي نُواس ، فعزمَ عليه
المنصورُ فأنشده مُتمثلاً^(١) :

إني لمســـــــــــــــــيحي عُلّا لك من ارتجالِ القولِ فيه
من لَيْسَ يَدْرُكُ بالرّويِّ سِـــــــــــــــــة كَيْفَ يَدْرُكُ بالبدية^(٢)

فلم يذمعه ذلك عنده ، ومكث فيه بقيّةَ يومه وليلته ، وجاءه من الغدِ فأنشده
قصيدته التي أوّلها :

جِدَالَ الشَّرَى إني بكنّ بصيرُ طوتُكنّ عني خُلسةٌ وقتيرُ
وباتت كما باتت مهارةُ خيالةٍ لها جُودرٌ عند الصّراةِ عَقيرُ
وقد أكلت أشلاؤه فكأنها^(٣) مُقسّمةٌ عند القِداحِ جَزورُ

(٢) موه ج ٢ ص ٦٧ .

(١) في الأصل : « متمثلاً » .

(٣) في الأصل : « فكأنه » .

كما بَغِمَتْ^(١) من شَجَوِها أُمُّ واحدٍ أُمِّيح لها مَثَلُ الزَّجَاجِ طَرِيرُ
لَدُنْ غُدُوَّةٍ حَتَّى صَفَتْ شَمْسُ يَوْمِها وَفِي أَهْرَيْها — رَنَّةٌ وَزَفِيرُ
تَسُوفُ ثَرَاهُ عَنِ مَشَقِّ إِهْـابِهـ كَأَنَّ أَسْبَابِي الدِّمَاءِ عَتِيرُ

قال ابن بسام : وصاعدٌ على تقابُعِهِ في الكَذِبِ ، ولجاجة بين الامتهانِ
وسوء الأدب ، قد أخذَ بطرفٍ من الترفيق ، وخلا بجانبٍ من لَقَمِ الطريق ؛
ألا تراه كيف صرَّحَ باليأسِ عن شَقِّ غُبَارِ أَبِي نُؤَاسٍ ؟ ولـكـنَّ ابنُ أبي عامِرٍ
حملَهُ على الغرَرِ ، وعَرَّضَهُ لسُوءِ الخَبَرِ ، ولعلهُ ذهبَ إلى قولِ أبي الطَّيِّبِ^(٢) :

بلغتُ بسيفِ الدولةِ النورِ رتبةً أنزْتُ بها ما بينَ غَربٍ ومشرقٍ
إذا شاءَ أَنْ يَلْهُوَ بلَحيمةٍ أَحَقِّ أراه غُبَارِي ثُمَّ قالَ له : أَلْحَقِ
وذكرتُ بهذا الخَبَرَ ما وُصِفَ عن أبي عبدِ اللهِ بنِ شَرَفٍ ، وذلك أَنَّهُ

قالَ يوماً للمأمونِ بنِ ذِي النونِ أَيامَ خِدْمَتِهِ إِيَّاهُ ، واستشفاهُ صُبابَةٌ عُمَرِهِ
في ذِراهِ ، وقد أَجروا ذَكَرَ أبي الطَّيِّبِ ، فذهبوا في تَأْنِيهِهِ كُلِّ مَذْهَبٍ : إِنْ
رَأَى المأمونُ — لا فارقَ العِزَّةَ والعُلا — أَنْ يُشِيرَ إلى أَيِّ قَصِيدَةٍ شاءَ مِنْ
شِعْرِ أبي الطَّيِّبِ حَتَّى أَعَارَضَهُ بقَصِيدَةٍ تُنْسِي اسْمَهُ ، وتُعَفِّي رِسْمَهُ . فمُتَاقَلَّ

ابنُ ذِي النونِ عَنِ جَوَابِهِ ، علماً بضيقِ جَنابِهِ ، وإشفاقاً مِنْ فَضِيحَتِهِ
وانتِشَابِهِ . وألحَّ أبو عبدِ اللهِ حَتَّى أخرجَ ابنُ ذِي النونِ وأغراه ؛ فقالَ له :
دُونَكَ قَوْلَهُ : « لَعِينِيكَ ما يَلْقَى الفؤادُ وما لَقِيَ » . فخلا بها ابنُ شَرَفٍ أَياماً
فوجدَ مَرَكَبَها وَعَمراً ، ومَرِيرَها شَزْراً ، وَلـكـنَّه أبلى عُذْراً ، وأرْهَقَ نَفْسَهُ
مِنْ أَمْرِها عُسْراً ؛ فما قامَ ولا قَعَدَ ، ولا حلَّ ولا عَقَدَ . وسُئِلَ ابنُ ذِي النونِ
بَعْدُ : أَيُّ شَيْءٍ أَقْصَدَهُ إلى تِلْكَ القَصِيدَةِ ؟ فقالَ : لَأَنَّ أبا الطَّيِّبِ يَقُولُ فِيها :

« بلغت بسيف الدولة الثور » وأنشد البيتين . وهذه غريبة ولو صدرت
عن أبي العباس المأمون ، فضلاً عن ^(١) مُنزع لقبه يحيى بن ذى النون .
وقدما كبا الجموح ، وذهبت بالباطل الرّيح ؛ ولم يخدم من بفا على أسه ، ولا
هلك من عرف قدر نفسه .

- ٥ وقد حدثت أيضاً أن أبا عليّ ابن رشيّق ناجى نفسه بمعارضة أبي الطيّب
في بعض أشعاره ، وراطن شيطانه بالدخول في مضماره ، فأطال الفكرة ،
وأعمل النظرة بعد النظرة ، فاختر من شعره ما لم يطرّ ذكره ، ولا انحط ^(٢)
قدره ؛ فأداه جهده ، وذهب به نقده ، إلى معارضة قوله : « أمن ازديارك
في الدجى الرقباء » ، فبثّ عيونه ، واستمدّ ملائكته وشياطينه ، ولم يدع
ثنية إلا طلعها ، ولا خبيثة إلا أطلعها ، ولا زوياً إلا اتسع لها فوسّعها ؛
ثم صنع قصيدة — فيما بلغنى — رأى أنها مائة طبعه ، ومُنتهى طاقة وسعه ؛
ثم حكّم نقده ، ورضى بما عنده ، فرأى أن قد قصرت يده ، وقصّر
مداه ، وعلم أن الإحسان كنز لا يوجد بالطلب ، وميدان لا يستولى عليه
التعصب ، وصان نفسه عن أن يُتحدث عنه بأن تكون الهرة أحزم منه .

- ١٥ وقد ذكر عن صاعد ، أنه افتضح في سرقة شعر غير واحد ، من أهل تلك
الآفاق ، من شعراء الشام والعراق ؛ إذ كان ورد بها وهى بغبار السفر ،
فاشتهر بها في غير ما شعر وخبر . منها قوله يصف إبريقاً قد ملئ منه كأس
وبقيت في فيه نقطة لم تسقط .

- ٢٠ وقهوة في فم الإبريق صافية كدمع مفعوعة بالإلف مغبار
كأن إبريقنا والراح في فيه طير تناول ياقوتاً بمنقار

فكانوا يُولَعُونَ بهذا التشبيه ، وكانَ قاله — زعمَ — على البدیه ، وإنما نقل
لفظَ أبي البركاتِ العلویِّ ممَّا أنشده الثعالبيُّ ^(١) :

كأنما إبريقنا طائرٌ يحملُ ياقوتاً بمنقارِ

أو قولَ أبي الفرجِ البَغَّاءِ من أرجوزةٍ خاطبَ بها الصابيُّ ^(٢) :

كأنما الحَبَّةُ في مِنقارِها حَبَابَةٌ تطفو على عُقارِها

وكانَ صاعداً مع ما قدَّمْتُهُ من صِفَتِهِ بديعَ الجوابِ حاضرَه ، طيَّبَ
المعاشرةَ ، فیکه المُجالسةَ ، مُمتعاً مُحسناً للسؤال ، حاذقاً في استخراجِ
الأموالِ . دخلَ على المنصورِ يومَ أنسٍ وقد تقدَّم واتخذَ قَميصاً من رِقاعِ
الخِرائطِ التي وَصَلَتْ إليه فيها صَلَاتُهُ ولبسَهُ تحتَ ثيابه ، فلما خلا المجلسُ
ورأى فُرصةً لما أرادَ ، تجرَّدَ وبقيَ في القَميصِ المَخِيطِ من الخِرائطِ ، فقال
له : ما هذا ؟ قال : هذه رِقاعُ صَلَاتِ مَوْلانا اتَّخَذْتُها شِعْراً ، وبكى ، وأتبعَ
ذلك من الشُّكْرِ بما استوفاه . فأعجبَ به المنصورُ وقالَ له : عندي مَزِيدُ .
وَحُكِيَ عنه أَنه لم يحضُرْ بعدَ موتِ المنصورِ مجلسَ أنسٍ لأحدٍ ممن وَلِيَ بعده ،
وَادَّعَى وجعاً لحَقَّ ساقَه . وكانَ صاعداً كثيراً ما يمدحُ بلادَ المشرقِ بمجلسِ
المنصورِ ، ويُبَاهِي بأخبارِها ووصفِ أَشْرَبَتِها وأديارِها ، فكتبَ الوزيرُ
أبو مروانَ عبدُ الملكِ بنُ شُهَيْدٍ إلى المنصورِ في يومٍ قرَّ بهذه الأبياتِ ^(٣) :

أما ترى بردَ يومِنا هذا صَيْرَنا للكمونِ أَفذاذا ؟

قد فُطِرَتْ صَحَّةُ الكُبودِ بهِ حتى لَكَادَتْ تَعُودُ أَفلاذا ؟

فادعُ بنا للشُّمولِ مُصْطلياً نَغْدُ سِيراً إِلَيْكَ إِغذاذا ؟

(٢) البنية ج ١ ص ١٩٠

(١) البنية ج ٤ ص ٣٠٠ .

(٣) موه ج ٢ ص ١٧٦ .

وَادْعُ الْمَسْمُومَ بِهِ وَصَاحِبَهُ نَدْعُ نَبِيلاً وَتَدْعُ أَسْتَازَا
لَوْ مَعْبِداً أَوْ غَرِيضَةً لِحَقَا لَكَانَ عَنْ ذَا وَذَاكَ أَخَاذَا
وَلَا تُبَالِي أبا الْعَلَاءِ زَهَا بِخَمْرِ قَطْرُبُلٍ وَكَلَوَاذَا
مَا دَامَ مِنْ أَرْمِلَاطٍ مَشْرَبُنَا دَعْ^(١) دَيْرَ عَمَّا وَطِيرْنَا بَاذَا

وكان المنصور قد عزم ذلك اليوم على الانفراد بالعيال ، فأمر بإحضار
الأصحاب ، وأحضر الوزير أبا سروان ، وأخذوا في شأنهم ، فمر لهم يوم من
الطيب لم يشهد ، وألونة من اللهو لم تعهد ، وطما الأمر وسما حتى تصايح
القوم وتزافنوا ، ودار الدور ، ثم انتهى إلى الوزير ابن شهيد ، وكان لا يطيق
القيام لنقرس كان يلازمه ، فأقامه الوزير أبو عبد الله بن عياش ، فارتجل
الشيخ أبياتاً جعل يقود بها وينشد :

هَآكَ شَيْخٌ قَادَهُ عَذْرُ لِكَا^(٢) قَامَ فِي رَقَصَتِهِ مُسْتَهْلِكَا
لَمْ يُطِيقْ يَرْقُصُهَا مُسْتَشْبِثَا فَانْتَنَى يَرْقُصُهَا مُسْتَمْسِكَا
عَاقَةً مِنْ هَزَاهَا مُعْتَدِلَا^(٣) نَقَرَسُ أَنْحَى عَلَيْهِ فَاتَّكَا
طَرِبَ اللَّهُوْ وَقَدْ حُقَّ لَهُ طَرَبَا أَرْمَضَهُ حَتَّى اشْتَكَى
مِنْ وَزِيرٍ فِيهِمْ رَقَاصَةٌ قَامَ مِنْ طَيْبٍ يُنَاغِي مَلِكَا
أَنَا لَوْ كُنْتُ كَمَا تَعْرِفُنِي قَتُّ إِجْلَالًا عَلَى رَأْسِي لِكَا
قَهَقَةَ الْإِبْرِيْقُ مِنْى ضَحِكََا وَرَأَى رِعْشَةَ رِجْلِي فَبَكَى

وكان أيضاً في أصحاب ابن شهيد رجل بغدادى يعرف بالكك^(٤) له

(١) فى الأصل : « من » والتصحيح عن مور .

(٢) فى الأصل : « له » والتصحيح عن مور ج ٢ ص ١٧٧ .

(٣) فى الأصل : « معتزلاً » . وفى مور : « منفرداً » .

(٤) هكذا رسم الكلمة فى الأصل ، وفى النسخ : « الفكك » وهو خطأ لأن

الفكك المعروف لم يدرك الوزير ابن شهيد والمنصور .

نَوَادِرُ تَضَحِكَ ، فحضرَ معه في بعضِ مجالسِ الأنسِ ، وقد أُلحَ عليه وَجَعَ
النقرسِ فجعلَ يُصَلِّي الصَّلواتِ كُلَّما حانتِ واحدةٌ بعدَ أخرى جالسًا ، وكانَ
عِنْدَهُ ذلكَ اليومَ أحدُ أصحابِ المنصورِ ممنِ يعزُّ عليه وَيَكْرُمُ لَدَيْهِ ، فلما سَمِيَ
الوَطِيسَ ، وأنسَ الجَلِيسَ ، وطابَ المجلسُ ، ودارَتِ الأَكُوْثُ ، ونُسِيتِ أوجاعُ
النقرسِ ، وقامَ ذلكَ الصاحبُ الجَلِيسُ يَرْقُصُ ، ودارَ الدَّورُ حتى انتهى إلى
ابنِ شَهِيدٍ ، فقامَ يَرْقُصُ معتمدًا على عادَتِهِ ، فقالَ له البَغْدادِيُّ : اللَّهُ دَرُكَ
يا وَزِيرُ ! تُصَلِّي بالقاعدةِ وترقُصُ بالقائمةِ ! فطابَ المجلسُ بهذا الكلامِ ، وتمَّ
حَسَنُهُ أَكْمَلَ تَمَامٍ ، وخلَعَ ابنُ شَهِيدٍ على السَّكِّ وانتهى الخَبَرُ إلى المنصورِ ،
فذهبَ بِهِ كُلُّ مَذْهَبِ الضَّحْكِ . وكانَ ابنُ أَبِي عامِرٍ كثيرًا ما يَرْتاحُ إِلَيْهِ ،
ويُوالِي الإحسانَ عَلَيْهِ ؛ انصرفَ مرَّةً من غَزْوةٍ تخلفَ عنها ابنُ شَهِيدٍ لِعُذْرِهِ ،
فكتبَ إِلَيْهِ من جُمْلَةِ أبياتٍ :

أنا شَيْخٌ وَالشَّيْخُ يَهْوَى الصَّبَايا فبِنَفْسِي أَقِيكَ كُلُّ الرِّزايا
وَرَسُولُ الإِلَهِ أَسْهَمَ في النِّفَى مَنْ لَمْ يَحْثُ فِيهِ المَطَايا
فأجابَهُ ابنُ أَبِي عامِرٍ ^(١) :

قد بَعَثْنَا بِهَا كَشَمْسِ النِّهارِ في ثَلَاثٍ مِنَ العَمَها أَبْكارِ
وَامْتَحَنَّا بِعُذْرَةِ الغَيْدِ إِنْ كُنْ تَ تَوَخَّى بَوادِرَ الأَعْذارِ
فَاتَّهَدْ وَاجْتَهِدْ فَإِنَّكَ شَيْخٌ قد جَلَّ ^(٢) اللَّيْلُ عن بياضِ النِّهارِ
صانَكَ اللَّهُ مِنْ كَلالِكَ فِيها فَمِنْ العارِ كَلَّةُ المِسْمارِ

(١) النفع ج ١ ص ٢٦١ .

(٢) في النفع : « قد جلا ليله بياض النهار » .

فاقتضهن الشيخ من ليلته ، وكتب إليه بكرة :

قد فضضنا ختامَ ذاك الصَّوار^(١) واصطبغنا من النجيع الجاري

وصَبونا في ظلِّ أطيب عيش ولعَبنا بالذُّرِّ أو بالذَّارِي

وقضى الشيخ ما قضى بحُسام ذِي مضاء عَضْبِ الطُّبَا بِقَارِ

فاصطنعهُ فليس يَجْزِيكَ كُفْرًا واتَّخِذْهُ فَحْلًا على الكُفَارِ

وأهدى له ابنُ أبي عامرِ تحفةَ خَيْرُ رانٍ إذ نُقِرْسَ ، فقال :

للهِ نَفْسُكَ فَهِيَ أَزْكى الأَنْفُسِ عَقَدْتُ عُلاها بالجوارِي الكُنُسِ

عُنَيْتُ بِحَالِي كُلَّها حَتَّى لَقَد عُنَيْتُ مَكَارِمُها بِـلَوْ نَقِرْسِ

فَتَخَيَّرْتُ لِي إِذْ شَكْتُ قَدَمِي الْوَتَى عَلَيَا مَطْيِيَّةَ رِحْلَةٍ لَمْ تُحْبَسِ

لَا فِي الْعِتَاقِ وَلَا الشَّوَاخِجِ تَنْتَهَى نَسَبًا وَلَا هِيَ بِالْأُمُونِ^(٢) الْعَرِيسِ

إِنْ أَهْمَيْتُ لَمْ تَنْبَغِثْ أَوْ أَجْهَدْتَ لَمْ تَعْتَذِرْ أَوْ أُحْرِجْتَ لَمْ تَشْمُسِ

مَحْبُوكَةٌ مِنْ خَيْرُ رانٍ مائِسٍ لَدُنِ مَهْرَتِهِ كَرِيمِ الْعَرِيسِ

وَيَحْفَى^(٣) فِيهَا إِذَا اسْتَمَطَّيْتُهَا بِيضُ الْوَجْهِ هَبَاتُ أَرْوَاحِ أَشْوَاسِ

وَدَخَلَ صَاعِدُ يَوْمًا عَلَى الْمَنْصُورِ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ ، وَجَدَ عَوْدًا بَيْنَ يَدَيْهِ ،

فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : قَدْ تَوَاتَرَ الْخَبَرُ ، وَتَحَدَّثَ عَنْكَ الْبَشَرُ ، أَنْكَ فَرَدُّ فِي عِلْمِ

الْمُوسِيقَى . وَقَدْ أَرَدْتُ غَيْرَ سَرِةِ الْإِنْبِساطِ مَعَكَ سِرًّا فِي ذَلِكَ ، فَشَقَّ الْأَمْرُ

عَلَى صَاعِدٍ هُنَالِكَ ، وَلَمْ يَجِدْ مِنْ تَحْمِيدٍ عَنْ أَخْذِ الْعُودِ ، فَتَنَاوَلَهُ وَجَسَّ أَوْتَارَهُ

وَسَوَّى تَسْوِيَةً أَطْرَبَتْ ابْنَ أَبِي عامرٍ ، ثُمَّ اندَفَعَ يُنَشِّدُهُ بَيْتِي مَجْنُونِ

بني عامر :

(٢) في الأصل : « بالأُمور العريس » .

(١) في الأصل : « السوار » .

(٣) في الأصل : « ويحفى » .

أَبَى الْقَلْبُ إِلَّا حَبَّهَا عَامِرِيَّةً لَهَا كُنْيَةٌ عَمَرُو وَلَيْسَ لَهَا عَمَرُو
تَكَادُ يَدَى تَنْدَى إِذَا مَا لَمَسَتْهَا وَيَنْبْتُ فِي أَطْرَافِهَا^(١) الْوَرَقُ الْخَضِرُ
فَغَضِبَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ وَتَسَوَّرَ، لِتَوْهَمِهِ أَنَّهُ عَرَّضَ بِخَبَرٍ، وَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا الْعَلَاءِ،
أَبَا الْإِخْوَةِ عَرَّضْتَ أُمَّ بِالْأَبْنَاءِ؟ . وَهَذِهِ إِشَارَةٌ رُئِيسِ أَنْفٍ مِنْ أَنْ يَجَاوِبَهُ، عَلَى
مَغْزَى مَا خَاطَبَهُ، فَأَخْرَجَ الْجَوَابَ عَلَى التَّذْكِيرِ، هَمَّةٌ إِمَامٍ غَيُورٍ. وَذَكَرْتُ
بِهَذَا الْحَدِيثِ مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الرُّوَاةِ عَنِ الْمُعْتَصِمِ أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا لِلْقَاضِي ابْنِ
أَبِي دَوَادٍ: أَتَعْلَمُ أَنَّ أَبَا دُلْفٍ مِنَ الْمَغْنَنِينَ الْأَفْرَادِ وَإِنْ كَانَ مِنَ الشَّجَمَانِ
الْأَنْجَادِ؟ قَالَ الْقَاضِي: فَكَيْفَ بَسْمَاعِهِ؟ فَأَحْضَرَهُ الْمُعْتَصِمَ، وَخَبَأَ ابْنُ أَبِي
دَوَادٍ، وَعِزَمَ عَلَيْهِ فِي الْغِنَاءِ. فَلَمَّا انْدَفَعَ يُغْنِي هُتَكَتِ السَّتَّارَةُ، فَخَجَلَ
أَبُو دُلْفٍ وَقَالَ: أَجَبَرُونِي أَعِزَّ اللَّهُ الْقَاضِي. قَالَ لَهُ ابْنُ أَبِي دَوَادٍ:
يَا مَا جِئْتُ، هَبْهُمْ أَجْبِرُوكَ عَلَى أَنْ تُغْنِيَ فَمَنْ أَجْبَرَكَ عَلَى الْإِحْسَانِ؟ فَقَالَ
أَبُو دُلْفٍ: وَيُرِيدُنِي مِنْكَ أَيُّهَا الْقَاضِي مَعْرِفَتُكَ بِمَحَاسِنِ الْأَلْحَانِ وَتَأْلُفِ الْأَوْزَانِ!!
وَكَانَ صَاعِدًا [كَثِيرًا] مَا تُسْتَغْرَبُ لَهُ الْأَلْفَاظُ وَيُسْأَلُ عَنْهَا فَيُجِيبُ عَنْ
ذَلِكَ أَسْرَعَ جَوَابٍ، عَلَى نَحْوِ مَا يُحْكِي عَنْ أَبِي عَمَرٍ الزَّاهِدِ. وَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ
كَثِيرَ الْمَزَاحِ لَمَا تُحْمِلَ إِلَّا عَلَى الصِّدْقِ. دَخَلَ يَوْمًا عَلَى الْمَنْصُورِ وَبِيَدِهِ
كِتَابٌ وَرَدَّ عَلَيْهِ مِنْ عَامِلٍ لَهُ اسْمُهُ مَيْدَمَانُ بْنُ يَزِيدٍ مِنْ أَهْلِ يَابُرَةِ، يَذْكُرُ
فِيهِ الْقَلْبَ وَالتَّرْبِيلَ^(٢) وَمَا عِنْدَهُمْ مِنْ مُعَانَاةِ الْأَرْضِ قَبْلَ زَرْعِهَا،
فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا الْعَلَاءِ، وَقَعَ إِلَيَّ مِنَ الْكُتُبِ كِتَابُ الْقَوَائِبِ وَالرَّوَائِبِ
لِمَيْدَمَانَ بْنِ يَزِيدٍ. قَالَ: نَعَمْ رَأَيْتُهُ فِي نُسْخَةِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ دُرَيْدٍ^(٣) بَخَطَ

(١) فِي الْأَصْلِ: «أَوْرَاقَهَا» .

(٢) رَاجِعْ تَكْمِلَةَ الْمَعْجَمَاتِ لِدَوْزَى مَادَّةَ «رَبَل» . وَالْكَلِمَةُ غَيْرُ وَاضِحَةٍ تَمَامًا بِالْأَصْلِ

(٣) رَسَمَ الْكَلِمَةَ فِي الْأَصْلِ: «دِيرِد» .

كأكرع النمل ، في جوابها علامات الوضاع . فقال له : أما تستحي من هذا الكذب !! هذا كتاب عامِلنا ببلد يابرة — يُعلم بالذي تقدّم ذكره من صفة الأرض — وإنما صنعت هذا تجربة لك . فجعل يحلف أنه ما كذب وأنه أمر وفاق . وقال له المنصور يوماً : ما الخنبشار في اللغة ؟ قال حشيشة يُعقد بها اللبن ببادية الأعراب ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

لقد عُقدت محبتهم — بقلي كما عُقد الحليب بخنبشار

وقال له امرأة وقد قدّم طبق فيه تمر : ما التمر كل في كلام العرب ؟ [فقال] : يُقال تمر كل الرجل تمر كلًّا^(١) إذا التف في كسائه .

وكان مع ذلك عالماً . حدث العاصمي النحوي قال : لما سألناه مراراً عن

١٠ مسائل من النحو غامضة بحضرة المنصور فقصرَ فيها ، قال ابن أبي عامر : فإنه من طبقتي في النحو أنا أناظره . ثم سألنا صاعداً يوماً فقال : ما معنى قول امرئ القيس :

كأن دماء الهاديّات بنجره عَصارة حنّاء بشيب مرّجل

فقلنا هذا واضح ، وإنما وصف فرساً أشهب عقرت عليه الوحش فتطايّر

١٥ دمها إلى صدره فجاء هكذا . فقال صاعداً : سبحان الله ! أنسيتم قوله قبل هذا في صفتة :

كُميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصّ فواء بالمتنزل

قال فهتئنا وكأنا لم نقرأ البيت قط . وقد اضطررنا إلى سؤاله ، فقال : إنما عني

أحد وجهين : إما أنه نضح صدره بالعرق وعرق الخيل أبيض ، فجاء مع

٢٠ الدم كالشيب ، وإما أشياء كانت العرب تصنعها وذلك أنها كانت تسم

باللبنِ الحارِّ في صدرِ الخَيْلِ فَيَتَمَطُّ ذلكَ الشعرُ ، وَيَنْبْتُ كأنَّه شعرُ أبيض ،
 فأَيُّ ما عَنَى من أحدِ الوجهين فالوصفُ مُستقيم . وكان لابن أبي عامرٍ فُتًى
 يُسَمَّى فاتمًا أوحدًا لا نَظِيرَ له في علمِ كلامِ العربِ ، وكلُّ ما يتعلقُ بالأدبِ ،
 فَنَظَرَ صاعدًا بين يَدَيْهِ ، فَظَهَرَ عليه ، وبَكَتْهُ حتى أَسَكَّتْهُ ، فَازدادَ المنصورُ به
 عُجْبًا . وكان فاتنٌ حَسَنَ الخطِّ ، واسعَ المعرفة ، فصيحَ اللسانِ ، حاضِرَ الجوابِ
 إلى عَفَافِ طُعْمَةٍ ، وزَاهَةِ نَفْسٍ ، وَجَمَالِ صُورَةٍ . وكان من تَبَاهَى الملوكُ
 بِخِدْمَتِهِ ، وتَسْتَرِيحُ إلى حِمْلِهِ . وتَوَقَّى هذا الفتى فاتنٌ سنة اثنتين وأربعمئة ،
 وَبِيعَتْ في تَرِكَتِهِ قِطْعَةُ دِفَاتِرٍ أدبيَّةٍ حَسَنَةِ الضبطِ دَلَّتْ على جَوْدَةِ عِنَايَتِهِ .
 وكان مُنْقَادًا لما نَزَلَ به من المَثَلَةِ ، فلم يَتَّخِذِ النساءَ ولا كَشْفَنَ له عَوْرَةٍ . وكان
 في ذلك الزمانِ بَقْرطِيَّةٌ مُجَلَّةٌ من الفَتَيَانِ الجايِبِ ، ممن أخذَ من الأدبِ
 بأوفَرِ نَصِيبٍ . ورأيتُ تَأْلِيفًا لرجلٍ منهم يُدْعَى بِحَبِيبٍ مُتَرَجِّمًا بـ « كتاب
 الاستظهار والمُغَالَبَةِ على مَنْ أنكَرَ فضائلَ الصَّقَالِبَةِ » وذكرَ فيه مُجَلَّةٌ من أشعارِهِم
 ونَوَادِرِ أخبارِهِم . منهم عِمَارَةُ الصَّقَلْبِي الفَتَى الكبير ، والصَّقَلْبِي مَيَّسُور ، وَنَجْمُ
 الوَصِيفِ ، وغيرُهُم ممن يشتمَلُ عليه ذلك التَصْنِيفُ ، وشعرُهُم خَارِجٌ من
 شَرِطِنَا ، وليس مِن جَمْعِنَا .

ومن عجائبِ الدنيا الغريبةِ الوقوعُ ، العَجِيبَةِ المَسْمُوعِ ، أن صاعدًا أهدى
 إلى المنصورِ يَوْمًا إِيْلًا وكتبَ معه بأبياتٍ يقولُ فيها :

يا حِرْزَ كلِّ مَخْوَفٍ وَأَمَانِ كلِّ مِشْرِدٍ وَمُعِزِّ كلِّ مُذَلِّلٍ
 عَبدٌ جَذَبَتْ بِضَبْعِهِ وَرَفَعَتْ مِنْ مِقْدَارِهِ أَهْدَى إِلَيْكَ بِأَيْلٍ
 سَمِيئَتُهُ غَرَسِيَّةٌ وَبَعَثَتُهُ فِي حَبْلِهِ لِيَتَقَاحَ فِيهِ تَفَاوُلِي

فَقَضَى فِي سَابِقِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدَّرِهِ أَنَّ غَرَسِيَّةَ بْنِ شَانِجُهَ ^(١) مِنْ مُلُوكِ
الرُّومِ ، وَهُوَ أَمْنَعُ مِنَ النُّجُومِ ، أُسْرِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِعَيْنِهِ الَّذِي بَعَثَ فِيهِ صَاعِدٌ
بِالْإِيلِ وَسَمَاءُ غَرَسِيَّةَ عَلَى التَّفَاوُلِ بِأَسْرِهِ . وَكَانَ أُسْرُهُ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ
خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثُمِائَةٍ . وَهَكَذَا يَكُونُ الْجَدُّ لِلصَّاحِبِ وَالْمَصْحُوبِ .

وَدَخَلَ يَوْمًا صَاعِدٌ عَلَى الْمَنْصُورِ فِي يَوْمٍ مَطِيرٍ ، وَعَالِيهِ ثِيَابٌ جَدُّ وَخَفٌّ
طَرِيٌّ فَشَى عَلَى حَاشِيَةِ الصُّهْرِيحِ لِازْدِحَامِ مَنْ حَضَرَ فزَلِقَ وَسَقَطَ فِي الْمَاءِ ،
فَضَحَكَ الْمَنْصُورُ وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ ، وَكَادَ الْبَرْدُ يَأْتِي عَلَيْهِ . فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ أَمَرَ بِخِلْعِ
ثِيَابٍ لَهُ ، وَأَذْنَى مَجْلِسِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : يَا أَبَا الْعَلَاءِ هَلْ قُلْتَ فِي سَقَطَتِكَ شَيْئًا ؟
فَاطْرَقَ ثُمَّ قَالَ :

شَيْئَانِ كَانَا فِي الزَّمَانِ غَرِيبَةً ضَرَطَ ابْنِ وَهْبٍ ثُمَّ زَلَقَهُ صَاعِدٌ
فَاسْتَبْرَدَ مَا أَتَى بِهِ . وَكَانَ الْكَاتِبُ أَبُو مَرْوَانَ الْجَزِيرِيُّ حَاضِرًا ، فَقَالَ لَهُ
يَا أَبَا الْعَلَاءِ هَلَّا قُلْتَ :

سُرُورِي بِغُرَّتِكَ الْمُشْرِقَةِ . وَدِيمَةِ رَاحَتِكَ الْمَغْدُوقَةِ .

ثَنَانِي نَشْوَانَ حَتَّى هَوَيْتُ فِي لُجَّةِ الْبِرْكَةِ الْمَطْبُوقَةِ

لَنْ ظَلُّ عَبْدُكَ فِيهَا الْغَرِيقَ فَجُودُكَ مِنْ قَبْلِ ذَا أَغْرَقَهُ

فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : اللَّهُ دَرُّكَ يَا أَبَا مَرْوَانَ قِسْمُنَاكَ بِأَهْلِ الْعِرَاقِ فَفَضَّلْتَهُمْ ،
فَبِمَنْ تُقَاسِمُ بَعْدَ أَنْ هَضَّ الْجَزِيرِيُّ يَوْمَئِذٍ لِلشَّرْطَةِ .

وَقَدْ فَرَّقَ حُذَاقُ النَّظَرِ بَيْنَ الْبَدِيعَةِ وَالْإِرْتِجَالِ ، فَجَعَلُوا الْإِرْتِجَالَ مَا كَانَ
عَلَى طَرِيقِ الْإِنْهَامِ وَالتَّدْفُقِ لَا يَتَوَقَّفُ فِيهِ قَائِلُهُ ، كَالَّذِي وَقَعَ لِلْفَرَزْدَقِ إِذَا أَمْرَهُ
سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِضَرْبِ عُنُقِ أُسَيْرِ رُومِيٍّ ، وَدَسَّ إِلَيْهِ بَعْضُ بَنِي عَبَّسٍ

سَيْفًا كَهَامَا فَنَبَا حِينَ ضَرَبَ بِهِ ، وَضَحِكَ سُلَيْمَانُ ، فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ :
 فَإِنْ يَكُ سَيْفُ خَانَ أَوْ قَدَرُ أَتَى لِتَأْخِيرِ نَفْسٍ حَيْنَهَا غَيْرُ شَاهِدِ
 فَسَيْفُ بَنِي عَبَسٍ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ نَبَا بَيْدَى وَرَقَاءَ ^(١) عَنْ رَأْسِ خَالِدِ
 كَذَلِكَ سُيُوفُ الْهِنْدِ تَنْبُو ظُبَاتُهَا وَيَقْطَعْنَ أَحْيَانًا مَنَاطَ الْقَلَانِدِ
 وَلَوْ شِئْتُ قَطَّ السَّيْفُ مَا بَيْنَ أَنْفِهِ إِلَى عَلَقٍ دُونَ الشَّرَا سَيْفٍ جَاسِدِ
 ثُمَّ جَلَسَ وَهُوَ يَقُولُ :

وَلَا نَقْتُلُ الْأَسْرَى وَلَكِنْ نَفْكُهُمْ إِذَا أَثْقَلَ الْأَعْنَاقَ حَمْلُ الْمَغَارِمِ
 وَمَنْ غَرِيبَ الْبَدِيهَةِ خَبِرُ حَبِيبٍ ، مَعَ الْكِنْدِيِّ يَعْقُوبَ ، وَقَدْ أَنْشَدَ أَحْمَدُ
 ابْنَ الْمُعْتَصِمِ ^(٢) قَوْلَهُ :

إِقْدَامُ عَمْرِو فِي سَمَاحَةِ خَالِدٍ فِي حِلْمٍ أَحْنَفَ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسِ
 فَقَالَ لَهُ الْكِنْدِيُّ : مَا صَنَعْتَ شَيْئًا فَإِنَّ الْأَمِيرَ أَفْضَلُ مِمَّنْ ذَكَرْتَ ،
 وَمَا هُوَ لَاءٌ وَقَدَرُهُمْ ؟ فَأَطْرَقَ ثُمَّ قَالَ :

لَا تُنْكَرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلًا شَرُودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ
 فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَّ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشَاكَةِ وَالنَّبْرَاسِ

فَتَعْجَبَ مِنْ بَدِيهِتِهِ يَوْمَئِذٍ لِأَنَّهُ كَانَ رَجُلًا مُصَنِّعًا لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا
 فِي طَبْعِهِ . وَقَدْ قِيلَ إِنَّ الْكِنْدِيَّ لَمَّا خَرَجَ حَبِيبٌ قَالَ : أَرَى هَذَا الْفَتَى يَمُوتُ
 شَابًّا لِأَنَّ ذِكَاةَهُ يَنْحِتُ عُمُرَهُ كَمَا يَأْكُلُ السَّيْفُ الصَّقِيلُ غَنَدَهُ . فَكَانَ
 ذَلِكَ كَذَلِكَ ، مَاتَ وَقَدْ نَيْفَ عَلَى الثَّلَاثِينَ . وَكَانَ أَبُو الطَّيِّبِ كَثِيرَ الْبَدِيهِةِ
 إِلَّا أَنَّ شِعْرَهُ نَازَلَ فِيهِ . وَأَهْلُ الشَّعْرِ فِي ذَلِكَ فِي سَعَةٍ مِنَ الْعُذْرِ ، إِذْ هُوَ

(١) فِي الْأَصْلِ : وَرَقَاءُ وَالتَّصْحِيحُ عَنْ طَبَقَاتِ ابْنِ سَلَامٍ (طَبَعَ مِصْرَ ص ١٤١) .

(٢) فِي الْأَصْلِ : الْمَأْمُونُ . وَهُوَ خَطَأٌ .

كما قال ابن الرومي^(١) :

نَارُ الرَّوِيَّةِ نَارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ وَلِلْبَدِيدَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيجٍ
وَقَدْ يُفْضَلُهَا قَوْمٌ لِسُرْعَتِهَا لَكِنَّهَا سُرْعَةٌ تَمْضِي مَعَ الرِّيحِ
وقال ابن المعتز^(٢) :

• وَالْقَوْلُ بَعْدَ الْفَكْرِ يُؤْمَنُ زَيْغُهُ شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهِ
ومن الشعراء من شعره فيهما وعند الأمن والخوف سواء ، بمقدار قُدْرَةِ
كلٍّ أحَدٍ ، وسكون جأشه ، وقوة غريزته ، كهذبة بن الخشرم ، وطرفة بن
العبد ، ومرة بن محكان السعدي ، إذ يقول وقد أمر مضعب بن
الزبير بقتله :

١٠ بَنِي أَسَدٍ إِنْ تَقْتُلُونِي تُحَارِبُوا تَمِيمًا إِذَا الْحَرْبُ الْعَوَانُ اشْتَعَلَتْ^(٣)
وَلَسْتُ وَإِنْ كَانَتْ إِلَى حَبِيبَةٍ بِبَاكِ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا تَوَلَّتْ
وكعبد يغوث إذ أعطى في نفسه لبني تميم ألف ناقة فأبوا إلا قتله ، وكانوا قد
شدوا لسانه خوفاً من الهجاء ، فعاهدوه فأطلقوه لينوح على نفسه ، فقال القصيدة
التي أولها^(٤) :

١٥ أَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنَشْمَةٍ أَمْعَشَرَ تَمِيمٍ أَطْلَقُوا عَنْ لِسَانِيَا
فِيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلَّغْنِ نَدَامَايَ مِنْ نَجْرَانٍ أَلَّا تَلَاقِيَا
وتميم بن جميل السدوسي وكان قام بشاطئ الفرات ، واجتمع إليه الأعراب
وغلظ أمره ، فظفر به وحمل إلى باب المعتصم ، فلما مثل بين يديه ، وكان وسيما

(١) هذان البيتان غير مثبتين في الديوان (نمرة الشيخ محمد شريف سليم — حرف الحاء) .

(٢) لا يوجد هذا البيت في ديوانه

(٣) الكلمة غير واضحة بالأصل والتصحيح عن الكامل للمبرد (ص ١١٣ نمر رابت)

(٤) وردت هذه القصيدة في النقااض ج ١ ص ١٧٣ (طبع بيفان)

جميلاً ، فأحبّ المعتصم أن يعلمَ أينَ المنظرُ منَ الحَبَرِ ، قالَ له تكلّم ، فقالَ
بعدَ أنَ حمِدَ اللهَ ودعاَ المعتصمَ : إنَّ الذُّنُوبَ تُخَرِّسُ الأَلْسِنَةَ ، وتُعْمِي الأَفْئِدَةَ ،
ولقد عَظُمَتِ الجُرِيرَةُ ، وانقَطَعَتِ الحُجَّةُ ، وساءَ الظَّنُّ ، ولم يبقَ إلّا العَفْوُ
أو الانتقام ، وأرجو أن يَكُونَ أَقْرَبُهُمَا مِنِّي وأَسْرَعُهُمَا إِلَيَّ أَشَبَّهُمَا بِكَ ،
وأولاهما بِكَرَمِكَ . ثم قالَ وقد كانَ قَدَّمَ السيفُ والنِطعُ لِقَتله :

٣٩

أرى الموتَ بينَ السيفِ والنِطعِ كَأَمِنًا يَلاحِظُنِي مِن حَيْثُما أَتَلَفْتُ
وأَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّكَ اليَوْمَ قَاتِلِي وأَيُّ أَمْرِي مِمَّا قَضَى اللهُ يُفَلِتُ
وأَيُّ أَمْرِي يُدْلِي بِعُذْرٍ وَحُجَّةٍ وَسَيْفُ الْمَنَايا بَيْنَ عَيْنَيْهِ مُضَلَّتْ
يَعِزُّ عَلَى الأَوْسِ بْنِ تَغْلِبٍ مَوْقِفُ يَهْزُ عَلَى السَيْفِ فِيهِ وَأَسْكُتُ
فَمَا حَزَنِي أَنِّي أَمُوتُ وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ المَوْتَ شَيْءٌ مُوقَّتُ
ولسكنَ خَلْفِي صَبِيَّةٌ قَدْ تَرَكَتْهُمْ وَأَكْبَادُهُم مِّن حَسْرَةٍ تَقَفَّتْ
كَلَّيْتُ أَرَاهُم حِينَ أُنْعَى إِلَيْهِمْ وَقَدْ حَمَّشُوا تِلْكَ الوُجُوهَ وَصَوَّتُوا
فَإِنْ عِشْتُ عاشوا خَافِضِينَ ^(١) بِنِعْمَةٍ أَذُودُ الرَّدَى عَنْهُمْ وَإِنْ مِتُّ مَوَّتُوا
فَكَم قَاتِلٍ لَا أَبْعَدَ اللهُ دَارَهُ وَآخَرَ جَذَلَانٍ يَسْرُ وَيَشْمَتُ
فَعَنِي عَنْهُ المَعْتَصِمُ ، وأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، وَقَلَّدهُ عَمَلًا . وَعَلَى بْنِ الجَهَنمِ الَّذِي قَالَ ارْتَحَلَا
وَقَدْ صُلِبَ عُرْيَانًا :

١٠

١٥

لَمْ يَنْصَبُوا بِالسَّادِيَاخِ عَشِيَّةَ ال إِنِّينِ مَفْلُولًا وَلَا مَجْهُولًا
نَعْبُوا بِحَمْدِ اللهِ مِلءَ عُيُونِهِمْ حُسْنًا وَمِلءَ قُلُوبِهِمْ تَبْجِيلًا
مَا ضَرَّه أَنْ بَزَّ عَنْهُ غِطَاؤُهُ فَالسَّيْفُ أَهْوَلُ مَا يُرَى مَسْلُولًا

٢٠ إلى غير ذلك من غرائب أهل المشرق .

فأما ما جاء في هذا الباب لأهل عصرنا بهذا الأفق ، فكالذي وقع لأبي
عامر بن شهيد القرطبي مع لمة من أصحابه ، فإنه حكي أنهم قالوا له : يا أبا عامر
إنك لات بالعجائب ، وجاذب بذوائب الغرائب ، ولكنك شديد الإعجاب
بما يأتي منك ، هاز لعطف الزهو عند الفادرة تتاح لك ، ولكن تريد أن
تصف لنا مجلسنا هذا . وكان الذي طلبوه منه يومئذ زبدة التعنيت ، ومحة
بيض التبكيت ، لأن المعنى الجلف إذا لم يطب على النفس ، وتناول المحسن
أساء فيه ، وكانت هيئة ذلك المجلس وصفته مما يقتل سماعها البرد ، وهيئته
لا يتمكن فيها كلام ولا يتركب عليها معنى : باب غريب معرض في المجلس ،
وليد أحمر مبسوط على أرضه ، وصدور أخفافهم على حاشيته . وذكر أبوابه
وانضمامها على أرجله فقال :

١٠

وفتية كالشجوم حسنا	كلهم شاعر نبيل
مستقد الجانبين ماض	كانه الصارم الصقيل
راموا انصرافي عن المعالي	والغرب من دونها قليل ^(١)
فاشدت في إثرها مسح	كل كثير بها قليل
في مجلس شابة التصابي	وطاردت وصفه العقول
كانما بابه أسير	قد عرّضت وسطه نصول
يراد منه المقال قسرا	وهو على ذاك لا يقول
ينظر من لبده لدينا	بحر دم تحته يسيل
كان أخفافنا عليه	مراكب ماها دليل
ضلت فلم تدّر أين تجرى	فهى على شطو تقيل

١٥

٢٠

وَاتَّفَقَ أَنْ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمْ فَاجْتَنَزَ بِحَانُوتٍ بَعْضِ مَعَارِفِهِ مِنَ الطَّرَائِفِيِّينَ ^(١)
وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَامِسَنَةٌ ^(٢) جَمِيلَةٌ فِي زَنْبِيلٍ مَلَّانَ حَرَشَفًا ، فَعَمَلَ يَدَهُ فِي لِحَامِ
دَابَّةِ ابْنِ شَهِيدٍ وَقَالَ لَهُ : صِفْ هَذَا أَبَا عَامِرٍ ، فَإِنَّ صَاعِدًا رَامَ وَصَفَ ذَلِكَ
لِابْنِ أَبِي عَامِرٍ فَلَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ غَيْرَ ذِكْرِ الْحَرَشَفِ . فَقَالَ ابْنُ شَهِيدٍ وَهُوَ
عَلَى ظَهْرِ دَابَّتِهِ .

هَلْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ يَا خَلِيلِي قَنَافِذَا تُبَاعُ فِي زَنْبِيلِ
مِنْ حَرَشَفٍ ^(٣) مُعْتَمِدٍ جَلِيلِ ذِي إِبْرَةٍ تَنْفُذُ جِلْدَ الْفِيلِ
كَأَنَّهَا أَنْيَابُ بِنْتِ الْغُولِ لَوْ نُخِصَتْ فِي اسْتِ امْرَأَةٍ ثَقِيلِ
لَقَفَرَتْهُ نَحْوُ أَرْضِ النِّمْلِ لَيْسَتْ تَرَى طَيَّ حَشَا مَنْدِيلِ
نُقْلُ السَّخِيفِ الْمَائِقِ الْجَهُولِ وَأَكَلُ قَوْمٍ بَارِحِي ^(٤) الْعُقُولِ
أَقْسِمُ لَا أَطْعَمْتُهُمْ أَكِيلِي ^(٥) وَلَا طَعَمْتُهُمْ عَلَى شَمُولِ

١١

وَكَانَ يَوْمًا مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ ، بِمَجْلِسِ ابْنِ ذَكْوَانَ ، فَجِئَ
بِبَاكُورٍ بِاقِلِي ^(٦) ، فَقَالُوا لَا يَنْفَرِدُ بِهِ ^(٧) إِلَّا مَنْ وَصَفَهُ ، فَقَالَ ابْنُ شَهِيدٍ :
إِنَّ لَأَلِيكَ أَحَدَثَ صَلَفًا فَاتَّخَذَتْ مِنْ زُمُرْدٍ صَدَفًا
تَسْكُنُ دُرَّاتُهَا ^(٨) الْبُحُورَ ^(٩) وَذِي هَامَتْ بِلُحْفِ الْجِنَانِ فَاتَّخَذَتْ
مِنْ سُنْدُسٍ فِي جِنَانِهَا لُحْفًا

١٥

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ . (٢) سَبَقَ أَنْ وَرَدَتْ هَذِهِ السَّكَمَةُ بِالْخَيْرَةِ ج ٢ ص ٣٧٠ بِالشَّيْنِ

(٣) رَسَمَتِ السَّكَمَةُ بِالْحَاءِ الْمَعْجَمَةِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَلَكِنَّهَا فِي الْمَوْضِعَيْنِ السَّابِقَيْنِ

بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ .

(٤) السَّكَمَةُ غَيْرُ مَعْجَمَةٍ فِي الْأَصْلِ فَتَحْتَمِلُ أَيْضًا أَنْ تَكُونَ « نَازِحِي »

(٥) فِي الْأَصْلِ : أَكْلِيلِ (٦) رَسَمَ السَّكَمَةُ فِي الْأَصْلِ : نَاقِلِي

(٧) فِي الْأَصْلِ : بِهَا (٨) فِي مَوْجِدٍ : ضَرَاتُهَا .

(٩) فِي الْأَصْلِ : الْبَحْرُ .

تثقبها^(١) بالثغور من لطفِ حَسْبُكَ مِنَّا في برٍّ من لطفنا

جاز^(٢) ابنُ ذَكْوَانَ في مَكَارِمِهِ حَدُودَ كَعْبٍ وَمَا بِهِ وَصِفَا

قَدَمَ دُرِّ الرِّيَاضِ مُنْتَخِبًا مِنْهُ لَأَفْرَاسٍ مَدَحِيهِ عِلْفَا

أَكَلُ ظَرِيفٍ وَطَعْمُ ذِي أَدَبٍ وَالْقَوْلُ^(٣) يَهْوَاهُ كُلُّ مَنْ ظَرُفَا

رَخَّصَ فِيهِ شَيْخٌ لَهُ قَدَرٌ فَكَانَ حَسْبِي مِنَ الْمُنَى وَكَفَى

وخرج سَعْدَانُ الْمُؤَدَّبُ من قُرْطُبَةِ إلى الحِجَازِ وشيَّعه جماعةٌ ، وكان قد باع دَارَهُ لِسَدِّ جَهَازِ طَرِيقِهِ [ووضَّعه] تحتَه في خُرْجِهِ ، فقال فيه يومئذ مؤمنٌ ابنُ سَعِيدٍ :

قَد بَعْتَ دَارَكَ فَارْحَلْ غَيْرَ مُحْتَقِبٍ زَادَ التَّقَى عَنْ بَنِي الدُّنْيَا إِلَى سَقَرٍ^(٤)

لَمَّا رَأَيْتَ أَذَى الْأَمْطَارِ مُتَّصِلًا حَصَنْتَ دَارَكَ فِي خُرْجٍ عَنِ الْمَطَرِ ١٠

فَلَسْتُ تَخْشَى عَلَى حِيطَانِهَا زَلَلًا مِنْ وَاكِفٍ يَهْدِمُ الْبُنْيَانَ مِنْهُمْ

زَوَّدْتُكَ اللَّغْنَ مُخْصُوصًا بِهِ أَبَدًا لَمَّا غَدَوْتَ بِلَا زَادٍ عَلَى سَفَرٍ

فَاغْرُبْ إِلَى حَيْثُ لَا مَاءَ وَلَا شَجَرَ كَمَا غَنَيْتَ^(٥) بِلَا مَاءٍ وَلَا شَجَرٍ

وسائر ابنُ عَمَّارٍ في بعضِ الأسفارِ غُلامَيْنِ وَسَيَمَيْنِ من بَنِي جَهْوَرٍ ،

أَحَدُهُمَا أَشْقَرُ وَالْآخَرُ بَعِذَارٍ أَخْضَرُ ، فَكَانَ يَمِيلُ بِحَدِيثِهِ مِنْ ظَهْرِ دَابَّتِهِ إِلَى ١٥
الَّذِي وَصَفَهُ مِنْهُمَا حَيْثُ قَالَ ارْتَجَالَا :

تَعَلَّقْتُ بِهِ جَهْوَرِيَّ النَّجَارِ حُلُوَ اللَّائِي جَوْهَرِيَّ^(٦) الثَّنَايَا

مِنَ النَّفَرِ الْبَيْضِ جَدَوِيَّ^(٧) الزَّمَانِ رِقَاقِ الْحَوَاشِي كِرَامِ السَّجَايَا

(١) رسم الكلمة في الاصل : بتقبها

(٢) في الاصل : حاز .

(٣) في الاصل : والقول .

(٤) في الاصل : سفر

(٥) في الأصل : عميت

(٦) في الاصل : جهوري

(٧) رسم الكلمة في الأصل : حدوا .

ولا غَزَوْا أَنْ تَغْرُبَ الشَّارِقَاتُ وَتَبْقَى مَحَاسِنُهَا بِالْعَشَايَا
ولا وَصَلَ إِلَّا جُحَانُ الْحَدِيثِ نُسَاقَطُهُ مِنْ ظُهُورِ الْمُطَايَا
شَنَنْتُ الْمَثَلَتَ لِلزَّغْفَرَانِ وَمِلْتُ إِلَى خُضْرَةٍ فِي الثَّغَايَا

قال ابنُ بَسَّامٍ : وكان الأستاذُ أبو الوليدِ بن ضابطٍ قد بدأ عليه بالقراءة
الوزيرُ أبو محمد بن عبدونَ وهو غلامٌ ابن ثلاث^(١) عشرة سنةً ، وكان ابنُ
ضابطٍ المذكورُ مُتَكَسِّبًا بالشعرِ . فضجَرَ يوماً وقال : « الشَّعْرُ خُطَّةٌ خَسَفِ »
فقال له ابنُ عبدونَ :

لِكُلِّ طَالِبٍ عَرَفِ

لِلشَّيْخِ عَيْبَةُ عَيْبٍ وَلِلْفَقِي ظَرْفُ ظَرْفٍ

والبديهِ والارتجالُ في هذه الأشعارِ الأندلسيَّةِ وإن لم تلحق بالأشعارِ
المشرقيَّةِ ، ولا فيها كبيرُ طائِلٍ ، ولا تقربُ مما ألصقته إليها^(٢) من أشعارِ
الأوائلِ ، فهي نحوى في هذا المجموعِ الذي انتَحَيْتُ ، وطلَّقَ الذي إليه
جَرَيْتُ ، ولذلك ما أثبتُّ مُذالها ومَصُونها ، وكتبتُ غُثَّها وسَمِينها . والأدبُ
طريقٌ يسلكُها الصَّحِيحُ والجَرَبُ ، وسوقٌ يَنْفُقُ فيها الدرُّ والمُخْشَلَبُ .
ولأُخْرِجَ من جدِّ إلى هَزَلٍ^(٣) ، وأنْتَقِلَ من سَهْلٍ إلى حَزَنٍ ، رَجَعْتُ
إلى ما قَطَعْتُ من أخبارِ صَاعِدٍ ، وما يَتَعَلَّقُ بها ويذكرُ بسببها من الفوائدِ .

إيجازُ الخبرِ عن أسْرِ غَرْسِيَّةَ الذي ذُكِرَ

قال ابنُ حَيَّانٍ : لما قَفَلَ ابنُ أبي عامرٍ سنةً أربعٍ وثمانينَ عن بَلَدِ غَرْسِيَّةَ
صاحبِ قَشْتِيلَةَ ، حَشَرَ عَدُوَّ اللَّهِ جُمُوعَهُ لَغَزَوْا بِلَادَ الإِسْلَامِ ، فَاغْتَمَّ الْمَنْصُورُ

(١) في الأصل : من ثلاثة . (٢) في الأصل . وإليه

(٣) السياق يقتضيه : إلى جد من هزل .

لذلك . فبينما هو يحاول بعض الأمر هنالك إذورد عليه كتاب قنديل الوزير صاحب مدينة سالم يذكر أنه أسرى في نخبة أهل ثغره إلى بلاد غرسية فقتل وغنم ، ثم انكمش قافلاً فتبعه غرسية في قطعة حسنة من نخبة حماته ، فثبت الله أقدام الإسلام ، وأجلت الحرب على أسر غرسية جريحاً ، وسبق إلى مدينة سالم ، وأقام بيد قنديل يعالجه من جرحه فهلك في يده . وحز رأسه وجعله في تابوت ، وأنفذه إلى حضرة قرطبة ، واختزن جسده إلى أن دفع مع رأسه إلى ولده شانجه عند عقد السلم بعد مدة .

مقتل أبي مروان الجزيري

وكان أبو مروان عبد الملك الجزيري أحد شعراء الأندلس المجيدين وقته ، ومن اجتمع له بهذا الإقليم نوعاً البلاغة في المنشور والمنظوم . وتقدم عصره .
منعنى من ذكره ؛ وفي خبر مقتله طول ، لكن نلغ منه بلعة ، بعد أن تقدم من نوعي كلامه قطعة .

فمن ذلك أن المنصور بن أبي عامر صنع صنيعاً في ذلك الأوان ، لتطهير ابنه عبد الرحمن . وكان عام قط فارتفع السعر بقرطبة ، وبلغ ربع الدقيق إلى دينارين ، فجلا الناس . فلما كان يوم ذلك الصنيع ، نشأت في السماء سحابة عمّت الأفق ، ثم أتى المطر الوابل فاستبشر الناس وسرّ ابن أبي عامر ، فقال الجزيري بديهة :

أما الغمام فشاهدك أنه لا شك صيفوك بل أخوك الأوثق
وإني الصنيع حين تمّ تمامه في الصبح أنشأ ودقه يتدفق
وأظنه يحكيك جوداً إذ رأى في اليوم بحرك زاخراً يتفهق

ومنها (١) :

وتوسّطتها جُـةً في قعرها بنّت السلاحف ما تزال تُنفقُ
تنسابُ من فكّي هزيران يـكن ثبّت الجنان فإنّ فاهُ أخرقُ
صاغوه من ندى وخلق صفحتي هاديه محض الدرّ فهو مطوقُ
للياسمين تطالعُ في عرشه مثلُ المليك عراه زهوهُ ، مطرقُ
ونضائدُ من نرجس وبنفسج وجنيّ خـيريّ ووردٍ يعبقُ
ترنو بسجور^(٢) غيونها وتكادُ من طربِ إليك بلا لسان تنطقُ
وعلى يمينك سوسناتُ أطلعتُ زهرَ الربيعِ فهنّ حُسناً تشرقُ
فكائناتُ هي في اختلافِ رُقومها راياتُ نصرِكَ يومَ بأسِكَ تخفقُ
في مجلسِ جمعِ السرورِ لأهلِهِ ملكٌ إذا جُمعتُ قناه^(٣) يفرقُ
حازتْ بدولتهِ المغاربُ عزّةً فغدا ليحسُدَها عليه المشرقُ

وعتّبَ عليه المنصورُ وسجنه في مطبقِ الزاهرة ، واستعطفه برسائل وأشعار
عدّة ، فلم يسمع منه ، ثم صفّح بعدُ عنه ، فكتب إليه الجزيري :

عجبتُ من عفوّ أبي عامر لا بدّ أن تتبّعَ ————— مِنْهُ
كذلك اللهُ إذا ما عفا عن عبده أدخله الجنّة

فسرّ المنصورُ بذلك ، وصرفه إلى حاله ، وردّ عليه ما كان اعتقلَ من ماله .

ومن^(٤) شعره أيضًا ، مما اندرج له في أثناء نثره الذي ملّح فيه ، مخاطبته
على السنة أسماء كرائمه بزهورِ رياضِهِ . من ذلك عن بهارِ العامرية قصيدة أولها :

(١) راجع النفع (ج ١ ص ٣٤٨) .

(٢) النفع : بسحر .

(٣) في الأصل قناه

(٤) النفع (ج ١ ص ٣٤٩) .

حَدَقُ الحِسانُ تُقِرَّ لى وَتَغَارُ وَتَضِلُّ فى صِفَتى النُّهى وَتَحَارُ
 طَلَعَتْ عَلَى قُضْبى عِيونُ كَمَا نَمَى ^(١) مِثْلَ العِيونِ تَحْفُها الأَشْفارُ
 وَأَخَصَّ شَيْءٌ بى إِذَا شَبَّهْتَنِ دُرٌّ ^(٢) تَنْطَقُ سِلْكُها دِينَارُ
 أَهْدَى لهُ قُضْبُ الزُّمُرِدِ ساقَهُ وَحَبَاهُ أَنْفَسَ عَطِرِهِ العِطَارُ
 أَنَا نَرَجِسُ حَقًّا بَهْرَتُ عُقُولَهُمْ بَبْدِيعِ تَرْكِيبى فَقِيلَ بَهَارُ
 وَمِنْ أُخْرى عَلَى لِسَانِ نَرَجِسَ العامريَّة :

حَيَّتِكَ يَا قَرَّ العُلا وَالْمَجْلِسِ أَزكى تَحِيَّتِها عِيونُ النرجسِ
 زُهْرًا تُرِيكَ بِحُسْنِها وَبِلَوْنِها زُهْرَ النجومِ الجَارِياتِ الكُنُسِ
 يَمْلِكُنْ أَفئْدَةَ النَّدَامَى كَلَمًا دَارَتْ بِمَجْلِسِهِمْ مَدَارَ الأَكُوسِ
 مِلْكُ الهِمَامِ العامرى مُحَمَّدٍ المَكْرُمَاتِ وَلِلنُّهى وَالْأَنْفَسِ
 وَمِنْ أُخْرى عَنِ بَنَفْسَجِ العامريَّة :

إِذَا تَدافَعَتِ الخُصُومُ — أَيْدِ اللَّهِ مَوْلانا المَنْصُورَ — فى مَذاهِبِها ، وَتَنافَرَتْ
 فى مَفَاخِرِها ، فَالِيه مَفزَعُها ، وَهُوَ المَقْنَعُ فى فَصْلِ القَضِيَّةِ بَيْنِها ، لاسْتِيلاؤُهُ عَلَى
 المَفَاخِرِ بِأَسْرَها ، وَعَلِمِهِ بِسَرِّها وَجَهْرِها . وَقَدْ ذَهَبَ البَهَارُ والنَّرجِسُ فى وَصْفِ
 مَحاسِنِها ، وَالْفَخْرُ بِمِشَابِهِها كُلِّ مَذْهَبٍ . وَمَا مِنْهُما إِلَّا ذُو فَضِيلَةٍ ، غَيْرَ أَنَّ
 فَضْلِي عَلَيْهِما أَوْضَحُ مِنَ الشَّمْسِ الَّتِي تَعْلُونَا ، وَأَعَذِبُ مِنَ الغَمَامِ الَّذِي يَسْقِينَا .
 فَإِنْ كَانَا قَدْ تَشَبَّهَا فى شِعْرِها بِبَعْضِ ما فى العالَمِ مِنْ جَواهِرِ الأَرْضِ وَمَصابِيحِ
 السَّماءِ ، وَهى مِنَ المَوَاتِ الصَّامِتِ ، فَإِنِّى أَتَشَبَّهُ بِأَحْسَنِ ما زَيْنَ اللَّهُ بِهِ الإنسانَ
 وَهُوَ الحَيوانُ الناطِقُ . مَعَ أَنَّى أَعطَرُ مِنْهُما عِطْرًا ، وَأَحَدُ خُبْرًا ، وَأَكْرَمُ إِمْتاعًا
 شَاهِدًا وَغائِبًا ، وَيانِعًا وَذابِلًا . وَكَلالِها لا يُمْتَنِعُ إِلَّا رِيثًا يَمْنَعُ . ثُمَّ إِذَا ذَبَلُ

٣٠

تَسْتَكْرِهُ الْأَنْفُ شَمَّهُ ، وَتَسْتَدْفَعُ الْأَكْفُ ضَمَّهُ ، وَأَنَا أُمْتَعُ رَطْبًا وَيَابَسًا ،
وَتَدَّخِرُنِي الْمُلُوكُ فِي خَزَائِنِهَا وَسَائِرُ الْأَطْبَاءِ ، وَأَصْرَفُ فِي مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ . فَإِنْ
فَنَخَّرَا بِاسْتِقْلَالِهِمَا عَلَى سَاقٍ هِيَ أَقْوَى مِنْ سَاقِي ، فَلَا غَرَوَ إِنَّ الْوَشْيَ ضَعِيفٌ ،
وَالْهَوَاءَ لَطِيفٌ ، وَالْمَسِكَ خَفِيفٌ ، « وَلَيْسَ الْمَجْدُ يُدْرِكُ بِالصَّرَاعِ » .

وقد أودعت — أَيْدَ اللَّهِ مَوْلَانَا — قَوَافِي الشَّعْرِ مِنْ وَصْفِ مَشَابِهِ
مَا أودعاه ، وَحَضَرْتُ بِنَفْسِي لَثْلَا أَغْيَبَ عَنْ حَضَرَتَيْهِمَا ؛ فَقَدِيمًا فَضَّلَ الْحَاضِرُ
وَإِنْ كَانَ مَفْضُولًا ، وَلِهَذَا قَالُوا أَلَذُّ الطَّعَامِ مَا حَضَرَ لَوْقَتِهِ ، وَأَشْعَرُ النَّاسِ مَنْ
أَنْتَ فِي شِعْرِهِ ؛ فَمَوْلَانَا أَتَمُّ الْفَضْلِ فِي أَنْ يَفْصِلَ بِحُكْمِهِ الْعَدْلَ . وَأَقُولُ :

شَهِدَتْ لُفُؤَارِ الْبَهْفَسَجِ أَلْسُنٌ	مِنْ لَوْنِهِ الْأَحْوَى وَمِنْ إِبْنَاعِهِ
لَمَشَابِهِ الشَّعْرِ الْأَثِيثِ أَعَارَهُ	قَمَرُ الْمَنِيرِ الطَّلُقُ نَوْرَ شُعَاعِهِ
وَلَرُبَّمَا جَمَدَ النِّجْمِجُ مِنْ الطَّلَى	فِي صَارِمِ الْمَنْصُورِ يَوْمَ قِرَاعِهِ
فَحَسَاكَ غَيْرَ مُخَالَفٍ فِي لَوْنِهِ	لَا فِي رَوَائِحِهِ وَطِيبِ طِبَاعِهِ
مَلِكٌ جَهْلُنَا قَبْلَهُ سُبُلَ الْهُدَى	حَتَّى وَضَحْنَ بَنَاجِهِ وَشِرَاعِهِ
فِي سَيْفِهِ قِصْرٌ لَطُولِ نِجَادِهِ	وَتَمَامِ سَاعِدِهِ وَفُسْحَةِ بَاعِهِ
ذُو هَمَّةٍ كَالْبَرْقِ فِي إِسْرَاعِهِ	وَصَرِيحَةٍ كَالْحَبْنِ فِي إِبْقَاعِهِ
تَلَقَّى الزَّمَانَ لَهُ مُطِيعًا سَامِعًا	وَتَرَى الْمُلُوكَ الشُّمَّ مِنْ أَتْبَاعِهِ

قَالَ ابْنُ حَيَّانَ : وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بَعْدَ أَبِيهِ قَدْ فَوَّضَ إِلَى عَيْسَى بْنِ سَهِيدٍ
الْقِطَاعَ وَزَيْرَهُ أَمْرَهُ ، فَصَارَ عَيْسَى قِيَمَ الدَّوْلَةِ ؛ فَحَسَدَهُ رِجَالُ الْعَامِرِيَّةِ ، وَحَمَلُوا
طَرَفَةً فَتَى عَبْدِ الْمَلِكِ عَلَى مُنَاوَأَتِهِ ؛ فَسَمَتُ نَفْسُ طَرَفَةَ لِذَلِكَ لَفَضْلِ هَمَّةٍ كَانَتْ
لَهُ ، وَحَظَّ أَدَبٌ مَيَّزَهُ عَنْ طَبَقَتِهِ . فَاسْتَخْلَصَ مِنْ أَعْدَاءِ عَيْسَى أَلَمَةً ، مِنْهُمْ
عَبْدُ الْمَلِكِ الْعَجْزِيُّ وَأَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ ذَكْوَانَ ، فَزَيَّنَ لَهُ التَّقَدُّمَ عَلَيْهِ . وَهَرَفَهُ

العزيرى ما تهيأ لكانفور الأسود مولى محمد بن طنج صاحب مصر من الملك باسم مولاه تلك المدة الطويلة ، وأن محله فوق محل ذلك بابيضاض النفس والجسد ، واكتمال الفضل والمعرفة . فأصغى له طرفه وتدبر برأيه ، وحمل مولاه على أن قدم عبد الملك الجزيرى إلى خطّة الوزارة . فعارض عيسى فى كل أمر حتى كاد يسقطه لولا استخذه ^(١) عيسى له . ثم اعتلّ عبد الملك المظفر ، فانفرد طرفه بخدمته ، وكثر الإرجاف به ، فحمله ^(٢) ابن الجزيرى بغيه وسوء رأيه ، وجسره على أن يضبط الأمر لنفسه باسم الطفل مولاه ، على رسم كانفور الذى ذكرناه .

ثم رأى المظفر أن يخرج عسكريا إلى شرق الأندلس لإتفاق ما فيه من الأطعمة ، فهشّ فتاه طرفه لذلك ، وسأل مولاه أن يخرج معه عيسى الوزير . وقد أسرّ الإيقاع به ، فأجابه مولاه لذلك ؛ فأخذ فى التجهيز وأسرف فيما أتاه ، ولم يبق من وجوه القواد وصنوف العدد والحلى وكرائم النجائب عند مولاه إلا ما لا قدر له حتى صار فى أبهة الملوك . وأخذ الوزير عيسى فى الخروج معه ، فتشاقل له ، وأحسّ بالشرّ فى صحبته ، ورآه الانفراد بالمظفر فى ذلك ، فلم يمكنه لضبط طرفه باب مولاه ؛ فألقى عيسى بنفسه إلى مفرّج صاحب مدينة الزاهرة ثقة المظفر واستغاثه ^(٣) لمحنته . فوصل له رقعة إلى المظفر شرح فيها مراد طرفه . عند ذلك ^(٤) أتى من مأمّنه ^(٥) واستعفى الخروج معه ، فلم يساعفه مولاه ^(٥) .

(١) رسم الكلمة فى الأصل : استخدام .

(٢) كذا فى الأصل . ولعلها : فجمل له أو فجمله على .

(٣) فى الأصل : استغاثته .

(٤) فى الأصل وأتى .

(٥ — ٥) مقتضى السياق أن المظفر أجاب رجاء عيسى فى التخلف وأن طرفه استعفى

من الخروج أيضا فلم يجب رجاءه ، فلفظ « معه » فى السطر الأخير زائد .

فنفذَ لطيَّته ، والعُجبُ يَقودُه والحَيْنُ يَسوقُه . وخلا وجهُ المظفر لعيسى بعده ،
 وذكرَ له أشياء حَنَقَ بها على طرَفة . وتعجَّلَ المظفرُ الخروجَ إلى غزوتِه إثرَ
 طرَفة ، فخرجَ معه وزيرُه عيسى ، والجزيرى يغالطُه في القدحِ في طرَفة ،
 وفي قلبِه من عيسى النارُ المتضرِّمةُ ، وعيسى أعلمُ الناسِ بنفاقِه ، وأحبُّهم في سَفَكِ
 دِمِه . فلما صارَ عبدُ الملكِ إلى بعضِ الطريقِ دَبَّرَ عيسى على ابنِ الجزيرى أن
 يَنصرفَ إلى الحضرة ليحصلَ قبضَ بَقايا الخراجِ والنفقاتِ ، ولم يحسَّ بما
 دَبَّرَ عليه وعلى صاحِبِه . فلما وصلَ المظفرُ سرقُسطةَ ، وطرَفة مرتقبُ قدومِ
 مولاه على مقربةٍ منها ، دخلَ في أثبَّتِه وتعبَّئَتِه وصارَ إلى قصرِ مولاه مُدلاً
 بمنزلتِه ، فعدِلَ به عن مجلسِه ولم تَقعْ عينُ المظفرِ عليه ، وقَيَّدَ لوقتِه ، وأُخرجَ
 إلى الجزائرِ الشرقيَّةِ . فلم يكنَ بينَ دخولِه سرقُسطةَ أميرًا وخروجِه عنها أسيرًا
 إلا ساعة . واتَّخذَ الناسُ حديثَه عَجَبًا . ثم أنفذَ المظفرُ إلى الحضرةِ بضمِّ
 عبدِ الملكِ الجزيرى إلى المُطَبَّقِ بالزَّاهرة . وكتبَ عيسى الوزيرُ إلى مُفرِّجِ
 العامرى وإلى عبدِ الملكِ بنِ مَسلمة ، وكانا من أعداءِ ابنِ الجزيرى ، وحرَّضَهما
 على إبادتِه ؛ فأدخلَ عليه في مُطَبَّقِه قومٌ من الشُّودانِ وخَنَقوه ، وأُشيعَ موتهُ
 وأُخرجَ مَيِّتًا بعدَ أيام ، وأُسلمَ إلى أهله ولا أثرَ به ، ودُفِنَ في شَوالِ سنة
 أربعٍ وتسعين . فضرَعَ منه — رحمه الله — يومئذٍ فارسُ نثرٍ ونِظام ، ومُزَقَّ
 بقتلِه وشيُّ الكلام . وكان يُشبهه في ذِكاؤه وأدبِه مع عَقْرَبِيَّةِ الطبعِ وكثرةِ
 الضرِّ وقلةِ النفعِ ، محمدُ بنُ الزِيَّاتِ في ذلك الصُّمَّع . أخبرني أبى خَلَفُ بنُ حُسَيْنٍ
 قال : سألتُ الذى تولى قتلَ ابنِ الجزيرى في محبِسِه فجعلَ يصفُ لى سُهولةَ ما عاناه
 منه لِقِضاةِته وضعفِ أسيرِه ، ويقول : ما كان الشَّقُّ إلا كالفرشِ في يَدَي .
 دَقَّتْ رِقبتَه بركبتي فا زادَ أن نفخَ في وَجْهِ . فعجبتُ من جَهْلِ هذا الأسود .

٥

١٠

١٥

٢٠

رجعُ ما انقطع : وكان صاعدٌ قد طُوبَ في أخرياتِ تلكَ الدولة . وانتهت
به الحال ، إلى أن أُغْرِمَ في خبرِ طويلٍ مائةَ مثقال ، فاستغاثَ على ابنِ وداعةَ
أحدَ الفرسانِ الأبطالِ ونهباءِ الدولة كانَ في ذلكَ الأوان ، وكتبَ إليه رقعةَ
قالَ فيها .

- ٥ إني على وهني ، وما أخذَه الدهرُ مني ، ونَحْتَه من قِدْحِي ، لأربأَ بالفضلِ
أن يَنْحَطَّ إِلَّا في مَصَانِهِ ^(١) ، وَيُحَلَّ رَحْلُهُ في غيرِ مَعَانِهِ ^(٢) ، فلم أحوِّمْ على أحدٍ
طيرَ رجائي ، ولا رَمَقْتُ بأملِي إِلَّا من نَوَّه اللهُ بِاسْمِهِ ، وناسبَ بين أحواله ،
وشابهَ بينَ خِلاله ؛ فسبحانَ من جعلَ سِنَانَكَ عِدْلَ لِسَانِكَ ، وبيانَكَ كُفَّ
طِعَانِكَ ، فالألسنُ تتنادمُ على وصفِكَ ، والقلوبُ تعاقِرُ خِمرَةَ حَبِّكَ ، خَبِيئَةُ
أَذَاعِهَا اللهُ مِنْكَ ، وذخيرةُ أَرْزَها الدهرُ بك . وما زلتُ في الأيامِ التي تعرفُها
مُنْقَبًا عن محاسنِكَ ، بِحَثَاثَا لَا تَارِكٍ بِالْعُدُوِّ وَذَوَاتِهَا ، ومقارعتِكَ الأهوال ،
وَمُصَاصَتِكَ الأبطال ، عاركا بِجَبِينِكَ شَوْكَةَ الأَسِنَّةِ ، وَمُنَاجِيًا أَطْرَافَ الأَعْنَةِ ،
فَأَذْكَرُ بِكَ صَعَالِيكَ الْعَرَبِ وَذُؤْبَانَهَا ، وشُعْرَاءَ الْفَرَسَانِ وَغِرْبَانَهَا ^(٢) ، كَعَمْتَرَةَ
وَزَيْدِ الْخَيْلِ ، وَأَنْتَ يُمْنُ السَّرِيَّةِ وَقَرْنُ الْكِتَابَةِ ؛ وَغَارَةُ قَوْمِكَ مِنْ سُلَيْمٍ
١٥ عَلَى فِزَارَةَ وَنَذِيرُهَا يَهْتِفُ : أَتَيْتُمْ يَا فِزَارَةَ هَذِهِ سُلَيْمٌ وَالْمَوْتُ ! وَأَنَا ابْنُ عَمِّكَ
مِنْ رَبِيعَةٍ ، إِذْ هِيَ وَسُلَيْمٌ أَحْلَافٌ ، فَالْعَدْنَانِيَّةُ تَلْفَنَّا ، وَالنَّسَبُ يَضُمُّ شَعْبَنَا .
وَفِي الْبَلَدِ مَنْ وَتَرَنِي فَاسْتَقَادَ مِنْهُ لِسَانِي ، وَظَلَمَنِي فَانْتَصَرَ لِي حِمَاةُ كُمَاتِي ، فَأَرْسَلْتُهَا
فِيهِ شُعْثًا قِبَاحًا ، مَوْرُوثةً فِي الْأَعْقَابِ ، خَالِدَةً عَلَى الْأَحْقَابِ ، أَشْرَدَ مِنْ نَعَامَةٍ ،
وَأَلْزَمَ لَهُ مِنْ طَوَقِ الْحَمَامَةِ ، فَهُوَ يَبْنِي الْغَوَائِلَ ، وَيَبْثُ لِي الْحِبَائِلَ .

(١) في الأصل : مضانه ... مغانه .

(٢) في الأصل : عربانها .

ومن شعره فيه :

أبا حسنٍ ربيعةً من سليمٍ سنانُ زانَ عاليةَ الرماحِ
وإني عائذُ بك من هَناؤِ^(١) نَحْتَنَ دَعائِي نَحْتَ القِداحِ
فَكَرَّ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ وانتِشَلُهُ فليسَ حِمَى ابْنِ عَمِّكَ بِالْمُبَاحِ
فإنَّ الجارَ عندَكَ بينَ جنبي عُقابِ الدَّجْنِ كاسرةِ الجَنَاحِ

ومنها في المدح :

تَصَدُّ الخيلُ بِاسْمِكَ في غديرٍ على ظَمَأٍ عن الماءِ القَرَّاحِ
تَظَنُّكَ طالِعاً بَدِيءِ سُلَيْمٍ عليها عندَ مُفْتَضَحِ الصُّباحِ
إذا سَاورتَ قِرْنَكَ في مَكْرٍ جعلتَ له ذِرَاعَكَ كالوِشاحِ

فما انتفع بعلي بن وداعة ، ولا كانت له فيه شفاعاة .

وكان خاتباً أيضاً هشام بن الحكم الخليفة في تلافى حاله ، فما أصغى له لزُهدِه فيه وفي أمثاله . وعوجل^(٢) علي بن وداعة وقتل في خبرٍ طويل ، فانسدَّ بابُ الفهمِ بقرطبة يومئذٍ وطَمست العبيدُ العاقبونَ له رسمه ، وأيسَ ذُورُ الأحسابِ منهم ، فتفرقوا شذَر مَذَر ، ولم يبقَ بها منهم مَنْ له خَطَر . وتناصرتْ خلالُ المسكُورهِ فيما بعدُ على صاعدي بارتجاجِ الفتنة ، غلاء سِفرٍ ورِخصُ شِعْرٍ ، حتى اختلَّ وعجزَ عن سترِ ولده وأهله . وبخلَ هشامُ على ذلك كُلِّه بتسريحِهِ والإذنِ له في الانطلاقِ عن الأندلسِ فرَقاً من خُبثِ لسانِهِ . فخرَجَ مُستَخفياً وجازَ بِشَاطِيشٍ على يدِ أبي زيدٍ البكريّ رئيسها سنة ثلاثٍ وأربعمائة ، فاتصلَ بِصاحبِ صِقْلِيَّةٍ ، وفارقَ البؤسَ وراجَعَ النِّعمة . ثم رَجَعَ

(١) الهناة أى الداهية مفرد جمعها هنوات واستعملها صاعد هنا جمعاً .

(٢) في الأصل : وعوجل .

إلى الأندلس إثر غلبة سليمان والبرابر على قرطبة مُستخِرِجاً لمن تخلف بها من أهله وولده . وتعرض أيضاً لمديح سليمان فما أنجح معه ولا أفلح . وقد كان استطرف أول دولته ^(١) فرثمه رِمانَ العلوق ^(٢) ولم يَقْرِهِ قرصاً لاستحالتِه عن فعل الجميل مُجَلَّةً . ثم عجل الانكفاء إلى صقلية ، ومات بها رحمه الله سنة عشر وأربعمائة .

قوله : « جعلت له ذراعك كالوشاح » أخذه من قول أسد ^(٣) يزيد ابن الصّعق :

تركتُ الركابَ لأربابها وأكرهتُ نفسي على ابنِ الصّعق
جعلتُ يَدَيَّ وشاحاً له وبعضُ الفوارسِ لا يُعتنق
ونُعقبُ أخبارَ صاعدٍ بمصادرٍ ومواردٍ من أخبارِ ابنِ عامرٍ ، منسوقة
الأوائلِ والأواخر ، مقيّدة العيون والنوادر . ونلّمُ بشيء من الأسباب التي
ذلت له الصّعاب ، وأخضعت له الرقاب . وإنما نعتمدُ من الأخبارِ أشهرها
بُسوقاً ، وأخصرها طريقاً ، وأمسّها بالأدب رِجماً ، وأشبهها بفرضِ هذا الكتاب
أرضاً وسماً . وبحسبنا من دولة ابنِ عامرٍ أن ننقلَ نصَّ ابنِ حَيَّان ؛ كيف
طلعت نجومها ، ومن أين نشأت غيومها ، ونُتلي ذلك كيف مال ^(٣) ظلُّها
واضطربَ حبلُها ، إذا كثُرَ ما يقال للحاضر من أين طلع ، وللغابر الدابر
ما صنع . ونهايةُ المراد ، علمُ السكونِ والفساد .

تلخيصُ التعريفِ بدولةِ ابنِ أبي عامرٍ من الأولِ إلى الآخر
هو أبو عامرٍ محمدُ بنُ عبدِ الله بنِ عامرٍ بنِ أبي عامرٍ محمد بنِ الوليد بن

(١ - ١) رسم المجلة في الأصل : فرسه رمان العلوى .

(٢) في الأصل : أبي يزيد (٣) رسمها في الأصل : « ما ظلها » .

يزيد بن عبد الملك المعافري . وعبد الملك جدّه هو الداخل بالأندلس مع طارق
مولى موسى بن نصير في أول الداخلين من المغرب . وهو في قومه وسيط . ونقلت
من خطّ ابن حيان ، قال : انتهت خلافة بني مروان إلى الحكم تاسع الأئمة
فيها ، فتناهت في السُّرور والجلالة والكمال والأبهة ؛ ونظم رواة الأخبار وحمله
الأنار من مناقبه ما طار كل مطار في جميع الأقطار ، إلا أنه — تَعَمَّدَ اللهُ
خطاياهُ — مع ما وُصف من رجاحته ، كان ممن استهواه حبُّ الولد وأفرط
فيه ، وخالف الحزم في توريثه الملك بعده في سنّ الصِّبا ، دون مَشِيخَةِ الإخوة
وفتيان العشيّة ومَن يكمل للإمامة بلا محاباة ، فرطَ هوًى ووهلة انتقدها
الناسُ على الحكم وعدّوها الجانية على دولته . وقد كان يعميها على ولدِ العباس
قبله ، فاتاها هو مختاراً ولا مردّ لأمر الله . وذلك أنه نفَسَ بسلطانه على ثلاثة
رجال من إخوته ولدِ الناصر : عبد العزيز شقيقه والأصبغ والمغيرة ، مع جماعة
من ولدِ الخلفاء كهول وشبان ، ما فيهم إلا مضطّاع للأمر قوًى عليه . فتخطّى
جماعتهم إلى ابنه هشام وهو في الوقتِ طفلٌ ما بلغ الحلم . قال ابن بسم :
وحدّث عن أحمد بن زياد عن محمد بن وضاح عن رجلٍ يتكلّم في الحديثان ،
أنّه قال : لا يزال ملكُ بني أمية بالأندلس في إقبالٍ ودوامٍ ما توارثه الأبناء
عن الآباء ، فإذا انتقل إلى الإخوة وتوارثوه بينهم فقد أدبر وانصرف . فلعلّ
الحكم بهذا الخبر توهم ، فجاذبه عن إخوته ؛ وإن كان ذوّ اللب والنظر
لا يلتفتون إلى مثل هذا الخبر .

رجع الخبر إلى ابن حيان : وكان جودرٌ وفائقٌ فتياً الحكم قد أخفيا
موته ، ودبراً على صرف البيعة إلى أخيه المغيرة ، وكان قال له فائق : إن هذا
لا يتم لنا إلا بقتل جعفر المصحفي . فقال له جودر : ونستفتحُ أمرنا بسفك دم

شيخ دولة مولانا ! قال له : هو والله ما أقول لك . ثم بعثا إلى المصحفي ونعيا إليه الحكم ، وعرفاه برأيهما في المغيرة ، فقال لهما المصحفي : وهل أنا إلا تبعكما وأنتما صاحبا القصر ومدبرا الأمر ، ولكما الرأي فيما قلتماه ؟ فأخذنا في تدبير ما رأياه . وخرج المصحفي وجمع حاشيته وجنده ، ونعى إليهم الحكم وعرفهم مذهب جؤذر وفائق في المغيرة . وقال : إن بقينا على ابن مولانا كانت الدولة لنا ، وإن بدلنا استبدل بنا . فقالوا الرأي رأيك . فبادر : المصحفي ببعثه محمد بن [أبي] عامر مع طائفة من الجند وقته إلى دار المغيرة لقتله . قال ابن أبي عامر : فالفيت المغيرة مطمئنا لا خبر عنده ، فنعمت إليه أخاه الحكم فخرع ، وعرفته جلوس ابنه هشام في الخلافة . فقال : أنا سامع مطيع . فكتبت إلى جعفر بحاله وبالصورة التي ألقىته عليها من السلامة . فراجعني جعفر المصحفي وهو يقول : غررتنا ، اقض عليه وإلا وجهت غيرك من يقتله ! فقتل رحمه الله خنقا . وكانت علة الحكم الفالج ، وكان تقدمه عبد العزيز أخوه بمديدة ، وتعطل أخوه الأصبغ ببطالة أزالته عنه الرهبة . فذهبت عن جعفر بن عثمان فيهما الحزة^(١) ، وتوفر اهتمامه بهما بالمغيرة . وكان فتى القوم كرمًا ورجلة ، ومن أشير نحوه بالأمر بأسباب باطنة^(٢) ، فأخذ له أهبتة ؛ فلما قضى الحكم نحبته ليلة الأحد الثالثة من صفر سنة ست وستين ، بادر بالمغيرة على الصفة المذكورة .

وافتح المصحفي أمره بعد بإيثار النصفة ، وأطراح الكبر . وكان أول ما أتاه من ذلك صدر تقلده حجابة هشام — وقد رفع فراشه فوق فراش الوزراء أصحابه ، وأبدل بالكتان الديباج على سالف العادة — أن قال : إني أستحي من

(١) كذا في الأصل . (٢) في الأصل : وبأسباب باطنة .

أصحابي أن أتمهد أفضل من فرشهم ، مع عجزى عن درك شأوهم ، غير أنا
نسلم لأمير المؤمنين اختياره ، فإما يساوى بيننا في فرش كرامته ، وإما أقرنا
على الأمر الأول ولا كفران لنعمته . فأفرش للجميع ، مدّ زال فرش الديباج ،
فرش الكتان ، فجرى عليهم الرسم إلى آخر الزمان . واستحسن فعل جعفر
يومئذ وعد من غوره . وعول جعفر في سائر أوقات دولته على هذا النوع
من السياسة ، فلزم التواضع للناس ، وأطلق لهم البشر والآن كنفه ووطأ خلقه ،
ورأى أنهم بذلك يصلحون له ، دون البذل لذات اليد والمواساة في النعمة ؛
فاستأثر بالأعمال ، واحتجج الأموال ولم يفلهم ، وبني المنازل وهدمهم ، وشح
بالنشب وسخى بهم . وعارضه من محمد بن أبي عامر ماجد أخذ معه بطرفي
نقيض : بالبخل جوداً ، وبلاستبداد أثره ، [و] باقتناء الضياع اصطناع الرجال ،
حتى غلبه عما قليل . وتحركت حال ابن أبي عامر لأول الدولة ، وشارك في
التدبير بحق الوزارة ، وتقوى على أمره بنظره في الوكالة وخدمته للسيدة
صبيح أم هشام . وكانت حاله عند جميع الحرم أرفع الأحوال ، بتقديم الاتصال ،
وحسن الخدمة ، والتصدى لمواقع الإرادة ، وطلاقة اليد في باب الإلطاف والهدية ،
فأخرج له أمر الخليفة هشام إلى حاجبه جعفر في الاستعانة به في التدبير
والمشورة له في الأمور ، والاختصاص به على الجمهور . وكان جعفر لمحمد على
بعض ما أريد منه ثقة به وسكونا إلى جهته ، فامثل ما أمر به في ابن أبي
عامر لغفلته ، وتزيد في برّه ، وأشركه في سرّه وجهره . وانهماك^(١) ابن أبي
عامر في مغالطة جعفر ، وأراه أنه صاحبه الخاطئ لحاله ؛ وعول جعفر على رأي
محمد ، ووصل يده بيده ، واستراح إلى كفايته ، وابن أبي عامر يكرر به ويضرب

١٠

١٥

٤٥

٢٠

بين حسدته ، ويُناقضه في أكثر ما يعامل به الناس ، ويستعمل^(١) إليهم بالتبذل وقضاء الحوائج ، ويتقدم من المعالي إلى ما يحجم جعفر عنه ؛ يستضم الرجال وجعفر يدفعهم ، ويزيدهم جعفر ينقضهم ، يظن أنه كلَّ يحمله عنه ، فيالك من جامعٍ لمحمدٍ ومفرقٍ عن جعفر ! إلى أن هوى نجمه وزال أمره .

- وكان أول اتصال ابن أبي عامر بالحكم أنه وُصف له فاستخلف على قضاء كورة ربه ، ثم تصرف في وكالة صبح أم هشام ، فاضطلع بكل ما قلد ، واستهوى هذه^(٢) المرأة بحسن الخدمة — وهي الغالبة على الحكم — فأزلفته . وولى الشرطة والسكة والمواريث . والسكة يومئذ أعلى الخطط في الإفادة . وقرن له بهذا كله القضاء بأشبيلية ، فعلت حاله وعرض جاهه ، وعمر بابه في حياة الحكم ، وممته ترتبى به وراء ما يناله من الدنيا أبعد مرمى ، وهو في كل ذلك يغدو إلى باب جعفر ويروح ، ويختص به ويتحقق نصيحته ، إلى أن أحظاه الجد وساعده القضاء ، فأسقط جعفرًا . فلما انفرد بشأنه وتمكن من سلطانه ، توثق لنفسه وحصن حاله ، ورمى إلى الغرض الأقصى من ضبط الملك والحجر عليه والاستبداد دونه . وامتثل رسم المتغلبين^(٣) على سلطان ولد العباس بالشرق من أمراء الديلم في عصره ، فنال بغيته ، وتهنأ معيشته ، وأورثه عقبه بعده ، من غير اقتدار عليه بجند خاص ولا صيال بعشيرة ولا مكاثرة بمال ولا عده ، بل رمى الدولة من كيناتها ، وعدا عليها بأعضادها ، وانتضلها^(٤) بمشاقصها ، وأنفق على ضبطها أموالها وعُددها ، حتى حوَّها إليه ، وسبكها في

(١) كذا في الأصل ولعلها : ويستميلهم .

(٢) في الأصل : بهذه .

(٣) رسم الكلمة في الأصل : المستغلبين .

(٤) في الأصل : وانتضلها .

قَالِيهِ ، وَسَلَخَ رَجَالَهَا بِرَجَالِهِ ، وَعَفَى رُسُومَهَا بِمَا أَوْضَحَ مِنْ رُسُومِهِ ، وَأَسْقَطَ رَجَالَ
الْحَكَمَ مِنْ سَائِرِ الطَّبَقَاتِ : وَالْكِتَابِ وَالْعُمَالِ وَالْقُضَاةِ وَالْحَكَّامِ وَأَصْحَابِ
السُّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ وَمَزَقَهُمْ ، وَأَقَامَ بِأَزَانِهِمْ مِنْ تَخْرِيجِهِ وَاصْطِفَاعِهِ رَجَالًا
سَدُّوا مَكَانَهُمْ ، وَمَحَوْا ذِكْرَهُمْ ، أَعَانُوهُ عَلَى أَمْرِهِ .

وَأَوَّلُ عُرُوَّةٍ فَضَّ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ مِنَ الْمُلِكِ جَمَاعَةَ الصَّقَابِ ، اسْتَخْرَجَ
مِنْهُمْ بِأَسْبَابِ الْمَصَادِرِ أَمْوَالًا جَمَّةً اسْتَأْثَرَ بِأَكْثَرِهَا ، وَتَتَبَعَ لَذَلِكَ كِتَابَهُمْ
وَأَسْبَابَهُمْ وَقَتًا بَعْدَ آخَرٍ ، وَتَقَسَّمَتْهُمْ أَيْدِي الْقَدَرِ نَفِيًّا وَقَتْلًا ، صَبْرًا وَغَلَبَةً ،
سِرًّا وَعِلَانِيَةً ، حَتَّى هَلَكُوا عَنْ^(١) آخِرِهِمْ فِي أَسْرَعِ مُدَّةٍ . وَاخْتَلَفَتْ مَقَاتِلُهُمْ
بِحَسَبِ اسْتِيفَائِهِمْ مُدَدَ أَعْمَارِهِمْ ، فَلَمْ يَصِحَّ لِي تَارِيخُ ذَلِكَ عَلَى حَقِيقَتِهِ . فَكَانَتْ
تِلْكَ الطَّائِفَةُ أَوَّلَ مَنْ ظَهَرَ انْتِقَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِابْنِ أَبِي عَامِرٍ مِنْهَا ؛ فَكَانُوا جَبَّارِينَ
قَاسِطِينَ فِي بِلَادِهِ ، مَتَمَرِّدِينَ عَلَى عِبَادِهِ ، فَأَرْسَلَهُ بِقُدْرَتِهِ عَلَى هَذَا النَّمَطِ مِنْ
خَلْقِهِ فَأَبَادَهُمْ ، وَنَجَّى أَهْلَ السَّلَامَةِ مِنْ سَوْرَتِهِ ، وَتِلْكَ عَادَتُهُ تَعَالَى فِي مَنْ نَسَكَبَ
عَنْ سَبِيلِهِ .

ذَكَرُ دِفَاعِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ الْعَدُوَّ صَدَرَ الدَّوْلَةِ وَقِيَامِهِ بِالْجِهَادِ دُونَ الْجَمَاعَةِ
وَتَوَصُّلِهِ بِذَلِكَ إِلَى تَدْبِيرِ الْمُلِكِ

قَالَ ابْنُ حَيَّانَ : وَجَاشَتْ النُّصْرَانِيَّةُ بِمَوْتِ الْحَكَمِ ، وَخَرَجُوا عَلَى أَهْلِ
الشُّغُورِ ، فَجَاءَ صُرَّاحُهُمْ إِلَى بَابِ قُرْطُبَةَ فَلَمْ يَجِدُوا عِنْدَ جَعْفَرٍ غَنَاءً وَلَا نُصْرَةً .
وَكَانَ مِمَّا غَرَّبَ بِهِ لُجْبُنُهُ وَعَظِيمُ أَفْنِهِ أَنْ أَمَرَ أَهْلَ قَلْعَةِ رِبَاحِ^(٢) بِقَطْعِ سَدِّ
نَهْرِهِمْ آتَةَ لُغْمِهِ وَسُوءِ دِجْلَتِهِ ، يَلْتَمَسُ بِذَلِكَ دِفَاعَ الْعَدُوِّ عَنْ حَوَزَتِهِ ؛ لَمْ

(١) فِي الْأَصْلِ : مِنْ . (٢) فِي الْأَصْلِ : رِبَاح .

تَسْمَعُ حِيلَتَهُ لَا كَثُرَ مِنْ ذَلِكَ مَعَ وَفُورِ جَيْشِ السُّلْطَانِ يَوْمَئِذٍ وَجُومِ أَمْوَالِهِ ،
فَكَانَتْ مِنْ سَقَطَاتِ جَعْفَرِ الْمَأْثُورَةِ ؛ فَأَنِفَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ مِنْ تِلْكَ الدَّنِيَّةِ ،
وَأَشَارَ عَلَى جَعْفَرٍ بِتَجَرِيدِ^(١) الْجَيْشِ لِلْجِهَادِ ، وَخَوْفَهُ سُوءَ الْعَاقِبَةِ فِي تَرْكِهِ ،
وَأَجْمَعَ الْوُزَرَاءُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا جَمَاعَةً خَامُوا عَنْهُ ، فَبَادَرَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ إِلَيْهِ وَوَعَدَ
مِنْ نَفْسِهِ الْإِسْتِقْلَالَ بِهِ عَلَى أَنْ يَخْتَارَ الرِّجَالُ ، وَيُجَهَّزَ لَغَزْوَتِهِ مِائَةُ أَلْفٍ مِثْقَالٍ ،
فَنَفَرَ بِالْجَيْشِ وَدَخَلَ عَلَى الشَّعْرِ الْجَوْفِيِّ إِلَى جَلِيقِيَّةٍ ، فَنَازَلَ حِصْنَ الْحَامَةِ مِنْ
أَعْمَالِ رُدْمِيرَ ، فَدَخَلَ رَبَضَهُ وَأَفْشَى النَّسْكَائَةَ وَغَنِمَ ، وَقَفَلَ وَوَصَلَ الْخَضِرَةَ
بِالسَّبْيِ إِلَى اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ يَوْمًا ، فَعَظُمَ السَّرُورُ وَخَلَصَ الْجَنْدُ لَهُ ، وَاسْتَهْلَكُوا
فِي طَاعَتِهِ لَمَّا رَأَوْهُ مِنْ كَرَمِهِ .

- ١٥ | ٤٦ | حَدَّثَنِي أَبِي خَلْفَ بْنِ حُسَيْنٍ قَالَ : تَذَاكَرْنَا جُودَ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ يَوْمًا ،
وَبِالْخَضِرَةِ مُحَمَّدُ بْنُ أَفْلَحٍ غَلَامُ الْحَكَمِ ، فَقَالَ عِنْدِي مِنْ جُودِهِ غَرِيبَةٌ : أَنْكَحْتُ
بَنْتِي عَلَى عَهْدِ مَوْلَانَا الْحَكَمِ وَالْحَالُ بِنَاضِيقَةٍ ، فَاضْطُرَرْتُ لَمَّا أَصْلَحُ بِهِ حَالَ
الْجَارِيَةِ إِلَى بَيْعِ إِيْجَامٍ جُلِّيٍّ ثَقِيلِ الْوِزْنِ رَدَى الْعِيَارَ ، وَكَانَ عِنْدِي لَزِينَتِي
أَيَّامَ الْمَرَاكِبِ ، وَتَقَاعَدَ فِيهِ التِّجَارُ فَانْقَطَعَ بِي أَمْلِي ؛ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي قَصْدُ ابْنِ
أَبِي عَامِرٍ صَاحِبِ السَّكَّةِ لِلذَّائِعِ مِنْ كَرَمِهِ ، وَأَعْظَمُ رَغْبَتِي أَنْ يُضْرَبَ لِي فِي
السَّكَّةِ دَرَاهِمٌ ، فَقَصَدْتُهُ وَعَرَفْتُهُ رَغْبَتِي ، فَسَارَعَ بِأُتْلَقِ وَجْهِ وَقَالَ : سِرْ إِلَى
بِدَارِ الضَّرْبِ ؛ فَجِئْتُهُ وَأَوْصَلَنِي إِلَى نَفْسِهِ وَالدَّرَاهِمُ الْمَطْبُوعَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَوْمَأَ
إِلَيَّ فَأَخْرَجْتُ الْإِيْجَامَ وَأَنَا خَائِفٌ مِنْ صَرَفِهِ لِسُقُوطِ عِيَارِهِ ، فَوَاللَّهِ مَا نَظَرَ إِلَيْهِ
وَلَا عَايَرَهُ ، وَرَاطَلَنِي وَاللَّهِ بِاللَّجَامِ بِحَدَائِدِهِ وَسُيُورِهِ . فَأَخَذْتُ مَا لَمْ يَدْرُ فِي
وَهْمِي أَنِّي أَظْفَرُ بِمِثْلِهِ . وَعَظَّمَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ فِي عَيْنِي ، وَقَمْتُ عَنْهُ وَحِجْرِي

ملآن ولا أصدّق بما حصلت عليه ؛ فجهزت بنتي وفضل لي شيء لا يكفيني ؛
وقلّ مولاي الحكم في عيني وأحببت ابن أبي عامر ، حتى لو دعاني إلى معصية
الحكم — وهو مالك رقي وإمامي — لما قعدت عنه .

مُظَاهَرَةُ غَالِبٍ مَوْلَى النّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ وَمُظَاهَرَتُهُ
عَلَى الْمُصْحَفِيِّ إِلَى أَنْ أَسْقَطَهُ وَمَاتَ فِي سَجْنِهِ

قَالَ ابْنُ حَيَّانَ : وَكَانَ بَيْنَ الْمُصْحَفِيِّ وَغَالِبٍ صَاحِبِ مَدِينَةِ سَالَمٍ وَشَيْخِ
الموالي وفارس الأندلس غير مدافع أشد ما كان بين اثنين من العداوة والتقاطع .
فأهمّ المصحفي شأنه ، وناظر الوزراء في ما بدا من ثقافته في الذب عن الثغر ،
فأشاروا باستصلاحه . وبادر بذلك ابن أبي عامر لما أرادته من مُظَاهَرَتِهِ ، فلم
يزلّ يقومُ بشأنه ويخدمه داخل الدار من قبل الحرم كعادته حتى تمّ على
إرادته ، وخرج الإذن أن يُنهض غلب إلى ثنى الوزارة ويُدبّر جيش الثغر ،
وابن أبي عامر جيش الحضرة . ثم خرج ابن أبي عامر إلى غزاته الثانية ،
 واجتمع به وتعاقدا على الإيقاع بجعفر . وقفل ابن أبي عامر غانماً ، وبعد صيته .
فخرج أمر الخليفة هشام بصرف المصحفي عن المدينة ، وكانت في يده يومئذ
نخلف عليها ابنه . فخرج ابن أبي عامر نحو كرسيها في ذلك اليوم والخلع عليه ،
ولا خبر عند جعفر ، وإن ابنه لجالس مجلسها في أبيهته ، حتى صعد ابن أبي
عامر نحوه ، فولى ولد المصحفي الدبر ناكصاً على عقبيه ، وأتبع بذابته ، وعاد
إلى داره . وملاك محمد بن أبي عامر الباب بولايته الشرطة ، وأخذ على جعفر
وجوه الحيلة ، وخلاه^(٢) وليس بيده من الأمر إلا أقله . وكان ذلك — زعموا —

(١) الثنى بالسكسر والقصر : الأمر يعاد مرتين . (٢) في الأصل : وجلاه .

بتدبيرٍ غالبٍ معه عند اجتماعهما بالثغر ، وقال له : سيظهرُ لك ذِكْرُ بهذا الفتح
ويشغلُ السرورُ أهله عن الخوضِ فيما تُحدثُهُ من قصّة ، فأياك أن تخرجَ عن
الدار حتى يُعزلَ جعفرُ عن المدينة وتقلدّها ، ويزولَ أمرُهُ عن الباب والدار
ويتمَّ عليه التدبيرُ حتى يُزالَ عن الحجابة . ففعلَ ذلك وضبطَ المدينة ضبطاً
أنسى به أهلَ الحضرة من سلفٍ قبلُ من الكفاةِ أولى السياسة .

- وانهمك ابنُ أبي عامر في ضُحبةٍ غالب ؛ ففطنَ جعفرُ لتدبيرِ ابنِ أبي
عامر عليه بعدَ وهلته ^(١) ، فكاتبَ غالباً يستصلحه وخطبَ أسماءَ بنتَه لابنَه
عثمان ، فأجابَه غالبٌ لذلك ، وكادت تتمُّ مصاهرته له . وبلغَ ابنُ أبي عامر
فقامت قيامته ، وكاتبَ غالباً يخوفُه الحيلةَ ويهيئُ منه الحقدَ . وألقى عليه أهلَ
الدار وكاتبوه فصرفوا غالباً ؛ ورجعَ إلى محمد بنِ أبي عامر وأنسكحَ ابنتَه أسماءَ
منه وتمَّ العقدُ له في محرمِ سنةٍ سبعٍ وستين ، وأدخلَ السلطانُ تلكَ الابنةَ إلى
قصره وجَهَّزَها إلى محمد بنِ أبي عامر من قبله ؛ فظَهَرَ كلُّ الظهور ، واستوثقَ
له التدبير ، وصار عنده جعفرُ لا شيء ، إلا أنه غالطه زمنه إلى أن أحكمَ
أسبابَ صرفه . واستقدمَ السلطانُ غالباً وقلدهَ خُطَّةَ الحجابةِ مُشترِكاً مع
جعفر . ودخلَ ابنُ أبي عامرٍ بأسماءَ بنته ليلةَ نيروزِ العامِ المؤرَّخ ، وكانت أعظمَ
ليلةٍ عُرِسَ بالأندلس . ولجعفرُ في ذلكَ رسالةً إلى السلطانِ حسنةً في بابها تملقُ
فيها وتصنعُ ، وهو قد أيقنَ بالنسكية ؛ وكفَّ عن اعتراضِ ابنِ أبي عامر في
شيءٍ من التدبير . وابنُ أبي عامرٍ يُداهنه ولا يكشفُه ، وجعفرُ يشكُّ في أمره ؛
قد استولى عليه الإديارُ والحيرةُ ، فلم يصحَّ له رأى ولا روية ؛ وانقبضَ الناسُ
عنه ، وانثالوا على ابنِ أبي عامر إلى أن صارَ يغدو إلى قصرِ قرطبةَ ويروحُ

(١) في الأصل : بعد من وهلته .

وحده وليس في يده من الحجابة سوى اسمها ، وابن أبي عامر قائمٌ بشروطها ؛
 ينصبُ الحبائلَ لسقوطِ جعفر ، والأقذارُ السماويةُ تنجده . وكانت لله عند
 جعفر في إثاره هشاماً بخلافته ، واتباعه شهوةً نفسه وحظاً دنياء ، وتسرعُه إلى
 قتلِ المغيرةِ لأوّلِ وهلةٍ دونَ قصاصِ جريرة^(١) استدركتُه دونَ إملاء ، فسأطَ
 عليه من كان قدّر أنّه يتسلطُ على الناسِ باسمه . ولما اتفقتُ على جعفر هذه
 الأسبابُ ، جدّ المقدارُ به وسخطَ السلطانُ عليه وعلى ولده وأنسابه وعلى أخيه
 هشامٍ وسائرِ طبقتِهِ ، وطولبوا بالأموالِ وأخذوا برفعِ حسابِ ما تصرفوا فيه
 لأوّلِ الزمان . وأخذهم ابنُ أبي عامرٍ بالخروجِ عنها ، وتوصّلَ بذلك إلى
 استئصالِ أموالهم وانتهاكِ حرَمَتهم وأبشارهم ، واجتمعتْ أصولهم . وكان هشامُ
 ابنُ أخى جعفر قد بلغَ من حسادته لابنِ أبي عامرٍ أن سَرَقَ له في غزاته الثالثةِ
 في طريقه رؤوساً للنصارى كانت تُساقُ للحضرةِ ، فنَفِسه فيها وأمرَ غلامانه
 فصَبُّوها في النهرِ ، فقامت قِيامةُ ابنِ أبي عامرٍ لذلك ، وكاشفَ آلَ^(٢) عثمانَ
 من ذلك اليوم ؛ وتجرّدَ لإبادتهم فاستبلغَ في مَكروهٍ هشامٍ وعاجله بالقتلِ في
 المُطَبِقِ قبلَ عمّه جعفر ، فلما^(٣) استقصى ابنُ عامرٍ مالَ جعفر باعَ داره
 بالرُصافةِ ، وكانت من أعظمِ قُصورِ قُرطبة . واستمرّتْ النكبةُ عليه سنينَ ،
 مرةً يُحبَسُ ومرةً يُخلّى ويُقرَّ بالحضرةِ وتارةً يسيرُ عنها ، ولا يُراحُ في الحالَتينِ
 من المُطالبةِ والأذى . إذا سَمِعَ^(٤) ابنُ أبي عامرٍ إغناثه وَكَلَه إلى غالبِ صهره
 فيتولى كِبَرَه ، ويضعُ عَذَابَه . والأخبارُ عنهما في ذلك كثيرة . فلما بانَ
 عجزُ جعفر وضعفه أُقِرَّ في المُطَبِقِ بالزُهاءِ إلى أن وافاه^(٥) هنالك حِمَامُه وأسلمَ

(١) في الأصل : ولا جريرة . (٢) في الأصل : الى .

(٣) في الأصل : حتى باع داره .

(٤) في الأصل : وفاه .

مَيِّتًا إِلَى أَهْلِهِ ؛ وَمَا تَرَكَ النَّاسُ بَعْدُ أَنْ عَدَّوْهُ فِي قَتْلِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ دَسَّ لَهُ شَرِبَةَ سَمٍّ قَضَتْ عَلَيْهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ كَاتِبُ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ قَالَ : سَرْتُ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ ثِقَّةِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ إِلَى الزَّهْرَاءِ لِنُسْلِمَ جَسَدَ جَعْفَرِ بْنِ عُثْمَانَ إِلَى أَهْلِهِ وَالْمَنْظَرِ ^(١) إِلَى عَيْنِهِ . وَسَرْنَا إِلَى مَنْزِلِهِ وَمَا غَطَّى جَسَدَهُ إِلَّا كِسَاءُ خَلَقَ ٥ لِبَعْضِ الْبَوَابِينَ أَتَقَاهُ عَلَى سَرِيرِهِ . وَدَعَا لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ بِغَاسِلٍ يَغْسِلُهُ عَلَى فَرْدِ بَابٍ اخْتُلِعَ مِنْ نَاحِيَةِ الدَّارِ . وَخَرَجْنَا بِنَعِشِهِ وَوَارِيْنَاهُ ، وَمَا جَسَرَ أَحَدٌ لَشَهْوَدِهِ مَعَنَا سِوَى إِمَامٍ مَسْجِدِهِ الْمُسْتَدْعَى لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَمَنْ حَضَرَهُ مِنْ وَلَدِهِ . فَعَجِبْتُ مِنْ عُدْوَانِ الزَّمَانِ بَعْدَ تَصْرِيفِهِ لَهُ ، وَإِنْ لِيَ بِالْإِعْتِبَارِ بِشَأْنِهِ فِي الْحَالَتَيْنِ مَعَ قُرْبِ الْمُدَّةِ الْمَوْعُظَةِ .

١٠

وَقَفْتُ لَهُ فِي طَرِيقِهِ مِنْ دَارِهِ وَقْتَ عِلَّةِ الْحُكْمِ ، وَقَدْ تَنَاهَى أَمْرُهُ فِي الْجَلَالَةِ أَرُومُ أَنْ أَتَاوَلَهُ قِصَّةً ، فَوَاللَّهِ مَا تَمَكَّنْتُ مِنَ الدُّنُوِّ إِلَيْهِ لِكثَافَةِ مَوَكِبِهِ ، وَأَخَذَ النَّاسُ الطَّرِيقَ عَلَيْهِ مَسْلَمِينَ وَسَائِلِينَ ، فَانْتَنَيْتُ حَسِيرًا مَبْهُوتًا . فَلَمْ تَطُلْ الْمُدَّةُ حَتَّى سَلَبَهُ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ حَالَهُ وَقَبِضَ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ يَحْمِلُهُ فِي الْغَزَوَاتِ مَعَهُ . وَسَرْتُ فِي صُحْبَةِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ فَاتَّفَقَ لِي أَنْ نَزَلْتُ فِي بَعْضِ الْمَنَازِلِ بِجَلِيَّةٍ إِلَى ١٥ جَنْبِ خِبَائِهِ . وَفِي لَيْلَةٍ نَهَى ابْنُ أَبِي عَامِرٍ عَنْ وَقُودِ النَّارِ لِيَخْفِيَ عَلَى الْعَدُوِّ مَكَانُهُ ، فَرَأَيْتُ وَاللَّهِ عُثْمَانَ بْنَ جَعْفَرٍ يَسْقِي أَبَاهُ جَعْفَرَ دَقِيقًا قَدْ خَلَطَهُ بِالمَاءِ يُقِيمُ أَوْدَهُ ، وَالشَّيْخُ يُحْسُوهُ وَيَحْرِصُ ^(٢) عَلَيْهِ ضَعْفَ حَالٍ وَعُدْمَ زَادٍ ؛ فَلَا أَنْسَى تِلْكَ الْمَوْعُظَةَ . وَمَا يَغْتَرُّ بِالْأَيَّامِ إِلَّا ضَعِيفُ الْعَقْلِ . وَكَانَ مَهْلِكُ جَعْفَرٍ فِيمَا أَخْبَرَنِي بِهِ أَبِي خَلْفُ ابْنِ حُسَيْنٍ سَنَةَ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ .

٢٠

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ وَلَعَلَّهَا : وَانْظُرْ . (٢) فِي الْأَصْلِ : يَحْرِضُ .

ومما طُوبَ به جعفرُ مالُ الصَّقَلِي جعفر . كَانَ الْحَكَمُ وَقْفَهُ قِبَلِ خَالِدِ بْنِ هِشَامٍ وَتَوَرَّعَ عَنْهُ وَأَوْصَى أَنْ يُوزَعَ فِي السُّكُورِ الَّتِي كَانَتْ إِلَيْهِ وَقْتَهُ ، تَحْلُلًا مِنْ مَظَالِمِ أَهْلِهَا . فَأَرْجَاهُ عِنْدَ خَالِدٍ مُدَّةً إِلَى أَنْ يَحْتَاجَ إِلَيْهِ فَقَبْضَهُ سِرًّا ، وَانْدَفَعَ إِلَى جَعْفَرٍ وَأَخَذَ خَالِدُ بْنُ هِشَامٍ بَرَاءَتَهُ مِنْهُ ، فَسُئِلَ جَعْفَرُ عَنْهُ . فَقَالَ : كُنْتُ خَادِمَ الرَّجُلِ وَصَاحِبَ سِرِّهِ فَعَمِلْتُ بِرِسْمِهِ ، وَإِنْ رُجِعَ فِي الْاِسْتِدْلَالِ إِلَى زِمَامِهِ الْمَاضِي الَّذِي كُنْتُ أَقْيَدُ فِيهِ الْأَمْوَالَ الْبَاطِنَةَ وَجَدَ فِيهِ ثَبَتَهُ . فَجِئْتُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِذَلِكَ الزِّمَامِ وَقَدْ قُطِعَ مِنْهُ الدَّرَجُ^(١) الَّذِي فِيهِ ذَكَرُ الْمَالِ الْبَاطِنِ وَوُصِّلَ مَا انْقَطَعَ بِذَلِكَ مِنَ الْكَلَامِ بِمَا بَعْدَهُ . وَأَرْشَدَ جَعْفَرُ إِلَى هَذِهِ الْوَهْلَةِ ، وَحَسِبَ أَنْ مَعَ وُجُودِهَا لَا تَلْزِمُهُ الْحِجَةُ . فَعَدَلُوا بِهِ إِلَى بَيْدَاءٍ مُضَلَّةٍ .

١٠

قَالَ ابْنُ حَيَّانَ : وَلَمَّا أُمِرَ بِضَمِّهِ إِلَى الْمُطَبَّقِ بِالزَّهْرَاءِ وَدَّعَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ وَدَاعَ الْفُرْقَةِ ، وَقَالَ لَسْتُ تَرَوْنِي بَعْدَهَا حَيًّا ، فَقَدْ أَتَى وَقْتُ إِجَابَةِ الدَّعْوَةِ وَأَنَا أَرْتَقِبُهُ مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً . وَذَلِكَ أَنِّي أَسْرَفْتُ عَلَى فُلَانٍ — رَجُلٍ سُجِنَ بَعْدَ الْفَاصِلِ — وَمَا أَطْلَقْتُهُ إِلَّا بِرُؤْيَا ، قِيلَ لِي : أَطْلِقْ فُلَانًا فَقَدْ أُجِيبَتْ فِيكَ دَعْوَتُهُ . فَأَطْلَقْتُهُ وَأَحْضَرْتُهُ وَسَأَلْتُهُ ، فَقَالَ : نَعَمْ ! دَعَوْتُ عَلَى مَنْ شَارَكَ فِي أَمْرِي أَنْ يُمِيتَهُ اللَّهُ فِي أَضْيَاقِ الشُّجُونِ . فَعَلِمْتُ أَنَّهَا قَدْ أُجِيبَتْ ، وَنِدِمْتُ بِحَيْثُ لَا تُغْنِي الْفَدَامَةُ ، فَأَطْلَقْتُ الرَّجُلَ . قَالُوا فَمَا لَبِثَ فِي مَحْبَسِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَأَخْرَجَ مَيِّتًا ، فَسُلِّمَ إِلَى أَهْلِهِ فِي أَقْبَحِ صُورَةٍ . وَمَا زِلْتُ أَسْمَعُ أَنَّهُ قُتِلَ خَفَقًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْحَقِيقَةِ ، الْمُنْضَى^(٢) عَلَى مُحَالِ هَذِهِ الْخَلِيقَةِ . انْتَهَى مَا لَخِصَّتْهُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ حَيَّانَ فِي شَأْنِ جَعْفَرِ بْنِ عُثْمَانَ . وَكَانَ أَحَدَ مَنْ اجْتَمَعَ لَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ

١٥

٢٠

نوعاً البلاغة في النظم والنثر ، وهو القائل في نكبتة :

لا تأمن من الزمان تقلباً إن الزمان بأهله يتقلب
ولقد أراني والليوث تخافني وأخافني من بعد ذاك الثعلب
حسب الكريم^(١) مذلة ونقيصة ألا يزال إلى لئيم يطلب
وإذا أتت أعجوبة فاصبر لها فالدهر يأتي بالذي^(٢) هو أعجب

وحدث غير واحد أنه استعطف المنصور بهذه الأبيات :

هَبْنِي أسأت فأين الفضل والكرم إذ قادني نحوك الإذعان والندم
يا خير من مدت الأيدي إليه أما ترني لشيخ نعاه عندك القلم
بالغت في الشخط فاصفح صفح مقتدر إن الملوك إذا ما استرحوا رَحِمُوا

فأجابه بهذه الأبيات وهي لعبد الملك الجزيري :

الآن يا جاهلاً زلت بك القدم تبغى التكرّم لما فأنك الكرم
ندمت إذ لم تفز منّا بطائفة وقلماً ينفع الإذعان والندم
ومنها :

نفسى إذا جمحت ليست براجعة ولو تشفع فيك العرب والعجم

وأخبرت أن المصحفي لما بلغ إليه هذا الجواب قال :

لى مدة لا بد أبلغها فإذا انتقضت أيامها مت
لو قابلتني الأسد ضارية والموت لم يدن^(٣) لما خفت
فانظر إلى وكن على حذر فمثل^(٤) حالك، أمس قد كنت

(١) في الأصل : اللئيم .

(٢) في الأصل : ما .

(٣) في موج ١ ص ٣٩٧ : يقرب

(٤) موج : في مثل .

قال ابن بسام : ومما يروى لجعفر المصنفى عند ظهور ابن أبي عامر عليه ،
وانتزاعه ما كان من الحجابة في يديه ، وإفضائه به إلى هذه الحال من الهضم
والاعتقال ، قوله :

تندمتُ والمغرورُ من قد تندما وهل ينفعُ الإنسانُ أن يتندما
غَرَسْتُ قَضِييًّا خَلْتُهُ عُدَّ كَرَمِي وكنتُ عليه في الحوادثِ قِيًّا
أَكْرَمُهُ دَهْرِي فيزدادُ خِسَّةً ولو كان من عودِ كريمٍ تَكْرَمًا

جملٌ وجوامع من كبار الأحداث بالدولة العاصرية

قال ابن حيان : أولُ ذلك الوحشةُ الحادثةُ بين ابن أبي عامر والخليفة
هشام ووالديه صُبح . والذي أثارها أسبابُ الحسدِ ودواعي المنافسة بين أهل
القصر الهشامى والعامرى ؛ وأشاعوا عنه أنه يريدُ أن يستبدَّ بالأمر . فقام ابن
أبي عامر في ركائبه لحسمِ حديثه ، وعلم أنه أتي^(١) من حاشية القصر . وكان به
عِدَّةٌ من الخدمِ ففرَّقهم ومزَّقهم ، ولم يدعُ في خدمة القصرِ إلّا من استشعرَ
له رهبةً وهيبةً . وأذكى العيونَ مع ذلك عليهم حتى مَلَكَ نفوسهم . ثم نظرَ
في شدِّ الأموالِ المخزنة فيه مُذْ عهد الخلفاء ، ووصفَ أن أيدي الحُرَمِ تنبسطُ
عليها . قال ابن حيان : أخبرني ولد الخال من بعض ما^(٢) كانتُ تفعله السيدةُ
صُبح مع أخيه رائق ؛ أنها أخرجتُ عندَ تمكُّنِ الوحشةِ بينهما وبين ابن
أبي عامر مائةَ كوزٍ على أعناقِ الخدمِ الصقاليةِ مَحْتُمَةٍ ، قد صيرتُ أشطارها
مالاً عَيْنًا ذهباً وفضةً ، ومَوَّهتُ على ذلك كله بالمُرَبَّى والشَّهيدِ وغير ذلك من
الأصباغِ الرفيعةِ المتَّخذةِ بقصرِ الخلافةِ . وكتبتُ على رؤوسِ الكيزانِ أسماءَ

- ذلك . ومَرَّت بصاحب المدينة فحسبها كما كتبت عليها . وكان في تلك الكيزان ثمانون ألف دينار . فأحضر ابن أبي عامر جماعة وأعلمهم أَنَّ الخليفة مشغولٌ عن حفظها بانهماكه في العبادة ، وَأَنَّ في تضييعها على المسلمين وعلى الدولة أعظم الآفة . فرأت الجماعة أَنَّ كَوْنَ الأموال بيد المنصور أسلمٌ ، وهو على حفظها أقدر وأقوم . ثم نالته على ذلك بقيَّة علة طاولته فأرجفوا به ، فانتقل ابنه ٥ عبدُ الملك إليه بالزاهرة ليُنْفِذَ الأمور عنه . فكشف أعداؤه وجوههم عند استحكام الإرجاف به ، وراسلوا حاشية الخليفة هشام سرًّا ، وجهازوا للقيام عليه ؛ فلم يكن فيهم فضلٌ لذهاب أعيانهم . واشتدَّ [ذلك] على ^(١) ابن أبي عامر فتقدَّم إلى ابنه عبد الملك أَن يعترض أَلْفَ فارسٍ من المصطنعين للدولة والغلمان العامريين ، وَأَن يبيتوا معه بالزاهرة لإنفاذ العزيمة فيما رآه من حمْلِ الأموال إليه . وأحكم الأمر مع الفقهاء والوزراء ، فركب ذلك الجيش من بين يديه يوم الثلاثاء الثالث من جمادى الأولى سنة ست وثمانين . فاتى قصر الخلافة بقرطبة ، وأذن لمن وافى من الفقهاء والوزراء بالوصول إلى مجلسه ، وشافهم في ذلك ، فاعترف الملاء بفضل أبيه المنصور ، فقال لهم عبدُ الملك : إنَّ قوماً ممن يتصلُّ بأسباب الخليفة هشام يُؤثِرُ الفتنة ويكره الدَّعة . ١٥ فأنكرت الجماعة ذلك . وأحبَّ عبدُ الملك الوصول بهم إلى مجلس هشام ليُشافهوه بهذه الكروبِ العظام ، فكره هشام ذلك وامتنع منه وتبرأ من أعداء ابن أبي عامر . وانصدع جمعهم على انتقال المال . فنقل في ثلاثة أيام حتى استنفد جميع ما ظهر عليه من بيت المال . وتعدَّر ما كان بجوف القصر من بيت مال الخاصة ؛ ودافع عنه أهلُ الدار لقيام السيِّدة أمِّ هشام ٢٠

(١) في الأصل : عليه .

دونه . أخبرني أبي بعظيم ما شاهدته من صرامة تلك المرأة ومنازعتها لابن أبي عامر وولده ورميها ^(١) لهما بكل عزيمة ، وعبد الملك يومئذ ساكت يتجرع غصصه ، لا يرد كلمة . فبلغ عبد الملك رغبته وانسكفاً إلى أبيه بالزاهرة بعد أن ثقف القصر ؛ فسكن جاش ابن أبي عامر بإحراز تلك الأموال . وكان جملة ما حمل — زعموا — من الورق خمسة آلاف ألف دينار دراهم قاسمية ، ومن الذهب سبعمائة ألف جعفرية .

ثم استقبل المنصور ، ووصل إلى مجلس الخليفة هشام مع ابنه عبد الملك وسائر عظماء الدولة . فخلا هشام مع ابن أبي عامر واعترف له بالفضل والاضطلاع بالدولة . فخرست السنة الحسنة . وعلم المنصور ما في نفوس الناس لظهور هشام ورؤيتهم له ؛ إذ كان منهم من لم يره قط . فأبرزه للناس وركب ركبته المشهورة ، وقد برزوا له في خلق عظيم لا يحصيهم إلا من أحصى آجالهم ، في بهجة ولبوس وهيمية ، معمماً على الطويلة ، سادلاً للذؤابة ، والقضيب في يده ، زياً الخلافة . وإلى جانبه المنصور راكباً يسايره ، وقد أمته الحاجب عبد الملك راجلاً يمشي ، ويسير الجيش أمامه . ومن المواكب وطوائف الجنيد والغلمان والفتيان القصريين والعاصريين ما عجب من كثرتهم .

وفاة المنصور ابن أبي عامر

قال ابن حيان : وخرج المنصور إلى الغزاة ، وقد وقع في مرضه الذي مات منه في صفر سنة اثنين وتسعين وثلاثمائة . واقتحم أرض جليقية من

(١) في الأصل : ورميه .

- تَلْقَاءَ مَدِينَةِ طَلَيْطَلَةَ ، ومرضه يَخِفُّ وقتاً وَيَثْقُلُ وقتاً . ونفذَ على عَمَلِ بَنِي غُومَسَ إِلَى أَرْضِ قَشْتَيْلَةَ ، بِلَدِ شَانْجَهْ بِنِ غَرْسِيَّةِ . وهو كَانَ مَطْلُوبَهُ الَّذِي أَلْفَ عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ ، فَأَحْلَى الْغَارَاتِ بِأَقْطَارِهِ . فَقَوِيَتْ عَلَيْهِ الْعِلَّةُ هُنَاكَ فَاتَّخَذَ لَهُ سَرِيرُ خَشَبٍ وَدَّعَ عَلَيْهِ أَعْضَاءَهُ ، وَسُوَّى مِهَادُهُ ، مُتَطَاوِلُ الشَّكْلِ يُمْكِنُهُ الْاضْطِجَاعُ عَلَيْهِ مَتَى خَارَتْ قَوَاهُ . وَكَانَ يُحْمَلُ سَرِيرُهُ عَلَى أَعْنَاقِ الرِّجَالِ ، وَسِجْفُهُ مَنْسَدِلٌ عَلَيْهِ ، وَعَسَا كَرُهُ تَحْفُثُ بِهِ وَتُطِيعُ أَمْرَهُ . وَكَانَ يُحْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ شِرَاعٌ خَفِيفٌ مَنْصُوبٌ يُنْقَلُ عَلَى الْأَيْدِي ، فَإِذَا حَرَكْتَهُ الْخَلْفَةُ أَنْزَلَ سَرِيرُهُ إِلَى جَنْبِ ذَلِكَ الشِّرَاعِ لِيَقْضِيَ مَا بِهِ مِنْ حَاجَةٍ . وَتَنَاوَلُ وَضُوءَهُ جَارِيَتَانِ مِنْ قَوَائِمِهِ كَانَ حَمَلُهُمَا فِي غَزَاتِهِ ، فَكَانَتَا تَسِيرَانِ وَسَطَ الْفَتَيَانِ .
- ١٠ وَمَا كَانَ بَيْنَ نَزْوِلِهِ وَاسْتِقْلَالِهِ إِلَّا الْفَتْرَةُ لِقْوَةِ الْخَلْفَةِ . بِذَلِكَ قَطَعَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْمًا حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَدِينَةِ سَالِمَ . وَكَانَ هَجَرَ الْأَطْبَاءِ فِي عِلَّتِهِ تِلْكَ لاختلافهم فِيهَا ، وَاقْتَصَرَ عَلَى أَوْصَافِ كَاتِبِهِ الْجَزِيرِيِّ عَبْدِ الْمَلِكِ . وَأَيَقَنَ هُنَاكَ بِالْمَوْتِ . وَكَانَ يَقُولُ إِنَّ زِمَامِي يَشْتَمِلُ عَلَى عَشْرِينَ أَلْفَ مُرْتَزِقٍ مَا فِيهِمْ أَسْوَأُ حَالًا مِنِّي . وَدِدْتُ أَنْ أَقَالَ زَلَّتِي وَأَنَا كَبْعِضِ هَؤُلَاءِ الشُّودَانِ الْحَامِلِينَ لِسَرِيرِي . وَكَانَ تَحْمَلُ سَرِيرَهُ الشُّودَانُ الرَّقَاصَةُ لِلِّينِ مَشِيهِمْ ، وَكَانَ يَتَأَذَّى بِضُنَانِ رِيحِهِمْ مَعَ مَا كَانَ حَوْلَهُ مِنَ الطَّيِّبِ . فَاشْتَغَلَ ذَهْنُهُ يَوْمئِذٍ بِقُرْطُبَةٍ وَهُوَ بِمَدِينَةِ سَالِمَ وَقَدْ أَيَقَنَ بِالْوَفَاةِ . فَأَمَرَ ابْنَهُ عَبْدِ الْمَلِكَ بِالنَّفْوَذِ لَشَدِّهَا فِي طَائِفَةٍ مِنْ ثِقَاتِ غِلْمَانِهِ بَعْدَ أَنْ أَوْصَى كُلَّهُمْ أَشْقَاتًا وَجَمَاعَةً . ثُمَّ خَلَا بَوْلِدَهُ عَبْدِ الْمَلِكِ يُوصِيهِ وَيُودِّعُهُ وَيَقْبِضُ عَلَى يَدِهِ ، وَكَلِمَا ذَهَبَ عَنْهُ اسْتَرْدَّهِ مُسْتَدْرِكًا بِوَصِيَّتِهِ . وَعَبْدُ الْمَلِكِ يَبْكِي فَيَنْفِكِرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَيَقُولُ : هَذَا أَوَّلُ الْعِجْزِ وَالْفَشْلِ ؛ إِلَى أَنْ قَضَى وَطَرَهُ
- ٢٠ مِمَّا بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ . وَأَمْرَهُ أَنْ يَسْتَخْلَفَ أَخَاهُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَلَى الْعَسْكَرِ

إلى أن يُنفذَ إليه حُكْمُه فيه . وخرجَ عبدُ الملكِ إلى قرطبةَ ومعه القاضي ابنُ ذَكْوَانَ فدخلها في صدرِ شوالٍ من العامِ ، فسكَنَ الإرجافَ بموتِ والدِه وعرفَ الخليفةَ كيفَ تركه .

١٥٠

قالَ ابنُ حيانَ : قالَ لي أبي خلفُ بنُ حُسينَ : وَجَدَ المنصورُ بعضَ الراحةِ ، وأمرَ أنَ تَدْخَلَ عليه جماعةٌ فدخلتُ في جملَتِهِم ودنوتُ منه وهو كالخيلٍ لا يُبينُ كلاماً ، وأكثَرُ عملِه بالإشارةِ كالمسلمِ المودَّعِ . وخرجنا فكانَ آخرَ العهدِ به . وماتَ ليلةَ الاثنينِ لثلاثِ بقينَ لرمضانَ من العامِ المؤرَّخِ ؛ وعلينا في العسكرِ عبدُ الرحمنِ ابنُه فعزَّيناه . وكانَ أوصى أنَ يُدفنَ حيثُ يُقبَضُ ولا يُنقلَ تابوتُه . فدفنَ في قصرِه بمدينةِ سالمٍ . ورأوا أَنَّهُ اختارَ اللهُ له ، إذْ كانتَ من أطيبِ ما بناهَ رحمه اللهُ .

٥

١٠

وتلوَّمَ ابنُه عبدُ الرحمنِ بالعسكرِ مُدَّةَ الأسبوعِ وهو ينتظرُ رأيَ أخيه عبدِ الملكِ في القُفُولِ ، والغلمانُ يضطربونَ عليه وطمعوا في ردِّ الدولة . فقالَ لهم عبدُ الرحمنِ اصبروا . فكشفوا ما في أنفُسِهِم له ، وقالوا : وإنما نحنُ في حجرِ آلِ أبي عامرٍ الدهرَ الداهرَ ؟ ! نلحقُ ببابِ مولانا الخليفةِ هشامٍ ولا نَتَدَبَّرُ إلا بأمرِه . فتقدَّمه إلى قرطبةَ منهم نحوُ سبعمائةٍ معهم عبيدُ الله بنِ بدرٍ . ثم جاءه بعدُ إذنُ أخيه ، فقدِمَ هو بسائرِ العسكرِ . وتجددَ يومَ وَرَدِ قرطبةَ من الحُزنِ بابنِ أبي عامرٍ ، وحرَّكه خَدَمُه وقِيانُه قد ألبستِ المسوحَ والأَكْسِيَةَ بعدَ الوَشْيِ والحَبَرِ ، ما لا شَيْءَ فوقه .

١٥

أخبرني أبي قالَ : سمعتُ محمدَ بنَ أبي عامرٍ يُوصي ابنَه عبدَ الملكِ في مَرْضَتِهِ تلكَ ويقولُ في جملةِ كلامِه : يا بُنَيَّ ، لستَ تجدُ أنصحَ لك مني فلا تُعدِّينَ مشورتِي ؛ فقد جرَّدتُ لك رأيي ورويتي على حينِ اجتماعٍ من ذِهني .

٢٠

- فاجعلها مثلاً بينَ يديكَ . قد وطأتُ لكِ مهادَ الدولة ، وعدلتُ لكِ طبقاتِ أوليائها ، وغيّرتُ لكِ بينَ دخلِ المملكةِ وخارجِها ، واستكثرْتُ لكِ من أطعمتها وعددها ، وخلفتُ جبايةً تزيدُ على ما ينوبُك لجيشِكَ ونفقتِكَ ؛ فلا تطلقِ يدَكَ في الإنفاقِ ، ولا تقيّضَ لظلمةِ العمالِ ، فيختلَّ أمرُكَ سريعاً ، فكلُّ سرفٍ راجعٍ إلى اختلالٍ لا محالة . فاقصِدْ في أمرِكَ جهدَكَ ، واستثبِتْ فيما يرفعُ أهلُ السَّعايةِ إليك . والرعيّةُ قد استقصيتُ لكِ تقويمَها ، وأعظمُ منهاها أن تأمنَ الباديةَ وتسكنَ إلى لينِ الجنبَةِ . وصاحبُ القصرِ قد علمتَ مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شيءٌ تكررُه والآفةُ ^(١) ممَّن يتولّاه ويلتمسُ الثوبَ باسمه ، فلا تَمُ عن هذه الطائفةِ جملةً ، ولا ترفعَ عنها سوءَ ظنٍّ وتهمةً ، وعاجلُ بها من خفتَه على أقلِّ بادرة ، مع قيامِكَ بأسبابِ صاحبِ القصرِ على أتمِّ وجهٍ ؛ فليسَ لكِ ولا لأصحابِكَ شيءٌ يقيمُكم الحنثَ في يمينِ البيعةِ إلا ما تُقيمه لوليّها من هذه النفقة . فأما الانفرادُ بالتدبيرِ دونَه مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فإني أرجو أني وإياك منه في سعةٍ ما تمسكنا بالكتابِ والسُّنة . والمالُ المخزونُ عندَ والدِكَ ، هو ذخيرةُ مملكَتِكَ ، وعدةٌ لحاجةِ تنزِلُ بك ، فأقمه مقامَ الجارحةِ من جوارحك التي لا تبدّلُها إلا عندَ الشدةِ تخافُ منها على سائرِ جسدِكَ . ومادةُ الخراجِ غيرُ منقطعةٍ عنك بالحالةِ المعتدلة . وأخوك عبدُ الرحمنِ قد صيرتُ إليه في حياتي ما رجوتُ أني قد خرجتُ له فيه عن حقّه من ميراثي ، وأخرجته عن ولايةِ الثغرِ لئلا يجدَ العدوُّ مساعداً بينكما في خلافٍ وصيتي فيُسرعَ ذلكَ في نقضِ أمرِي ، ويحلبَ الفاقةَ على دولتي . وقد كفيْتُكَ الخيرةَ فيه فأكفه الحيفَ منك . وكذلك سائرُ أهلكِ فيما صنعتُ فيهم بحسبِ

(١) رسم الكلمة في الأصل : والآفا .

ما قَدَّرْتُ به خَلاصِي من مالِ الله الذي في يَدِي . وخِلافَتُك بعدِي أَجَدَى عليهم مِمَّا ^(١) صرَفْتُهُ ؛ فلا تُضَيِّعْ أَمْرَ جَمِيعِهِمْ ، والحِظَّهُمْ بَعِينِي ، فَإِنَّكَ أُوْهُمْ بعدِي .
نُفِرَجْ ذِكْرَهُمْ بِاسْتِخْدَامِكَ ، وَالْحِيفُ إِنَانَهُمْ جَنَاحَكَ ، جَبَرَ اللهُ جَمَاعَتَهُمْ ،
وَأَحْسَنَ الْخِلَافَةَ عَلَيْهِمْ . فَإِنْ انْقَادَتْ لَكَ الْأُمُورُ بِالْحِضْرَةِ فَهَذَا وَجْهُ الْعَمَلِ ،
وَسَبِيلُ السَّيِّرَةِ ، وَإِنْ اعْتَصَمْتَ عَلَيْهِمْ فَلَا تُلْقِينَ بِيَدِكَ إِقَاءَ الْأُمَّةِ ، وَلَا تَنْظُرْ
بِكَ وَأَصْحَابِكَ السَّلَامَةَ فَتَنْسُوا مَا لَكُمْ فِي نُفُوسِ بَنِي أُيَّةٍ وَشِيعَتِهِمْ بِقُرْطُبَةٍ . فَإِنْ
قَامَتْ مِنْ تَوَثُّبٍ عَلَيْكَ مِنْهُمْ فَلَا تَذْهَلْ عَنِ الْحَزْمِ فِيهِمْ ، وَإِنْ خِفْتَ الضَّعْفَ
فَانْتَبِذْ بِمَخَاصِيكِ وَغِلْمَانِكَ إِلَى بَعْضِ الْأَطْرَافِ الَّتِي حَصَّنْتَهَا لَكَ . وَاخْتَبِرْ غَدَكَ
إِنْ أَنْكَرْتَ يَوْمَكَ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ يَدَكَ فِي يَدِ مَرَوَانِي مَا طَاوَعَتْكَ بَنَانُكَ ،
فَإِنِّي أَعْرِفُ ذَنْبِي إِلَيْهِمْ .

٥

١٠

قال : وسمعتُه يقول لِفُلَمانِهِ عِنْدَ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ : تَنْبَهُوا لِأَمْرِكُمْ ، وَاحْفَظُوا
نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، فِي طَاعَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَخِيكُمْ وَمَوْلَاكُمْ ، وَلَا تَغْرَنَّكُمْ بَوَارِقُ بَنِي
أُمِيَّةٍ ، وَمَوَاعِيدُ مَنْ يَطْلُبُ مِنْهُمْ شَتَاتَكُمْ . وَقَدَّرُوا مَا فِي قُلُوبِهِمْ وَقُلُوبِ
شِيعَتِهِمْ بِقُرْطُبَةٍ مِنَ الْحَقْدِ عَلَيْكُمْ ، فَلَيْسَ يَرَأْسُكُمْ بعدِي أَشْفَقُ عَلَيْكُمْ مِنْ
وَلَدِي . وَمِلاكُ أَمْرِكُمْ أَنْ تَنْسُوا الْأَحْقَادَ وَأَنْ تَكُونَ جَمَاعَتُكُمْ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ ،
فَإِنَّهُ لَا يُفْلُ فِيكُمْ . وَمَا زَالَ يُكْرَرُ هَذَا وَشِبْهَهُ لَطَائِفَةٍ بعدِ أُخْرَى حَتَّى ضَعُفَ
وَشُغِلَ بِنَفْسِهِ .

١٥ / ٥١

قيامُ عبدِ الملكِ ابنِهِ بالدَّوْلَةِ

وَلَمَّا وَرَدَ النَّبَأُ بِمَوْتِهِ رَكِبَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى هِشَامٍ وَنَعَى إِلَيْهِ الْمَنْصُورَ أَبَاهُ ،
فَأَظْهَرَ الْإِشْفَاقَ ، وَعَرَّفَهُ بِمَا اضْطَرَبَ مِنْ أَمْرِ الْفِتْيَانِ وَعَصِيَانِهِمْ ؛ فَخَرَجَ هِشَامٌ

٢٠

(١) فِي الْأَصْلِ : مَا .

وأمره بتدبير أمرهم بحسب ما يستقيم به أمر الدولة ، وحذره موقعة الدماء وتلقيح الفتنة ، وخلع عليه ، وأخرج معه كتابه بولاية الحجابة مكان أبيه ، وقرى^(١) على الكافة ، وأنشئ به الكتب إلى الأقطار . وعاقب بعض الفتيان العاصين ، وأخرج بعضهم إلى سبته ، فما قفلوا عنها إلا عند وثوب المهدي بن عبد الجبار على الدولة العاصرية . ثم وافى العسكر الكبير مع أخيه عبد الرحمن ، واجتمع الشمل ، وتمكنت الطاعة ، وأيسر الأعداء من دولة بني عامر ، وعلموا أنها وراثته .

- وأسقط عبد الملك سدس الجباية لأول ولايته في جميع أقطار الأندلس عن الرعيّة ، فراقت أيامه ، وأحبّه الناس سرّاً وعلانية ، وانصبّ الإقبال والتأييد عليه انصباباً لم يسمع بمثله . وسكن الناس منه إلى عفاف ونزاهة نفس ، فباحوا بالنعمة ، وأخذوا في المكاسب والزينة من المراكب والملابس والقيان ، حتى سمّت أثمان هذه الأشياء في مدته . وبلغت الأندلس في أيامه إلى نهاية الجمال والكمال وسعة الحال ، في كنف ملكٍ مُقتبل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الأيام ، مسرور بما تنافس فيه رعيته من زخرف دنياها . فاجتمع الناس على حبه ، ونجا من الفتن . وأخباره في ذلك مأثورة . وكان على أهل الأندلس أسعد مولودٍ وُلِدَ . بلغني عن أحمد بن فارس البصري المنجم زعيم الصناعة بها على عهد الحكم ، أنه نظر في مولد عبد الملك هذا وهو طفل فأشار من بعد سعادته إلى أمر كبير [و] لم يدرك هو وأخوه ، فعجب من شاهده من جودة إصابته ، وذلك أنه قال : لم يولد قطُّ بالأندلس مولودٌ أسعدُ منه على أبيه وعلى نفسه وحاشيته . نعم ! وعلى أهل الأندلس طرّاً ، وعلى أرضها فضلاً عن

ناسِها ، وأنها لا تزال بخيرٍ حياتِه ، وإذا هلك ما أراها إلا بالضد . . قال ابن
حيّان : سمعتُ هذا الحديثَ عن ابنِ فارسٍ من غيرِ ما طريق ، فكان كما قال .
لقد حدثَ بالأندلسِ إثرَ مهلبِكِه ما هو مشهورٌ .

وكانَ عبدُ الملكِ من أحميا الناسِ ، فإذا كانت الحربُ عوينَ منه الأسدُّ
المُحرَّبُ في بَرائِنِه خطاً وشِدَّة . من رَجُلٍ عديمِ الفَهمِ والمعرفةِ جُملةً ، صِفِرُ
من الأدبِ والتعاليمِ ، حتّى ما كانَ يُسايِرُه وينادِمُه إلا العجمُ من الجلالِقةِ
والبرابرةِ ممّن لا يَهشُّ لسماعِ ، ولا يَطرُبُ لإيقاعِ . فارتفعتْ بذلكَ عن مجالسِ
لهوهِ طبقةُ المعرفةِ ، وقوَّضَ عنها كلُّ فاضلٍ وعالمٍ ، واعتاضَ منهم بجفّةِ البرابرِ
والأعاجِمِ . إلا أَنَّهُ مع زُهيدِه في الأدبِ تَمَسَّكَ بمن كانَ استخلصَه أبوه من
طبقاتِ أهلِ المعرفةِ من خطيبٍ وشاعِرٍ ، ونَدِيمٍ وشِطْرَنجِيٍّ ، ومُعَدِّلٍ وتاريخيٍّ
وغيرِهِم ، حَفِظاً للصنائعِ والدِه وقياماً برُؤُومِه ، فقرَّرَهُم على مَراتِبِهِم ، ولم يَنقُصْهُمْ
سِوى الفوزِ بخصِوصيّتِه . وكانت تُرْفَعُ إليه بطائقُ أهلِ الشَّعرِ ويَصلُهُم ، على
تساهلِهِم في مَدِيحِهِ لأمانِهِم من نَظَرِهِ فيها . وأحرَزَ لَهُم مع الفائدةِ عفوُ القَريحَةِ ،
وذلكَ بَيِّنٌ لَمَنْ تَأَمَّلَه في أشعارِ مادِحِيهِ لُفتورِها . ثم أغرقَ عبدُ الملكِ النَّزَعَ
في دَولتِه ، وانهمكَ في طَلَبِ الآلاتِ الملوَكِيَّةِ حتّى جُلِبَ إليه من ذلكَ كلُّ
عَلِقٍ خَظيرٍ ، وتأنَّقَ في مَراكِبِه هو وأصحابُه بالحِلْيَةِ التامَّةِ بخالصِ اللُّجَيْنِ . عَهِدَى
به يومَ فُصُولِهِ لَغزوتِه سَنَةً ثمانٍ وتسعينَ التي احتفلَ فيها لسانُجِه بنِ غَرسِيَّةِ ،
واستكثرَ فيها من العُدَّةِ والعَدَدِ ، فبرزَ على جِوادٍ من مَقَرَّباتِه ^(١) المنسوبةِ ،
بأنفَحِ تلكَ المَراكِبِ المُسَلَّسَةِ ، ولَبَّوسِ دِرْعِ فِضِيَّةٍ مطرَّزَةٍ بالذَّهَبِ ، وعلى
رأسِه خَوْدَةٌ ^(٢) مُثَمَّنَةٌ الشَّكْلِ ، مُحَدَّدَةٌ الرَّأْسِ ، مُرْصَعَةٌ الطَّرِيقِ بِدُرٍّ فاخِرٍ ،

واسطته حَجَرُ ياقوتٍ أحمرٍ مرتفعُ القيمة ؛ قد لَزِمَ وَسَطَ الجيشِ ، وطَرَحَ
الشعاعُ على سُنَّةِ وجهه ، فما رأى الناسُ بعده مَلِكًا يَعْدِلُهُ في البهاءِ والبهجة .
وكانتُ مما راقَتْ به دولته في الجمالِ ما تلاحقَ فيها [مِنْ] غِلْمَانِ أبيه العاصريين
الناسيينَ في دَوْلَةِ المنصورِ ، وكان قد وفَّرَ عنايته بهم ، وجدَّ في تَدْرِيبِهِمْ ،
ووقفَ حُذَّاقَ المُنَاقِفِينَ على تخريجِهِمْ ، فأثْمَرَ غرسُهُمْ ، وأمكنَ جَنَاهُمْ ، وراقتُ
جُمْلَتُهُمْ في القُرُوسِيَّةِ والرَّمَايَةِ ، وبلغوا أَلْفَ غُلامٍ . وانهمكَ أيضًا في اصطناعِ
البرابرةِ العُدُويِّينَ ، ودعا القبائلَ منهم إلى الدُخُولِ إليه والخِدْمَةِ له .

وكانَ منَ أعظمِ مَنْ هاجَرَ إليه منهم زاوِي بنُ زيرِي بنِ مَنَادِ الصَّنْهَاجِيِّ
عَمُّ أَبِي المَعزِّ بنِ باديس بنِ مَنصورٍ صاحبِ إفریقیَّةٍ وصاحبِ الفِرْقَةِ الخارجِيةِ
عليه من أهلِ بيته . وكان المنصورُ أياَمَهُ قد التَوَى في الإِذْنِ له بالدُخُولِ إلى
الأندلسِ حَذَرًا من دَهِيهِ ومَكْرِهِ وبعْدِ صِيَّتِهِ في المغربِ . فأضربَ عبدُ الملك
عن ^(١) الفِكرِ في شأنِهِ وطلبَ الشَّمْعَةَ باستخدامِ مثله ، فأدخله بمن معه من إخوته ،
وهم من سَعَةِ النِّعْمَةِ وبعْدِ الهمِّ واستصغارِ الرغائبِ فيما يكونُ عليه أشباهُهُمْ من
أبناءِ الملوكِ . فاستقلُّوا ما وصلَّهُمْ به عبدُ الملكِ على كَثَرَتِهِ ، وما استقرُّوا [وا] الدارَ
إلا على قَلْعَةٍ ، ولا [حَمِدُوا ^(٢)] معروفَهُمْ ، ولا لَبِسُوا أَعَالَى المراتبِ السلطانيةِ
إلا على ابتذالٍ ومُحَقَّرَةٍ ، ولا قَطَعُوا أَمَدَ المُقَامِ بالأندلسِ إلا بذكرِ الرِّحَلَةِ
والتماسِ التسريحِ بُكَرَةً وعَشِيَّةً ، جهلاً وفرطَ أنْفَةٍ ؛ والأقْدَارُ موَكَّلَةٌ بثنَى
عزمِ عبدِ الملكِ عن إسعافِهِمْ بسراحيهِمْ لِمَا كانَ قَدَرَهُ — عِزًّا وجهُهُ — من الفِتْنَةِ
وتفريقِ شَمْلِ الأندلسِ بأشباهِهِمْ . فلم يَخْرُجُوا عنها إلى أن قاموا على الجماعةِ ،

(١) في الأصل : في الفكر عن شأنِهِ .

(٢) في الأصل : بياض والسياق يقتضي ما أثبتناه أو ما في معناه .

وشغَبُوا عليها بعدَ عبدِ الملك . وكان شيخُهم زَاوِي أَوَّلَ دُخُولِهِ الأندلس يُظهر [من] أنواعِ البرِّ والبشْرِ للناس ما لا شَيْءَ فوقَهُ . وكان شأنُهُ في الدَّهْيِ والمَكْرِ والخَلَابَةِ عَجَبًا . وكان يَرْجِعُ في ^(١) إقامة ما اعتاده من سَعَةِ إنفاقِهِ إلى ما جاء به من بلَدِهِ من عُقُودٍ وذخائرٍ ، فيبيعُ من ذلك النفيسَ والخطيرَ ، وربما اشترى من ذلك عبدُ الملك فيزيدُ في حسرتِهِ . وكان عبدُ الملك [راغبًا] في رفعة منزلتِهِ ، وولاه الوزارةَ أرفعَ خُطَطِ أصحابِ السلطانِ بالأندلس . ووصلَ إليه الرسولُ بالصَّكِّ في ذلك وطلب أن يصله عليه ، فقال : لو جئتنا بمالٍ لأسهمناكَ ، وإنما [خُطَّتْنَا الحربُ] ^(٢) لا الوزارةَ ، وأقلامُنا الرماحُ ، وصحائفُنا الأجسادُ . ولم يَمْتَنِعْ عبدُ الملك مع غطرسةِ زَاوِي هذا من إقامة الحدِّ على مَنْ وجبَ عليه من أهله : عدا ابنُ أخيه على مولى لهم فقتله فأقاده عبدُ الملك لحينه ، وأسلمه أهله السيفَ فضربتْ عنقه على قتيله ذلك ، بمقبرةِ كِلاعٍ بمشهدٍ عظيمٍ من الناس ، وأسلمتْ جثته إلى أهله . ونبت الأندلسُ بعدُ بأخِي زيري أبيه فقوَّضَ عنها أَوَّلَ المقوَّضينَ من صِنهاجَةٍ بِسَراحٍ ^(٣) من عبدِ الملك .

قال ابنُ حَيَّان : وانبسطتْ حاشيةُ الخليفةِ هشامٍ على عبدِ الملك طولَ مدته في جميعِ أحوالِها ، فحملهم على مُرادِهِم . وانهمك هشامٌ طولَ أيامِهِ فلم يظهرْ وقتًا فيها ، ولا شهدَ صلاةً ، واحتجبَ في نَزْهِهِ الباطنةِ على رَسْمِهِ في أيامِ أبيه المنصور . وبلغه منها عبدُ الملك بُغيته ، وجعلَ يُخرِجُهُ إليها مع حُرْمِهِ مستخفياً

(١) في الأصل : « إلى » .

(٢) في الأصل : وإنما خططنا لا الوزارة وواضح أن هناك سقط ولعل

ما أثبتناه هو الصواب .

(٣) الباء غيرُ انضمامٍ . ب ١ صل إلى الواو .

- بعد طرد الناس عن طريقه ، فيضربُ به إلى كلِّ ناحية ، ثم يعود إلى قصره .
ونالَ في مدَّة هذا الانهماك والدَّعة أهلُ الاحتيالِ من الناسِ عندهم الرغائبُ
النفيسة ، بما ازدلفوا به من أثرِ كريم ، أو زخرفوه من كذبٍ صريح ، حتَّى لقد
اجتمعَ عندَ نساءِ القصر ثمانية حوافِرَ عَزَى جميعها إلى حمارِ عَزَيْرِ المُسْتَحْيِ
بالآيةِ الباهرة . واجتمعَ عندهن من خشبِ سفينةِ نُوح عليه السلام وألواحها
قطعة ، وظفَرَن من نسلِ غنمٍ شُعيب عليه السلام بثلاث . وكِلَفَن من هذا
ومثله لعفَّتهنَّ وزُهدِ صاحبهنَّ بأشياء توجَّهت على أموالهن من قبلها أعظمُ حيلة ،
ولِهجنَ مع ذلك بطلبِ ذوى الأسماء الغريبة من الناس ، الموافقة أسماءهم لمن
اجتَباهُ اللهُ من خلقه ، مثلُ عبدِ النور وعبدِ السَّميع وعبدِ اللطيف وعبدِ المؤمن
وحزبِ الله ونصرِ الله وفضلِ الله ، ومثلُ ياسينَ واليسعَ ومَن جَانَسَه ، يَصِيرُ
الرجلُ من هؤلاء في الحاشية ، ويُستعملُ على وكالةٍ جهةٍ ، ولا يبعدُ أن يتموَّلَ
في أقربِ مدَّة ، وإن اتَّفَقَ مع ذلك أن يكونَ ذا حيلةٍ عَثْلَوِيَّةٍ ، وصاحبَ سِبَالٍ
وهامة ، فقد تَمَّتْ له السَّعادة ، ولا سيَّما إن كانتَ لحيمته حمراءَ قارنية ، فإنَّها
أجْدَى عليه من دارِ البطِّيخِ غلَّةً ، ثم لا يُسألُ عما وراءَ رُوَاةٍ من أصلٍ
ولا فضيلةٍ ولو كان مُردِّدًا في بنى اللخناء^(١) ، وعاريًا من جميع الخِصال ،
والأخبارُ في مثل هذا عنهنَّ كثيرةٌ مأثورةٌ . فبَاهَتْ حُرْمُ هِشَامٍ بِمِثْلِ^(٢) هذه
المعاني الشاذَّة ، وبذلنَ الأموالَ في التماسِها بما لم يُسمعَ مثلُها . ولم تزلَ الدولةُ
تزدادُ انهماكًا إلى أن ماتَ عبدُ الملك ، وكَبَتْ كِبَوةٌ لم تستقلَّها آخرُ الدهرِ .
قالَ ابنُ حَيَّان : وكانتْ ولايةُ عبدِ الملكِ وفِرْقُ النصرانيةِ بأسرها
منقِضةً ، وعهدُها قريبٌ بالاجتماعِ على المسلمين ، واطمأئنها بموتِ حَتَفِها

(١) الكلمة مطبوسة في الأصل ، وما أثبتناه أقرب قراءة لها .

(٢) في الأصل : من مثل .

المنصور ثابتة . وكانت الإفرنجية في آخر وقت المنصور قد تمسكت بالمسالمة ،
 فلما سمعت بموته طمعت ، واحتاج عبد الملك إلى التشاغل عنهم توطيداً للحضرة ،
 إلى أن اعتدلت فيها الدولة ، وأخبار الثغور توافيه كل وقت بما لا يوافقه .
 وكان أهم جموع طوائف الطواغيت عليه يومئذ أمراً^(١) شيطانهم الرجيم ، ومغويهم
 الزعيم ، شانجه بن غرسية بن فردلند صاحب قشتيلة . وكان يليه في النكاية
 ميندس [بن] غندشلب قومس^(٢) غليسية ، وكافل ملكهم أدفونش بن برمند ،
 وسائر القواميس^(٣) عندهما سقط وحاشية . فقدم عبد الملك الحذر منهما ،
 فألقى مولاه واضحاً الفتى صاحب مدينة سالم على شانجه فصالحه واضح سنة
 ثلاث وتسعين ولاطفه إلى أن تمهدت قواعد الدولة . وجرد عبد الملك يومئذ
 إلى ثغر قلمرية قاصية الثغر الجوفى المواجه لأرض غليسية جيشاً كشيفاً ، وبقي
 في وجه ميندس [بن] غندشلب ، وصمد^(٤) عبد الملك بلد الإفرنجية إذ لم تزل
 عند ولاية الأندلس مبدأ كل علة ، فاستعد لقصدهم ، واقتحم أرضهم في جموعه
 وأوغل^(٥) في بسيط برشلونة ، وحطم غير ما مدينة ، وعاد قافلاً سالماً غانماً .
 فهابته الإفرنجية وأذعنت إلى السلم ، وجاء رسولها إلى قرطبة ، وقد أعد
 عبد الملك لوروده أكل العدة من ترتيب الجنود ، فكان يوم دخل
 ذلك الرسول بقرطبة آخر أيام الزينة ، إذ انتقض الملك على أثره سريعاً
 ووقعت الفتنه .

قال ابن حيان : سمعت بعض المشايخ يومئذ يقول : إنه ما كان بالأندلس
 مثل ذلك في أمد الدولة ، بما اجتمع له من كثرة الجمع والزينة والعزة

(١) في الأصل : أمير شيطانهم .

(٢) في الأصل : قومين ... قومين .

(٣) في الأصل : وصمد .

(٤) رسم الكلمة في الأصل : وأوغل .

السلطانية . وأما التجارُ الغرباء فدخلوا يومئذٍ إلى موضعِ هَيْئَةٍ ^(١) التجافيفِ والأعلامِ المصوّرةِ وسائرِ القِطَعِ العَجَمِيَّةِ والقنّا الهنديةِ ، وموقفِ خَيْلِ الركابِ بالشُّروجِ الثقالِ ، والتراسِ المذهبةِ والمفضضةِ ، معها بغالُ الركابِ الرائقةِ في زِيَّها المشهورِ ، وما اتصلَ بذلكِ من عُدةٍ غريبةِ . وتوصّلَ أولئكُ التجارُ إلى ذلكِ المكانِ قبلَ إباحتهِ للنظّارةِ بإذنِ التمسودِ من عبدِ الملكِ ، فلم يَحْتَلِفُوا في استيساعِ ^(٢) ما عاينوه ، وانفقوا — وكانوا جملةَ عراقيينَ ومصريينَ وغيرهم — على أنّه ما شاهدوا لأحدٍ من ملوكهم مثله .

ولما أحكمَ عبدُ الملكِ الشدَّ لِفَتَنِ الفِرْنَجَةِ دَبَّرَ قَصْدَ شَانِجُهُ ، فخرَجَ نحوَه صائفةً سنةَ أربعٍ وتسعينَ ، وأوغلَ في أرضه ^(٣) وخامَ عنه شَانِجُهُ ولم يظهر له ، وقفلَ عبدُ الملكِ إلى قرطبةَ . فاضطرَّ شَانِجُهُ إلى السِّلْمِ ووَفَدَ بنفسِه إلى قرطبةَ ، فأعظمَ عبدُ الملكِ مَوْرَدَه ، وضمنَ أن يغزوَ معه قومه . فخرجَ مع عبدِ الملكِ سنةَ خمسٍ وتسعينَ ، فاقتحمَ جليقيةَ وغادرَ أعمالَ بني غومس ^(٤) مُضْمَلَةً ، وهدى المسلمينَ شَانِجُهُ إلى عَوْرَاتِ قومه ، وانتهى بهم إلى مدينةٍ ليونه وهى من أَمْنَعِ المعاقِلِ ، ولم يكنُ المنصورُ بلغها لصُعوبتها . وطَمِعَ عبدُ الملكِ فيها ونازلها فأغيت عليه ، وقفلَ إلى قرطبةَ . وبقيَ شَانِجُهُ في مُسَالَمَتِه ثلاثةَ أعوامٍ يستعدُّ لحربه . فأحسنَ عبدُ الملكِ بَعْدَرَه ، فسابقَه بالغزوِ سنةً ستَ بعدها ، وضعى ^(٥) عبدُ الملكِ يومئذٍ بمدينةَ سالمٍ . ووافاهُ هنالكَ رسولُ الرُّومِ مِنَ القُسطنطينيّةِ بكتابهٍ إليه ، يسألهُ المواصلةَ على سبيلِ سَلَفِه مع ملوكِ المروانيةِ . وساقَ له

(١) رسم الكلمة في الأصل . هنية . (٢) في الأصل : استيساع .

(٣) في الأصل : في أرض وحام . . . (٤) في الأصل : غوس .

(٥) في الأصل : وصحى .

هديةً وعِدَّةٌ مِنْ أُسَارَى الْأَنْدَلُسِ طِيرٌ^(١) عَلَيْهِمْ بِأَطْرَافِ جَزَائِرِهِ الْبَحْرِيَّةِ ،
فَسُرَّ عَبْدُ الْمَلِكِ بِذَلِكَ ، وَإِذَا كَتَابُهُ مَكْتُوبٌ بِالذَّهَبِ عَلَى رَسْمِ مُلُوكِ الرُّومِ
الَّذِي فَاتَ الصَّنْعَةَ . وَذَكَرَ صَاعِدٌ وَرُودَ ذَلِكَ الرَّسُولِ فِي شَعْرِ قَالٍ فِيهِ :

زَلَزَلَتْ بِالْمُرْهَفَاتِ صَاحِبَ قِسْطَنْطِينٍ حَتَّى اتَّقَاكَ بِالْكُتُبِ
يَطْلُبُ فِيهَا رِضَاكَ مُجْتَهِدًا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَّقِيكَ بِالْهَرَبِ
فَلَيْسَ بِالْفَائِتِ^(٢) الْبَعِيدُ مَعَ اللَّهِ إِذَا [مَا] هَمَّتْ بِالطَّلَبِ

وَتَمَادَى اسْتِعْدَادُ شَانِجُهُ سِرًّا لِعَزْوِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَسَابَقَهُ سَنَةٌ سَبْعٌ وَتِسْعِينَ ،
وظَهَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ . ثُمَّ قَفَلَ إِلَى قُرْطُبَةَ آخِرَ ذِي الْحِجَّةِ مِنْهَا . ثُمَّ غَزَا سَنَةَ
ثَمَانٍ غَزَوْتَهُ الْأَخِيرَةَ فِي شَوَّالٍ ، فَاعْتَلَّ فِي مَدِينَةِ سَالَمٍ ، وَرَجَعَ إِلَى قُرْطُبَةَ مُحَرَّمِ
سَنَةِ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ . فَكَانَتْ آخِرَ غَزَاةٍ نَفَذَتْ^(٣) إِلَى بِلَادِ الْحَرْبِ لَوْ شَكَانَ
مَوْتِهِ فِي صَفَرٍ مِنْهَا . وَضَبَطَ أَخُوهُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَمْرَ بَعْدَهُ لِنَفْسِهِ .

٥٤

١٠

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ : وَلَعَهَا ظَهَرَ . (٢) فِي الْأَصْلِ : مِنَ الْفَائِتِ .
(٣) فِي الْأَصْلِ — نَفَذَتْ — بِغَيْرِ نَقْطَةٍ عَلَى الدَّالِ ، وَكَذَا فِي جَمِيعِ الْمَوَاطِنِ السَّابِقَةِ
الَّتِي ذَكَرْتُ فِيهَا السَّكْمَةُ فِي هَذَا الْمَجْلَدِ .

فصل في ذكر الوزير أبي الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي الدارمي ، وإثبات جملة من أشعاره مع ما يتشبهت بها من طريف أخباره .

- بلغني أنه خرج من بغداد إذ مات أبوه ، وأساء عشرته أخوه ، وسنه دون العشرين ، فلحق بالأمير محمود ، وشهد حروبه بأرض الهند ، وله فيه غير ما قصيد . إلى أن توفي فولي أكبر ولده بعده ، فبقي أبو الفضل على حاله عنده ، إلى أن خرج بعض إخوته عليه ، فنهض لحربه ، فدبر^(١) وزراؤه في طريقه الفتك به ، وشاوروا أبا الفضل في القضية ، فأبى من تلك الدنية ، وأودع أذن الأمير ، ذلك التدبير . فخاف وزراؤه أن يفتضحوا ، وعاجلوه قبل أن يصبحوا ، وقيّدوه قبل أن يقدم أخوه ، فسبقهم أبو الفضل إليه ، وقص ما فعلوه بأخيه عليه . فشكر له وفاءه لصاحبه ، وقال : الوفاء حلية الأحرار ، والغدر ثوب الأشرار . ووصل القوم بعد بأخيه ، ففك عن أغلاله ، وحبسه عند بعض عماله . وضرب أعناق العذرة ، وقرب أبا الفضل واستوزره ، إلى أن خرج عنه في خبر طويل . ولحق بشرّوان شاه وصحبه إلى أن توفي أيضا . وولّوا أخاه ، فكتب أبو^(٢) الفضل الخليفة أبا جعفر القائم ببغداد في الوصول إليه ، فاتفق ورود كتابه إثر وفود رسول المعز بن باديس عليه ، فطلب الخليفة رجلا يسفر بينهما ، فأرشد إلى أبي الفضل ، فوجه عنه ، وورد فجهزه . وخرج مستترا من بلد إلى بلد حتى وصل حلب ، فاشتهر خبره ، وطلب فمدح معز الدولة بقصيدته التي أوّلها : « عهود الصبا من بعد عهدك آمل » فأمر له بثياب سريّة ، وحمله على فرس عربيّة . ثم انفصل عنه واجتاز بمعرة

(١) في الأصل : فدبروا وزراؤه . (٢) في الأصل : أبا الفضل .

النعمان ، وبها المعري أحمد بن سليمان . فوصل إليه ، وأنشده قصيدته اللامية ،
 فقبل المعري بين عينيه ، وقال له : بأبي أنت من ناظم ! ما أراك إلا الرسول
 إلى المغرب . فوصل مصر ووزيرها يومئذ صدقة بن يوسف بن علي الملقب
 بالفلاح . فقصده مجلس قاضي القضاة بها ، وأثبت عقداً على رجل مشهور كان
 يومئذ ببلاد المغرب بشهادات زور ، ولما ثبت ذلك من الطومار ، خرج من
 مصر في زى التجار ، يوم بلاد إفريقية . فوقع على خبره صاحب الإسكندرية ،
 وطلبه فأعجزه . وبلغ أطرابلس المغرب أول عمل المعز ، فأفشى أمره ، وفضح
 سره . فأمر المعز بإشخاصه . فلما وصل سعى به عنده وأراد قتله ، فقال له :
 تأن في ، واستقص على ، فإن صدقت وإلا قتلت . فمشى أبو الفضل بالقيروان
 مراقباً عليه ، إلى أن ورد كتاب القائم بصدقه ، فاعتذر إليه ، ورفع منزلته ،
 وأكرمه وبسط يده في مطالعته ، وحكمه ^(١) . فحماهم أبو الفضل إلى منزله ،
 وأحسن إليهم ، وخلع عليهم . فعجب المعز من كرمه ، وقلده تدبير حشمة .
 وكان ورود أبي الفضل ببلد القيروان سنة تسع وثلاثين . حكى ذلك أبو علي
 ابن رشيقي ، وقال إنه أول من أدخل كتاب اليتيمة للشعالي عندهم ، وشهد
 حصار القيروان معهم . فلما كان عام ستة وأربعين صرف المعز خطبته إلى
 صاحب مصر ، ونبذ العباسية . فخرج أبو الفضل إلى سوسة ، فتطاول عليه
 أهلها ، فخرج عنهم بعد أن أوقع الفتنة بينهم ، وتركهم فرقتين : قيسية وعينية ،
 وأوقع في نفوسهم أن الحرب قائمة بين هاتين القبيلتين إلى يوم القيامة . فاقتتل
 الفريقان إلى أن تغلب عليهم تميم بن المعز ، وتردد أبو الفضل هنالك عدة
 سنين ، وشهد الحروب مع بلقين . ثم انتبذ من تلك الناحية وركب البحر ،

فَنَزَلَ بِدَانِيَةِ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ أَمِيرُهَا ابْنُ مُجَاهِدٍ بِلَحْمٍ وَأَرْبَاعٍ دَقِيقٍ أَوَّلَ نَزْوِلِهِ ،
فَصَرَفَهَا فِي وَجْهِ رَسُولِهِ ، وَتَعَجَّلَ الْارْتِحَالَ عَنْهُ إِلَى بَلَنْسِيَّةَ فَلَقِيَ بِرًّا . وَاسْتَجْلَبَهُ
المَأْمُونُ بْنُ ذِي النُّونِ فَخَسَنَ بِطُلَيْطَلَةَ مَشَوَاهُ ، وَأَجْزَلَ قِرَاهُ ، وَتَوَسَّعَ لَهُ وَلِعَبِيدِهِ
فِي الْبَرِّ ، وَأَجْرَى لَهُ سَتِينَ مِثْقَالًا فِي الشَّهْرِ . وَكَانَ دَخُولُهُ طُلَيْطَلَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ
لثَلَاثِ بَقِيْنَ لِجُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ ، وَتُوُفِّيَ بِهَا رَحِمَهُ اللَّهُ مُنْتَصَفَ
شَوَالٍ سَنَةِ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ . وَمِنْ غَرِيبِ وِفَاءِ الْمَأْمُونِ لَهُ — زَعَمُوا — أَنَّهُ
اسْتَمَرَّتْ جِرَائِقُهُ عَلَى حَاشِيَتِهِ ، وَتَجَافَى عَنْ مِيرَاثِهِ وَجَعَلَهُ وَصِيَّةً لَهُ إِذْ لَمْ يُوصِ
لِفَجَاءَةِ وَفَاتِهِ . وَرِثَاهُ الْحَكَمُ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ خَلِيفَةَ بِشَعْرِ يَقُولُ فِيهِ :

سَقَى اللَّهُ قَبْرًا حَلًّا فِيهِ أَبُو الْفَضْلِ سَحَابًا يَسْحُ الْمُنَّ وَبَلًّا عَلَى وَبَلٍ
وَكَيْفَ يُسْقَى الْمُنُّ قَبْرًا يَحُلُّهُ وَفِي طَيْهِ بَحْرُ الْمَكَارِمِ وَالْفَضْلِ
وَبَدْرُ تَمَامٍ مِنْ تَمِيمٍ نَجَارُهُ مُلُوكٌ لَهُمْ قَامَ الْمُلُوكُ عَلَى رِجْلِ
وَمِنْهَا :

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا آ كُلُّ مِنْ نَفُوسِنَا وَنَحْنُ لَدَيْهِ فِي الْحَقِيقَةِ كَالْأَكْلِ
وَهَذَا كَقَوْلِ الْمَعْرِيِّ :

وَمَا الْأَرْضُ إِلَّا مِثْلُنَا ^(١) الرِّزْقَ تَبْتَغِي وَتَأْكُلُ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ وَتَشْرَبُ
وَقَدْ كَرَّرَ الْمَعْرِيُّ هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ ^(٢) :

فَنَشِمُ صَارِمًا وَارَكْرُ قَنَآةً فَلِلرَّدَى يَدٌ هِيَ أَدْرَى بِالطَّعَانِ وَأَدْرَبُ
أَفْضُ لِهَامَاتٍ وَأَرْمَى بِأَسْهُمٍ وَأُطْعِنُ فِي قَلْبِ الْخَيْسِ وَأُضْرَبُ
وَوَزِيرُ مِصْرَ الْمَلِكِ بِالْفَلَاحِ الْمُتَقَدِّمُ الذِّكْرِ ، وَاللَّهُ كَانَ يَوْسُفَ بْنَ عَلِيٍّ

(١) فِي الْأَصْلِ : « مِثْلُ الرِّزْقِ » وَالتَّصْحِيحُ عَنْ الزُّوْمِيَّاتِ .

(٢) الزُّوْمِيَّاتُ ج ١ ص ٧٤ .

الذى هجاه الواساني بالقصيدة التى أولها (١) :

يا أهل جَيْرُونَ هَلْ لِسَامِرِكُمْ إِذْ اسْتَقَلْتُ كَوَاكِبُ الْجَمَلِ
وهو يومئذٍ مُشْرِفٌ عَلَى دِمَشْقٍ فِي أَيَّامِ الْحَاكِمِ ، وهى قصيدةٌ فى معناها
فَرِيدَةٌ . وقال الحاكم يوماً : أريدُ سَمَاعَ هذه القصيدة من رَجُلٍ حَسَنِ النَشِيدِ ،
فَقِيلَ لَهُ صَوْتُ الذِّى قِيلَتْ فِيهِ لَا أَحَدٌ يُجَارِيهِ ، فَأَحْضَرَ وَاسْتَعْفَى مِنْ نَشِيدِهَا
فَلَمْ يُعَذِّرْ ، وَأَنْشَدَ إِلَى أَنْ انْتَهَى إِلَى قَوْلِ الْوَاسَانِي فِيهَا :

كُنْتُ عَلَى بَابِ مَنْزِلِ سَحَرًا أَنْتَظِرُ الشَّاكِرِيَّ يُسْرِجُ لِي
وَطَالَ لَيْلِي بِحَاجَةٍ عَرَضَتْ بَاكِرْتَهَا وَالنَّجُومُ لَمْ تَعَلِ
فَمَرَّ بِي فِي الظَّلامِ أَسْوَدُ (٢) كَالْفَيْلِ عَرِيضُ الْأَكْتافِ ذُو عَضَلِ
مُشَقَّقُ السَّكَبِ أَفْدَعُ الْيَدِ وَالرَّجُلُ طَوِيلُ السَّاقَيْنِ فِي سَمَلِ
فَأَهْدَتِ الرِّيحُ مِنْهُ لِي أَرْجًا مِثْلَ جَنَى الرُّوضِ فِي النَّدى الْخَضِلِ
فَصِحْتُ مِنْ خَلْفِهِ رُوَيْدَكَ يَا أَسْوَدُ مَا لِي بِالْعَدُوِّ مِنْ قَبَلِ
فَنَكَّرَ نَحْوَى عَجَلَانَ يَعْثُرُ فِي مِرْطِ كِسَاءٍ مُبْرِغَةٍ قَمَلِ
وَقَدْ مَدَى فَاَلْمَدَى يَقَطُرُ مِنْ غُرْمُولِهِ فِي الذُّيُولِ كَالْوَشَلِ
وَوَظَنَ أَنِّي صَيْدٌ فَأَبْرَزَ لِي فَيْشَلَةٌ مِثْلَ رُكْبَةِ الْجَمَلِ
وَقَالَ : لِيَجْ دَارَكُمْ لِأَوْلَجَهَا فَيْكَ وَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَبُلْ فَبُلْ
فَطَالَمَا أَسْهَلْتُ طَبِيعَةً مَنْ لَيْسَ لَأَمْثَالِهَا بِمُحْتَمَلِ
فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنْ رَأَيْتَ لَهَا شِبْهًا فَلَا تَدْعُنِي أَبَا الْجَمَلِ (٣)
وَأَخُذْ عَمُودًا غِلَافُهُ شَرَجٌ لَمْ يُمْتَنِنْ سَاعَةً وَلَمْ يُذَلْ

(١) راجع القصيدة فى اليتيمة (ج ١ ص ٢٧٤) .

(٢) لم ترد فى الأصل والتصحيح عن اليتيمة .

(٣) فى الأصل : « أَبَا الْعَجَل » والتصحيح عن اليتيمة .

قلت له : والذي يَمُدُّ لك المُمْرَ وَيُعْطِيكَ غَايَةَ الأَمَلِ
 مَاشَقَّ دُبْرِي مُدَّ قُطَّ فَنَشَلَهُ وَلَا انْتِخَابُ الأَيُورِ مِنْ عَمَلِي
 وَلَا هَذَا دُعِيْتُ^(١) فَأُطْلِبُ لِعُرِّي مُوَلِّكَ مَنْ يَسْتَلْذُهُ بَدَلِي
 وَهَاتِ قُلْ لِي بِاللَّهِ مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ وَدَعْنِي مِنْ هَذِهِ الْعِلَالِ
 ٥ فقال : لِي بَتُّ عِنْدَ عَامِلِكُمْ هَذَا أَبِي الْفَضْلِ يُوسُفَ بْنَ عَلِيٍّ
 فَصَاكَ بِي طَيْبِهِ وَصَاكَ بِهِ مِنْ صُنَانٍ فِي حِدَّةِ الْبَصْلِ
 تَرَكْتُهُ فِي النَّهَارِ أَخْفَشَ لَا يَنْظُرُ فِي خِدْمَةٍ وَلَا عَمَلٍ
 قلتُ تَرَدَّيْتُ^(٢) وَاعْتَدَيْتُ عَلَى شَيْخٍ نَبِيلٍ يُنْقَمَى إِلَى نُبُلِ
 لَعَلُّهُ غَيْرُهُ فَصِفُهُ فَمَا تَخْدَعُ مِثْلِي بِهِذِهِ الْحَيْلِ
 ١٠ فقال : يَا سَيِّدِي عَجَلْتَ بِمَكْرُوهِهِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ
 هَذَا^(٣) الَّذِي بَتُّ عِنْدَهُ نَصَفُ دُونَ مُسْنٍ وَفَوْقَ مُسْكَنٍ
 أَدْرُ رِخْوُ الْعِجَانِ مُنْجَرِفُ الْمَيْمَرِ أَلْحَى مُهَيِّجُ الشُّفْلِ
 أَنْتَنُ مِنْ كُلِّ مَا يُقَالُ إِذَا بَالَغَ فِي النَّتَنِ ضَارِبُ الْمُثَلِ
 نَعَمْ ، وَفِي بَابِ سُرْمِهِ^(٤) وَضَحُّ أَيْتُ لَيْلِي مِنْهُ عَلَى وَجَلِ
 ١٥ أَخَافُ يُعْدِي أَيْرِي بِبَرَصَتِهِ فَاعْتَدِي مُثْلَةً مِنْ الْمُثَلِ
 فقلتُ : هَذِهِ صِفَاتُهُ وَلَقَدْ شَغَلَتْ قَلْبِي بِذَلِكَ الرَّجُلِ

ومنها في التعريض بمنشأ بن إبراهيم

فقلتُ قُلْ لِي مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُهُ فَقَالَ زِدْنِي^(٥) مِنْ هَذِهِ الْعُقُلِ

(٢) فِي الْيَتِيمَةِ « تَرَايَدْتُ » .

(١) لَمْ تَرُدْ فِي الْأَصْلِ .

(٤) فِي الْأَصْلِ « صَرْمِهِ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ « هُوَ » .

(٥) فِي الْيَتِيمَةِ : ذَرْنِي .

كُنتُ أَجِيرًا بَيْتُ^(١) مَعْصَرَةٍ كَانَتْ قَدِيمًا لِكَاتِبِ الْبَحْلِ^(٢)
فَنِمْتُ يَوْمًا وَكُنْتُ مِنْ سَهَرِ اللَّيْلِ وَقِيذًا كَالشَّارِبِ الثَّمَلِ
فَاجْتَازَ لِلْحَيْنِ وَالْقَضَا الَّذِي حُصِمَ مِنْشَأُ فِي مُوَكَّبِ زَجَجِلِ^(٣)
وَكَانَ مِنْهُ التَّفَاتَةُ فَرَأَى ذِيْلَ قَمِيصِي قَدْ قُدَّ مِنْ قُبُلِ
فَاشْتَدَّ تَحْدِيْقُهُ^(٤) إِلَى كَمَا حَدَّقَ ذَنْبُ طَاوٍ إِلَى حَمَلِ
وَلَمْ أَبْتَ لَيْلِي وَعَيْشِكَ يَا مُوَلَايَ حَتَّى رُفِعْتُ بِالرُّسُلِ
فَجِئْتُه خَائِفًا كَمَا يَلِجُ الْعَصْفُورُ مُسْتَكْرَهًا عَلَى الْوَرَلِ
فَارْتَعْتُ لِمَا رَأَيْتُ لِحِيْتَهُ وَكِدْتُ أُخْرِى مِنْ شِدَّةِ الْوَجَلِ
وظَنُّ أَنِّي اسْتَحْيَيْتُهُ فَعَدَا يَبْسُطُنِي بِالْمُزَاحِ وَالْغَزَلِ
وَقَالَ إِن كُنْتُ مُكْرِمِي ثُلٍّ قَدْ رَى فَبَعْضُ الْهُوَانِ أَرْفَعُ لِي
إِنْتِفَ سِبَالِي وَاصْفَعُ قَفَايَ وَلَا تَنْظُرْ إِلَى قُدْرَتِي وَلَا خَوْلِي
وَلَمْ يَزَلْ دَائِبًا يُشْمَخُ شَا قَوْلِي^(٥) وَيَحْتَالُ لِي عَلَى مَهَلِ
فَحِينَ أَدْلَيْتُ كَالْحِمَارِ بَدَا يَرْفَعُ أَثْوَابَهُ^(٦) عَلَى الْكَفَلِ
وَخَرَّ لِلْوَجْهِ وَالْجَبِينِ وَقَدْ رَطَّبَ حَوْلِي خُصِيْمِهِ بِالْبَالِ
طَعْنَتُهُ طَعْنَةً بِصَدْقِ الْأَنَا يَبِ أَصَمُّ الْكُعُوبِ مُعْتَدِلِ
ثُمَّ رَمَى صَفْحَتِي بِلَحِيْمَتِهِ فَقُلْتُ دَاهِ الشَّرْمِ^(٧) مِنْ بَنِي ثَعْلِ
فَقُلْتُ كَلًّا وَاللَّهِ لَمْ يَسِلْ لَطِخَ رَجِيمِ كَالْوَرَسِ مُنْسَجِلِ
أَيْنَ النَّجِيمُ الْقَانِي فَذَيْتُكَ مِنْ

٥٦

١٠

١٥

(١) فِي الْأَصْلِ : بَيْد .
(٢) فِي الْأَصْلِ : رَحَل ، وَالتَّصْحِيحُ عَنْ الْيَتِيمَةِ .
(٣) فِي الْأَصْلِ : تَحْدِيْقُهُ .
(٤) فِي الْأَصْلِ : يَشْمَخُ سَافُولِي ، وَالتَّصْحِيحُ عَنْ الْيَتِيمَةِ .
(٥) فِي الْأَصْلِ : أَجْلَالَهُ عَنْ .
(٦) فِي الْأَصْلِ : كَذَا بِالْأَصْلِ .
(٧) رَسَمَ السَّكْمَةِ فِي الْأَصْلِ : الصَّرْم .

فقال أيرُ أرى به هوجاً^(١) قد جازَ حَدَّ الجنونِ والخبَلِ
 يأسىدى ما اسمه فقلتُ أبو الأسـ ودٍ يُسكنى وليسَ بالدُّولى
 وهى طويـلةٌ ، فلما فرغَ قالَ له الحاكمُ لمَ لمَ تقطعَ لسانه ؟ والله لا عملتُ
 لى عملاً بعدُ ، فصرفه .

جُمْلَةٌ من أشعارِ أبي الفضلِ فى أوصافِ شتى النَّسِيبُ وما يناسبُه

كان يوماً مع المعزِّ بنِ باديسَ فى مجلسِ أنسٍ ، وغلّامٌ وسيمٌ يدورُ بالكأسِ
 فقال فيه :

ومُعذِّرُ نقشِ الجَمالِ بِمِسكِه خدّاً له بِدَمِ القلوبِ مُضَرَّجاً
 لما تيقنَ أنَّ سيفَ جُفونِهِ مِن نرجسٍ جعلَ النِّجادَ بِنَفْسِ جِـ
 ١٠ وكانَ له هوى بَغلامٍ فى مَدِينَةِ السَّلامِ فإذا رآه أنكرَ حَبَّه ، والغلامُ
 يَعْرِفُ شِدَّةَ وَجْدِهِ وكَلْفِهِ ؛ فدَمَعَتْ يوماً عَيْنَا أبى الفضلِ ، فقالَ الغلامُ :
 دمعُك شاهدٌ عليك ، فقال :

وهَبْنِي قَدْ أنكرتُ حَبَّكَ جُمْلَةً وآلَيْتُ أنى لا أرومُ مَحَطَّها^(٢)
 فنَ أينَ لى فى الحبِّ جَرَحُ شَهادَةٍ سَقامِي أَمَلَاها ودَمَعِي خَطَّها ؟
 ١٥ ودخلَ يوماً على قَيْنَةٍ وهى تَتَبَخَّرُ بالدُّدِّ ، ودُخانُه قد عَلا وجهَها فقال :

ومَحْطُوطَةُ المَتْنينِ مَهْضُومَةِ الحَشا مُنْعَمَةُ الأردافِ تَدْمى مِنَ اللامِ
 إذا ما دَخانُ الدُّدِّ مرَّ^(٣) جِيبَها على وَجْهِها أَبْصرتُ غَيْماً على الشَّمسِ

وهو القائل :

(١) فى الأصل : أوى به هونا . وفى البيتية : نفاص جسمى أير به هوج .
 (٢) كذا بالأصل . (٣) كذا بالأصل ولعلها مرَّ بجيبها .

يَغْرِسُ وردًا ناضِرًا ناظري
فَلَيْمٌ مَنَعْتُمْ شَفَقِي قَطْفَهُ
في وجنَّةٍ كالقمرِ الطالعِ
والْحُكْمُ أَنَّ الزَّرْعَ لِلزَّارِعِ !
وقال :

وحياةٍ ما غرسَ الحياهُ بخدِّه
ومُبْلَبِلٍ من صُدغِهِ العِطْرِ الذي
لَا غَرَرَنَّ بِمُهْجَتِي فِي حُبِّهِ
ولئن تَعَذَّرَ إِنَّ عِنْدِي ذِلَّةً
وقال :

ياليلُ هَلَّا انْجَلَيْتَ عَن فَلَقِ
جَفَتْ جُفُونِي الْأَمَاقَ فَيَا
كَأَنِّي صُورَةٌ مُثْنَّةٌ
طلَّتْ وَلَا صَبَرَ لِي عَلَى الْقَلَقِ
تُسَبِّلُ أَشْفَارُهَا عَلَى الْحَدَقِ
ناظِرُهَا الدَّهْرَ غَيْرُ مُنْطَبِقِ
وإنما أشار في هذا إلى قول بشار :

جَفَتْ عَيْنِي عَنِ التَّغْمِيضِ حَتَّى
فَنَقَلَ لَفْظَهُ وَمَعْنَاهُ ، وَقَصَّرَ عَنْهُ كَمَا تَرَاهُ . وَقَدْ أَخَذَ أَيْضًا الْعَتَابِي هَذَا الْمَعْنَى ،
وَاجْتَمَاهُ أَرِيئًا ، فَرَدَّ شَرِيًّا ، بِقَوْلِهِ :

فِي مَاقِيٍّ انْقِبَاضٌ عَنْ جُفُونِهِمَا
وقال أبو الفضل :

بَذَرْتُ تِمْرَ عَلِيٍّ لَيْسَ يَلِينُ
طَالِبًا لِلْخِلَافِ إِنْ لَمْ أَكُنْ كَا
فَعَلَى ذَا مَا نَلْتَقَى قَطُّ حَتَّى
خَابَ فِيمَا رَجَوْتُ فِيهِ الظُّنُونُ
نَ وَإِنْ كُنْتُ حَاضِرًا لَا يَكُونُ
يَتَلَقَّى الْمُضَافُ وَالتَّنْوِينُ

وقال :

وظفني أراي غُرَّةً من جبينه
تجرت بالأسعافِ جرعة ظلمه
وكم أمكنتني فرسة فتركتها
ولو كنت في ثوب الشبيبة رافلاً
وهذا كقول الآخر :

دعني عيئك نحو الصبا
فلولا وحقك عذر المشيب
وهذا مثل قول جرير ومنه أنشد :

لولا الحياء وأنني مشهور
لحلت منزلك الذي تحتله
وابن الرقاع هو القائل :

لولا الحياء وأن رأسي قد عسا
وقال بعض أهل عصرنا :

فلولا حياء المحييا وما
لمرغت خدي وألفت بين
وقال محمد بن هاني^(١)

والله لولا أن يسفهنى الهوى
لكسرت دملجها بضيق عناقها
بتنم فلولا أن أغير^(٢) لمتي
لخططت شيباً في عذارى كاذباً
ويقول بعض القائلين تصابي
ولمت من فيها البرود رضابا
عبثاً وألقاكم على غضابا
ومحوت محو النقيس عنه شبابا

(٢) في الأصل : غير .

(١) راجع الديوان ص ١٠٦ .

وخلعته خلع الفجاء مذمماً واعتمضت من جلبابه جلباباً
وخضبت مسود الحداد عليكم لو أنني أجد البياض خضاباً
وسأله أبو منصور الثعالبي أن يصف غلاماً صغيراً كان بديع الحسن ،
ليثبت ذلك في كتابه المترجم بألف غلام ، فقال :

إني عشقت صغيراً قد دب فيه الجمال
وكاد يفشي حديث ال فضول منه الدلال
لومر في طريقي^(١) الهجر لاعتراه ضلال
وتاه فيه اغتراراً لو لم يُغثه الوصال
يريك بداراً تماماً في الحسن وهو هلال

وسأله أيضاً أن يصف غلاماً كاتباً كان حسن الخطين خط اليد وخط

الوجه ، فقال :

وكاتب أهديت نفسي له فهي من سوء فدا نفسه
سلط خديّه على مهجتي فاستأصلاها وهي من غرسه
كأنما خطّ على خدّه مثل الذي قد خطّ في طرسه
فلمست أدرى بعد ما حلّ بي بعشكه أتلّف أم نقسه

وقال فيه :

وشادن أسرف في صدّه وزاد في التيه على عبده
الحسن قد بثّ على خدّه بنفسجاً يرنو إلى ورده
رأيتّه يكتب في طرسه خطأ يضاهي الدرّ في عقده
نخلت ما خـطّه كفه للحسن قد خطّ على خدّه

وَألم أبو الفضل في هذا بقول بعض الكتاب :

ما أخطأت نوناتُه من صدغِه شيئاً ولا ألفاتُه من قدّه
وكأنما أنقاسُه^(١) من شعره وكأنما قرطاسُه من جلده

وينظر إلى هذا من طرف خفي ، قول أبي سُمرة الدارمي قال :

سرابُ الفَيافي صادقٌ عندَ وعدِها وسمُّ الأفاعي مُبرئٌ عندَ صدّها
رمتني ولم أَسعدْ بأيامٍ وصلِها بعيني مهابةً أنحستني ببعديها
تعلقها قلبي كما قد تعلقْتُ صواحبُ صدغِها^(٢) بثفاحِ خدّها
فقلبي لما أضعفتُه كخمرِها ودمي لما نظمتُه كعقدِها

وقال أبو الفضل :

قلت للملقى على الخدِّ (م) ين من وردٍ خمارا
والذي سلَّ على العشاقِ بالاحظِ شِفارا
أَسبَلَ الصَّدغُ على خدِّ لك من مسكٍ عِذارا
أَمْ أَعَانَ اللَّيْلَ حَتَّى (م) قَهَرَ اللَّيْلُ النَّهَارَ؟
قال مَيِّدانٌ جرى الحُسْنُ ن عليه فاستدارا
ركضتُ فيه عيونُ فأثارتُهُ غُبارا

وقال يتشوق إلى بلده :

أهيمُ بذكرِ الشرقِ والغربِ دائباً وما بي شرقٌ للبلادِ ولا غربُ
ولكنَّ أوطاناً نأتُ وأحبّةً فقدتُ متى أذكرُ عهدَهم أصبُ
إذا خطرت ذِكرهمُ في خواطري تنائرٌ من أجفاني الأولؤ الرطبُ
ولم أنسَ مَنْ ودَّعتُ بالشطِّ سُحرةً وقد غرَّدَ الحادونَ واستعجلَ الركبُ

(١) في الأصل : أنقاسه . (٢) في الأصل : خديها .

ألفان هذا سائرٌ نحو غُرْبَةٍ
وقال في مثله :

تذكرُ نَجْدًا والحمى فبكى وَجْدًا
وحَيْثُ أَنْفَاسُ الْخَزَامَى عَشِيَّةً
فأظهرَ سُـلُوانًا وأضمرَ لَوْعَةً
ولو أَنَّهُ أُعْطِيَ الصَّبَابَةَ حُكْمَهَا
ولم أَنَسَهُ وَالسُّكْرُ يُفْتِلُ قَدَّهُ

وقال :

ومغورِ الجفونِ بلا خُمَارٍ
فما زالتْ به حِيَالِي إِلَى أَنْ
وجادَ بَقْبَلَةٍ فشمِمتُ مِسْكَاً
فكان السُّكْرُ لِي سَبَباً سَقَانِي
فيا شَرِبًا ورددتُ فـكَانَ عَذْبًا

وقال :

قالوا تَبَدَّى شَمْرُهُ فَأَجَبْتُهُمْ
والبدرُ أَهْرُ ما يكون ضِيَاؤُهُ

وقال :

ظبيُّ إِذَا حَرَّكَ أَصْدَاغَهُ
غَنَّى بِشِعْرِي مُنْشِداً لِيَتْنِي ۖ
فكَلَّمَا كَرَّرَ إِنْشَادَهُ

وقال :

يا ذا الذي خطَّ الجلالُ بوجهه سَـطَرَيْنِ هاجا لوعةً وبَـلايلا
ما صحَّ عندي أن لحظك صارمٌ حتَّى لِدستَ بعارضيك حمائلًا
وهذا كقول ابنِ رشيقي :

وهل [ترى] عارضيه إلا حمائلًا قُلدتُ حُسامًا

وقال أبو الفضل في بعض غلمانِه وكان له به هوى :

علىَّ لا تَصِلْ وَبَيْنِ فقلبي غيرُ مُرتَهِنِ
غَضِبْتَ فزِدْ ودُمُ غَضِبًا فإني عن رضاك غَفِي
أَتُخْفِي بِغَضَّتِي سِرًّا وتُبْدِي الحبَّ في العلانِ ؟ !
لَقَدْ غَرَّتْكَ فِي مَنِيلِي إليك كواذبُ الظننِ
أَتَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ هَوَى وودُّك لي على دَخَنِ ؟ !
إِذَا فَسَدَتْ يَدٌ قُطِعَتْ لَيْسَلَمْ سائرُ البدَنِ

فأجابَه الغلام :

غلامُكَ غَـيْرُ مُمْتَهِنِ تُخـوِّنُهُ وَلَمْ يَخْنِ
وَتَطْلُبُ عَتْبَهُ ظُلْمًا على غَضَبٍ وَلَمْ يَكُنْ
وَتَوَقَّعُهُ بِمَا قَدْ قَدْ تَ فِي بَحْرِ مِنَ الْفِتَنِ (٢)
فَقُلْ لِي كَلَّ طَرَفُكَ أَمْ خَلا طَرَفِي مِنَ الْفِتَنِ ؟

وقال أبو الفضل :

وحبيب [ضَن] بالوصلِ رَتيها هل تَضِنُّ (١) البدورُ بالإشراقِ
أنا أخشى إن دامَ ذا الهجرُ أن يُذ شِطَّ من حَبِّهِ عِقَالٌ وَثاقِ

(١) في الأصل : يظن .

(٢) كذا ولعلها : الظنن تفادى الأخطاء .

فأريحَ الفؤادَ ممّا اعتراهُ وأردّ الهوى على العشاقِ
وقال :

سمّحتُ بنفسى غداةَ الرحيلِ غراماً على القمرِ الآفلِ
وبتُ أنفُضُ خِتَامَ الجفونِ وأبكي على الجسدِ الناحلِ
ومن عجبِ العشقِ أنَّ القَتيلَ يحنُّ ويصبو إلى القاتلِ؟!

وقال :

يا حادياً وجمالُ الحى سائمةٌ ماذا تريدُ بقلبي أيُّها الحادى؟
كلفته السَّيرَ من جسمى ففارقة^(١) وهل يسيرُ أسيرُ ما له فادٍ؟
رفقاً فقد هجّت شوقاً ما استعدّ له فكيف يرحلُ مشتاقٌ بلا زادٍ؟

وقال :

أيا بصري أعدى^(٢) علىّ ويا سمعى ويا مسرِّفاً عند التضرع فى دمعى
إذا كنتَ مطبوعاً على الهجرِ والجفا فمن أين لى صبرٌ فأجعله طبعى ؟!
سلِ المطرَ الغمرَ الذى عمَّ أرضكم أجاء بمقدارِ الذى فاضَ من دمعى؟

ما أخرجته من شعره فى سائر الأوصاف

كان ليلةً مع بعضِ إخوانه وبينَ أيديهم شَمعة ، فأفضى حديثهم إلى وصفها ،
فجملَ مَنْ حضرَ يريّضُ نفسه ، ويعملُ فى ذلك حِسّه ، فقالَ أبو الفضل :
ذهَبنا فأذهَبنا الهمومَ بِشَمعةٍ غَنينا بها عن طلعةِ الشمسِ والبدرِ
أقولُ وجِسمى ذائبٌ مثلَ جسمِها ودمعُها تجري كما دمعى تجري
كلانا لعمري ذو بيانٍ من الهوى فنارُك من جمرٍ ونارى من هجرٍ

(١) فى الأصل : ففارقته .

(٢) رسم الكلمة فى الأصل « عذا » ولعلها ما أثبتناه أو لعلها « أعزى » .

وأنتِ على ما قد تُقاسين من أذى فصدرك في نار ونارى في صدرى
وله في وصف طريف :

حكى فرسى الليل في لونه فقابله البدر عند اضطرار
فكان له غرة في التمام ونعلاً لحافه في السرار

وقال :

رُبَّ ليلٍ أبطأ على فلما مدّ ضافى^(١) دُجَاه ما استبطانى
جئتُ أسعى إليه سعى زلالٍ ١١ ماء يستنّ في حشى الظمان
ظلتُ أسرى بمثله فيه حتى خلّتنى قد أحاط بي ليلان
فهو طريف له حصانى^(٢) سواد أنا فيه كهيئة الإنسان ١٠

وأرى السلامى قد نبّه على هذا التشبيه ، وإن كان أبو الفضل قد زاد فيه .
وكان السلامى قد ركب زورقاً بدجلة فقال :

وميدان تجول به خيول تقود الدارعين وما نقاد
ركبتُ به إلى الذات طرفاً له جسمٌ وليس له فؤاد
جرى فظننتُ أن الأرض وجهه ودجلة ناظرٌ وهو السواد ١٥

وقال عبد الجليل المعتمد بن عباد من شعر قد تقدّم إنشاده في صفة جواز البحر :

فسرت فوق دفاع الله تهصره براحة الدين والتقوى فينصره
كأنما كان عينا أنت ناظرها وكل شطّ بأشخاص الورى شفر

وقال أبو الفضل في زامر أسود :

وحالك اللون كالليل البهيم له فضائل مشرقات الحسّن كالفلق
تنوب عن نطقه ريح مؤثرة في قلب مصطبح أولب مغتبق ٢٠

(١) في الأصل : « ضافى » . (٢) في الأصل : « خضانى » .

تَخَالُ مَجْلَسَنَا وَجْهًا بِهِ حَسَنًا
كَأَنَّمَا كَفَّهُ مِنْ زَمَرِهِ سُلَيْمٌ
تَرَاهُ يَحْفَظُ مَا يُوحَى إِلَيْهِ بِهِ
يَحْدُو بِأَنْفَاسِهِ الْأَوْتَارَ بِمُجْتَهِدًا
أَهْدَى الشَّبَابُ إِلَيْهِ حُسْنَ بَهْجَتِهِ
وَإِذَا صَارَ فِيهِ كَحَالِ مُعْجِبٍ لِبَقِي
أَوْزَمَرُهُ مِنْ يَدَيْهِ جِدُّ مُسْتَرْقٍ
وَسِرُّهُ أَبَدًا يَهْوَى بِمُنْخَرِقٍ
فَتَسْتَقِيمُ^(١) بِهِ الْأَلْحَانُ فِي الطَّرْقِ
فَنَاسِبَ الْمِسْكِ فِي لَوْنٍ وَفِي عَبْقٍ
وَقَالَ :

هَاتِ اسْقِنِي فَالْعَيْشُ شَاكٍ جُرَاةً
مِنْ قَهْوَةٍ تَدْعُ الْفَتَى مُسْتَحْسِنًا
مَعَ نَاعَسِ الْأَلْحَاطِ تُخْبِرُ أَنَّهُ
وَالثَّلْجُ يَحْكِي فِي الْأَكْتِنَانِ سَقُوطَهُ
وَالدَّهْرُ نَسْكَبٌ عَنْ لِقَاءِ أَعْزَلَا
مِنْ غَفْلَةٍ فِي شُرْبِهِ أَنْ يَجْهَلَا
مَا قَالَ فِيمَا رِيَمَ مِنْهُ قَطُّ لَا
وَضَائِلُ^(٢) جِشْتِهِ دَقِيقًا غُرْبَلَا
وَيَا بَعْدَ مَا بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلٍ بِمَضَى أَهْلِ عَصْرِنَا وَهُوَ :

[^(٣) وَالشَّمْسُ طَالَعَةٌ وَلَمَّا تَغْرُبُ
خِلَتِ الرِّذَاذَ بُرَادَةً مِنْ فَضَّةٍ
وَلَأَبَى الْفَضْلُ فِي الشَّيْبِ :

طَاقَةٌ نَقَصَتْ عَلَى شَبَابِي
فَأَقَامَتْ عِنْدَ الْمَكَانِ وَنَابَتْ
قُلْتُ مَاذَا هَذَا لَعَمْرُ التَّصَابِي
قَالَتْ^(٤) قَدْ جَرَى مِنَ الرَّسْمِ لِلسُّلْطَانِ أَخْذُ الْبُرَاءِ قَبْلَ الْجَانِ
وَإِنْ أَرَدَدْتَ فِي الْجَفَاءِ فَلَا تُنْكَرْ قُدُومِي عَلَيْكَ مَعَ أَعْوَانِ
فَتَعَمَدْتُ نَتْفَهَا غَيْرَ وَابٍ
عِنْدَ نَتْفِي مِنْ غَيْرِهَا طَاقَتَانِ
إِشْبَابِي وَجِدَّتِي مَحْنَتَانِ

(١) فِي الْأَصْلِ : « فَتَسْبِقُهُمْ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : وَطِيل .

(٣) بَيَّاضٌ بِالْأَصْلِ . (٤) فِي الْأَصْلِ : قَالَتْ .

ألم في البيت الأخير بقول^(١) :

رويدك حتى يلحق الجيش من خلف

وفي البيت الثاني والثالث بقول كشاجم :

أخى قمّ فعاوني على شبيمة بغت
إذا ما مضى المنقاش يأتي بها أبت
كجان على السلطان يجزى بذنبه
وقال أبو الفضل من طردية :

أنعت^(٢) كلباً لم يصب مثاله
مثل الهزبر سلبت أشباله
للسام من مصاله مصاله^(٣)
فكلنا من صيده عياله

وله من قصيد طويل :

كأنما الفجم والنيران تلهبُهُ
أوالزئود براها^(٤) السيف في رهج
مدّ الرماد عليه بعد رقدته
أقول للنار والأحزان نائرة
إيالك أن تقرّبي^(٥) ناراً مؤججة
أظن أنك ما لا قيمت ما لقيت
ولا منيت^(٦) بتوديع وقد جعلوا

هَامٌ مِنَ الزَّيْجِ فِي ثَوْبٍ مِنَ الشَّرْقِ
مِنَ الْمُنُودِ عَلَيْهَا شَطْبَةٌ^(٥) الْعَلَقِ
عَيْنًا لَهُ حَسَكٌ مِنْ حُمْرَةِ الشَّفَقِ
وَالْقَلْبُ فِي غَمَرَاتِ الْحُبِّ لَمْ يُفَقِ
بِلَا عِجِ الشُّوقِ فِي قَلْبِي فَتَحْتَرِقِ
قُلُوبُ أَهْلِ الْهَوَى مِنْ تَجَاهِمِ الْقَلَقِ
بِيضَ السَّوَادِ أَطَوَاقًا عَلَى الْعُنُقِ

(١) بياض في الأصل . (٢) في الأصل : أبغت .

(٣) رسم هذا الشطر في الأصل : نسام من مطاله مطاله .

(٤) في الأصل : أو الزئود براها . (٥) في الأصل : شطة .

(٦) في الأصل : تقرّبي . (٧) في الأصل : سنيت .

يا زائراً زار من قُربٍ على بُعيدٍ

آنست مُسْتوحِشاً لا ذقتَ ما ذاقا

يا ليلُ عَرَّسَ على خِلْنٍ قد جَعَلَا بِيضَ السَّوَادِ للأَعْنَاقِ أطواقا

ومن قصائده المطوّلات ، في المدح وما يتعلق به من الصفات .

قال من قصيدة في معزّ الدولة صاحب حلب :

وقفتُ على رسمِ الديارِ مُسائلاً وهل يَشْتَفِي ^(١) من لوعةِ الحبِّ سُؤالُ ؟

فالوى رُسُومَ الصبرِ رسمٌ من اللوى وطلَّ دُمُوعِي بالسَّبِيبةِ ^(٢) أَطْلالُ

يُحْيِي بها صَوْبُ الحَيَاءِ مَعَالِماً خَلَعْنَ عليهنَّ الحُجَاسَنَ أنوالُ ^(٣)

فما رَوَّضَتْ أرضُ المهادِ مَلاحِفُ

وزهرُ رُبَاهَا الحُلَى والنَّوْرُ خَلْخالُ ^{١٠}

ورقاء تَسْمَلِي حَنِينِي بنوْحِهَا كِلَانَا على عَهْدِ الأَحْبَةِ هَدَالُ

وإني إذا ما ازورَّ عَنِّي منزلُ رَمَى الحِلَّ في قُطْرِيهِ شَدَّ وَرَحَالُ

أَقِيمُ إذا ما العِزُّ وطَّدَ مَفْرِشِي وَأَنْبُو إذا ما أَعْقَبَ ^(٤) العِزُّ إِذْلالُ

أنا ابنُ الشَّرَى إن مَلَنِي ^(٥) مَتْنُ سَابِقِ

تَسَلَّمَنِي شَخْتُ الجُزَارَةِ مِرْقَالُ ^{١٥}

كَأَنَّ الفَلاظِئُ ^(٦) لها الليلُ حَجَلَةٌ تَحَنُّ إليها مِن رِكَابِي أَطْفَالُ

(١) في الأصل : يُشْفِي .

(٢) رسم الكلمة في الأصل : « بالست » ولعلها « بالسبيبة » أو « بالسبية » من

مواضع بلاد العرب . (٣) في الأصل : نوال .

(٤) في الأصل : أعقت ولعلها ما أثبتناه أو لعلها : أعنت .

(٥) رسم الكلمات في الأصل : إن حلى متق ... ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٦) في الأصل : طير .

تُفَوِّزُ فِي قَطْعِ الْمَفَاوِزِ جُرَأَتِي إِذَا انْصَاعَ عَنْ قَطْعِ الْجَاهِلِ جُهَالُ^(١)
 إِذَا الْبَدْرُ جَلَى وَجَنَّةَ الْبَرِّ نُورُهُ فَجَوْنُ الطَّلَى مِنْ فَوْقِ وَجَنَّتِهِ خَالُ^(٢)
 سَقَى حَلَبًا وَالْحَيَّ مِنْ آلِ عَامِرٍ هَزِيمٌ تَوَالَى مِنْ تَشَاصِكَ^(٣) مِهْطَالُ
 فَكَمْ أُنْمِرَتْ فِيهِ الْقَنَا مِنْ مُنَاقِفٍ وَكَمْ أُتْعِبَتْ فِيهِ الصَّوَارِمَ أَبْطَالُ
 إِذَا خُطِبُوا الْعُلِيَاءُ يَوْمَ كَرِيهَةٍ فَأَسْـيَافُهُمْ فِيهَا مُهُورٌ وَأَجْعَالُ
 بِيَمِنْ مُعَزِّ الدَّوْلَةِ انْكَشَفَتْ لَنَا مِنَ الدَّهْرِ أَحْوَالُ مَرَّتَيْنِ أَحْوَالُ
 تَجَانَّى مُحَبِّي الْمَالِ حَتَّى كَانَمَا يُقَابِلُهُ مِنْهُمْ^(٤) وَشَاةٌ وَعُذَالُ
 كَأَنَّ الْوَعْيَ طَرَفٌ لَهُ الْخَيْلُ^(٥) تَحْجِرُ

لَهُ النَّفْعُ أَكْهَالُ لَهُ الزَّانُ^(٦) أُمِّيَالُ
 وَأُسْمَرَ عَسَالُ إِذَا احْتَدَمَ الْوَعْيُ تَصَدَّقَ مِنْهُ الزَّادَ أَطْلَسُ عَسَالُ
 وَلَهُ مِنْ أُخْرَى فِي ابْنِ ذِي النُّونِ الْمَأْمُونِ :

لَا يَشْرَبُ الْمَاءَ مَا لَمْ يُحَفِّ حَافَتَهُ حَتَّى إِذَا قَطَرَتْ أَرْمَاحُهُ شَرِبَا
 وَلَا يَرُدُّ الْمُحَيَّا الطَّلُقَ بَغْرَتَهُ كَالْقَرْنِ عَنْ بَيْرِقِ خُلْبٍ خُلْبَا
 مَا بَالُ بَالِي إِذَا سَكَنَتْهُ نَفَرَتْ عِشَارُهُ وَإِذَا كَفَّكَفَتْهُ انْسَرَبَا
 أَلَّا تَبْرِمَ بِالْدُنْيَا وَزِينَتِهَا أَمْ الْبَعِيدُ مِنَ الْآمَالِ قَدْ قَرُبَا
 بِهَمَّةِ الْمَلِكِ الْمَأْمُونِ حِينَ غَدَا إِفْضَالُهَا لِتَنَاهِي هِمَّتِي سَبَبَا

(١) في الأصل : « إذا طاع ... جاهل » ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٢) رسم هذا البيت في الأصل .

إذا البدر جلا وجهه البر نوره غصده طلى فوق وجنته خال
 وهو مضطرب كما ترى ولعل ما أثبتناه أقرب الاحتمالات .

(٣) كذا بالأصل ولعلها من سنا البرق ورسم هذا البيت :

سعى حلياً والحلي من آل عامر هريم نوالى من تشاصك مهطال

(٤) في الأصل : منه . (٥) في الأصل : الجبل .

(٦) في الأصل : الزان .

الواهبِ الألفَ لا عَيْنًا ولا وَرَقًا
في جَحْفَلٍ كسوادِ الليلِ مُرْتَكِمٍ
كأنما نَهَجُ أنبوبِ الرماحِ به
قَوْمٌ إِذَا رَكَبُوا سَدُّوا الفِضَاءَ وَإِنْ
قَدَصَيَّرُوا الحَرْبَ كَأَسَاوِ الدَّمَاءِ بِهَا
وله فيه من أخرى :

ولم يفهموا ما تكتبُ البَيْضُ في الوَغَى
تَسْرِعَ حَتَّى خِلْتُ كُلَّ مُقَصِّرٍ
وحتى توهمنا النجومَ أَسِنَّةً
وله من مَرثية في الملكِ شروان شاه :

يا مُوضِعاً^(٢) عن مُلِكِهِ وَسَرِيرِهِ
طَلَّتْ رَزِيئَتُهُ دَمِي إِنْ لَمْ أَدْعِ
يا تَارِكاً رُسُلَ المُلُوكِ بِبَابِهِ
أَرْحَلْتَ ثُمَّ تَرَكْتَنَا وَلَقَبَلْتَ ذَا
أَتُرَى دَلِيلَكَ فِي السَّرَايَا غَرَّةُ
صِرْنَا نُقَبِّلُ قَبْرَهُ وَلَطَالَمَا
جَدْتُ غَدًا جَفْنَا لِأَبْصَرِ نَاطِرٍ^(٣)
يا قَبْرُ لَمْ نَعْرِفْ^(٤) تَشْتَتِ شَمْلِنَا^(٥)
ظَلَمْنَا نَشَقُّ جِيوَبَنَا مِنْ بَعْدِ أَنْ
ماذا أَضْرَكَ لَوْ لَبِثْتَ قَلِيلاً؟
دَمَ مُقَلَّتِي فِي لَحْدِهِ مَطْلُولَا
مَنْ ذَا يَرُدُّ عَلَيْهِمُ التَّجْمِيلَا؟
كُنَّا نَحْفُ إِذَا أَرَدْتَ رَحِيلَا
خَطَاً فَسَارَ إِلَى الحِمَامِ دَلِيلَا؟
كُنَّا نَبِيحُ بِسَاطِهِ التَّقْبِيلَا
أَمْسَى وَأَصْبَحَ بِالرَّدى مَكْحُولَا
حَتَّى غَمَدْتَ الصَّارِمَ المَصْقُولَا
كُنَّا نُجَرِّرُ فِي ذَرَاهُ ذُيُولَا

(٢) في الأصل : يا مَرصعاً .

(١) في الأصل : نسج .
(٣) في الأصل : « لأَنْصُرُ نَاصِر » .

(٥) في الأصل : بَعْمَلْنَا .

(٤) في الأصل : نَعْرِفُ .

وَنَعْبُ كَاسَاتِ الدَّمُوعِ كَأَنَّا
عُذِلَ الْبُكَاءُ فَظَلَّ يُفْسِدُ نَفْسَهُ
رَدُّ الْجُمُوحِ الصَّعْبِ أَيْسَرُ مَطْلَبًا
مَا لِلرَّمَاكِ قَصْرُنَ عَنْ دَرْكِ الْمَدَى
وَلَقَبْلُ كُنَّ إِذَا رَأَيْتَكَ عَازِمًا
لَيْسَ الْحِدَادَ حَدِيدُهُنَّ فَمَا نَرَى
تَبْكِيكَ أَقْلَامَ [زَهَتْ] ^(١) مِنْ عُظْمٍ مَا
وَبَحُورُ شَعْرِ غَاصَ ^(٢) مَدْحُكَ فَاثَقَى

منهنَّ دُرًّا فِي النَّظَامِ جَزِيلًا

وله من أخرى في بعض عبيده :

أَعْبَدَيْ قَدْ أَسَارْتُمَا [فِي] جَوَانِحِي
أَسَاتِمُ وَلِلْحَبِّ الْمُبَرِّحِ حُجَّةٌ
لئن بَرَزَنِي دَهْرِي بِبَغْدَادَ تَرَوْنِي ^(٣)
فِيهَا لَيْتَنِي لَمْ آتِ بِغَدَادَ نَابِهَا ^(٤)
فَلَوْ كُنْتُ فِيهَا لَمْ تُحْصَ قَوَادِمِي
فَزَقْتُ أَثْوَابَ الْفَلَاحِ بِسَوَابِقِي
إِذَا [مَا] أَمَالَتَنِي بِهَا نَشْوَةُ الْكَرَى
مِنْ الْوَجْدِ دَاءٌ مُسْتَكِنًا وَبَادِيَا
تُحَسِّنُ فِي عَيْنِي تِلْكَ الْمَسَاوِيَا
فَمَا زِلْتُ مِنْ كَسْبِ الْحَامِدِ كَاسِيَا
وَأَصْبَحْتُ فِي أَكْنَافِ شِرْوَانِ عَارِيَا
وَلَا أَحْفَتِ ^(٥) الْأَشْوَاقُ مِنْهَا الْخَوَافِيَا
تَظَلُّ بِهَا الْأَنْصَاءُ ^(٦) تَفْلِي الْفَيَافِيَا
تَرَنِّجَ فِي كَفِّي الْمَهْدُ ^(٧) صَارِفِيَا

(١) هذه الزيادة أو ما في معناها لازمة لإقامة البيت — وفي الأصل « عن » مكان

(٢) في الأصل : عام .

(٣) في الأصل : ترني ... تروني .

(٤) في الأصل : أوت بغداد ناها . (٦) في الأصل : أخفت .

(٧) في الأصل : الانصداع . ولفظا الفلى وتغلى غير معجمتين في الأصل .

(٨) في الأصل : ترمج ... المهدي .

وإن أنا طَلَقْتُ النهارَ بِجَوْرِها خَطَبْتُ خُدَارِيًّا^(١) من الليل داجيا
وَمَنْ طَلَبَ الغــــاياتِ جَرَّعَ نَفْسَهُ
سُـلَافَ الشَّرِّى واستنهضَ النّجْمَ ساقيا

ما أخرجته من مقطوعاته الإخوانيات وغيرها

في أوصافٍ مختلفات

له من قصيدة في وصف القيروان وقت فتنة العامة بها يقول فيها :

حالت على القيروانُ بِحالِها عمّا عهدتُ العيشَ فهو مُنْقَصُ
نُحْرابُها في كلِّ يومٍ زائدُ وجنابُها المعمورُ فيها يَنْقُصُ^(٢)
ومنها :

إِنْ كَانَ أرخصنى الزمانُ فَإِنَّه أَسَدَى إِلَى بضائعٍ لا تَرْخُصُ^{١٠}
أَوْ كَانَ غَيْرَ من طِبَاعِي^(٣) موضعي فَالْخُرُ إِنْ تَرَكْتُ وَعَاها تَقْرُصُ
كَيْفَ الرّجوعُ وطِرفُ حالى عَائِرُ^(٤) وجناحُ آمالى الكسِيرُ مُقَصِّصُ
وله من أخرى :

ولمّا أَنْ كَسَانِي الشَّيْبُ ثَوْبًا ولم يَكُ وقتَ تَغْيِيرِ الثَّيِّبِ ابـ
أَتَانِي غَفْلَةً والنَّفْسُ فِيها بَقَايا مِنْ عَقَابِيلِ^(٥) التَّصَابِي^{١٥}
وَعُصْنُ شَمِيبَتِي غَضُّ نَضِيرُ به ظمأٌ إِلَى ماءِ الشــــبابِ
وَرَامَ النَّاسُ مِنِّي ما يُضَاهِي مَشِيبِي فِي فِعَالِي أَوْ خِطَابِي

(١) في الأصل : حواريا .

(٢) في الأصل : ضياعي

أن يقرأ « غامض » .

(٣) في الأصل : وحبابه .. تنقص

(٤) رسم الكلمة في الأصل غير واضح ويحوز

(٥) في الأصل : عقايل

ولم أقدم على وصل التصابي
فداومت المدام فما أبالي
فإن ظهر التصابي في يوماً
وهذا من قول حسان :

نوليها الملامة إن ألمنا
إذا ما كان مغث أو إحصاء (١)
وقال أبو الفضل :

ومعنف لي في المقام ضرورة
ألقى الهوان بها وكم من عزة
جهلوا على الإحسان فيها موضعي
فكأنني القرآن عند معطل
ما الدر ينقص فضله في بحره
كلاً وليس المسك يبطل عرفه
ما عيب ضوء الشمس عند بزوغها
والليث لا ينسى استطالة بأسه
أو ما ترى الدنيا بفقد مليكها
وله من أخرى :

وأعظم من مصيبات الليالي
يقابلني بوذي مستميل
إذا عاتبته أبدى مجوناً
ومن جعل السموم له دواء
على وصرفها خل خؤون
وبين ضلوعه داء دفين
وعلة ذلك العتب المجنون
فيوشك أن يفاجئه المنون

أَهْمُ بَأْنِ أَجَازِيهِ فَيَأْبَى عَلَى الْأَصْلِ وَالْعَرِضُ الْمَصُونُ
أَرَى هَذَرَ^(١) الْكَلَامِ الْمَحْضُ غَثًّا فَيَرْدَعُنِي عَنِ الْغَثِّ السَّمِينِ
وَلَمْ يُزْعِجْ زَنْبِيرُ الْأُسْدِ حِلْمِي أَيْزَعُجُهُ مِنَ الْبَقِّ الطَّنِينِ ؟
أَيْطَمِعُ أَنْ يَشُقَّ غُبَارَ مُهْرِي ذَلِيلٌ تَحْتَهُ عَيْرٌ حَرُونُ ؟
سَلِ السَّمُرَ الذَّوَابِلَ مَا غَنَانِي إِذَا اشْتَجَرَتْ بِهَا الْحَرْبُ الزَّبُونُ
أَلَمْ أَجْعَلْ مُثَارَ^(٢) النَّقْعِ بَحْرًا عَلَى أَنْ الْجِيَادَ لَهُ سَفِينُ ؟ !

وله من أخرى في صاحب الخيل ابن أذين من قصيدة طويلة ، منها قوله :

وَأَعَذِبُ مِنْ يَوْمِنَا بِالْعَذِيبِ وَسَلَامُتُنَا الْيَوْمَ مِنْ ذِي سَلَمٍ
وَلَسْتُ بَمَنْ يَطْطِيبُهُ الْغِنَى وَيَرْصُدُ طَيْفًا لَهُ أَنْ يُلِمَ
وَمَنْ عَمِثَتْ^(٣) نَفْسُهُ بِالْغِنَى تَسَاوَى الْغِنَى عِنْدَهُ وَالْعَدَمُ
وَكَمْ طَسَمَ^(٤) الدَّهْرُ مِنْ جَبَلَتِي فَرَدَّ نَضَارَةً مَا^(٥) قَدْ طَسَمَ
وَكُنْتُ إِذَا مَا رَمَانِي الزَّمَانُ أَوْ كَادَ أَوْهَمَ بِي أَوْ عَزَمَ
عَلِقْتُ أَبَا الْحَسَنِ الْمُرْتَجَى فَأُمْسِيتُ مِنْ صَرْفِهِ فِي حَرَمٍ
فَتَى لَوْ رَأَى الْبُخْلَ فِي نَوْمِهِ أَوْ الْجَبْنَ خُلُقًا لَهُ لَمْ يَنْمَ
وَلَوْ كَانَ طَيْفًا وَكَانَ الْكَبْرَى طَرُوقًا لَغَيْرِ الْعُلَا مَا أَلَمَ
فَمَا لِي أَرَى عِقْدَ إِحْسَانِهِ تَبَدَّدَ مِنْ سِلْكِهِ مَا نَظَمَ ؟
وَلَمْ دَمَّنِي عِنْدَهُ حَاسِدٌ كَأَنَّ بِهِ جِنَّةً أَوْ لَمَمَ
بَدَا وَجْهُهُ فَاشْتَهَيْتُ الْعَمَى وَكَلَّمَنِي فَاسْتَزِدْتُ^(٥) الصَّعَمَ
وَقَدْ كُنْتُ تُرْضِعُ دَرَّ الْعَفَا وَوَدَادِي^(٦) فَمَا لَوْدَادِي^(٦) فُطِمَ ؟

(١) في الأصل : هزم .

(٢) كذا بالأصل ولعلها غثيت أو غنيت .

(٣) في الأصل : فاستزدت .

(٤) في الأصل : فما له قد .

(٥) في الأصل : فاستزدت .

(٦) في الأصل : فما له قد .

كَذَا الطِفْلُ يَرْضَعُ حَتَّى إِذَا
تَرَعْرَعَ غُيِّبَ عَنْهُ الْحَلَمُ
يُسَائِلُنِي النَّاسُ عَمَّا تَقُولُ
وَمَا قُلْتَ لِي قَطُّ إِلَّا نَعَمُ

[وله:]

قَالُوا مَدَحْتَ أَنْاسًا لَا خَلَقَ لَهُمْ
فَقُلْتُ لَا تَعْدِلُونِي إِنَّنِي رَجُلٌ
مَدَحًا يُنَاسِبُ أَنْوَاعَ الْأَزَاهِيرِ
أَقْلَدُ الدُّرَّ أَعْنَاقَ الْخَنَازِيرِ

وقال:

«مَا لِي أَرَى» قَرَبَكُمْ صَائِبًا
وَمَا جُلُوسِي عِنْدَكُمْ أَنَّنِي
لَكِنِّي أَجْلِسُ بَيْنَكُمْ
وَأَنْتُمْ لِي غَيْرُ أَجْنَاسٍ!

وقال في رجلٍ يُعرف بابنٍ كثير:

وَمَا الْخَيْرُ مِمَّا يُرْتَجَى فِي ابْنٍ وَاحِدٍ
فَكَيْفَ تُرَجِّيهِ مِنْ (٢) ابْنٍ كَثِيرٍ؟!

وقال:

وَكَيْفَ تَرْجُو السَّحَابَ الْجُودَ مِنْ رَجُلٍ
أَصْبَحْتُ أَحْلَبُ تَيْسًا لَا مَدَرَ لَهُ
لَا يَطْمَعُ الطَّيْرُ فِيهِ وَهُوَ مَصْلُوبُ
وَالْتَيْسُ مَنْ ظَنَّ أَنَّ التَّيْسَ مَحْلُوبُ

وقال:

يَا لَأَمَّاءَ عِمْرَانَ لَا تُفْشِدَنَّ
طَمِعَتَ فِي كَلْبٍ فِدَارِيَّةً
عَمْرُو بْنُ كَلْثُومٍ «أَلَا هَبِّي»
وَالسَّكْبُ مَنْ يَطْمَعُ فِي كَلْبٍ

فصل في ذكر طائفة من الشعراء المقلين الطارئين

على هذا الأفق من بلاد المشرق ، مع ما يتصل
بذكرهم من المعارف المفيدة

منهم :

- سليمان بن محمد الصقلي : كان — فيما بلغني — من أهل العلم والأدب والشعر ، ووفد على هذا القطر سنة أربعين وأربعمائة ، وقصد بمديحه عدة من الرؤساء ، وتقدم بفضل أدبه عند الكبراء . ومما أنشدته له في عذول قبيح قوله :

- رأى وجه من أهوى عذولي فقال لي
فقلت له بل وجهي — حبي مرأة
 - أجلك عن وجه أراه كريها
وأنت ترى [مكروه] ^(١) وجهك فيها
- ومن شعره :

- تقلب دهرنا فالصقر فيه
على الدنيا العفاء فقد تناهى
- يطلب فضل أرزاق الحمام
تسرعها إلى أيدي اللثام
- وما النعماء المفصلة — ولا —
كمثل الحلي لاسيف الكهام
- ذريني أجعل الترحال سلكاً
أنظم فيه ساحات الموامي
- فاني كالزلزال العذب يؤذي
صفاء وطعمه طول المقام

وهذا المعنى مشهور ، وقد مر منه في تضاعيف هذا التصنيف كثير ، كقول بعض أهل عصرنا .

مالت حص وملتني فلو نطقت كما نطقت تلاقينا على قدر

(١) هذه الكلمة غير موجودة بالأصل ولا بد منها وما يشبهها لإقامة الوزن .

وسوّات لي نفسي أن أفارقها والماء في المزن أصفى منه في الغدر
وكذلك قوله : « بَلْ وَجْهٌ حَبِيٍّ مِرَاءةً » معنى مُتَدَاوِل ، منه قولُ يوسف
ابن هارون الرّمائي :

وإذا أرادَ تَنَزُّهاً في رَوْضَةٍ أَخَذَ المِرآةَ بكفِّهِ فَأَدَارَهَا
وقال الآخر :

أنا كالْمِرآةِ أَلْقَى كُلَّ وَجْهِ بِمِثَالِهِ
وقال العباسُ بنُ الأحنف :

هَمَّتْ بِإِتْيَانِنَا حَتَّى إِذَا نَظَرْتُ إِلَى المِرآةِ نَهَاها وَجْهَهَا الحَسَنُ
ولبعضِ أَهْلِ المِصْرَيْنِ في غِلامٍ كان يَهْوَاهُ ، مما يُتَطَرَّفُ معناه :

يَجْرِي النِّسِيمُ عَلَى غِلاَلَةِ وَجْهِهِ وَأَرْقُ مِنْهُ ما يَمُرُّ عَلَيْهِ ١٠
ناوَلَتْهُ المِرآةُ يَنْظُرُ وَجْهَهُ فَعَكَسَتْ فِتْنَةً ناظِرِيهِ إِلَيْهِ
ورأى أبو الحسن السّلامي في يَدِ غِلامٍ يَمِيلُ إِلَيْهِ مِرآةً فقال :

رَأَيْتُهُ وَالْمِرآةُ فِي يَدِهِ كَأَنَّها شَمْسَةٌ عَلَى مَلِكٍ
فَقُلْتُ لِلصُّورَةِ الَّتِي احْتَجَبَتْ مِنْ غَيْرِ زُهدٍ فِيها وَلَا نُسْكِ
يَأْشُبُهُ النَّاسُ بِالْحَبِيبِ أَلَا تَخْبِرُنَا عَنْكَ غَيْرَ مُؤْتَفِكِ^(١) ١٠
قال أنا البدرُ زرتُ بَدْرَكمُ وَهَذِهِ قِطْعَةٌ مِنَ الفَلَکِ
قُلْتُ فإِنِّي أَرى بِها صَدًّا^(٢) فَقَالَ هَذِي بَقِيَّةُ الحُبِّكَ

وذكرتُ بذِكرِهِ المِرآةَ قولَ القِراطِيسِيِّ السَّكُوفِيِّ ، وَهِيَ أُبَيَاتٌ يَتَدَاوِلُها القَوَّالُونَ :

ما تَنَقَّضِي مِنْ عَجَبٍ فِكْرَتِي فِي خِصْلَةٍ فَرَّطَ فِيها الوُلاةُ
تَرُكِ الحُبِّ—مِنْ بِلَا حَاكِمٍ لَمْ يُقْعِدُوا لِلعَاشِقِينَ القُضَاةُ ٢٠
وقد أَتَانِي خِبرٌ ساءَ نِي مَقالُها في السَّرِّ : واسوأتاهُ

أَمْثَلُ هَذَا يَبْتَغِي وَصَلَنَا أَمَا يَرَى ذَا وَجْهَهُ فِي الْمِرَاةِ ؟
قال القراطيسي : وقلت يوماً للعباس بن الأحنف : هل أَلَمْتَ بهذا المعنى ؟
فَأَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ (١) :

جَارِيَةٌ أَعْجَبَهَا حُسْنُهَا وَمِثْلُهَا فِي النَّاسِ لَمْ يَخْلُقْ
خَبَّرْتُهَا أَنِّي مُحِبٌّ لَهَا فَأَقْبَلَتْ تَضْحَكُ مِنْ مَنطِقِي
وَالْتَفَتَتْ نَحْوَ فَتَاةٍ لَهَا كَالرَّشَاءِ الْوَسْنَانِ فِي قُرْطِقِ
قَالَتْ لَهَا قُولِي لِهَذَا الْفَتَى أَنْظِرْهُ إِلَى وَجْهِكَ ثُمَّ اعْشَقْ

وحدثني الفقيه أبو بكر بن الوزير الفقيه العربي (٢) ، قال : حَدَّثْتُ عَنْ الْفَقِيهِ
أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحَمِيدِيِّ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّقَلِيِّ ، قَالَ : كَانَ بِسُوسَةِ إِفْرِيقِيَّةٍ
رَجُلٌ أَدِيبٌ ظَرِيفٌ يَهْوَى غِلَامًا جَمِيلًا مِنْ غِلْمَانِهَا ، وَاشْتَدَّ كَلْفُهُ بِهِ ، فَتَجَنَّى
الْغِلَامُ عَلَيْهِ ، فَبَيْنَاهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ يَشْرَبُ مُنْفَرِدًا وَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الشُّكْرُ خَطَرَ
بِبَالِهِ أَنْ يَأْخُذَ قَبَسَ نَارٍ فَيَحْرِقَ بِهِ دَارَهُ ، ففَعَلَ وَجَعَلَهُ عِنْدَ بَابِ الْغِلَامِ فَاشْتَعَلَ
نَارًا ، فَاتَّفَقَ أَنْ رَأَاهُ بَعْضُ الْجِيرَانِ فَأُطْفِئَهُ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ حُمِلَ إِلَى الْقَاضِي فَسَأَلَهُ
لِمَ فَعَلَ ذَلِكَ ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

لَمَّا تَمَادَى عَلَى بِعَادِي وَأَضْرَمَ النَّارَ فِي فُؤَادِي
وَلَمْ أَجِدْ مِنْ هَوَاهُ بُدًّا وَلَا مُعِينًا عَلَى الشَّهَادِ
حَمَلْتُ نَفْسِي عَلَى وَقُوفِي بِبَابِهِ حَمْلَةَ الْجَوَادِ
وَطَارَ مِنْ بَعْضِ نَارِ قَلْبِي أَقْلٌ فِي الْوَصْفِ مِنْ زِنَادِ
فَاحْتَرَقَ الْبَابُ دُونَ عِلْمِي وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ مُرَادِي (٣)

فَامْتَظَرَنِي قَاضِي الْبَلَدِ ، وَتَحَمَّلَ عَنْهُ مَا أَفْسَدَ .

(١) هذه الأبيات ليست بالديوان . (٢) في الأصل : العربي .

(٣) في الأصل : ذاك بمراد .

قال الحميدى : وكنت أظن أن هذا المعنى مما تفرّد به هذا القائل حتى
أخبرت أن نصر بن أحمد الخبزرى دخل على أبي الحسن ابن المثنى فى إثر
حريق المربد ، فقال له : هل قلت فى هذا شيئاً ؟ فقال : ما قلت ، ولكن
أنشدك ارتجالاً ، وجعل ينشد هذه الأبيات :

أتقكم شهود الورى تشهد فما تستطيعون أن تجحدوا ؟
فيا مربديون ناشدتكم على أننى منكم مكمد
جرى نفسى صعداً نحوكم فمن حره احترق المربد
وهاجت رباح حنينى لكم فظلت بها ناركم توقد
ولولا دموعى جرت لم يكن حريقكم أبداً يحمد^(١)

فصل فى ذكر الأديب أبي الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني

من جملة من وفد أيضاً على البلد فى ذلك الأوان ، وكان الغالب على
أدواته علم اللسان ، وحفظ الغريب والشعر الجاهلى والإسلامى ، إلى المشاركة
فى أنواع التعاليم ، والتصرف فى حمل السلاح ، والحذق بالآلات الجندية ،
والنفاذ فى معانى الفروسيّة ؛ فكان الكامل فى خلال جمّة . طراً على الجانب^(٢)
منذ صدر الفتن للذائع من كرمه ، فأكرم نزلّه ، ورفع من شأنه ، وأحبّه
ابنه المرشح — كان — لسلطانه . فلم يزل له بهما المكان المكين إلى أن
تغيّر عليه يحيى بتغيّر الزمان ، وتقلب الليالى والأيام بالإنسان ، ففارقته ولحق فى
غناطة بعسكر البرابرة ، فحلت به من أميرهم باديس الفاقرة .

(١) فى الأصل : محمد . (٢) كذا بالأصل ولعلها « الناصر » وهو على بن

حمود الحسينى والدي يحيى المذكور فيما بعد .

ووجدتُ بخطَّ الفقيه أبي محمد بن حزم ، قال : إنَّ أوَّلَ مَنْ لَقِيَ مِنْ مُلُوكِ
الأندلسِ مُجَاهِدُ العاصِرِ المتقدِّمُ الذِّكْرُ ، فأكرمَ نَزْلَهُ وأنسَ به ، وسأله
يوماً عن رفيقٍ له رآه معه ، فقال الجرجاني :

رفيقانِ شَتَّى ألفَ الدهرُ بيننا وقد يلتقي الشَّتَى فيأتلغانِ

قال أبو محمد بن حزم : ثم لقيتُ بعدَ ذلك أبا الفتوح فأخبرني عن
بعضِ شيوخه أنَّ ابنَ الأعرابي رأى في مجلسه رجلين يتحدَّثان ، فقال لأحدهما
من أين أنت ؟ قال من أسفيج^(١) وسأل الآخرَ فقال : من الأندلس ،
فعجبَ ابنُ الأعرابي من ذلك وأنشدَ البيتَ المتقدِّم .
ثم أنشدني هذه المقطوعة .

نزلنا على قيسيةٍ يمينيةٍ لها نسبٌ في الصالحين هيجانِ
فقالَتْ وأرختُ جانبَ السِّتْرِ دونها : وقد يلتقي الشَّتَى فيأتلغانِ^(٢)
قال ابنُ حزم : وأخبرني أبو الفتوح الجرجاني ، قال : أخبرني عليُّ بن حمزة
[أنَّ القصيدةَ التي أوَّلها « هُذِي بَرَزْتُ لَنَا فهِجْتُ رَسِيصًا » قالها المتنبى في محمد
ابن رزيق] وكيل زوامل بن الزيَّات صاحب طرسوس^(٣) ، وأنه وصله عليها
ب عشرةِ دراهم ، فقيل له إنَّ شِعْرَهُ حَسَنٌ ، قال : ما أدري أحسنُ هو أم قبيح
ولكني أزيدُه عشرةً أُخرى ! فكانتُ صلَّتهُ عليها عشرين درهماً^(٤) .

(١) في الأصل « أسنيج » والتصحيح عن ياقوت .

(٢) وردت هذه المقطوعة في بغية الملمس ص ٢٣٧ في أربعة أبيات هكذا .

نزلنا على قيسية يمينية لها نسب في الصالحين هيجان
فقالَتْ وأرخت جانب الستر دوننا لأية أرض أم من الرجلان
فقلت لها أما رفيق فقومه تميم وأما أسرق فياني
رفيقان شتى ألف الدهر بيننا وقد يلتقي الشقى فيأتلغان

(٣) في الأصل طرسوس .

(٤) ورد هذا الخبر ناقصاً في الأصل والتكملة عن معجم الأدباء (ج ٥ ص ٢٠٣) .

فصل في ذكر الأديب عبد العزيز بن محمد الشوسي
أحمد أضياف بن ذي النون

قال ابن بسام : ولم يقع إلى من شعر هذا الرجل إلا قصيدة من مجلة قصائد لغير واحد ، أنشدت للمأمون يحيى بن ذي النون ، سنة خمس وخمسين في صنيع احتفل فيه لإعذار حفيده حسب ما أصفه . وقصيدة الشوسي في ذلك طويلة ، منها قوله :

لما بنيت من المكارم والعلا ما جاوز الجوزاء في الإجلال
أعملت رأيك في بناء مكرم مدار قط لامل في بال
لوزاره كسرى أنوشروان لم يصرف إلى الإيوان لحظ موالى^(١)
ياساقى الصهباء أين كبارها قد لذ وزد القهوة السلسال
إعذار يحيى أبهج الدنيا وبين عذرنا في نخوة المختال
حشد الشرور لنا طهور مطهر من عائر الجبناء والبخال
عرض من الآلام يجلب صحة وطيف نقص فيه كل كمال

انتهى ما كتبه منها . ونذكر بعقبها ما تعلق بسببها فصلاً لابن حيّان في وصف ذلك الصنيع الذنوني ، دلّ به على براعته ، وأعرب به عن موضعه من صناعته . وسيمرّ أثناءه ذكر شعراء من هذه الطائفة الطارئة وسواها ، لانتظام كلام ابن حيّان إياها . فمنهم من ذكرت في هذا الموضع بارع أشعاره ، وجردت فصلاً من كتابي في مستطرف أخباره ، ومنهم من فات دركي ولم يعلق بشركي ، فاقصرت في هذا الفصل على ذكره ، وأثبت ههنا ما وقع

(١) رسم الكلمة في الأصل : « قوال » وما أثبتناه أقرب الاحتمالات .

إلى من شعره . وكان غير الشوسى منهم أحقّ بالتقديم كـ محمد بن شرف
وسائر طبقاته ، ممن هو أعصف في البيان ريجا ، وأكثر عن الإحسان تصريحاً
ولكن وصلنا هذا الفصل بخبر هذا الرجل إذ لم يكن له في سواء آية تُتلى ،
ولا حسنة تُجَتلى .

- ٥ قال ابن حيان : كتب إلى الأديب ابن جابر ، قال : احتفل المأمون
ابن ذي النون في مدعاة إعدار حفيده يحيى فحشد أمراء البلاد ، ومجلة
الوزراء والقواد ، فأقبلوا إليها كالقطا القارب أرسلالا ، وقد رسم لخدمته
في توسيع مَشارب هذا الإعدار ، وإرغاد موائده ، وتكميل وظائفه ، وإذكاء
مطابخه ، رؤوماً انتهوا فيها إلى حدّه ، وشققَ عليها جُيوب أكياسه ، وأمر
بالاستكثار من الطهارة والإتاق للقدور ، والإتراع للجفان ، والصّلة لأيام
١٠ الطعام ، والمشاكلة بين مقادير الأخباز والآدام ، والإغراب في صنعة ألوانها
مع شيايب أباريقها بالطيوب الزكية ، والقران فيها بين الأضداد المخالفة ما بين
حارٍ وبارد ، وحلوٍ وحامض ؛ والمماثلة بين رائق أشخاصها وبين ما تُودع فيه
من نفائس صحافها ، والاستكثار لها من أنواع الحلواء المَجَبَّرة ^(١) للمعد من
داء الإتيام وتجاوز عسلها إلى السكر . فجاءوا في ذلك كله بأمر كبار أبيدت
١٥ لمطابخه أُمم من الأنعام ، جمع فيه بين المَشَاء ^(٢) والطيار والعوام . وانتُسفت
لخازنه أهراة من الطعام ، وأنفقت على مجاميره ومعاطره جمل من الأموال
الجسام ، ^(٣) فاغتدى ختماً لمداعى ^(٣) أهل الإسلام العظام .

وشرف المأمون بالاشتراك مع تطهير حفيده يحيى صبياناً من بنى أصحابه ،

(١) ويحتمل أن تضبط : المجيرة . (٢) في الأصل : الشا .

(٣-٣) في الأصل : « فاغتدى حماما المداعى » ولعلها ما أثبتناه .

وبدأ بحفيده قبلهم ، فكان أسكن من حُنفٍ معه جاشاً ، وأقلهم زمعاً ، وإنه
 مَشَى — زعموا — إلى الحديد مشى البطل النجيد ، ومكَّن الخاتين من عضوه
 فأعانه على إحكام صنعه ، وسوى ختانه ، وخفف آلامه ^(١) ، وأوشك إقرافه ^(٢) ،
 فخلص من محنته هذه الشرعية ، خلوص صادر السهام المصمى للرمية ، فسُرَّ
 ابن ذى النون وشام برق الأمنية . فعند ذلك أذكى نيرانه ، وأنضج أطعمته
 ونصب موائده ، ودعا الجفلى إليها ، ولم يُفسح لأحدٍ التخلف عنها .
 فاكتملت الأطعمة ، وفتحت الأبواب ، وسهل الحجاب ، ورُفعت الستور ،
 وجليت المقاصير ، وزينت القصور ، وأقيمت المراتب ، ووكل بكل قسم
 منها كبير من وجوه الخدمة ضم إليه فريق من الأعوان والوزعة ، يتصرفون
 بأمره ، ويقفون عند حده . قد أخذوا بخفض الأصوات مع سرعة الحركات
 وحث الأقدام ، فصار من بديع ذلك الصنيع الفخم أن لم يعمل فيه صوت ، ولا
 تشكى منه قوت ^(٣) ، فطال العجب من استوائه في مثل ذلك المشهد .

قال ابن حيان ، ولما بكرت أفواج عليّة الناس إلى باب القصر مستبقيين ،
 وغشيته زمرهم وزرافاتهم مبتدريين ، أنزلوا عن دوابهم عند باب المنصب
 الأول ، فأذن لهم بالدخول على مراتبهم ، فمشوا وقد حَفَّهم سراة الصقْل
 الحصيان ، وخواص الحشم والغلمان ، فأجلسوا في الدار الأولى ذات الحائر
 الريان . فلمّا اكتملوا أدخلوا إلى المجلس الكبير ، فلمّا استقرّ فيه جمعهم
 خرجت تسمية من الأمير المأمون بإدخال القضاة والفُهاء ، والعُدول ومن
 يليهم من كبار الناس ، دعاهم لذلك ذو الوزارتين أبو الفرج ^(٤) ، فقاموا

(١) رسم الكلمة في الأصل : الامته . (٢) كذا .

(٣) في الأصل : قوت . (٤) في الأصل : أبى الفرج .

والسكينة عليهم ، يقدّمهم قاضى القضاة أبو زيد بن عيسى القرطبي ، فأدخلوا بتكريمٍ على تُوْدَةٍ ورفق ، وجيء بهم إلى الدارِ الكبرى الثانية ذاتِ الساحةِ الواسعةِ الزاهرة ، ثم وصلوا إلى مجلسٍ قد فرشَ بالديباجِ التستريِّ المرقوم بالذهب ، وسُدلت فوق حناياه سُتُورٌ من جنسه تكاد تلتصعُ الأبصارُ بصناعة ألوانها وإشراقِ عقيانها . وقد جلسَ لهم الأميرُ المأمون في جانبٍ منه ، وحفيده في جانبٍ آخر ، فأكبَّ الناسُ عليه يهنئونه ، ويلثمون أطرافه ، ويتناغون فيما قد روّوا وابتدئوها ، وهو يشملهم بإقبال طَرفه ويعيهم بإجمال رَدِّه ، فينثنون منه إلى حفيده يدعون له . ثم عدلَ بهم إلى مكانِ الأُطعمة في المجلس الأول — على ذاتِ اليسارِ من تلك الدارِ — الواسعِ القطرِ الرَّحْبِ الأبواب ، وقد فرشَ بالوطاءِ التستريِّ ، وعُلِّقت على أبوابه وحناياه سُتُورُ الطميم ^(١) المثلثة ذاتُ الصُّورِ المُقيّدة للأحاط ، وقد مُدَّت فيه صُنوفُ الطعام . فأمعنت هذه الطائفة في الأكل ازدقاً وسرّطاً ، واختضاماً وقضمًا ، وانتهالاً وعلاً . ووُصفاء الموائد الحافون من حولهم يطردون الأذبة ^(٢) عن مجلسهم بطوالِ المذابِّ البديعة الصنعة ، المُقَمَّعة الأطرافِ بفاخرِ الحليّة . ولما مضى لهم صدرٌ من أكلهم ، نجمَ لهم الأميرُ المأمون قائماً فوق رؤوسهم ، مُتَهَمِّماً بشأنهم ، مُبَالِغاً في تكميمهم ، قد حَفَّ به أذواء الوزارة وأهلُ الخدمة ، وأكابرُ الفتيانِ وأعاضمُ القوادِ قاعين بقيامه . ولما قضى وطراً من القيامِ بمكارمهم صدرَ راجعاً إلى سرّ تَبَقِّه . ولما فرغت تلك الطائفة جيءَ بهم إلى المجلس المرسوم لوضوئهم ، وقد فرشَ أيضاً بوطاء الوشيِّ المرقوم بالذهب ، وعُلِّقت فيه سُتُورٌ مُثَقَلَةٌ بمائلّة ، فأخذوا مجالسهم منه ، وناولهم الوُصفاء الطائفون بهم رفيعَ المُقاوات ^(٣) والذرائرِ المطيّبات

(١) كذا في الأصل . (٢) في الأصل : الاذنة . (٣) رسم الكلمة في الأصل : المعاوانب .

في الأقداح والأشناندانات^(١) الفِضِّيَّاتِ المُحَكَّمَةِ الصَّنَاعَاتِ ، كَادَتْ تُغْنِيهِمْ
بَطْيِهَا عَنِ الْغَسْلِ . ثُمَّ أَدْنَى إِلَيْهِمْ إِثْرَ ذَلِكَ الْوُضُوءِ فِي أَبَارِيقِ الْفِضَّةِ الْمُحَكَّمَةِ
الصَّنْعَةِ ، يَصْبُونَ عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي طُسُوسِ الْفِضَّةِ الْمُمَاتِلَةِ لِأَبَارِيقِهَا فِي الْحُسْنِ
وَالْجَلَالَةِ ، فَاسْتَوْعَبُوا الْوُضُوءَ ، وَأَذْنَيْتُ مِنْ أَيْدِيهِمْ مَنَادِيلُ تَتَضَاءَلُ لَهَا مَا عَلَيْهِمْ
مِنْ سَنَى الْكُسُوفَةِ . ثُمَّ نُقِلُوا إِلَى مَجْلِسِ التَّطْيِيبِ أَخْفَمِ تِلْكَ الْمَجَالِسِ ، وَهُوَ
الْمَجْلِسُ الْمُطَّلُّ عَلَى النِّهْرِ الْعَالِي الْبِنَاءِ ، السَّامِي السَّنَاءِ ، فَشَرَعَ فِي تَطْيِيبِهِمْ فِي
مَجَامِرِ الْفِضَّةِ الْبَدِيعَةِ بِفَلَقِ الْعُودِ الْهِنْدِيِّ ، الْمَشُوبَةِ بِقَطْعِ الْعَنْبَرِ الْفُسْتُقِيِّ ، بَعْدَ
أَنْ نُذِّتْ أَعْرَاضُ ثِيَابِهِمْ بِشَايِبِ مَاءِ الْوَرْدِ الْجُورِيِّ ، يُصَبُّ فَوْقَ رُؤُسِهِمْ
مِنْ أَوَانِي الزُّجَاجِ الْمَجْدُودِ ، وَفَيَّاشَاتِ الْبُلُورِ الْحَفُورَةِ ، ثُمَّ أَدْنَى إِلَيْهِمْ قَوَارِيرُ
الْمُهَامِلَةِ الصَّنْعَةِ ، الرَّائِقَةُ الْهَيْئَةِ ، قَدْ أَتْرَعَتْ بِالْغَوَالِي الذَّكِيَّةِ ، النَّامَةِ
بَسْرَهَا قَبْلَ الْخُبْرَةِ ، الْمُتَخَذَةِ مِنْ خَالِصِ الْمِسْكِ الثَّبَتِيِّ ، وَحَصَّ الْعَنْبَرِ الْمَغْرِبِيِّ ،
لَا مَ بَيْنَهُمَا رَشْحُ الْبَانِ الْبَرَعَكِيِّ ، فَتَنَاوَلُوا مِنْ ذَلِكَ حَتَّى لَاقَطَرَتْ سِبَالَهُمْ ذَوَابَانَا ،
وَأَعَادَتْ شِدْبَهُمْ شُبَّانَا . فَلَمَّا اسْتَمَّ هَؤُلَاءِ الْخَلَّةُ نَعِيمَ يَوْمِهِمْ ، مِنْ طَعْمِهِمْ وَطْيِيبِهِمْ ،
أَقِيمُوا لِلدَّخُولِ عَلَى الْمَأْمُونِ ، فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ ، وَدَعَوْا لَهُ . فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ أَحْسَنَ
قَبُولٍ ، وَرَدَّ أَجَلَ رَدِّ ، وَأَسْرَ بِإِدْخَالِهِمْ إِلَى سَيِّدِ مَجَالِسِهِ الْمُسَمَّى الْمُكْرَمِ ، نَتِيجِ
هَمَّتِهِ ، وَبَدِيعِ حِكْمَتِهِ ، السَّائِرِ خَبْرُهُ ، الطَّائِرِ ذِكْرُهُ ، الْمَعْدُومِ ذِكْرُهُ^(٢) ،
لِيُمْتَعُوا أَبْصَارَهُم بِالنَّزْهَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ أَكْثَرُهُمْ رَأَاهُ إِلَى يَوْمِهِمْ ذَلِكَ مَعَ عُلُوِّ وَصْفِهِ
بِخَوَاطِرِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ صَغُرَ عَنْدهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ مِنْ وَصْفِهِ ، وَرَجَعُوا
أَبْصَارَهُمْ فِيهِ ، وَنَبَّهَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى دَقَائِقِ مَعَانِيهِ .

قال ابن حيان — قال ابن جابر : وكنت ممن أذهلته فتنه ذلك المجلس ،

(١) في الأصل : والأشنان . (٢) كذا بالأصل ونحسبها نظيره أو ما في معناها .

وأغرب ما قيّد لَحْظِي مِنْ بَهِى زُخْرَفِهِ الَّذِي كَادَ يَحْبِسُ عَيْنِي عَنِ التَّرَقُّى عَنْهُ
إِلَى مَا فَوْقَهُ إِزَارُهُ الرَّائِعُ الدَّائِرُ بِأَسْهُ حَيْثُ دَارَ ، وَهُوَ مُتَّخِذٌ مِنْ رَفِيعِ الْمَرْمَرِ
الْأَبْيَضِ الْمُسْنُونِ ، الزَّارِيَةِ صَفْحَاتِهِ بِالْعَاجِ فِي صِدْقِ الْمَلَاةِ وَنَصَاعَةِ التَّلْوِينِ ،
قَدْ خُرِمَتْ فِي جُثْمَانِهِ صُورُ الْبِهَائِمِ وَأَطْيَارُ وَأَشْجَارُ ذَاتُ ثَمَرٍ ، وَقَدْ تَعَلَّقَ كَثِيرٌ
مِنْ تِلْكَ ^(١) التَّمَائِيلِ الْمَصُورَةِ بِمَا يَلِيهَا مِنْ أَفْنَانِ أَشْجَارٍ وَأَشْكَالِ الثَّمَرِ مَا بَيْنَ
جَانِ وَعَابِثٍ ، وَعَلِقَ بَعْضُهَا بَعْضًا بَيْنَ مُلَاعِبٍ وَمُتَاقِفٍ ، تَرَنُّوْا إِلَى مَنْ تَأَمَّلَهَا
بِالْحَاضِ عَاطِفٍ ، كَأَنَّهَا مُقْبِلَةٌ عَلَيْهِ ، أَوْ مُشِيرَةٌ إِلَيْهِ . وَكُلُّ صُورَةٍ مِنْهَا مُنْفَرَدَةٌ
عَنْ صَاحِبَتِهَا ، مُتَمَيِّزَةٌ [مِنْ] شَكْلِهَا ، تَسْكَدُ تَقْيِيدَ الْبَصَرِ عَنِ التَّعَلُّى إِلَى مَا فَوْقَهَا .
قَدْ فَصَّلَ هَذَا الْإِزَارَ عَمَّا فَوْقَهُ كِتَابُ نَقْشِ عَرِيضِ التَّقْدِيرِ ، مُحَرَّمٌ مُحْفُورٌ ،
دَائِرٌ بِالْمَجْلِسِ الْجَلِيلِ مِنْ دَاخِلِهِ ، قَدْ خَطَّهُ الْمِنْقَارُ أَبْيَنَ مِنْ خَطِّ التَّزْوِيرِ ، قَائِمٌ
الْحُرُوفِ بِدِيعِ الشَّكْلِ ، مُسْتَبِينٌ عَلَى الْبُعْدِ ، مَرْقُومٌ كُلُّهُ بِأَشْعَارٍ حَسَنَةٍ ، قَدْ
تَخَيَّرَتْ فِي أَمَادِيحِ مُخْتَرَعِهِ الْمَأْمُونِ . وَفَوْقَ هَذَا الْكِتَابِ الْفَاصِلُ فِي هَذَا
الْمَجْلِسِ بِحُورٍ مُنْتَظِمَةٍ مِنَ الزَّجَاجِ الْمَلَوَّنِ الْمُلْبَسِ بِالذَّهَبِ الْإِبْرِيْزِ ، وَقَدْ أُجْرِيَتْ
فِيهِ أَشْكَالُ حَيَوَانٍ وَأَطْيَارٍ ، وَصُورُ أَنْعَامٍ وَأَشْجَارٍ ، يُذْهِلُ ^(٢) الْأَلْبَابَ وَيُقَيِّدُ
الْأَبْصَارَ . وَأَرْضُ هَذِهِ الْبِحَارِ مَدْحُوءَةٌ مِنْ أَوْرَاقِ الذَّهَبِ الْإِبْرِيْزِ ، مُصَوَّرَةٌ
بِأَمْثَالِ تِلْكَ التَّصَاوِيرِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالْأَشْجَارِ بِاتَّقْنِ تَصْوِيرٍ وَأَبْدَعَ تَقْدِيرٍ .
قَالَ : وَلِهَذِهِ الدَّارُ مُجَيَّرَتَانِ ، قَدْ نُصِّتَ عَلَى أَرْكَانَيْهَا ^(٣) صُورُ أَسْوَدٍ مَصْوَغَةٍ مِنَ
الذَّهَبِ الْإِبْرِيْزِ أَحْكَمَ صَبَاغَةٍ ، تَتَخَيَّلُ لِمَتَأَمَّلُهَا كَالْحَلَةِ الْوُجُوهِ فَاعْرَةَ الشُّدُوقِ ،
يَنْسَابُ مِنْ أَنْوَاهِهَا نَحْوُ الْبُحَيْرَتَيْنِ الْمَاءُ هَوْنًا كَرَشِيْشِ الْقَطْرِ أَوْ سُحَالَةِ اللَّجَيْنِ .
وَقَدْ وُضِعَ فِي قَعْرِ كُلِّ بُحَيْرَةٍ مِنْهَا حَوْضٌ رُخَامٌ يُسَمَّى الْمَذْبَحَ ، مُحْفُورٌ مِنْ رَفِيعِ

(١) فِي الْأَصْلِ : « ذَلِكَ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « يَذِلُّ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « أَرْكَانُهَا » .

المرمر، كبير الجرم، غريب الشكل، بديع النقش؛ قد أبرزت في جنباته
صور حيوان وأطيار وأشجار، وينحصر منها^(١) في شجرتي فضة عاليتي الأصلين،
غريبتي الشكل، تحكمتي الصنعة، قد غرزت كل شجرة منها وسط كل
مذبح بأدق صناعة، يترقى فيهما الماء من المذبحين فينصب من أعلى أفنانهما
انصباب رذاذ المطر أو رشاش التنديّة، فتحدث لخرجه نغمت تصبى النفوس،
وترفع بذروتها عمود ماء ضخمة منضغط الاندفاع؛ ينساب من أفواها ويبلل
أشخاص^(٢) أطيارها وثمارها، بالسفة كالمبارد الصقيلة، يقيّد حسنها الألاحظ
الثاقبة، ويدع الأذهان الحادة كليلّة.

قال ابن حيّان: إلى هذا المكان انتهى تلخيصي ووصفي، وهو جليل عند
قرانه بموصوفاته، ووشل عند إضافته إلى منعوتاته^(٣). وأبرأ من عهدة التقصير
فيه، وأنهجه لمن تعاطى الاقتدار على الإبداع في وصفه. قال: وتوالى إطعام
أفواج الناس في ذلك الإعذار، مجلساً بعد آخر، أياماً متوالية، حتى استدعى
له من بقايا أصناف الناس وأدوم حتى الجفلى. وأزعجوا إلى النعيم الذي لا عهد
لهم به، دخلوا على التّطليق، وحفظوا من ضنك المضيق، وأوسعت ما كلهم من
غليظ ورقيق، فالتهموا وازدردوا^(٤)، ونهلوا وعلّوا، ووضئوا وطُيّبوا.

مجلس الأنس

قال ابن حيّان: وذهب المأمون إلى تميم تكريم زوّاره من رجال
الأمراء الذين استحضروهم يومئذ لشهود فرحتهم، بمشاهدة مجلس خلوته،
وتنعيم أسماعهم بلذات أغانيه، وقد علم أن فيهم من يرخّص في النبذ

(٤) لعل الصواب: ماؤها. (٢) في الأصل: «أشخاصها طيارها».

(٣) في الأصل: «مغموضاته». (٤) في الأصل: «ازدردوا».

ولا يسوغ له نعيمٌ دونه ، فاحتمل حرج ذلك مُبالغةً في تأنيبهم ، فاحتفل لهم في مجلسٍ قد نُضدَّ وأُخفِرَ فيه جميعُ آلات الأُنس . فلما استوى بالقوم مجلسهم ، واشربوا إلى الأخذِ في شأنهم ، قرَّب إليهم أطعمةً طنوريةً^(١) جوامدَ وباردةً ، وصنوفاً من المصُوصِ والأشربةِ والطياهج ، وائد مترعةً اتخذوها بسطاً لِنبيذهم . ثم انثنوا إلى الشرابِ ونفوسهم به صبةً ، وقد مُدَّت سِتارةُ الغناء لأهل الحِجاب ، ونُظِمَتْ نوبةُ المغنِّين زُمراً ، فهاجوا الأطراب ، واستخفوا الألباب ، ونقلوا الطِّباع فجأوا بأمرٍ عِجاب ، بدَّهم فيه سابقُ حَلْبَتهم ، المُحَمَّدُ من جماعتهم ، الإسرائيلي ذى^(٢) ، الزائدُ إحسانه على إبراهيم الموصلي ، صديقُ إبليس ، الطريفُ من^(٣) فتنته ، ومحابه بالماخور في المكنون^(٤) ، الذي اغتدى في باطله نسيجَ وحده ، يزدهى العيدان جَسَّه ، ويُخرِسُ الأطيَّارَ شَجْوَه . قاتله الله من آخذٍ بالقلوب ! فطربوا وطربَ المأمون ليلتمذ على وفورِ حِلْمه . وكان الذي غناه فيها ذى صوتاً شجياً لحنه من خفيف الرَّمَل ، مُطلقاً بالخِنَصَر ، في مقطوعةٍ نظَّمها عبدُ الله بنُ خليفة الملقَّبُ بالمِصرى ، وهى :

باكرٌ لبِكرِ الدَّنانِ إنْ مِ هِدَاءِ القَروسِ فى السَّحَرِ
 واشربْ عَقاراً^(٥) تَخالُ مُحَرَّتْها تَحْرِقُ أَيْدِى الشَّقَاةِ بِالشَّرَرِ
 فإنْ يَحْيَى أَحْيَى بِدَوْلَتِهِ ما قَدَّ مَحَاهُ تَصَرُّفُ القَدَرِ
 مَلَكٌ هُوَ الدَّهْرُ فى عَرِيَمَتِهِ يَطْلُعُ فِينا بِطَلْعَةِ القَمَرِ

نطمح بآبن ذى النونِ الإطراب ، حتى حنَّ حنينَ النَّاب ، وخَلَعَ لوقته عليه ثوباً من التُّستريِّ الأخضرِ مُطرزاً بالذهب ، ووصله بمائتي دينار ذهباً ، ثم فضَّ

(١) كذا بالأصل ولعلها « تنورية » . (٢) كذا رسم هذا العلم في الموضعين .

(٣-٣) كذا بالأصل ولعلها : ومحابه في الماخور بالمكنون

(٤) فى الأصل : عمارا .

الصَّلَاتِ وَالْخِلَعِ فِي سَائِرِ الطَّبَقَاتِ .

هذا آخرُ خطابِ ابنِ جابرٍ إلى بوصفِ ذلك الإعذار ، ومُجملُه التي بَسَطْتُهَا
من إدماجِه ، وسَبَكْتُهَا من نَقْدِه . خلا أنه سامني ذِكرَ مقطوعاتٍ حَشا بها
كتابَه إلى ، من صنعةِ صديقه عبدِ الله بن خليفةِ المِصرِيِّ ، تعاوَرَ المَغْنُونُ في تلك
الليلةِ الغِناءَ بها ، وجميعُها عندي في نهايةِ من الضَّعْفِ والتَّخْلُفِ والتَّبرُّؤِ من
صَنَعَةِ الشعرِ ، يَبْغِي بها توشيحَ هذا المَشْهَدِ الجليلِ الذي قِيلَتْ فيه ^(١) « ينظمها » ^(٢)
في عَقْدِه ، فلم أَسْعِدْهُ على ذلك ترفيعاً به عن هُجْنَتِهَا ، وتَبَرُّتُ لِنَقْدِي على
استِجَادَةِ سَبْكِهَا ، ومَذْمُومَةٍ لَزَمَ غُفْلُ أَحْمَقٍ قائلُهَا في زُمرَةِ الشعراءِ ، وجَسَّرَهُ
على إِنْشَادِ جِلَّةِ الْأَمْراءِ . وطالما عَنَّناني هذا الرجلُ بذِكرِ ابنِ خليفةِ هذا وإِنْمائِهِ
إلى النِّسْبَةِ المِصرِيَّةِ ، وعَزَّوهُ له إلى المعارِفِ الحِكْمِيَّةِ . وأنا أَحْسِبُهُ مِصرِيَّ
التُّرْبَةِ ، مُتَطَارِحِ الْغُرْبَةِ ، مُسْتَطِيرِراً على بُعْدِ النُّجْمَةِ ، مُرْهَفَ الْحَدِّ ، مُحْتَمِكُ
التَّجَرِبَةِ ، أُرْتاحُ لَذِكْرِهِ وأودُّ لِقِيَاهُ والأخذَ عنه . فأبرزَه الفَحْصُ لِي قُرْطُبِيَّ
التُّرْبَةِ ، مَحَلِّيَّ ^(٣) الْحُرْمَةِ ، سُوقِيَّ الْحِرْفَةِ ؛ ابنُ جَارِيٍّ مِنْ ثُجَّارِ الْخَفَّافِينَ يُسَمَّى
خليفةً ، عَجْمِيٌّ نَبَزَ الْأَبَ بِالْمُورْتِ ، مَجْفُوءٌ ^(٤) الْمَمْتَّةَ مِنْذَ سَنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ . لم أَعْهَدْ
ابْنَهُ هذا يَرْتَسِمُ بِأَدَبٍ ، ولا يَسْعَى لَطَلْبٍ ، إلى أن رَمَتْ به النُّومَى قَرِيباً إلى
بِلَادِ الْعُدُوَّةِ لابتغاءِ المَعِيشَةِ ، فأطالَ بها الثَّوَاءَ ، وَلَقِيَ الْفُهْمَاءَ ، وَتَقَيَّلَ الْجُسَمَاءَ ،
فَكَرَّ إِلَيْنَا على زَعَمِهِ مِصرِيّاً صُلَيْبِيّاً ، وأديباً بَاقِرَةً ^(٥) ، وشاعراً بَاقِعَةً ، وحَكِيماً
نَظِّيساً ، وَظَرِيفاً مُمْتِعاً . كلُّ ذلك من غيرِ طُولِ رِيَاضَةٍ ، ولا تَقْدِمةِ مَعْرِفَةٍ .

(١) في الأصل : « قوبلت به » (٢) في الأصل : « ينظمها » .

(٣) في الأصل : محال ، ولعل ما أثبتناه أقرب الاحتمالات

(٤) في الأصل : « مَجْفُوءَا المَمْتَةِ » .

(٥) في الأصل : « بَقَرَةٌ » .

وما إن يُستنكر لقاسم الفضائل بين خلقه أن يجمع منها لواحد ما فرّق في جماعة ،
له القدرة البالغة والحكمة القاهرة !

وفي فصل له في ذكر الشعراء

- قال ابن حيّان : وصار من منا كيد ذلك الصنيع الملحقة به عيب التقصير
عُذْمُهُ لِحُذَاقٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ يُجِيدُونَ الْقَوْلَ فِيهِ ، وَيُحَسِّنُونَ وَصْفَهُ ، فَيُؤَفُّونَ
الْمُبْدِعَ لَهُ حَقَّهُ . إِذْ أَلْوَى بِبَقَايَاهُمْ الزَّمَنُ الْعَصِيفُ الْمَطَاوِلُ لِلْفِتْنَةِ ، وَجَاءَ بِأَشْبَاهِ
لَهُ مِنْ شُعْرَاءَ مُتَكَلِّفِينَ مِثْلَ الْخَازِيَاذِ الْمَضْرُوبِ مُثَلَّةً ، يُهَيِّنُمُونَ بِمَا لَا وَدَقَ^(١) لَهُ
مِنْ سَمَائِهِمْ ، وَيُفْرِغُونَ فِي قَوَالِبَ تَضِيقُ عَنْ إِفْرَاقِهِمْ ، وَيَجْهَدُونَ فِي حَشْوِ
قَوَافِيهِمْ دُونَ إِرْهَافٍ لِلْفِظِ وَلَا اسْتِنْبَاطٍ لِمَعْنَى ، فَلَا يَسْرُتُونَ نَاقِدًا ، وَلَا يَهْزُونَ
مُتَمَدِّحًا^(٢) ، وَلَا يُنْشِطُونَ رَاوِيًا . وَأَشَقُّ مَا عَلَى الْخَائِزِ لَهُمْ غِلْظُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ،
وَاسْتِقْصَارُهُمْ لِمَنْ امْتَدَّحَوْهُ فِي إِخْلَالِهِ وَقُعُودِهِ بِهِمْ ، وَهِيَ لَوْ عَقَلُوا أَقْعَدُ وَأَضْيَقُ
وَأَقْصَرُ وَأَعْكَسَ . فَيَأْوِيْنَهُمْ مَاذَا عَلَيْهِمْ فِي الْإِنْصَافِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَالْاعْتِرَافِ
بِتَقْصِيرِهِمْ ، أَلَيْسَ ذَلِكَ كَانَ أَوْلَى بِهِمْ ؟ إِنْهَا أَحْسَنَ قَوْلَ «لَا أَدْرِي» مِمَّنْ يَدْرِي
فَضْلًا مِمَّنْ هُوَ بِضِدِّهَا تُصَابُ مَقَاتِلُهُ . فَلَوْ قَلَّدُوا الزَّمَنَ دُونَهُمْ ، وَوَلَّوْهُ نَقَصَهُمْ ،
وَاعْتَرَفُوا لِبَلَوَاهُ ، لَسَكَانَ أَعْذَرَ لَهُمْ . فَجَلَسَ لَهُمُ الْمَأْمُونُ مُتَخِذًا تِلْكَ الْمَدْعَاةَ
الْفَخْمَةَ فِي مَرْتَبَتِهِ بِبِرْطِيلِ الْمَجْلِسِ الْمَوْصُوفِ فِي أُبْهَةِ نَخْمَةٍ وَرُتْبَةٍ^(٣) كَامِلَةٍ مَعَ
كِبَارِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ مِنْ أَذْوَاءِ الْوَزَارَاتِ الْمُثَنَّاءِ^(٤) وَالْمُفْرَدَةِ ، وَمِنْ أَصْحَابِ الْخَطَطِ
الْعَلِّيَّاتِ ، وَأَذِنَ لِتِلْكَ الْحَلْبَةِ مِنْ شُعْرَاءَ [^(٥) مِنْ طَارِيٍّ وَقَاطِنٍ ، وَهَمَّ

(١) في الأصل : بما لا ورق له من أسمائهم . (٢) رمم الكلمة في الأصل : ممتونا .

(٣) كذا بالأصل ولعلها « وزينة » .

(٤) في الأصل المثنية . (٥) بياض في الأصل بقدر كلمة .

نَفَرٌ عَيْرٌ مُنَوَّهٌ بِهِمْ وَلَا بِأَسْمَائِهِمْ ، وَلَا يُحَاسِنُ^(١) بِرُؤُوسِهِمْ ، فَدَخَلُوا إِلَيْهِ عَلَى هَيْئَتِهِمْ
يَقْدُمُهُمْ شَيْخُهُمُ الْمُقَدَّمُ مِنْ جَمَاعَتِهِمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، مُحَمَّدُ بْنُ شَرْفِ الْقَيْرَوَانِي ،
الْقَرِيبُ عَهْدُهُ بِالْهَجْرَةِ ، بَعْدَ خَبْطِهِ سَمُرَاتِ مُلُوكِ الْأَنْدَلُسِ بِمَحَبَّتِهِ ، وَاعْتَصَارِهِمْ
بِقِصْعَتِهِ^(٢) ، فَأَذِنَ لَهُمْ فِي الْإِنْشَادِ بِحَسَبِ تَطْبِيقِهِمْ ، فَتَقَدَّمَهُمْ ابْنُ شَرْفٍ فَأَنْشَدَ
قَصِيدَةً أَوَّلُهَا : « يُرِينِي الْهَوَى أَنْ الْهَوَى لَيْنٌ سَهْلٌ » ، مَا إِنْ هِيَ لِاحِقَةٌ بِعُيُونِ
شَعْرِهِ ، أَطَالَ فِيهَا التَّشْبِيبَ نَخْلَصَ إِلَى التَّهْنِئَةِ ، وَقَدْ اسْتَفْرَغَ الْقَرِيحَةَ وَطَوَّلَ
فَمَا أَتَى بِطَائِلٍ . ثُمَّ تَقَدَّمَ بَعْدَهُ الْبَائِسُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَلِيفَةَ الْأَنْدَلُسِيِّ الْمَتَصَرِّ
بِرُغْمِهِ ، فَيَا بُؤْسَ لِسَابِقِي صَلَّى بَعْدَهُ ! فَأَنْشَدَ قَصِيدَةً مُلَفَّقَةً ، ذَاتَ طَنِينٍ وَقَعْقَعَةٍ ،
كَثَّرَ أَيْبَاتَهَا ، وَقَلَّلَ أَقْوَاتَهَا ، أَوَّلُهَا : « أَرَى أَثْلَاتِ الْجَزَعِ بِالْوَصْلِ تُورِقُ »
تَرَكَهَ الْمَأْمُونُ أَيْضًا يَتَصَرَّفُ بِهَا ، مَا إِنْ هَزَّتْ^(٣) مِنْهُ عِطْفًا ، وَلَا أَبَدَتْ لَهُ
بَسْمًا . وَقَامَ بَعْدَهُ مُحَمَّدُ بْنُ زُكَيٍّ الْأَشْبُونِي ، فَأَنْشَدَهُ شِعْرًا أَوَّلُهُ : « الْيَوْمَ أَبْهَجَ
مِنْبَرٌ وَسَرِيرٌ » رَكِبَ فِيهَا سَنَنَ مَنْ قَبْلَهُ . وَلَحِقَ ابْنُ ذِي النُّونِ سَامَةً مِنْ
كُلْفِ يَوْمِهِ ، فَأَمَرَ بِأَخْذِ بَطَائِقِ جَمِيعِ مَنْ حَضَرَ مِنَ الشُّعْرَاءِ ، وَأَسْلَمَهَا إِلَى
وَزِيرِهِ الْأَثِيرِ يَوْمئِذٍ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُثَنَّى كِي يَتَصَفَّحُهَا بِفَضْلِ أَدَبِهِ ، وَيُطَبِّقَ قَائِلَهَا
بِحَسَبِ مَعْرِفَتِهِ فَيَأْمُرَ لَهُمْ بِمَا يَجِدُهُ . فَبَدَأَ عَلَى الشَّعْرِ يَوْمئِذٍ انْكَسَارٌ ، وَلَحِقَ^(٤)
أَحْفَافُهُ انْهِيَارٌ ، وَأَصَمَّ بِهِ النَّاعِي ، مُسَمِّعًا يَنْدُبُ شَجْوَهُ بَابِنِ الْيَمَانِي ، مُنَادِيًا
يُنَادِي : يَا إِدْرِيسَاهُ ! وَلَا إِدْرِيسَ يَوْمئِذٍ لِلْقَوَافِي ، وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ حَتْفٌ مُوَافِي !
قَالَ ابْنُ حَيَّانَ : وَأَكْتُبُ إِثْرَ هَذَا الْفَصْلِ بَعْضَ مَا اخْتَرْتُهُ مِنْ قَصَائِدِ
هَؤُلَاءِ الشُّعْرَاءِ عَلَى مَا خَيَّلْتُ لَنَا أَنْ يَخْلُوَ جَيِّدُ الْغَالِيَةِ مِنْ مَحْشَلِهَا .

(١) الكلمة غير منقوطة بالأصل . (٢) كذا في الأصل .

(٣) في الأصل : ولحقت .

(٤) في الأصل : ممت .

تَذَكَّرْتُهَا وَالْيَمُّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
وَمِنْ دُونِهَا حَرْبٌ عَوَانٌ وَقَارِضٌ
وَمِنْهَا فِي ذِكْرِ قَصِيدَتِهِ :

قال ابن بَسَّام : وأثبت ابنُ حَيَّان في كتابه لتلك الطائفة المُشَدِّدة يومئذٍ
عِدَّة قصائد ، ولم يَسْلُكْ فيها سبيلَ ناقدٍ . قال : وأما التكلُّفُ المِصرى فمُسْكَكٌ (٢)

وَقَدْ كَانَ لِي [فِي] مَصْرَ دَارُ كَرَامَةٍ وَلَكِنْ إِلَى الْمُأْمُونِ كُنْتُ أَشَوْقُ ١٥
خَلَّتْ عَلَيْهِ وَالْمَكَارِمُ حِجَّةٌ وَسُحْبُ الْعَطَايَا بَرَقُهَا يَتَأَنَّقُ
أَنْتَهَى مَا لَخِصَّتْهُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ حَيَّانَ .

قَالَ ابْنُ بَسَّامٍ : وَنَمَلُوا هَذَا الْفَصْلَ بِنُبْنُذٍ لَهَا بِهَذَا الْمَوْضِعِ مَوْقِعٌ ، مِنْ أَخْبَارِ

(١) هذا البيت كان مقدما في النسخة .
 (٢) لم يظهر في الأصل من الكلمة
 (٣) في الأصل . ضماه ، ولعلها ما أميتناه .
 (٤) كذا رسم الكلمة في الأصل .

طَلِيْطَلَةَ الْبَائِسَةِ ، وَشَرَحَ الْحَالِ الَّتِي أَبَادَتْ مَصَانِعَهَا ، وَطَيَّرَتْ وَاقِعَهَا ، وَمَا آلَ
إِلَيْهِ أَمْرُ الْمَمْلَكَةِ الْقَابِضَةِ لِلْأَنَامِ ، الْمَبْنِيَّةِ عَلَى هَدْمِ دَعَائِمِ الْإِسْلَامِ ، الْمَجْمُوعَةِ
مِنْ افْتِرَاقِ الْجَمَاعَةِ ، الْمَغْلُوبِ عَلَيْهَا أَتَمَّةُ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ . وَنَذَكَرَ طَرَفًا مِنْ
حَدِيثِ مَالِ أَمِيرِهَا الْمُتَوَكِّلِ الْمُسْرِفِ ، الْمَلَقَّبِ — كَانَ — مِنْ الْأَلْقَابِ
السُّلْطَانِيَّةِ بِالْقَادِرِ بِاللَّهِ ، جَهْلًا مِنْهُ بِحَقِيقَتِهِ ، وَتَهَاوُنًا بِاللَّهِ وَخَلِيفَتِهِ . خُطَّةٌ ذَادَهُ
الْمِقْدَارُ عَنْ مُسْتَقَرِّهَا ، وَدَعَاوَى دَفْعَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي صَدْرِهَا . وَنَأَتَى أَوَّلًا
بِفَصْلِ جَوْدَةِ ابْنِ حَيَّانٍ فِي ذِكْرِ جَدِّهِ إِسْمَاعِيلَ الْمُتَلَقَّبِ — كَانَ — بِالظَّافِرِ ،
رَئِيسِ الْخِلَافِ ، وَرَأْسِ الْإِنْحِرَافِ ، وَجَمْهُورِ الْجَوْرِ وَالْإِسْرَافِ .

قال ابنُ حَيَّانَ : وَكَانَتْ أَوَّلِيَّةُ نَبَاهَةِ بَنِي ذِي النُّونِ مِنْ جَدِّهِمْ ذِي النُّونِ ،
فِي أَيَّامِ الْأَمِيرِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ . وَقَدْ اعْتَلَّ لَهُ خَصِيٌّ فِي طَرِيقِ قُفُولِهِ مِنْ
الشَّغْرِ فَنَزَلَهُ عِنْدَهُ بِحَصْنِ أَقْلِيْشَ يُمَرِّضُهُ ، فَلَمَّا أَفَاقَ لَحِقَ بِالْحَضْرَةِ مَعَ الْخَصِيِّ ،
فَأَخَذَ لَهُ تَوْقِيْفًا بِتَقْدِيمِهِ عَلَى حِصْنِهِ . ثُمَّ تَدَاوَلَ تِلْكَ الْخُطَّةُ وَلَدَهُ إِلَى أَيَّامِ
الْحَكَمِ . فَلَمَّا اضْطَلَعَ بِالدَّوْلَةِ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ ، تَعَلَّقَ بِهِ الْمَضْرَاسُ بْنُ ذِي النُّونِ
وَإِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ مَعَهُ . فَلَمَّا انْقَرَضَتْ الدَّوْلَةُ الْعَامِرِيَّةُ لَحِقَ بِالشَّغْرِ ، وَجَمَعَ إِلَيْهِ بَنِي
عَمِّهِ ، وَخَطَبَ مِنْ سُلَيْمَانَ وَلاِيَةَ أَقْلِيْشَ فَوَلَّاهُ إِيَّاهُ ، ثُمَّ تَهَيَّأَتْ لَهُ قَلْعَةٌ كُورَنَكُهُ ،
وَكَانَتْ بِيَدِ وَاضِحِ الْعَامِرِيِّ ، فَلَمَّا مَاتَ ضَبَطَهَا إِسْمَاعِيلُ مُنْتَظِرًا بَزْعِمِهِ مَنْ
يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ النَّاسُ ، وَتَحْتَ ذِيْلِهِ مِنْ غُلُولِ وَاضِحٍ كَثِيرٍ ، حِينَ لَمْ يَتْرُكْ إِلَّا الْأَطْفَالَ
وَأَمَّهُمْ حُرَّتَةً ، أَلْقَتْ بِنَفْسِهَا إِلَيْهِ ، مُعْتَنِقَةً بِأَمَانِهِ ، فَحَصَلَ لِإِسْمَاعِيلَ الْبَلَدُ .
وَسَطَا عَلَى مُجَاوِرِيهِ مِنْ قَوَادِ الشُّغُورِ ، فَاسْتَقَامَتْ لَهُ الْأُمُورُ . وَتَنَّى لَهُ الْوِزَارَةُ
سُلَيْمَانُ وَسَمَّاهُ نَاصِرَ الدَّوْلَةِ . فَاسْتَقَلَّ ذَلِكَ كَلَّةً ، وَآثَرَ الْفُرْقَةَ ، وَاقْتَطَعَ جَانِبَهُ ،
فَكَانَ أَوَّلَ الشَّوَارِ لِمَفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ ، وَفَرَطَهُمْ فِي نَقْضِ الطَّاعَةِ . ثُمَّ انْفَقَتْ لَهُ

٥

١٠

١٥

٢٠

أُمُورٌ اتَّسَعَ بِهَا عَمَلُهُ ، وَكَثُرَتْ جَبَابَتُهُ وَجَمْعُهُ . وَكَانَ مِنَ الْبُخْلِ بِالْمَالِ ، وَالْكَفْلِ بِالْإِمْسَاكِ ، وَالتَّقْتِيرِ فِي الْإِنْفَاقِ ، بِمَنْزِلَةِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ مُلُوكِ عَصْرِهِ . لَمْ يَرْغَبْ فِي صَنِيعَةٍ ، وَلَا سَارَعَ إِلَى حَسَنَةٍ ، وَلَا جَادَ بِمَعْرُوفٍ ، فَمَا أُعْمِلَتْ إِلَيْهِ مَطْيَاءٌ ، وَلَا سَحِلَتْ أَحَدًا نَحْوَهُ نَاقَةً ، وَلَا عَرَّجَ عَلَيْهِ أَدِيبٌ وَلَا شَاعِرٌ ، وَلَا امْتَدَّحَهُ نَاضِظٌ وَلَا نَائِرٌ ، وَلَا اسْتُخْرِجَ مِنْ يَدِهِ دِرْهَمٌ فِي حَقٍّ وَلَا بَاطِلٍ ، وَلَا حَظِيَ أَحَدٌ مِنْهُ بِطَائِلٍ . وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ سَعِيدَ الْجَدِّ ، تَنَقَّادًا إِلَيْهِ دُنْيَاهُ ، وَتَصَحُّبُهُ سَعَادَتُهُ فَيُفَالُ صِعَابَ الْأُمُورِ بِأَهْوَنِ سَعْيِهِ . وَهُوَ كَانَ فَرَطَ الْمُلُوكِ فِي إِثَارِ الْفُرْقَةِ ؛ فَاقْتَدَى بِهِ مَنْ بَعْدَهُ ، وَأَثَمُوا فِي الْخِلَافِ نَهْجَهُ . فَصَارَ جُرْثُومَةُ النِّفَاقِ ، وَأَوَّلَ مَنْ اسْتَنَّى سُنَّةَ الْعِصْيَانِ وَالشُّقَاقِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرَ يَنْبُوعُ الْفِتَنِ وَالْمِحَنِ .

فَتَبَارَكَ مَنْ أَمَلَى لَهُ ، وَلَمْ يَرْضَ لَهُ عُقُوبَةُ الدُّنْيَا مَثُوبَةً .

فَقَدْ كَانَ أَصْحَابُهُ حَفِظُوا عَنْهُ كَلِمَاتٍ فِي سَبِيلِ ذِكْرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ زِيَادَةً إِلَى مَسَاوِيهِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ نُوْظِرَ فِي شَأْنِ التَّأْمِيرِ لِبْنِي أُمَيَّةَ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَوْ نَازَعَنِي سُلْطَانِي هَذَا الصَّدِيقُ لِقَاتَلْتُهُ وَلَمَّا سَلَّمْتُ لَهُ ، فَكَيْفَ أُسَلِّمُ سُلْطَانِي لِمَنْ يُدْعَى إِلَيْهِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ ، مِمَّنْ لَا يُوجِبُ اللَّهُ طَاعَتَهُمْ ، عِتْرَةِ مَرْوَانَ خَبِطَ بَاطِلٌ ، الَّذِينَ لَمْ يَسْبِقْ لَهُمْ نُصْحَةٌ ، وَلَا أَدْخَلَهُمُ السَّلَفُ فِي شُورَى الْإِمَامَةِ ؟

قَالَ ابْنُ حَيَّانَ : وَمِنْ أَشْهَرِ حِكَايَاتِهِ فِي ذَلِكَ ، مَا أَخْبَرَ عَنْهُ أَبُو الْعَبَّاسِ الشُّكْرِيُّ الْإِسْكَندَرَانِيَّ — رَجُلٌ مُتَمَتِّعٌ بِالْحَدِيثِ طَيِّبُ الْجَلَّاسَةِ — وَحَضَرَ مَجْلِسَ ابْنِ حَمُودٍ بِمَالَقَةِ ، فَسَأَلَهُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ ذِي النُّونِ عَنْ مَجْلِسِهِ مَعَهُ ، فَأَثْنَى عَلَيْهِ ، فَقَالَ أَتُنْثَنِي عَلَى أَدْعِيَاءَ ؟ فَعَلَّ اللَّهُ بِهِمْ وَصَنَعَ ! فَبُهِتَ الْإِسْكَندَرَانِيَّ ، وَقَالَ : مَعَذَرَةٌ إِلَيْكَ أَيُّدَكَ اللَّهُ ، فَإِنِّي جَهَلْتُ رَأْيَكَ فِي هَذَا الرَّجُلِ مَعَ أَنِّي أَلْزَمْتُ نَفْسِي أَلَّا أَذُمَّ ذَا سُلْطَانِ الْبَغْيَةِ ، وَأَنْتَ غَيْرُ مُنَازَعٍ فِي أَمَّتِكَ الْمَرْوَانِيَّةِ ،

وَهُمْ أَهْلُ ذَلِكَ مِنْكَ ، أَقَادِيمُ الْمُلُوكِ ، وَذَوُو الْعَدْلِ وَالسِّيَاسَةِ . [وَمَضَى] ^(١)
الإسكندراني في إطرارهم ظناً أنه يسره ، إذ كَانَ يَقُولُ بِدَعْوَتِهِمْ فِي ذَلِكَ
الْوَقْتِ . فَقَطَعَ عَلَيْهِ ابْنُ ذِي النُّونِ بَأْسُوهَا مِنْ قَطْعِهِ عَلَى الْهَاشِمِيِّينَ ، وَانْحَنَى عَلَى
ذِمِّ بَنِي أُمَيَّةٍ فَلَمْ يُبْقَ ، وَوَصَلَ كَلَامَهُ بِأَن قَالَ : تَوَارَثُوا هَذِهِ الْإِمَارَةَ مُخْرَقَةً
وَضَعُوهَا قَرِيشٌ لَا سِتْكَالَ ^(٢) الْفَاسِ وَالنَّاسِ لَأَبٍ وَأُمٍّ ، وَانْفَخَارُ بَاطِلٍ ، أَحَقُّهُمْ
بِالْمُلْكِ مَنْ اسْتَقَلَّ بِهِ . وَاللَّهُ مَا أَوْلَى غَيْرَ نَفْسِي ، وَلَا أَقَوْمٌ إِلَّا بِسُلْطَانِي ،
وَلَوْ نَازَعَنِيهِ فَلَانٌ وَفُلَانٌ — وَذَكَرَ السَّلَفَ الصَّالِحَ الَّذِينَ كَرَّمَهُ ^(٣) اللَّهُ ذِكْرَهُمْ —
لَضَرَبْتُهُمْ دُونَهُ بِسَيْفِي مَا اسْتَمْسَكَ بِيَدِي . فَقَامَ عَنْهُ الْإِسْكَدَرَانِيُّ مَبْهُوتًا
وَأَفْشَاهُ فِي غَيْرِ أَرْضِهِ . وَأَخْبَارُهُ فِي مِثْلِ هَذَا كَثِيرَةٌ .

انتهى كلام ابن حيان .

فَقُلْتُ أَنَا : وَلَيْتَ إِسْمَاعِيلَ هَذَا بَقِيَ وَوُقِيَ ، عَلَى فِظَاطَةِ جَانِبِهِ ، وَاخْتِلَافِ
مَذَاهِبِهِ ، وَطُولِ إِعْرَاضِهِ عَنْ عَوَاقِبِهِ ! فَلَقَدْ كَانَتْ عَلَيْهِ وَقْتَهُ قَلِيلُ رُقْبَةٍ ، وَعِنْدَهُ
بَعْضُ أَهْبَةِ ، لِقُرْبِ عَهْدِهِ بِأَيَّامِ الْجَمَاعَةِ ، وَاسْتِشْعَارِهِ عَوْدَةِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ،
وَلَوْ فُورٍ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ يَوْمئِذٍ مِنْ مَشْيِخَةِ ذَوِي الْهَيْئَاتِ ، وَزُعْمَاءِ سَائِرِ الطَّبَقَاتِ .
وَلَقَدْ أَسَاءَ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ ، ذَهَابًا فِي الْكِبَرِ ، وَتَهَاوُنًا بِالْأَمْرِ ، وَقُعُودًا عَنْ النَّضْرِ ،
وَاسْتِظْهَارًا بِأَحْزَابِ الْكُفْرِ ، سَلَمُهُ بَاطِلٌ وَبَطَالَةٌ ، وَحَرَبُهُ غَوَايَةٌ وَجَهَالَةٌ ، فِي
الْمَشْرُكِينَ نَجْوَاهُ وَدَيْمُهُ ، وَلَهُمْ مَوَاقِفُهُ وَذِمَّتُهُ ، وَفِي الْمُسْلِمِينَ هُمُومُهُ وَهَمُّهُ ،
وَعِنْدَهُمْ بَوَائِقُهُ وَنِقْمُهُ ^(٤) .

بَلَّغْنِي أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ الظَّافِرُ إِسْمَاعِيلُ ، كَانَ حَمَلَةً دَوْلَتِهِ وَرُؤُوسُ جِلَّتِهِ ^(٥)

(١) بياض قدر كلمة .

(٢) كذا في الأصول واعلمها : لاستعمال أو لاستعباد .

(٣) في الأصل : كرمهم . (٤) في الأصل : « نعمة » .

(٥) رسم السكامة في الأصل « حالته » ، ويحتمل كذلك « حملته » .

الحاج بن محفور وابن لبون وابن سعيد بن الفرّج . وكان آكد ما عهدته إلى
 ابنه يحيى المتلقب بعده بالمأمون الاقتداء بهديهم ، والانتفاء إلى رأيهم . قال
 بعضهم : فدخلنا عليه لأيام يسيرة من مهلك أبيه ، وهو [في] إيوان كبير قد
 ملأه بنقر الفضة حتى لا فضل فيه عن مجلسه ، فأمرنا بالدنو ، فبعد لأي
 ما خلصنا^(١) إليه لكثرة ما كان من ذلك بين يديه ، وقد امتلأت صدورنا
 عجباً ، وتقيدت الحاظنا فما تجد متقلّباً ، لهذا الاتفاق كيف وقع ، ولهذا الشح
 من أين جمع . فأخذ يُفيل^(٢) رأى أبيه في اختزانه ، ويُعرض بجحود^(٣) كان
 في بنائه ، ونحن نقول : لعله قد أنف لضياع ثغوره ، وتشعث أموره ، وانتشار
 الشرك بإزائه وظهوره . وكأنه فهم ما نحير ، وعلم إلى أين نشير ، فأظلم ما بيننا
 وبينه ، وازورّ إزورارة أنكرنا بها أثره وعينه ، [وقال :] من حقّ مثل هذا
 أن يُصرف في مثل ضروب الحلية الرائقة^(٤) ، وأنواع الآنية الرائقة^(٥) . وأى
 معنى في كونها نقر ؟ ما أعجب هذا وما أنكر ! هذه بالحجارة أشبه منها بالآلات
 الإمارة . فقال له ابن محفور ، وكان أشدهم جرأة وأثقلهم وطأة ، لعزّة ركنه
 وإدلاله بفضل سنّه : إن هذه — أيّك الله — إذا كانت تُقرأ بقيت ذخيرة
 زمان ، وعدّة لحدّث إن كان ، ولا تحوّل آلات إلا بعد نفقة ، وتحثيف من كل
 طبقة ، ثم لا تزال نُصب عين من يرّد من رسول ، ويلتاب من ابن سبيل ،
 وينمى خبرها إلى الطاغية فردّ لند فتدعو السياسة إلى أن يُخصّ منها بقسم ،
 ويُضرب له في أنفسها بسهم . فزوى عنهم وجهه ، ولم يأمنوا نجهه ، وثقلوا
 بعد عليه ، ويئسوا من شئ من الفلاح يجري على يديه . وخالفهم إلى ما أراد ،

(١) رسم الكلمة في الأصل : « حاضا » ، ولعل ما أثبتناه أقرب إلى الصواب .

(٢) رسم الكلمة في الأصل : « يقبل » . (٣) كذا ، ولعلها بجمود .

(٤) كذا في الموضعين ولعل إحداها « الفائقة » .

فأبدى فيه وأعاد ، وآلت حاله إلى ما قال الشيخ ما نقص ولا زاد .

ذِكْرُ الْخَبَرِ عَنْ بَعْضِ مَا تَنَاهَى إِلَيْهِ الْمَأْمُونُ

مِنْ تَشْيِيدِ الْبُنْيَانِ بِقُصُورِ طُلَيْطَلَةَ

قال ابن بسام : ثم أخذ المأمون في بناء مجلسه الكبير المكرم بناء بآئمه ، وخلا سريعا من اسمه ، لم يخلده في عقب ، ولا قضى من لدنه به كبير أرب . وكان الذي تولى له رصف بدائعه ، وإحكام مصانعه ، رجل من مَهْرَةِ الفعلة ، أكثر خلق الله صلفا ، وأشدهم تنابعا ^(١) وسرفا . وكان المأمون لعدم نظيره ، يحتمل من اعتدائه وتغريره ، وتهاونيه بجميع أموره ، ما لا مزيد عليه ، ولا انتهاء لأحد إليه . واتفق له مع ذلك الصانع أن وعده بتمام مجلسه المشيد قبل إطلال العيد ، فرشح ابن ذى النون للجلوس في صدره ، والاستظهار على زينة عيده بالفراغ من أمره . وتقدم إلى من كان بحضرته من الشعراء ، على قلتهم ببابه ، ونفارهم عن جنابه ، لقلّة نائله ، وتفاهة طائله ، في وصف مجلسه ذلك وتقرّيط مبانيه ، والثناء على مخترعه وبانيه . ثم إن ذلك الصانع استمر على ديدنه من الخلاف ، وعمل على شاكلته من التهاون والإخلاف . واتفق أثناء ذلك أن ضربت خيل الطاغية فردلند على بلاد المظفر بن الأنطس ؛ وطمتها وطاة تحت رؤسومها ، واستباححت حريمها ، واجتاحت حديثها وقديمها ، وأنست ما كان قبلها من جب ^(٢) الذروة ، وانصداع المروة ، وأياست من البقاء ، وأذنت بشمول البلاء . فأخبرت عن وزيره أبي المظفر بن مشفى أنه كان يومئذ بمنزله بين الوجوم والإطراق ، وعلى نهاية الحذر والإشفاق ،

(١) في الأصل : « تنابعا » . (٢) في الأصل : « جب » .

إِذْ وَرَدَتْ رُسُلُ الْمَأْمُونِ عَنْهُ تَتَرَمَّى ، وَهَجَمَتْ عَلَيْهِ زُمْرَةٌ بَعْدَ أُخْرَى . فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَوَجَدَهُ قَدْ اسْتَشَاطَ حَقَقًا ، حَتَّى كَادَ يَتَمَيَّزُ شَقَقًا . فَظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ الضَّجَرَ لِمَا كَانَ وَرَدَ بِهِ الْخَبَرُ مِنْ ضَرْبِ الْخَلِيلِ عَلَى بَلَدِ الْمَظْفَرِ ، وَإِخْفَارِ الدَّمِّ ، وَزَلَّةِ الْقَدَمِ ، وَانْهَتَاكِ الْحَرَمِ . فَطَفِقَ ابْنُ مُثَنَّى يَبْسُطُهُ وَيَقْبِضُهُ ، تَارَةً يُسَلِّيهِ وَتَارَةً يُحَرِّضُهُ ، وَطَوْرًا يَقُولُ لَهُ : فِيكَ الْخَلْفُ مِمَّا فَاتَ ، وَمَرَّةً يَقُولُ : قَدْ آتَاكَ أَنْ تُنْكَرَ عَلَى الطَّاعِيَةِ هَذَا الْإِفْتِيَاءُ . فَمَا ^(١) فَهَمَّ مَنْحَى ابْنُ مُثَنَّى مِنْهُ ، وَأَعْرَضَ عَنْهُ ، وَقَالَ لَهُ : أَلَا تَرَى هَذَا الصَّانِعَ الْفَاعِلِ الضَّائِعَ ^(٢) — يَعْنِي عَرِيفَ بُنْيَانِهِ — صَبَرْتُ لَهُ وَأَغْضَيْتُ ، وَفَعَلْتُ بِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ ، فَمَا زَادَ إِلَّا تَنْغِيصًا لِلذَّيِّ ، وَاسْتِخْفَافًا بِأَمْرَتِي ، وَتَصْغِيرًا لِلشَّانِي ، وَاجْتِرَاءً عَلَى سُلْطَانِي . وَهَبَّتْ رِيحُ الْعَقِيمِ ، تَقْعِدُ فِي غَيْرِ شَيْءٍ وَتُقِيمُ ، فَسَقَطَ فِي يَدِ ابْنِ مُثَنَّى وَانْكَسَرَ انْكَسَارَةً تَبَيَّنَ مِنْهَا ابْنُ ذِي النُّونِ فِيهِ . وَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ قَالَ لَهُ : هَوِّنْ عَلَيْكَ ، وَالْكَلُّ طَوْعُ يَدَيْكَ ، وَنَاهِيكَ ، وَأَنَا أَكْفِيكَ .

وَخَرَجَ وَمَثَلَ بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ الصَّانِعِ يَبْعُدُهُ وَيُمْنِيهِ ، وَيُدَاوِرُهُ ^(٣) وَيُدَارِيهِ ؛ وَالصَّانِعُ مُقْبِلٌ عَلَى شَأْنِهِ ، مَا أَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ ، وَلَا زَادَهُ عَلَى التَّجَهُُّمِ ^(٤) وَالْعُبُوسِ . فَبَعْدَ لَا أَيْ مَا ضَرَبَ لَهُ مَثَلُ الْعَامَّةِ وَهُوَ قَوْلُهُمْ : مَا أَفْرَسَ الْجَالِسُ . ثُمَّ قَالَ : ١٥
وَبِالْحَرِيِّ وَاللَّهِ أَنْ يَتِمَّ إِلَى عِيدٍ آخَرَ ، فَلْيَجْهَدْ جَهْدَهُ ، وَلْيَأْتِ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ . فَرَجَعَ ابْنُ مُثَنَّى إِلَى ابْنِ ذِي النُّونِ وَهُوَ عَلَيْهِ الشَّانُ ، وَخَفَّفَ لَدَيْهِ مَا كَانَ . وَخَرَجَ لَا يَذَرِي مِنْ أَيِّْ الشَّلَاثَةِ يَعْجَبُ : أَمِنْ اغْتِرَارِ ذِي النَّوْنِ وَجِهَلِهِ ، أَمْ إِنْضَاءِ الضَّرُورَةِ بِنَفْسِهِ إِلَى خِدْمَةِ مِثْلِهِ ، أَمْ مِنْ جُرْأَةِ ذَلِكَ الصَّانِعِ الْقَصِيرِ الْيَدِ النَّزْرِ الْعَدَدَ عَلَى ذُلِّ ذِي النُّونِ وَذُلِّهِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « فَمَا » . (٢) فِي الْأَصْلِ : « الصَّانِعِ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « وَيُدَارِيهِ » . (٤) فِي الْأَصْلِ : « التَّجَهُُّمِ » .

قال ابن بسّام : فتبارك مَنْ أحاطَ بالأشياء ، ولم يخفَ عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ، ومَنْ جعلَ اليومَ ذلكَ القصرَ العجيبَ ببنيانِه ، الهادِمَ كانَ للدينِ والدُّنيا ببنيانِه ^(١) ، مربطاً للأفراس ، وملعباً للأعلاجِ الأرجاس ، مِنْ رجالِ الطّاغيةِ أدفونش بن فرذكند ، بدّدَ اللهُ شيعته .

ذِكْرُ الْخَبَرِ عَنْ مَالِ حَفِيدِهِ الْمُتَلَقِّبِ بِالْقَادِرِ

مع [ما] يتشَبَّثُ به مِنْ خَبَرٍ نَادِرٍ

قد ذكرتُ في القسمِ الثاني مِنْ هذا المجموعِ مُلْكَ جَدِّهِ المأمونِ بقرطبة ، ويعودُ بنا القولُ إلى ما بدأتُ به مِنْ ذِكْرِ حَفِيدِهِ المُتَخَذِ لَهُ ذَلِكَ الصَّنِيعُ المَعْدُودُ عَلَى الأَيَّامِ ذَنْبُهُ ، الباقِي فِي صَفْحَةِ الإِسْلَامِ نَدْبُهُ . وقد ذكرتُ أيضاً في القسمِ الثالثِ مِنْهُ مَهْلِكَ حَفِيدِهِ ببِلَنْصِيَّةٍ وأَوْضَحْتُ صُبْحَهُ ، واستوفيتُ شَرْحَهُ . وأجْرَدُ هَهُنَا القولَ فِي أَخْذِ طُلَيْطَلَةَ مِنْ يَدَيْهِ ، ودَوْرانِ الدائِرَةِ السَّوْءِ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِ ، وما تَعَلَّقَ بِأَذْيَالِ ذَلِكَ مِنْ غَرِيبَةٍ ، وانْخَرَطَ فِي سِلْسِكِهِ مِنْ أَعْجُوبَةٍ .

كانَ يَحْمِي حَفِيدُ ابْنِ ذِي النُّونِ رَكِينَ المَجْلِسِ ، تَرَى المَغْرِسَ ، حُلُومَ الحِوَارِ ، لَيِّنَ التَّصَرُّفِ بَيْنَ الإِيرَادِ والإِصْدَارِ ، مَلِيحَ شَبَابِ الخَطِّ ، هَذِهِ كَانَتْ فُضَايِلُهُ فَقَطْ . لم يَكُنْ لَهُ وَلِيسْلِفُهُ قَبْلَهُ بَاعٌ فِي الطَّلَبِ . ولاحظْ في الأَدَبِ ؛ وَكَانَ — زَعَمُوا — آيَةً فِي قُرْبِ غَوْرِهِ ، وَسُكُونِ فَوْرِهِ ^(٢) ، والحَوْرُ بَعْدَ كَوْرِهِ ، إِمْرَةٌ إِمْرَةٌ ، أَجْبَنَ مِنْ قُبْرَةٍ ؛ إِنْ حَزَمَ لم يَعْزِمَ ، وَإِنْ سَدَّى لم يُلْجِمَ ، إِلَى مَا كَانَ

(١) كَذِبُ الْأَصُولِ وَلَعَلَّهَا بِكَيَانِهِ أَوْ بَظْفِيَانِهِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « قَوْوَهُ » وَلَعَلَّهَا مَا أَثْبَتْنَاهُ .

يَعْرِضُهُ مِنْ غَرَضٍ ، وَيَلْزَمُهُ أَكْثَرَ مَدَّتِهِ مِنْ مَرَضٍ ، مِنْ ذَرْبٍ لَازِمٍ - زَعَمُوا -
 كَانَ لِمَعْدَتِهِ ^(١) ، وَاسْتَحْرَارِ حَاسِمٍ لِمَرَّتِهِ ^(٢) . وَقَدْ كَانَ جَدُّهُ الْمَأْمُونُ قَسَمَ
 الْحَضْرَةَ قِسْمَيْنِ ، وَأَدَارَ سِيَاسَتَهَا عَلَى رَجُلَيْنِ ، فَعَمِلَ تَدْبِيرَ الْأَجْنَادِ ، وَالنَّظَرَ
 فِي طَبَقَاتِ الْقَوَادِ ، إِلَى سَائِرِ الشُّؤْنِ السُّلْطَانِيَّةِ ، وَالْأَعْمَالِ الدِّيَوَانِيَّةِ إِلَى ابْنِ
 الْفَرَجِ ؛ وَبَقِيَّةَ الْإِصْدَارِ وَالْإِيرَادِ ، وَالنَّظَرَ لِمَجَاهِيرِ النَّاسِ وَكَوَاظِفِ الْبِلَادِ ،
 وَالرَّأْيَ وَالْمَشُورَةَ ، وَالصَّغِيرَةَ وَالْكَبِيرَةَ ، إِلَى الْفَقِيهِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ الْحَدِيدِيِّ ،
 رَجُلٍ كَانَ لَهُ قَدَمٌ وَإِقْدَامٌ ، وَعِنْدَهُ نَقْضٌ وَإِبْرَامٌ . وَكَانَ قَدْ عَمِدَ لِحَفِيدِهِ هَذَا
 الْمُرْشِحَ لِأَمْرِهِ مَتَى وَرِثَ سُلْطَانَهُ ، وَتَبَوَّأَ مَكَانَهُ ، أَنْ يَشُدَّ عَلَى ابْنِ الْحَدِيدِيِّ
 كَلِمَتَا ^(٣) يَدَيْهِ ، وَلَا يَفْتَتِ بِأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ عَلَيْهِ . وَأَخَذَ الْمُؤْتِقَ الْغَلِيظَ عَلَى ابْنِ
 الْحَدِيدِيِّ لِيَبْلُغَنَّ كُلٌّ مَبْلَغٍ فِي شِدِّ أَرْزِهِ ، وَتَثْبِيَتِ أَمْرِهِ ، عِلْمًا بِاسْتِقْلَالِهِ ،
 وَاسْتِنَامَةِ إِلَى يَمْنٍ مَنَاقِبِهِ وَخِلَالِهِ ، وَحِفْظًا لِمَا ^(٤) كَانَ عِنْدَهُ مِنْ يَدِهِ فِي إِقَامَةِ
 أَوْدِهِ ، وَمُمَالَاتِهِ عَلَى أَهْلِ بَلَدِهِ . وَقَدْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ فِيمَا سَلَفَ نَفَرُوا عَنْهُ ، وَهَمُّوا
 بِالْإِسْتِبْدَالِ مِنْهُ . فَفَكَثَ ^(٥) أَبُو بَكْرٍ هَذَا قُوَى مَكْرِهِمْ ، وَخَاطَبَ الْمَأْمُونُ يَوْمَئِذٍ
 إِلَى بَلَنْسِيَّةٍ بِجَلِيَّةٍ أَمْرِهِمْ ، خَوْفًا مِنَ الْفِتْنَةِ ، وَتَفَادِيًا مِنَ الْمِحْنَةِ . فَانْكَدَرَ الْمَأْمُونُ
 مِنْ حِمْنِهِ إِلَى طُلَيْطُلَةٍ وَقَدْ ضَاقَ ذِرَاعًا ، وَكَادَتْ نَفْسُهُ تَذْهَبُ شَعَاعًا . وَأَدَارَ
 الْحِمْلَةَ عَلَى مَشِيخَةِ طُلَيْطُلَةٍ فِي خَيْرِ طَوِيلٍ حَتَّى سَجَنَ عَامَّتَهُمْ بِمَطْبَقِ حِصْنِ
 [وَبَذَهُ ^(٦)] أُخْرَى قَلَاعِهِ الْمَنْيَعَةِ ، وَلَمْ يَزَلْ يُلَاحِظُهَا حَتَّى سَابَ الشَّبَابَ ، وَبَلَّيْتَ
 الْأَحْقَابَ . وَتِلْكَ الْيَدَ كَانَ الْمَأْمُونُ يُرَاعِي لِابْنِ الْحَدِيدِيِّ ، فَوَضَعَ فِي حَيَاتِهِ
 زِمَامَهُ بِيَدِهِ ، وَاسْتَخْلَفَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ عَلَى بَلَدِهِ وَوَلَدِهِ

(١) فِي الْأَصْلِ : لِمَعْدَتِهِ . (٢) فِي الْأَصْلِ : لِمَرَّتِهِ .

(٣) رَسْمُ الْكَلِمَةِ فِي الْأَصْلِ : كَلْفَى .

(٤) فِي الْأَصْلِ : لِمَنْ . (٥) فِي الْأَصْلِ : فَكَثَتْ .

(٦) بِيَاضُ بِالْأَصْلِ قَدْرُ كَلِمَةٍ ، وَسَمِعْتُ اسْمَ هَذَا الْمَحْصَنِ كَمَا أَتْبَعْتَنَاهُ فِيمَا بَعْدَ .

مَقْتَلُ الْفَقِيهِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ الْحَدِيدِيَّ

فلما هَلَكَ المَأْمُونُ بِقُرْطُبَةٍ وَنُعِيَ بِطُلَيْطَلَةَ وَمَاجَ بَعْضُهَا فِي بَعْضِهَا ، وَانْطَبَقَتْ
 سَمَاوُهَا عَلَى أَرْضِهَا ، اِحْتَوَشَتْ إِلَى حَفِيدِهِ ، اللّابِسِ لِبُرُودِهِ ، جُمْلَةً مِّنْ كَانَ
 يَتَعَلَّقُ بِسَبَبِهِ ، وَيُنْسَبُ إِلَى وَطْءِ عَقِبِهِ . وَطَفِقُوا يُغْرَوْنَهُ بِأَبِي بَكْرٍ ^(١) جُمَاعِ
 أَمْرِهِ ، وَمَظَنَّةِ تَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ ، لَمَّا كَانُوا يُدْبِرُونَ مِنَ التَّقَلُّبِ عَلَيْهِ ، وَيَتَوَهَّمُونَ
 مِنْ ضَعْفِهِ عَلَى مَا فِي يَدَيْهِ . وَخَوْفُهُ غَوَائِلَ خَتَلِهِ ، وَزَعَمُوا أَنَّ سُلْطَانَهُ لَا يَتِمُّ
 إِلَّا بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ قَتْلِهِ . وَقَدْ كَانَ أَثِيرُهُ أَبُو سَعِيدِ بْنِ الْفَرَجِ يَنْهَاهُ عَنْ إِخْفَارِ
 الدِّمَامِ ، وَيُخَوِّفُهُ سُوءَ عَوَاقِبِ الْأَيَّامِ . فَرَكِبَ هَوَاهُ ، وَخَالَفَ نَاصِحَةَ وَعَصَاهُ ،
 وَجَرَّدَ قِطْعَةً مِنْ جُنْدِهِ ، وَأَمَرَهَا بِاسْتِقْبَالِ تَابُوتِ جَدِّهِ فِي طَرِيقِهِمْ مِنْ قُرْطُبَةٍ ،
 وَأَنْهَى إِلَيْهِمْ مِرًّا قَتَلَ ابْنَ الْحَدِيدِيَّ الْمُسْتَقِيلَ بِحِمْلِهِ ، الْغَاضِمَ لِأَشْتَاتِ فَلِّهِ .
 وَقَالَ لَهُمْ : إِذَا لَقِيتُمُوهُ فَكُونُوا حَوْلَهُ ، وَعَظِّمُوا قَوْلَهُ ، فَإِذَا أُمْسَكْنْتُمْ ^(٢) غِرَّتَهُ ،
 وَبَدَتْ لَكُمْ نُغْرَتُهُ ، فَاقْتُلُوهُ كَيْفَ أُمَكُنْ ، وَعَلَى مَا ظَهَرَ وَبَطْنٍ . وَنَمَّا الْخَبِيرُ
 إِلَى ابْنِ الْحَدِيدِيَّ فَكَفَرَ بِطَاغُوتِهِمْ ، وَنَفَضَ يَدَيْهِ مِنْ تَابُوتِهِمْ ، وَنَسَكَبَ إِلَى
 بَعْضِ ضِيَاعِهِ ، فِي لَمَحَةٍ مِنْ شِيعَتِهِ ^(٣) وَأَتْبَاعِهِ . فَاضْطَرَمَّتِ الصُّدُورُ ، وَبَطَلَ
 ذَلِكَ التَّدْبِيرُ . ثُمَّ وَافَى الْبَلَدَ لَيْلَةً وَقَدْ اسْتَوْحَشَ مِنْ أَنْسِهِ ، وَأَوْجَسَ خِيفَةً
 فِي نَفْسِهِ ، وَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، وَنَادِمًا يَتَتَبَعُ وَيَتَعَقَّبُ ، يَعْصُ
 يَدَيْهِ ، وَيَحْسِبُ كُلَّ صَبِيحَةٍ عَلَيْهِ . وَطَفِقَ أَصْحَابُ ابْنِ ذِي النُّونِ بَزْعِمَهُ يَقُولُونَ :
 قَدْ حَذَرَكَ ، وَتَيَقَّنَ ^(٤) ، وَلَا يَصْلُحُ لَكَ أَبَدًا ، وَلَا يَرُدُّ عَنْ مَكْرُوهِكَ
 يَدًا . وَمَشَتْ بَيْنَهُمَا الرُّسُلُ ، وَأَعْمَلَتْ فِي اجْتِمَاعِهِمَا الْحِيلَ . فَرَكِبَ إِلَيْهِ ذَاتَ

(١) فِي الْأَصْلِ : يُغْرَوْنَهُ بِأَبِي بَكْرٍ .

(٢) كَذَا وَلَعَلَّهَا : أُمْسَكْنْتُمْ الْمُسْتَقِيلَ . (٣) فِي الْأَصْلِ : شِيعَتِهِ .

يومٍ وقد أخذَ حِذْرَهُ ، وحشَدَ عُرْفَهُ ونُكِرَهُ ، واستَبْطَنَ^(١) مَنْ كَانَ تَبِعَهُ
يَوْمَئِذٍ مِنَ الدَّهْمَاءِ ، وتعلَّقَ بِرِكَابِهِ لِمَشْهَدِ أَمْرِهِ مِنَ الغَوَاءِ . فَلَأَوْا أَفْنِيَّةَ
القَصْرِ أَسْرَعَ مِنَ الْمَاءِ إِلَى الصَّبَبِ ، وَأَهْوَلَ مِنَ النَّارِ فِي الحَطَبِ . فحينَ ارتفعتْ
الأصواتُ ، وغصَّتْ بهم العَرَصاتُ ، إنصاعَ^(٢) ابنُ ذِي الثُّونِ فَأَمَرَ ابنَ
الحديدِ بالخُرُوجِ . فخرَجَ والدُّولَةُ مُتَعَلِّقَةً بِأَذْيَالِهِ ، وطَبَقَاتُ أَعْيَانِهَا عَنْ
يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، والعَامَّةُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَتَمَسَّحُونَ بِآثَارِهِ ، وَيَرْفُلُونَ فِي
غُبَارِهِ ، وَهُوَ يَشْكُرُ صَنِيعَهُمْ ، وَيَعُمُّ بِالشَّنَاءِ جَمِيعَهُمْ . وَكَانَ عِنْدَمَا أَذْكَى عُيُونَهُ ،
وحشَرَ شَيَاطِينَهُ ، قَدْ أَوْقَعَ تُهْمَتَهُ عَلَى شَيْخَيْنِ مِنْ شُيُوخِ الخِدْمَةِ يُدْعِيَانِ
مُؤَمِّلًا وَابْنَ صَرُومٍ ، فَأَغْرَى الْعَامَّةَ بِاسْتِئْصَالِهِمَا ، وَتَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ بِنَهْبَةِ أَمْوَالِهِمَا ،
فَكَانَا عُتْوَانَ الْفِتْنَةِ ، وَبَاكَورَةَ الْمِحْنَةِ .

وقَدْ حَدَّثْتُ أَنَّ ابْنَهُ أَشَارَ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ بِالْفَرَاغِ مِنْ شِيعَةِ ابنِ ذِي النُّونِ
فَقَبِيلَ رَأْيِهِ ، وَاسْتَقْصَرَ سَعْيَهُ ، وَبُوْدُ^(٣) طُلَيْطَلَةَ الْبَائِسَةِ لَوَأَنَّهُ فَعَلَ ، وَلَوْ أَمْضَاهَا
مَا اخْتَلَفَ بِهَا اثْنَانِ ، وَلَا انْتَطَحَ فِيهَا عَتْرَانِ .

وَزَيَّنَ هَذَا الْحِزْبُ الْمُعَانِ بِشَرِّهِ ، مِنْ شِيعَةِ ابنِ ذِي الثُّونِ الْمَغْلُوبِ عَلَى
أَمْرِهِ ، لِصَاحِبِهِمُ اللَّجَاجِ فِي غَدْرِهِ ، وَالتَّمَادِي عَلَى غُلُوءِ مَكْرِهِ . وَأَرْتَهُ أَنَّ ذَلِكَ
مِنْ سَعْيِهَا لَا يَسْتَوِي عَلَى سُوقِهِ ، وَلَا يَخْلُو بِسِوَاءِ طَرِيقِهِ ، إِلَّا [بِإِطْلَاقِ]^(٤)
تِلْكَ الطَّائِفَةِ الْمَغْرَبَةِ بِمُطَبَقِ وَبَذِهِ ، الْمُحْتَرِقَةِ أَفْلَازُ أَكْبَادِهِمْ ، بِنِيرَانِ دَمِهِمْ
وَأَحْقَادِهِمْ : دَاءُ دَفِينٍ ، وَشَرٌّ مَضْمُونٍ . وَسَوَّلُوا لَهُ أَنَّهُ إِذَا فَكَّ أَغْلَالَهُمْ ، وَوَصَلَ
بِحَبْلِ الْحَيَاةِ حَبَالَهُمْ ، غَسَلَ جَوَانِحَهُمْ ، وَتَأَلَّفَ نَصَائِحَهُمْ ، وَشَارَكَهُمْ فِي ذَوَاتِ

(١) فِي الْأَصْلِ : اسْتَبْطَاءٌ ، وَلَعَلَّ الصَّوَابَ مَا أُتْبِئْنَا .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « أَبَاعَ » وَلَعَلَّ الصَّوَابَ مَا أُتْبِئْنَا .

(٣) الْكَلِمَةُ فِي الْأَصْلِ غَيْرُ مَعْجَمَةٍ . (٤) بِيَاضٍ بِالْأَصْلِ بِقَدْرِ كَلِمَةٍ .

صُدُورِهِمْ ، واعتدَّ عليهم مِنَّةٌ نُشُورِهِمْ ، والبعثة مِن قُبُورِهِمْ . فَأَنَارَ مِنْهُمْ مُدَى
وَشَفَارًا ، [أَعَدَّ] ^(١) بِهِمْ لَخَرَابٍ مُلْكِهِ أَغْوَانًا وَأَنْصَارًا . فَأَدْخَلَهُمُ الْبَلَدَ سِرًّا
مِنْ بَعْضِ مَدَاخِلِهِ الْخَفِيَّةِ . وَقَدْ سَتَرَهُمُ بِاللَّيْلِ ، وَأَوْهَمَهُمْ أَنَّهُمْ بَعْضُ الْحُرَمِ ، حَتَّى
وَصَلَوْا إِلَيْهِ ، وَمَثَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ لِعَشْرِ خَلَّتْ لِحْرَمِهِ
سَنَةٌ ثَمَانٍ وَسِتِينَ .

وَكَانَ الَّذِي مَالَا ابْنَ ذِي النُّونِ عَلَى ذَلِكَ ، وَسَهَّلَ لَهُ — زَعَمُوا — تِلْكَ الْمَنَاهِجَ
الْخَبِيْثَةَ وَالْمَسَالِكَ ، الْفَقِيهُ ابْنُ الْمَشَاطِ مُتَوَلَّى الْقَضَاءِ كَانَ يَوْمئِذٍ بِقُونُكِهِ . وَكَانَ
أَبُو بَكْرُ بْنُ الْحَدِيدِيِّ [يَأْلُفُهُ] ^(٢) وَيَسْكُنُ إِلَيْهِ قَدِيمًا ، فَاسْتَدْرَجَهُ بِالْأَمَانِ ،
وَاسْتَفْزَعَهُ إِلَى مَصْرَعِهِ يَوْمئِذٍ بِمَزَوَّاتِ الْإِيمَانِ ، حَتَّى جَرَّعَهُ رَدَاهُ ، وَأَسْلَمَهُ إِلَى
عِدَاةِهِ . وَدَخَلَ ابْنُ الْحَدِيدِيِّ يَوْمئِذٍ الْقَصْرَ ، وَالْمِقْدَارُ يُزْعِجُهُ ، وَالْخَائِنُ الْعَدَاةَ ابْنُ
الْمَشَاطِ ^(٣) يَسْتَدْرِجُهُ . فَلَمَّا أَفْضَى إِلَى مَجْلِسِ ابْنِ ذِي النُّونِ رَأَى وَجُوهًا قَدْ أَمْنَهَا
مِمَّا تَخَوَّفَهَا ، وَأَنْكَرَهَا مِنْ طُولِ مَا عَرَفَهَا ، وَأَيَقَنَ بِالشَّرِّ لَا خِلَاصَ ، وَلَاتَ حِينَ
مَنَاصَ . ثُمَّ وَطَنَ لِحَنَّتِهِ ، وَاتَّكَأَ فَضْلَ مُنْتَهَى ، فَجَاذَبَهُمْ أَطْرَافَ الْخِصَامِ ، وَطَلَعَ
عَلَيْهِمْ مِنْ ثَنَائِيَا النُّقْصِ وَالْإِبْرَامِ . فَقَامَ ابْنُ ذِي النُّونِ مِنْ مَوْضِعِهِ وَابْنُ الْحَدِيدِيِّ
مُتَمَلِّقٌ بِأَذْيَالِهِ ، مُسْتَجِيرٌ بِهِ مِنْ أَقْتَالِهِ . فَشَغَبُوا عَلَيْهِ وَشَغَلُوهُ ، وَأَحَاطُوا بِهِ حَتَّى
قَتَلُوهُ . فَقَضَى الْأَمْرَ ، وَقَضَى الْعِجْزُ وَالصَّدْرُ . وَلَمَّا أَحْسَسَتِ الْعَامَّةُ بِقَتْلِهِ ، وَهَمَّتْ
بِسِلَاحِهَا مِنْ أَجْلِهِ ، نَارَ أُولَئِكَ الْمُخْرَجُونَ فِي وَجْهِهِمْ ، أَطْلَالٌ فِي أَسْمَالِ .
فَأَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِطَرَفٍ مِنَ الطَّرِيقِ ، وَذَهَبَ مِمَّنْ كَانَ هُنَالِكَ مِنَ الْعَامَّةِ
بِفَرِيقٍ ، بَيْنَ صَدِيقٍ لَهُمْ يُسَمَّى ، وَمَعْدُودٍ يُفَرِّقُ . وَتَشَاغَلُوا بِنَهَبِ دُورِ بَنِي الْحَدِيدِيِّ

(١) بياض بالأصل قدر كلمة ، ولعلها في معنى ما أثبتناه .

(٢) بياض بالأصل بقدر كلمة . (٣) في الأصل : السقاط .

حينَ عَجَزُوا عَنْ نُصْرَتِهِ ، وَعَلِمُوا أَنَّ لَا سَبِيلَ إِلَى كَرَّتِهِ . وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كـ « لا »
حَتَّى أَصْبَحَتْ حَبْلًا^(١) رَثًا ، وَهَبَاءً مُنْبَثًا .

وظَنَّ ابْنُ ذِي النُّونِ [أَنَّهُ] قَدْ رَاعَ أَخْشَاءَ^(٢) الْأَيَّامِ بِفَتْكَةِ بَرَّاضِيَّةٍ ،
وَهَتَكَ أَسْتَارَ الْخُطُوبِ عَنْ حِيلَةِ عَمْرِيَّةٍ . وَلَعَمْرِي لَقَدْ أَرَاعَ وَلَكِنْ آمِنَ سِرِّيهِ ،
وَلَقَدْ هَتَكَ وَلَكِنْ حِجَابَ قَلْبِهِ . أَخْلَى وَجْهَهُ لِشِرَارِ أَعْمَارٍ ، لَمْ تَكُنْ لَهُمْ
أَخْلَامٌ تَحْجُرُهُمْ ، وَلَا حُلُومٌ تُوقِرُهُمْ ، أَذْبَقَ^(٣) شَهَوَاتٍ ، وَفَرَّاشِ ضَلَالَاتٍ ،
أَغْضَى الزَّمَانَ لَهُمْ هُنَيْيَةً فَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ أَعْجَزُوهُ وَانْتَهَزُوهُ ، فَوَجَدَهُمْ مُغْتَرِّينَ لَيْسَ
لَهُمْ سِلَاحٌ إِلَّا مَقَاتِلُهُمْ ، وَلَا بِهِمْ حُويلٌ إِلَّا تَدَابُرُهُمْ وَتَخَاذُلُهُمْ . وَنَفَثَ عَلَى نَفْسِهِ
مِنْ أَوْلَيْكَ الْمُخْرَجِينَ شَرَارَ زِنَادٍ ، وَأَسْرَارَ عَدَاوَاتٍ وَأَحْقَادٍ ، خُلَّاسَ
الشُّجُونِ^(٤) وَالْأَهْوَالِ ، وَبَقَايَا الْقِيُودِ وَالْأَغْلَالِ . فَلَمْ يَزِدْ بِمَوْتِ ابْنِ الْحَدِيدِيِّ
وَحَيَاتِهِمْ عَلَى أَنَّ كَانَ الشَّرُّ سَبَبًا فَأَصْبَحَ أَسْبَابًا ، وَالنَّاسُ حَزَبًا فَتَفَرَّقُوا أَحْزَابًا .
وَانْتَبَذَ ابْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِمَلِكِ الْوَهْلَةِ بِبَلَنْسِيَّةٍ مِنْ جَمَاعَتِهِ ، وَخَلَعَ يَدَهُ مِنْ
طَاعَتِهِ ، إِلَّا هُدْنَةً عَلَى دَخْنٍ يَتَطَارَدُ لَهُ بَصِيدُهَا ، وَيُنْشِدُهُ عَنْ كَيْدِهَا :

أَحْبَبُّكَ فِي الْبَتُولِ وَفِي أَبِيهَا وَلَسَكُنِّي أَحْبَبُّكَ مِنْ بَعِيدِ

وَفَرَّ الطَّاغِيَةُ أَدْفُونِشْ بِنُ فَرْدَلَنْدُ فَمَهْ عَلَى تُغُورِ الْمَغْمُورَةِ ، فَجَعَلَ لَوَقْتِهِ
يَطْوِيهَا طَيَّ السَّجَلِ لِلْكِتَابِ ، وَيَنْهَضُ فِيهَا نَهْضَةَ الشَّيْبِ فِي الشَّبَابِ . وَابْنُ
ذِي النُّونِ يُلْقِمُهُ أَفْلَازَ كَبِدِهِ ، وَيَرْجُمُهُ بِسَيْدِهِ وَلَيْمَتِهِ ، وَادْفُونِشْ لَعَنَهُ اللَّهُ
لَا يَقْنَعُ مِنْهُ بِصَيْدِ الْعَنْقَاءِ ، وَلَا بِيَيْضِ الْأَنْوُقِ ، بَلْ يَكْلَفُهُ^(٥) إِحْضَارَ الْأَبْلَقِ

(٢) فِي الْأَصْلِ : أَخْشَاءَ .

(٤) لَعَلُّهَا : السُّجُونُ .

(١) فِي الْأَصْلِ : خَيْلًا .

(٣) فِي الْأَصْلِ : أَدْبَقَ .

(٥) فِي الْأَصْلِ : يَكْلَهُ .

العقوق وَيَسُومُهُ دَرَكُ الشَّمْسِ ، وَيَطْلُبُهُ بَرْدُ أَمَسٍ ^(١) . فَلَمَّا أَكَلَ الْإِنْفَاقُ ثَبَجَ ^(٢) مَالَهُ ، وَأَخَذَ الْخِنَاقُ بِكَظْمِ احْتِمَالِهِ ، وَأَحَسَّ الْعَدُوُّ الْمَشَاةُ بِذَلِكَ مِنْ حَالِهِ ، سَمَّا إِلَى مَعَاقِلِهِ الْمَنِيعةَ ، وَذَرَى أَمْلَاكِه الرَفِيعَةَ ، غَدَرَ الْأَنَامُ ، وَذُرُوبُ الْإِسْلَامِ ، فَمَارَاهَنَهُ مِنْهَا عَلَيْهِ غَلِقَ ، وَمَارَامَ أَخَذَهُ مِنْ يَدَيْهِ لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّى مُزِقَ .

فِرَارُ حَفِيدِ ابْنِ ذِي النُّونِ مِنْ طُلَيْطَلَةَ وَدُخُولُ الْمُتَوَكِّلِ

١٣

وَانْجَرَّتْ الْحَالُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَوْلَئِكَ الشُّيُوخِ الْمُخْرَجِينَ مِنَ الْمُطَبَّقِ بِمَقْدَارِ ^(٣) مَا رَقَعُوا خُرُوقَهُمْ ، وَجَمَعُوا فَرِيقَهُمْ ؛ فَلَمَّا اسْتَوْثَقَ أَمْرُهُمْ ، وَثَابَ إِلَيْهِمْ شَرُّهُمْ ، دَلَفُوا لِحَزْبِهِ الذَّنُونِي ^(٤) الْبَسِيسِ ، تَحْتَ إِحْدَى لِيَالِي جَدِيسٍ ^(٥) ؛ أَرْغَى عَلَيْهِمْ سَقَبُ ^(٦) السَّمَاءِ ، وَتَمَخَّضَتْ لَهُمْ بِالْدَاهِيَةِ الدَّهْيَاءُ ، وَرُؤُوسُهُمْ بِأَيْدِي الْوِلْدَانِ لَعِبَاءَ . وَأَتَى ابْنَ ذِي النُّونِ صَرِيحُهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فَصَادَفَ مِنْهُ رَأْيًا مَغْلُوبًا ، وَقَلْبًا مَنخُوبًا ، طَارَ بِهِ الذُّعْرُ فَقَرَّ وَدُونَهُ مِنْ عَبِيدِهِ أُسْدُ الشَّرَى ، وَالْأَسْوَارُ شَاخِخَةُ الذَّرَى ، كَأَنَّمَا نَاجَتْهُ الْقِتَالُ أَضْغَاثُ حُلْمِهِ ، أَوْ رَأَى وَجُوهَ الْأَقْتَالِ فِي وَجُوهِ حُرْمِهِ ، فَجَفَلَ ^(٧) كَالظَّلِيمِ ، لَا يَحْفِلُ بِالْعَارِ الْمُقِيمِ ، وَلَا يُصَيِّخُ إِلَى الصَّدِيقِ الْحَمِيمِ . حَدَّثَتْ أَنَّ زَوْجَهُ بِنْتَ الْمُظَفَّرِ بْنِ عَامِرٍ — طَرِيدَ جَدِّهِ كَانَ مِنْ بِلَنَسِيَّةٍ — ، وَابْنَتَهُ مِنْهَا تَبِعَتَاهُ يَوْمَئِذٍ رَاجِلَتَيْنِ نَيِّفًا عَلَى فَرَسَيْنِ ، حَتَّى أُدْرِكَتَا بِمَرْكَوبٍ ، وَقَدْ أَخَذَ الْجَهْدُ مِنْهُمَا بِأَوْفَرِ نَصِيبٍ . وَاجْتَمَعَ مَشِيخَةُ طُلَيْطَلَةَ بِفَنَاءِ الْقَصْرِ ، مُرْتَبِكَيْنِ بَيْنَ الْأَجَاجِ وَالذُّعْرِ ، عَادَتُهُمْ تَمَطَّاءُ بَزْعُمِهَا إِلَيْهِ ، وَخَاصَّتُهُمْ تَتَخَيَّلُ الْمُثُولَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهُمْ يَظُنُّونَهُ بِحَيْثُ يَرَى وَيَسْمَعُ ، وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُ سَيَفْعَلُ وَيَصْنَعُ .

١٠

١٥

- (١) فِي الْأَصْلِ : لَيْسَ .
(٢) فِي الْأَصْلِ : « ثَبَجَ » .
(٣) فِي الْأَصْلِ : بِمَقْدَامِ .
(٤) فِي الْأَصْلِ : الذَّنُونِي الْبَسِيسِ .
(٥) فِي الْأَصْلِ : حَدِيسِ .
(٦) فِي الْأَصْلِ : أَرْغَبَ عَلَيْهِمْ سَقَبُ .
(٧) فِي الْأَصْلِ : تَحَفَّلَ الظَّلِيمِ .

فوجدوه قد أذعن للدَّنيّة ، وخرجَ مِنْ بعضِ تلكَ الخارجِ الخفيّة ، ومشى القهقري ، قبلَ غيرِ وما جرى . فاستأسدتْ كلابُهُمْ لأكلِ لحمٍ ليسَ لهُ ناصر ، وهزجَ ذبابُهُمْ أثناءَ رَوْضٍ ليسَ [له] واردٌ ولا صادر . وألقوا^(١) يومئذٍ في تنّورٍ^(٢) الطاغية أذفونش مِنْ تلكَ الجواهر المكنونة ، والذخائر المصونة .

- وتلاحقَ بابنِ ذى النّونِ بقيّةُ سِرِّهِ المنفّر ، وفلّ عسكره الدُّبِر ، بحصن من حصونه . وأقامَ أهلُ طليطلةَ بعده أياماً ولا كالساعةِ المُملةِ نامَ راعيها ، وأكبتْ مراعيها ، يتهادونَ لحماً بينَ قديدٍ ومُعجّل ، ويرتمونَ بشحمٍ كهذاب الدَّمَقْسِ المقتل ، في هياطٍ ومياط ، ولَجَبٍ واختِلاط ، ليسَ عليهم أمير ، ولا فيهِم إلى الصّوابِ مُشير . وتشاوروا في أىِّ مُلوكِ الطوائفِ يُحكّمونه فيهِم ، ويلقونَ إليهِ بأيديهِم ، فطارطائُرُهُم ، واختلّفتَ بواطنُهُم وظواهرُهُم ، واشربَ مَنْ كانَ يَليهِم مِنْهُم لَماسِكَةً لم يُحكّموا إليها أسبابا ، وغنيمَةً لم يُوجفوا عليها خَيْلاً ولا رَكاباً^(٣) .
- ١٠

- وكانَ عندهم يومئذٍ أبو محمدٍ يوسفُ بنُ القَلاصِ البَطايوسيّ أحدُ عَفاريث الضلال ، وأكلةِ الأموال ، مِنْ رَجُلٍ أجراً خلقَ اللهُ على دِمٍ وهو أجبنُ^(٣) مِنْ صافِر ، وأجسرِهِم على رُكوبِ ثَبَجٍ^(٤) محرّمٍ وهو أضعفُ مِنْ لحظِ فاتِر ، نهبتَ تلكَ الفتنةُ على قَدَرِهِ ورفعَ عُذْمُ الرّجالِ صوتهَ بذكرِهِ ، فهبتَ ريحُهُ شمالاً وصَبَا ، واتَّخذَ سبيلَهُ في البرِّ والبحرِ عَجَباً . فعرضَ عليهم بِصاحِبِهِ المتوكِّلِ عُمَرَ بنِ المظفَرِ بنِ الأَفطس ، وأعربَ لَهُم عن لينِ مَكسَرِهِ ، وضيقِ
- ١٥

(١ — ١) في الأصل : « وألقوا يومئذٍ في سؤر » ولعل ما أثبتناه أقرب الاحتمالات .

(٢) في الأصل : ركبانا . (٣) في الأصل : أجس .

(٤) في الأصل : « تيج » .

(٥) في الأصل : بهت .

مَسَافَةٍ نَظَرِهِ ، وَاشْتَغَالِهِ بِاللَّذَاتِ عَنْ أَكْثَرِهِ ، فَقَالُوا بُرْدٌ كَبِيرٌ ، مَا أَشْبَهَ
سَعْدًا بِسَعْدٍ ! فَأَتَاهُ سَفِيرُهُمْ وَخَفَّ إِلَيْهِ عَيْرُهُمْ وَنَفِيرُهُمْ ، فَجَاءَهُمْ يَنْظَرُ مِنْ خَفَاءَ ،
وَيَمْشِي عَلَى اسْتَحْيَاءَ ، كَوَدَنًا سَامُوهُ خُطَّةَ سَبَاقٍ وَحُبَيْنَةً ^(١) أَقَامُوهَا عَلَى سَاقٍ .
فَدَخَلَ طَلِيْطَلَةً عَقِبَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ ، وَأَقَامَ عِنْدَهُمْ نَحْوًا مِنْ عَشْرَةِ أَشْهُرٍ ،
أَضَلَّ مِنْ يَدٍ فِي رَجَمٍ ، وَأَذَلَّ مِنْ لَحْمٍ عَلَى وَضَمٍ .

[و] قَدْ كَانَ ابْنُ ذِي النُّونِ حِينَ انْفَلَتَ مِنْ يَدِ الْمُقْتَنَصِ ، انْفِلَاتَ
الْحَمَامَةِ مِنَ الْقَفْصِ ، تَهَيَّأَ لَهُ دُخُولُ كُونَكَةٍ فِي خَبَرٍ طَوِيلٍ ، فَثَابَ إِلَيْهِ حِسَّهُ ،
وَرَجَعَتْ قَلِيلًا نَفْسُهُ ، وَرَاسَلَ الطَّاغِيَةَ أَذْفُونُشَ ، وَهُوَ بِحَيْثُ يَنْتَهزُ الْفُرْصَةَ ،
وَيَسْمَعُ الْقِصَّةَ . فذَكَرَهُ ابْنُ ذِي النُّونِ سَالِفَ عَهْدِهِ ، وَشَهِدَ عِنْدَهُ أَنْعَمَ جَدَّهُ ،
فَبِالزَّيَادِ الدُّنُونِيَّةِ — زَعَمُوا — وَرِيتُ نَارِهِ ، وَمِنَ التَّلَاعِ الْمَأْمُونِيَّةِ ^(٢) تَدَفَّقَ
تَيَّارُهُ ، أَيَّامَ كَانَ اسْمُ هَذَا الطَّاغِيَةِ نَحْمُولًا ^(٣) ، وَصَعْبُهُ ذُلُولًا ، بَتَغْلِبِ أَخَوِيهِ
شَانِجُهُ وَغَرَسِيَّةَ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَهَا طَرَفِي سِلْكِهِ مِنْ يَدَيْهِ ، فَأَوَاهُ الْمَأْمُونُ
ابْنَ ذِي النُّونِ وَنَصَرَهُ ، وَاسْتَقَلَّ بِسُلْطَانِ طَاغُوتِهِ حَتَّى أَظْهَرَهُ ^(٤) ، وَعِنْدَ اللَّهِ
جَزَاءُ مُوفُورٍ ، وَإِلَيْهِ مُنْقَلَبٌ وَمَصِيرٌ . فَلَبَّى دَعْوَاهُ ، وَسَمِعَ شِكْوَاهُ ، وَأَظْهَرَ
الْارْتِمَاضَ لِمَا عَزَّهُ وَعَرَاهُ . وَأَقْبَلَ مَعَهُ إِلَى طَلِيْطَلَةٍ بَرْدُ مَاءٍ بِمَاءٍ ، وَيُسِيرُ
حَسَنًا فِي ارْتِفَاءٍ ، يُورِدُ وَرْدًا إِلَيْهِ صَدْرُهُ ، وَيَحْلُبُ حَلَبًا لَهُ أَكْثَرُهُ .
وَالْمَتَوَكَّلُ بِهَا طَلِيْحُ جِفَانٍ ، طَرِيْحُ أَكْوَابٍ وَدِنَانٍ ، مُكَبَّبًا عَلَى قَمَشٍ مَا بَقِيَتْ
الْحُمْنَةُ ^(٥) ، وَتَجَافَتْ عَنْ انْتِهَابِهِ الْفِتْنَةُ ، مِنْ فَرَشٍ فَنَحْمٍ ، وَسُرْدَاقٍ ضَخْمٍ ، وَأَنْبِيَةٍ

(١) رَسْمُ الْكَلِمَةِ فِي الْأَصْلِ : « وَحُسْنُهُ » ، وَالْحُبَيْنَةُ دُوبِيَّةٌ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : الْمَأْمُونَةُ . (٣) فِي الْأَصْلِ : نَحْمُولًا .

(٤) فِي الْأَصْلِ : أَظْهَرَ .

(٥) رَسْمُ الْكَلِمَةِ فِي الْأَصْلِ : بَحْتُهُ ، وَلَعَلَّ الصَّوَابَ مَا أَتَيْنَاهُ .

وكتب ، وصعد من آلة الملك وصب ، حتى اجتمع عنده من خبث زبرتها ، وغشاء غمرتها مع ما أدبوا (١) له صدر مقدّمه من شحم سنامها ، وأفاضوا من قردها (٢) وسلامها ؛ مجلّة علمته الجلوس في الصدر ، وأرته الفرق بين الخل والخمر ، وأهل طليطلة الممتحنون في غمرتهم ساهون ، وعلى أعقابهم ينكصون ، يخوضون ويلعبون ، ويخرّبون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين .

خرج المتوكل من طليطلة ، ورجوع ابن ذي النون إليها

فلما تمكن المتوكل من الرّى والشّبع ، تذكّر عواقب الطمع ؛ ورأى أنّه إن زاد على ملء بطنه ، كان كالسراج المنغمس في دهنه ؛ فكايدهم بفراره ، وأجلى (٣) مبادراً إلى بطليوس دار قراره ، ينشد :

١٠ إن الله يُرْجِعُنِي مِنَ الْغَزْوِ لَا أَرَى وَإِنْ قُلَّ مَالِي طَالِبًا مَا وَرَائِيَا

ومن غريب تأويل الأحلام ، أنّ رجلاً رأى المتوكل قبل دخوله طليطلة بأعوام ، كأنه يأكل فيها طعاماً فيه سلق مع رجل يُسمّى يوسف ، ففسرها الأديب أبو عمر بن فتح المعروف بابن برلوضه ، وقال : إنّ المتوكل سيدخلها على يد رجل يُسمّى يوسف ، وينالان من أعمالها (٤) وذخائرها ، لكنهما يسلفان بالأسنة فيها ، ويقبّح الحديثُ عنهما ، فخرجت الرؤيا كما فسّر . ولما دخلها ١٥ وحصل إليه ما حصل فرّ وتركهم كالسفينتين خانتها الرّيح ، والجسد بان عنه الرّوح ، بين ناب الطاغية أدفونش وظفّره ، يقدح لهم نار الفتنة عن حَجَرِهِ ، ويرِيهم الموت في أهول صوره ، مُقسماً لا يبرح العرصة حتى يفي

(٢) في الأصل : « بردها » .

(٤) في الأصل : عمالها .

(١) في الأصل : أدابرا

(٣) في الأصل : وأجل .

لابنِ ذِي النُّونِ بَضْمَانِهِ ، وَيُكَافئُهُ عَلَى سَالِفِ إِحْسَانِهِ . وَكَانَ عَاقِدَهُ ابْنُ
 ذِي النُّونِ أَنَّهُ إِذَا ضَرَجَ قَذَاهَا ، وَأَمَاطَ أَذَاهَا ، وَاقْتَضَى دَيْنَهَا ^(١) ، خَلَّى بَيْنَهُ
 وَبَيْنَهَا . هَذَا [مَا] أَضْمَرَ ، فَأَمَّا الَّذِي أَظْهَرَ ، فَإِنَّهُ وَعَدَهُ أَداءَ جُمْلَةٍ مِنَ الْمَالِ
 لَا تَقِفُ بِهِ مُدَّةُ الْإِقْبَالِ ، وَلَا إِرخَاءُ الْحَالِ ، رَاهِنَهُ بِهَا أَبْنَاءَ الْأَمْجَادِ ، وَبَقَايَا مَعَاقِلِهِ
 الْأَفْرَادِ ، وَالْقَى أَهْلُ طُلَيْطَلَةَ بِأَيْدِي الصَّغَارِ ، عَلَى حِينِ أَيْقَنُوا بِالْبَوَارِ ، وَضَاقَتْ
 عَلَيْهِمُ أَنْشَوَةُ الْحِصَارِ . فَجَاءَ ابْنُ ذِي النُّونِ يَقْدُمُهُ أَدْفُونِشُ ، وَهُوَ يُظِرُّ مِنَ
 التَّزَامِ بِرَّهْ ، وَإِعْذَارِ نَصْرِهِ ، مَا بَهَرَ الْعُقُولَ ، وَكَثَّرَ الْقَالَ وَالْقِيلَ ، حَتَّى زَعَمُوا
 أَنَّهُ رَفَعَ صَوْتَهُ يَدْعُو إِلَيْهِ ، وَتَرَجَّلَ يَمْشِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَصَارَ أَعْجَبَ مَنْ تَوَرَّطَ
 فِي حَبَائِلِ كَيْدِهِ ، وَجَعَلَ الضَّرْعَمَ بَازِيًا لِيَصِيدَهُ . وَكَمْ رَامَ أَهْلُ طُلَيْطَلَةَ قَتْلَ
 ابْنِ ذِي النُّونِ فِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الْوَشَّالَاتِ ^(٢) مِرَارًا ، وَلَكِنَّهُ بَلَغَ مَدَاهُ ، وَكَرِهَ
 اللَّهُ لِقَاءَهُ فَأَبْقَاهُ ! وَكَانَتْ لِلَّهِ فِيهِ مَشِيئَةٌ أَمْضَاهَا ، وَقَضِيَّةٌ أَنْظَرَ لَهُ ^(٣) أَثْنَاهَا ،
 لِذَلِكَ مَا خَبَأَتْهُ صُرُوفُ الْأَيَّامِ ، وَسَلِمَ مِنَ الْحِمَامِ إِلَى الْحِمَامِ . فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ النَّحْرِ
 سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ ، نَهَدُوا لَهُ فِي عَدَدِهِمْ وَعَدِيدِهِمْ ، وَزَحَفُوا إِلَيْهِ بِحَدِيدِهِمْ وَحَدِيدِهِمْ ،
 فَتَجَاوَلُوا عَامَّةَ يَوْمِهِمْ فِي شَوَارِعِهَا ، يَتَرَامُونَ بِدَوَامِغِ الْحَتُوفِ وَقَوَارِعِهَا ؛
 فَأَجَلَّتْ الْحَرْبُ عَنْهُمْ قَدْ شَرِقُوا بَغْصَتَهَا ، وَخَلُّوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَرَصَتِهَا . وَتَسَاقَطُوا
 عَلَى أَدْفُونِشَ يَشْكُونُ ابْنَ ذِي النُّونِ إِلَيْهِ ، وَيَسْتَصِرُّونَهُ عَلَيْهِ . فَرَمَاهُمْ بِجَجَرٍ ،
 وَلَبَسَ لَهُمْ جِلْدَةَ نَمْرٍ . فَتَفَرَّقُوا بِكُلِّ سَبِيلٍ ، وَطَارُوا عَلَى كُلِّ صَعْبٍ وَذَلُولٍ ،
 حَتَّى مَاتَ ابْنُ مُغِيثٍ كَبِيرُهُم الَّذِي عَلَّمَهُم السِّحْرَ ، وَطَاغُوتُهُمُ الَّذِي شَرَعَ لَهُمْ

(١) فِي الْأَصْلِ : دَيْنَهَا

(٢) فِي الْأَصْلِ : الْإِسْلَامَاتِ ، وَمَا أَثْبَتْنَاهُ أَقْرَبُ الْإِحْتِمَالَاتِ

(٣) فِي الْأَصْلِ : بِهِ .

الكُفْر ، « بشي ممول » ^(١) من أرض قشتيلة بين الدنان والصُلبان ، فسار
 وإلى الله إياهُ ، وعليه حسابهُ . ورجعَ بنوه أخيراً فانتزوا بمدينة تجريط وانحسروا
 إليه ذؤبانُ الوقائع وأذبةُ المطامع ، فكانت بين ابنِ ذِي النُّون وبينهم أيامٌ
 عدَّتْهم له عدداً ، وساقَتْهم إليه ورذاً ، حتى بادَ مجهورُهم ، وتلاحقت أعجازُهم
 وصُدورُهم . وبلغَ ابنُ ذِي النُّون من هَدمِ رُبوعِهم ، وصلبِهم على جُذوعِهم ،
 ما يُبرِدُ صدرَ الموتور ، ويُضحكُ سنَّ الموتِ المبير .

بَقِيَّةُ الْحَدِيثِ عَنْ شُئُونِ ابْنِ ذِي النُّونِ بِطَلِيْطَلَةَ

وإسلامها لظهير الطاغية أدفونش ، وما انطوى في ذلك

من خبر ، والتف به من قبيح أثر

- ١٠ قال ابنُ بَسَّام : وأخذَ ابنُ ذِي النُّونِ أَهْلَ طَلِيْطَلَةَ لِحِينِ استقرارِهِ فيها
 بِفَكِّ تِلْكَ المَعَاقِلِ ، وآداءِ ما كانَ ضَمِيناً لأَدْفُونشٍ مِنَ الأَمْوَالِ الجَلَائِلِ ؛
 فَضَرَبَ مُدَبِّرَهُمْ بِمُقْبِلِهِمْ ، وَوَلَّى آخِرَهُمْ كَيْبَرُ أَوَّلِهِمْ ؛ حَتَّى طَمِعَ فَقِيرُهُمْ فِي
 غَنِيِّهِمْ ، وَاجْتَرَأَ ضَعِيفُهُمْ عَلَى قَوِيِّهِمْ ، وَأَصْبَحَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَرْتَاعُ مِنْ ظِلِّهِ ،
 وَيَلْتَفِتُ وَإِنَّمَا هُوَ بَيْنَ أَهْلِهِ . وَأَنكَدَرَ أَدْفُونشٌ عَلَى طَلِيْطَلَةَ يَنْتَسِفُ مِرَاقِقَهَا ،
 وَيَقْعِدُ لَجَالِيَةِ أَهْلِهَا ثَنَائِيهَا وَمَضَائِقَهَا ، يَأْسِرُ وَيَقْتُلُ ، وَيَحْرِقُ وَيَعْتَلِلُ . وَسَمَّا
 السُّحْرَ ؛ وَتَفَاقَمَ الأَمْرَ ، وَأُنْكَرَتِ المَوَارِدُ وَالْمَصَادِرُ ، وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ .
 وَكَانَ مِنْ غَرِيبٍ مَا اتَّفَقَ ، وَعَجِيبٍ مَا انْتَضَمَ مِنْ ذَلِكَ وَاتَّسَقَ ، أَنَّ البَرَّ كَانَ
 عَلَى زَعَمِهِمْ يَمْكُثُ عِنْدَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ سَنَةً لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ طُولُ القِدَمِ ،
 وَلَا يُخَافُ عَلَيْهِ آفَةُ العَدَمِ ، وَلَمْ يُرْفَعْ مُدَّةُ الفِتْنَةِ مِنَ البَيَادِرِ — عَلَى تَعَذُّرِ بَذَرِهِ ،

(١) كذا رسم هذا البلد في النسخة وهو غير واضح ، و« قشتيلة » تقرأ في الأصل « شتيلة » .

وضيق الحيلة عن محاولة شيء من أمره — إلا وقد بدا البلي عليه، وأسْرَعَتْ
 الآفةُ إليه، أمرٌ من الله لم يكن له مؤدٌّ، ولا منه بُدٌّ. ولَمَّا شَمَلَ البَلاءُ،
 وفَدَحَتْ البُأساءُ، وأتى على أكثر أهل طُلَيْطَلَةَ القتلُ والجلَاءُ، وقَضَى
 الطاغيةُ أدفونش — قصمه الله — قضاءه من استباحةِ الحريمِ، واستئصالِ
 الراحِلِ والمقيمِ، وإتلافِ الموجودِ والمعدومِ، أسْرَى تحت الليلِ، في قِطْعَةٍ غَيْرِ
 وافرةٍ من الخيلِ، فنَزَلَ المُنْيَةُ المَسُورَةَ^(١) التي كان للمأمون يُحْشَدُ إليها كلُّ
 حُسْنٍ، ويُبَاهَى بها جَنَّةُ عَدْنٍ، وَيَقْلِبُ الجَوَرُ^(٢) (؟) في جَيْدِ بنيانها، والإشادةِ
 بشانها، ظَهَرَ لِبَطْنٍ، فاتخذَ عُرُوشَها مَرَابِطَ لأفراسِهِ، وإيوانَها مَلَاعِبَ لَأَرَاذِلِتهِ
 وأرجاسِهِ. وهَجَمَ الشتاءُ فَمَنَعَهُ من مِيرَةٍ تأتيه، أو مَدَدٍ يُوافِيهِ، فأقامَ نَيْفًا على
 شَهرَيْنِ لا يَسِيغُ الشَّرَابُ^(٣)، ولا يَمْلِكُ الجَمْعُ ولا الذَّهابُ، ليسَ له شَوْكَةٌ
 إِلَّا ظِلُّ لَوَائِهِ، ولا مَدَدٌ إِلَّا ضَعْفُ مَنْ كانَ بِأَزَائِهِ. ولولا اهْتِبَالُ مُلُوكِ
 الطوائِفِ بِإقامةِ مَرافِقِهِ، وإصفاؤِهِم إلى هَدَرِ شَقَاشِقِهِ، لطارَ شَعاعا، وذهبَ
 ضِياعا. وطَفِقَ أَهْلُ طُلَيْطَلَةَ يَسْتَصِرُّ خُونَ مَنْ حَوَّلَهُمْ، وُبعِمِلُونِ في ذلكَ
 فَعَلَمَهُمْ وَقَوَّلَهُمْ، فَيَمَكُّفُونُ على طَلَلٍ بائِدٍ، وَيَضْرِبُونَ في حَدِيدٍ بارِدٍ. فلمَّا نَأَى
 الشتاءُ بِجَانِبِهِ، وَخَلَّى^(٤) بَيْنَ كُلِّ ذَاهِبٍ وَمَذهَبِهِ؛ سألَ بأهلِ طُلَيْطَلَةَ سَيْلُ
 لا يَقُومُ لَهُ سَهْلٌ ولا وَعرٌ، وطلَعَ عليهم لَيْلٌ لا يَلُوحُ لهم فيه صُبْحٌ ولا فَجْرٌ.
 واضطُرَّ مَنْ أخطأتهِ الحَوَادِثُ، وتخطَّتهِ تلكَ الخُطُوبُ السَّكُورِثُ، من أثلها^(٥)
 ضيقُ الحِصارِ، وكَلَبُ البَوارِ، وإبطاءُ المَرافِقِ والأَنصارِ، إلى مُداخلةِ الطاغيةِ
 أدفونش، فشرَّعُوا في ذلكَ غيرَ مُظهِرينَ للاستِسلامِ، ولا مُتَبَرِّئينَ مِنَ الصُّبْرِ

(٢) كَذَا في الأصل .

(١) في الأصل : المصورة .

(٤ — ٤) في الأصل : وحل بين كان

(٣) في الأصل : التراب

(٥) كَذَا في الأصل ولعلها : « من شمله » أو ما في معناها

- عَلَى ضَنْكِ ذَلِكَ الْمُقَامِ ، طَمَعًا فِي أَنْ يُغْرَوْهُ وَلَوْ بِإِغْلَاءِ سَوْمٍ ، وَيَخْدَعُوهُ ^(١) ،
 عَلَى أَذْمَاءِ نَفْسِهِمْ وَلَوْ بِبِيضِ يَوْمٍ ، إِشَارَةَ الْغَرِيقِ إِلَى السَّاحِلِ ، وَاسْتِرَاحَةَ
 الْمُحْتَضَرِّ إِلَى الطَّيِّبِ الْجَاهِلِ ! فَأَبَى أَدْفُونَشُ إِلَّا عَرَصَةَ الدَّارِ ، وَأُمَّ الْأَوْطَارِ ،
 وَلَجَأًا بَيْنَ التَّمَادِي وَالِاسْتِمْرَارِ ، لَعَلَّهُ أَيْنَ يَنْتَهَى طَلَقُهُمْ ، وَتَقْدِيرُهُ ^(٢) لَمَّا
 عَسَى أَنْ يَفِيَّ بِهِ رَمَقُهُمْ . نَخْرَجَ مِنْ أَعْيَانِهِمْ جُمْلَةً إِلَى مَضْرِبِ أَدْفُونَشِ فِي
 بَعْضِ تِلْكَ الْأَيَّامِ ، وَقَدْ ضَاقَ الْجَمَالُ ، وَتَكَلَّمْتَ الْأَجَالَ ، وَأَقْبَلْتَ الْحُتُوفُ
 تَحْتَالِ ^(٣) ، فَقَامَ الْحُجَابُ دُونَهُ ، وَقَالُوا : هُوَ نَائِمٌ فَكَيْفَ تُوقِظُونَهُ ؟ فَعَدَلُوا إِلَى
 مَضْرِبِ شِشْتَنْدٍ ، سِرَّةِ ^(٤) الْعَتِيدِ ، وَشَيْطَانِهِ الْمَرِيدِ ، وَهَامَانِهِ الَّذِي أَوْقَدَ لَهُ عَلَى
 الطَّيْنِ ، وَعَلَّمَهُ الدَّفْعَ بِالشَّكِّ فِي صَدْرِ الْيَقِينِ ، أَحَدِ أَعْلَاجِ ابْنِ عَبَّادٍ كَانَ ،
 ١٠ مِنْ رَجُلٍ مُتَوَقِّدٍ جَمْرَةَ الذِّكَاءِ ، بَعِيدِ الْمَذْهَبِ بَيْنَ الْجُرَاةِ وَالنَّكْرَاءِ ، سَفَرٍ بَيْنَ الْمُعْتَصِدِ
 وَالطَّاعِيَةِ فَرْدِ لَنْدٍ ، فَعَقَدَ وَحَلَّ ، وَنَهَضَ بِمَا حَمَلَ مِنْ ذَلِكَ وَاسْتَقَلَّ . ثُمَّ خَافَ
 الْمُعْتَصِدَ عَلَى نَفْسِهِ ، فَزَرَعَ بِهِ عِرْقُ اللَّوْمِ إِلَى الْمَقَرِّ الْمَذْمُومِ . وَاسْتَقَرَّتْ قَدَمُهُ
 بِجَلِّيَّةٍ ، فَاضْطَلَعَ بِالْثُرُوبِ وَالشُّغُورِ ، وَغَلَبَ عَلَى سَائِرِ السِّيَاسَةِ وَالتَّدْبِيرِ . وَصَارَ
 بَعْدَ قُصَارَى مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بِالْجَزِيرَةِ نَظْرَةً مِنْ اهْتِمَالِهِ ، وَأَدْنَى خَطَرَةٍ مِنْ بَالِهِ .
 ١٥ فَأَدْخَلَ عَلَى أَدْفُونَشِ يَوْمئِذٍ مِنْهُمْ جَمَاعَةً فَوَجَدُوهُ يَمْسَحُ الْكَرَى مِنْ عَيْنَيْهِ ، نَائِرَ
 الرَّأْسِ خَبِيثِ النَّفْسِ ، وَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضَعُ ثُبَامَةَ رَأْسِهِ ، فَمَاسُوا
 ذَفَرَ أَطْمَارِهِ وَدَرَنَ أَظْفَارِهِ . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِ كَرِيهِ ، وَلَحِظَ لَا يَشْكُونُ أَنَّ
 الشَّرْفِيَّةَ ، وَقَالَ لَهُمْ : إِلَى مَتَى تَتَخَادَعُونَ ، وَبِأَيِّ شَيْءٍ تَطْمَعُونَ ؟ قَالُوا بِنَا رَغِيَّةَ ،

(١) فِي الْأَصْلِ : وَيَخْدَعُونَهُ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : وَتَقْدِيرُهُمْ .

(٣) فِي الْأَصْلِ : تَحْتَالِ .

(٤) فِي الْأَصْلِ : شَرَهُ .

[ولنا] في فلان وفلان أُمْنِيَّة ، وسَمَّوْا له بعضَ مُلُوكِ الطوائف ، فَصَفَّقَ بِيَدَيْهِ ، وَتَهَافَّتَ حَتَّى فَحَصَ بَرَجْلِيَّه ، ثُمَّ قَالَ : أَيْنَ رُسُلُ ابْنِ عَبَّاد ؟ فَجِئْتُ بِهِمْ يَرْفُلُونَ فِي ثِيَابِ الْخَنَاعَةِ ، وَيَنْدَسُونَ بِالسِّنَةِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ . فَقَالَ لَهُمْ : مُذْ كَمْ تَحْمُومُونَ عَلَيَّ ، وَتَرْوَمُونَ الْوُصُولَ إِلَيَّ ؟ وَمَتَى عَهْدُكُمْ بِفُلَانٍ ، وَأَيْنَ مَا جِئْتُمْ بِهِ لَا كُنْتُمْ وَلَا كَانَ ؟ فَجَاؤْا بِجَمَلَةٍ مِيرَةٍ ، وَأَحْضَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ كُلَّ ذَخِيرَةٍ خَطِيرَةٍ . ثُمَّ مَازَادَ عَلَى أَنْ رَ كُلَّ ذَلِكَ بَرَجْلِيَّه ، وَأَمَرَ بِانْتِهَابِهِ كُلَّهُ ؛ وَلَمْ يَبْقَ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الطوائف إِلَّا أَحْضَرَ يَوْمَئِذٍ رُسُلَهُ ، وَكَانَتْ حَالُهُ حَالِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ . وَجَعَلَ أَعْلَاجَهُ يَدْفَعُونَ فِي ظُهُورِهِمْ ، وَأَهْلُ طُلَيْطَلَةَ يَعْجَبُونَ مِنْ ذَلِكَ مَقَامِهِمْ وَمَصِيرِهِمْ ، فَخَرَجَ مَشِيئًا خَتْمًا مِنْ عِنْدِهِ وَقَدْ سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَطَمِعَ كُلُّ شَيْءٍ فِيهِمْ ، وَخَلَوْا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَلَدِ ، لثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ . وَدَخَلَ طُلَيْطَلَةُ عَلَى حُكْمِهِ ، وَاثْبَتَ فِي عَرَصَتِهَا قَدَمَ ظُلْمِهِ ، حَكَمَ مِنَ اللَّهِ ، سَبَقَ بِهِ الْقَدَرُ ، فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ وَزَرًا ، وَخَرَجَ ابْنُ ذِي النُّونِ خَائِبًا مِمَّا تَمَنَّاهُ ، شَرِيقًا^(١) بِعُقْبَى مَا جَنَاهُ ، وَالْأَرْضُ تَصْجُجُ مِنْ مَقَامِهِ ، وَتَسْتَأْذِنُ فِي انْتِقَامِهِ ، وَالسَّمَاءُ تَوَدُّ لَوْ لَمْ تُطْلِعْ نَجْمًا إِلَّا كَدَّرَتْهُ عَلَيْهِ حَتْفًا مُبِيدًا ، وَلَمْ تُنْشِ عَارِضًا إِلَّا طَرَّتْهُ فِيهِ عَذَابًا شَدِيدًا . وَاسْتَقَرَّ بِمَحَلَّةٍ^(٢) أَدْفُونُشْ خُفُورَ الذَّمَّةِ ، مُذَالِ الْحُرْمَةِ ، لَيْسَ دُونَهُ بَابٌ ، وَلَا دُونَ حُرْمَتِهِ سِتْرٌ وَلَا حِجَابٌ . حَدَّثَنِي مَنْ رَأَاهُ يَوْمَئِذٍ بِتِلْكَ الْحَالِ وَبِيَدِهِ اصْطِرْلَابٌ يَرْصُدُ فِيهِ أَيْ وَقْتُ يَرَحُلُ ، وَعَلَى أَيْ شَيْءٍ يُعَوَّلُ ، وَأَيْ سَبِيلٍ يَتَمَثَّلُ ، وَقَدْ أَطَافَ بِهِ النَّصَارَى وَالْمُسْلِمُونَ ، أَوْلَئِكَ يَضْحَكُونَ مِنْ فِعْلِهِ ، وَهَؤُلَاءِ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ جَهْلِهِ .

وَعَتَا الطَّاغِيَةُ أَدْفُونُشْ — قَصَمَهُ اللَّهُ — لَحِينَ اسْتَقْرَارِهِ بِطُلَيْطَلَةَ وَاسْتَقَرَّ كَبْرُ

وَأَخْلَ بِمُلُوكِ الطَّوَائِفِ فِي الْجَزِيرَةِ وَقَصَّرَ ، وَأَخَذَ يَتَجَنَّى وَيَتَعَتَّبُ ، وَطَفِقَ
يَتَشَوَّفُ إِلَى انْتِزَاعِ سُلْطَانِهِمْ وَالْفِرَاقِ مِنْ شَأْنِهِمْ وَيَتَسَبَّبُ ، وَرَأَى أَنَّهُمْ قَدْ
وَقَفُوا دُونَ مَدَاهِ ، وَدَخَلُوا بِأَجْمَعِهِمْ تَحْتَ عَصَاهُ .

- وَوَلَّى شِشْنَنْدُ الْمَذْكُورَ تَدْبِيرَ طَلِيْطَلَةَ ، فَهَوَّنَ عَلَيْهِمْ ^(١) الرِّزْيَةَ ، وَحَبَّبَ
إِلَيْهِمْ إِعْطَاءَ الدَّيْنَةِ ، بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ سُهولةٍ مَرَامِهِ ، وَبَسَطَ فِيهِمْ مِنْ عَدَلِ أَحْكَامِهِ ،
حَتَّى اسْتَمَالَ قُلُوبَ أَعْلَامِهَا ، وَجَنَّبَ النَّظَرَ إِلَى عَامَةِ طَعَامِهَا ، وَفَجَأَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ
اِخْتِلَافِ أَهْوَائِهِمْ ، وَتَنَصَّرَ سُنْهَائِهِمْ ، مَا ضَاقَتْ عَنْهُ صُدُورُ الْأَيَّامِ ، وَاضْطَرَبَتْ
لَهُ قَوَاعِدُ الْإِسْلَامِ . وَقَدْ كَانَ مِنْ رَأْيِ شِشْنَنْدِ الْإِبْقَاءِ عَلَى أَهْلِ طَلِيْطَلَةَ ، وَقَالَ
لَأَدْفُونُش : لَسْتُ تَجِدُ بَعْدَ تَعْمُرِهَا ، وَلَا تَظْفَرُ بِعَامِلٍ أَطْوَعَ مِنْ ابْنِ ذِي الثَّنُونِ
يُدَبِّرُهَا . فَأَبَى أَدْفُونُش إِلَّا لَجَاجًا فِي سَفْهِهِ ، وَانْحِطَاطًا فِي حَبْلِ شَرِّهِ . فَلَمَّا
تَهَيَّأَ لَهُ مُلْكُهَا ، وَانْتَثَرَ فِي يَدَيْهِ سِلَاحُهَا ، قَالَ لَهُ شِشْنَنْدُ : اخْفِضْ جَنَاحَكَ
لَأَهْلِهَا ، وَاسْتَجْلِبْ جَالِيَتَهَا بِمَا تَمُدُّ مِنْ ظِلِّهَا ، وَلَا تُبْلِحْ عَلَى مُلُوكِ الْجَزِيرَةِ
فَلَسْتُ تَسْتَغْنِي عَنْهُمْ ، وَلَا تَجِدُ عُمَّالًا أَطْوَعَ مِنْهُمْ ، فَإِنَّكَ إِنْ أَيْتَ إِلَّا الْإِلْحَاحَ
عَلَيْهِمْ ، وَالتَّسَرُّعَ بِالْمَكْرُوهِ إِلَيْهِمْ ، نَفَرْتَهُمْ عَنْ ذِرَاكَ ، وَأَحْوَجْتَهُمْ إِلَى مُدَاخَلَةِ
سِوَاكَ . فَكَانَ مِنْ صُنْعِ اللَّهِ أَنْ اتَّهَمَ أَدْفُونُش يَوْمئِذٍ مَنَحَاهُ ، وَخَالَفَهُ إِلَى
رُكُوبِ هَوَاهُ ، وَشَرَعَ لَوْقَتِهِ فِي تَغْيِيرِ الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ بِهَا ، خَاتِمَةَ النَّوَائِبِ ، وَنَكْبَةَ
الشَّاهِدِ وَالْغَائِبِ . فَقَالَ لَهُ شِشْنَنْدُ : إِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ أَوْغَرْتَ الصُّدُورَ ، وَابْطَلْتَ
التَّدْبِيرَ ، وَسَكَنْتَ ^(٢) مَنْ نَشِطَ ، وَقَبِضْتَ مَنْ انْبَسَطَ ، فَشَمَخَ أَدْفُونُش — لَعْنَهُ
اللَّهُ — بِأَنْفِهِ ، وَثَنَى مِنْ عِطْفِهِ ، وَأَصْغَى إِلَى طَنَانَةِ جُنُونِهِ وَسَخْفِهِ ، وَأَمَرَ

(١) فِي الْأَصْلِ : عَلَيْهِ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : سَلَكْتَ .

وسعه

بتغيير المسجد الجامع يوم [(١) لربيع الأول سنة ثمان وتسعين
وأربعمائة . وحدثني مَنْ شَهِدَ طَوَّاعِيَّتَهُ تَبَدُّدَهُ فِي يَوْمِ أَعْمَى الْبَصَائِرِ وَالْأَبْصَارِ
مَنْظَرَهُ ، وَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا الشَّيْخُ الْأَسْتَاذُ الْمَغَامِي آخِرُ مَنْ صَدَرَ عَنْهُ ، وَاعْتَمَدَهُ
فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِيَتَزَوَّدَ مِنْهُ ، وَقَدْ أَطَافَ بِهِ مَرَدَّةُ عِفَارِيَّتِهِ ، وَسَرَّعَانُ طَوَّاعِيَّتِهِ ،
وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَحَدُ التَّلَامِذَةِ يَقْرَأُ ، فَكَلَّمَا قَالُوا لَهُ عَجَّلْ ، أَشَارَ هُوَ إِلَى تَلْمِيزِهِ
بِأَنَّهُ أَكْمَلُ ، ثُمَّ قَامَ مَا طَاشَ وَلَا تَهَيَّبَ ، فَسَجَدَ بِهِ وَاقْتَرَبَ ، وَبَكَى عَلَيْهِ
مَلِيًّا وَانْتَحَبَ ، وَالنَّصَارَى يُعْظَمُونَ شَانَهُ ، وَيَهَابُونَ مَكَانَهُ ، لَمْ تَمْتَدَّ إِلَيْهِ يَدٌ ،
وَلَا عَرَضَ لَهُ بِمَكْرُوهِ أَحَدٍ . وَقَدْ حَدَّثْتُ أَنَّ شَيْعَةَ أَدْفُونَش — لَعَنَهُ اللَّهُ —
وَبَدَّدَهَا — أَشَارُوا عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ بِلِبْسِ التَّاجِ ، وَزَيَّنُوا لَهُ زِيَّ مَنْ سَلَفَ بِالْجَزِيرَةِ
قَبْلَ فَتْحِ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهَا مِنْ أَعْلَاجٍ ، فَقَالَ : لَا ، حَتَّى أَطَأَ ذِرْوَةَ الْمُلْكِ ، وَآخَذَ
قُرْطُبَتَهُمْ وَاسِطَةَ السَّلَاقِ . وَكَانَ أَعَدَّ لِمَسْجِدِهَا الْجَامِعِ — حَمَى اللَّهُ سَاحَتَهُ —
مِنَ الْخُطُوبِ الرُّوَائِعِ — نَاقُوسًا تَأْتِقُ فِي إِبْدَاعِهِ ، وَتَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي اسْتِنْبَاطِهِ
وَإِخْتِرَاعِهِ . فَالْحَمْدُ لِلَّهِ مُوهِنِ أَيْدِهِ ، وَمُبْطِلِ كَيْدِهِ ، وَجَزَى اللَّهُ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ،
وَنَاصِرَ الدِّينِ ، أَبَا يَعْقُوبَ يُوسُفَ بْنَ تَاشَفِينَ ، أَفْضَلَ جَزَاءَ الْحَسَنِينَ ، بِمَا
بَلَّ مِنْ رِمَاقٍ ، وَنَفَسَ مِنْ خِنَاقٍ ، وَوَصَلَ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ مِنْ حَبْلٍ ، وَتَجَشَّمَ
إِلَى تَلْبِيَةِ دُعَائِهَا وَاسْتِنْقَازِ مَا بِهَا ، مِنْ حَزَنِ وَسَهْلٍ ، حَتَّى [ثَلَّ] (٢) عَرُوشَ
الْمُشْرِكِينَ ، وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

فصل في ذكر الأديب الكامل أبي عبد الله محمد بن شرف
وسياقة جملة وافرة من نظمهِ وثرهِ

- قال ابن بسام : كان أبو عبد الله بن شرف القيرواني ، من فرسان هذا
الشان ، وأحد من نظم قلائد الآداب ، وجمع أشات الصواب ، وتلاعب
بالمنظوم والموزون [تلأعب] ^(١) الرياح بأعطاف الغصون ، وبينه وبين
أبي علي بن رشيقي ماج تجر البراعة ودام ، ورجع نجم هذه الصناعة واستقام ،
وذهباً من المناقضة مذهباً تنازعاه شراً طويلاً ، وخلداه ذكراً محمولا ، واحتملاه
— إن لم يسمح الله — وزراً ثقيلاً . وكان أبو علي أوسعهما نفساً ، وأقربهما
ملتصماً ، ولابن شرف أصالة منزعه ، وجلالة مقطعه ، ومتانة لفظه ،
وسعة حفظه ، فسمع بشعره ملآن من وعوعة وجفجفة ، ولكن ما أبعد
ما يرومه وأبدعه ! وسال سئل فتنه القيروان ، اللأعب بأحرارها ، المعفى
على آثارها ، فتردد على ملوك الطوائف بالأندلس ، بعد مقارعة أهوال ،
ومباشرة خطوب طوال ، وقد نبت شفرته ، وطفئت جمرته . وقد قلت فيما
تقدم إنه انتحى منحى القسطل في شكوى الزمن والحديث عن الفتن .
كان معه كمن تصدى الرياح بجناح ، وقابل الصباح بمصباح . واستقر أخيراً
عند المأمون بن ذي النون ، فعليه خلع آخر لبؤسه ، ونثر بقيّة كيسه .
وكانت لعباد همة في اصطحاب الأحرار ، واستجلاب ذوى الأخطار ، ينصب
لذلك الحباثل ، ويعمل فيه الحق والباطل ، حتى إذا عشوا إلى سرجه ، واغترشوا
بزجره ، سامهم رد قبئس ^(٢) على أبيه ، وأخذهم بالسعاية بين الفرق وأخيه ،

(١) سقط بغير بياض في الأصل . (٢) في الأصل : رد أبي قبيس على أبيه .

فَمَنْ أَعْيَاهُ مِنْهُمْ رُكُوبُ الصَّعَابِ ، وَعَظَّةُ التَّقَلُّبِ بَيْنَ الْمَضَايِقِ وَالرَّحَابِ ، عَزَّه
فِي الْخِطَابِ ، وَأَطَاعَ بِهِ سُلْطَانَ الْإِرْتِيَابِ ، « أَيْمِسْكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي
الثَّرَابِ » ؟ ! وقد ذُكِرْتُ فِي أَخْبَارِ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ الْكَاتِبِ أَنَّهُ انْسَلَّ مِنْ يَدِ عَبَّادٍ
انْسِلَالَ الطَّيْفِ ، وَنَجَا مِنْهُ وَاسْأَلَهُ كَيْفَ .

وَكَانَ ابْنُ شَرْفٍ هَذَا مِمَّنْ فَهِمَ مَنَاحَهُ ، وَصَمَّ عَنْ رُقَاهُ ، فَلَمْ يَجْتَمِعْ مَعَ
عَبَّادٍ فِي صَعِيدٍ ، وَلَا أَهْدَى لَهُ السَّلَامَ إِلَّا مِنْ بَعِيدٍ . وَسَتَأْتِي أَخْبَارُهُ مَعَهُ وَمَعَ
سِوَاهُ ، مُحَرَّرَةَ النَّقْدِ ، مُقَدَّرَةَ السَّرْدِ . وَلَأَبَى عَبْدُ اللَّهِ عِدَّةُ تَوَالِيفَ أَفَاضَهَا
بِحَارًا ، وَأَطْلَعَهَا شُمُوسًا وَأَقْمَارًا ، مِنْهَا كِتَابُهُ الْمَرْسُومُ « بِأَعْلَامِ الْكَلَامِ »
وَكِتَابُ « أَبْكَارِ الْأَفْكَارِ » وَقَلَبَ لَهُ هَذِهِ التَّرْجُمَةَ بِإِشْبِيلِيَّةٍ بَعْضُ الْوُزَرَاءِ
الْكَتَّابِ . فَبَاءَ فِي ذَلِكَ بِالْعَجَبِ الْعُجَابِ ، وَقَدْ أَثْبَتُ فِي هَذَا الْفَصْلِ مِنْ كَلَامِ
ابْنِ شَرْفٍ مَا يَشْهَدُ بِذِكَاثِهِ ، وَيُغْنِي عَنْ إِطْرَائِهِ .

جَمَلَةٌ مِنْ نَثَرِهِ ، مَعَ مَا يَتَشَبَّثُ بِهِ مِنْ شِعْرِهِ :

بَلَّغْنِي أَنَّهُ اسْتَنْهَضَ صَاحِبَهُ ابْنَ رَشِيقٍ — مَعَ مُنَافَرَةٍ كَانَتْ بَيْنَهُمَا — فِي
أَنْ يَجْتَمِعَ الْعَدَوَانُ بِالطَّرِيقِ ، وَيَجُوزَا مَعًا إِلَى الْأَنْدَلُسِ . فَأَنْشَدَهُ ابْنُ رَشِيقٍ :

مِمَّا يُبْغِضُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ سَمَاعُ مُقْتَدِرٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدِ
أَلْقَابُ مَمْلُوكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحَ صُورَةِ الْأَسَدِ

فَأَنْشَدَ ابْنُ شَرْفٍ :

إِنْ تَرَمِكَ الْغُرَبَةُ فِي مَعْشَرٍ قَدْ جُبِلَ الطَّبَعُ عَلَى بُغْضِهِمْ
فَدَارِهِمْ مَا دُمْتَ فِي دَارِهِمْ وَأَرْضِهِمْ مَا دُمْتَ فِي أَرْضِهِمْ

وَتَصَرَّفَ ابْنُ شَرْفٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى فَقَالَ :

يا خائفًا من مَعَشَرٍ لا يُصْطَلَى بنارِهِمْ
..... (١)

أوترَمَ مِنْ أَحْجارِهِمْ وَأَنْتَ فِي أَحْجارِهِمْ
فما بَقِيتَ جَارَهُمْ ففِي هَواهُمُ جَارِهِمْ
وَأَرْضِهِمْ فِي أَرْضِهِمْ وَدارِهِمْ فِي دارِهِمْ

وكان أول ما بعث إلى المعتضد بإشبيلية خمس قصائد من شعره مع رقعة خاطب بها وزيره أبا الوليد بن زيدون ، يقول في فصل منها :

الآدابُ — أعزك الله — لأربابها ، كالحارمِ لِنَوى أنسابها ، تُبَدَى
الْبِنْتُ زِينَتُهَا لَأَيِّهَا ، وَتَرَفُ الْأَخْتُ لِأَخِيهَا ، وَلِمَنْ كَانَ لَهُ فِي الْمَحْرَمِ شَبِيهَا ،
وكذلك حكمُ ذَوِي الآدابِ فيها ، يرفعون بينهم حُجُبَ التَّحْفِظِ بِيَدِ الاسترسال ،
وَيَدْفَعُونَ سِتْرَ التَّقْبِضِ بِأَكْفِ الْبِشْرِ وَالْإِقْبَالِ . وقد رفعتُ إلى حضرته الرفيعة
خمسَ أبقارِ عُرب ، تَخْدِمُهُنَّ وَلِيدَةٌ ذَاتُ حُسْنٍ وَأَدَبٍ ، خَصَصْتُ بِالْخَمْسِ
الْفَرائضَ ^(٢) خَيْرَ الْمُلُوكِ ، وَبِالْوَلِيدَةِ بَرَّ الْحَرَّ الْمُلُوكِ . وَهُنَّ وَإِنْ زِدْنَ عَلَى أَرْبَعِ
الشَّرْعِ وَاحِدَةً ، فَلَيْسَتْ فِي دِينِ الشَّعْرِ بِزَائِدَةٍ ؛ وَلَمَّا جازَ أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعِ
لِخَيْرِ الْأَنامِ ، اقْتَدَيْنَا بِذَلِكَ فِي خَيْرِ الْكِرَامِ .

١٥

ولمَّا كُنْتَ — أعزك الله — حَسَنَةً ^(٣) الْمُقَدَّمِ رَأَيْنَا مَا رَأَاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فِي
سِيرِينَ . وَقَدْ كَانَتْ النِّيَّةُ ، لَوْ ^(٤) تَمَّتِ الْأُمْنِيَّةُ ، حُضُورِي بِذَاتِي ، لَزِفَافِ بُنْيَاتِي ،
فَنَمَعَ مِنَ الْمُرَادِ مَانِعٍ ، وَدَفَعَ بِيَدِ الْأَقْدَارِ دَافِعٍ . وَلَمَّا صارَ الْفِعْلُ الْمَاضِي مُسْتَقْبَلًا ،

(١) بياض في الأصل بقدر بيت .

(٢) في الأصل : القرائض ، ولعل الصواب ما أثبتناه أو لعلها « الفرائد » .

(٤) في الأصل : لم

(٣) في الأصل : « حساب »

وَبَقِيَتْ لِلْحَاقِ مُؤَمَّلًا ، وَكَلَّتْ بِهِنَّ ذَا مَحْرَمِهِنَّ ، وَامْتَنَتْ عَلَيْهِنَ ابْنُ
[بِجَدَّتِهِنَّ] ^(١) وَهُوَ الشَّيْخُ أَبُو فُلَانٍ . فَلِلْوَزِيرِ الْأَجَلِّ عُلُوُّ الرَّأْيِ فِي قَبُولِ
مَا عَرَضَهُ وَلَيْثُهُ الْمِدْلُ عَلَى إِكْرَامِهِ وَمَكَارِمِ أَخْلَاقِهِ ، بِمَا يَنْبَغُ عَلَيْهِ مِنْ طَيِّبِ
أَعْرَاقِهِ ، وَيَقُومُ بِعُذْرِي إِنْ وَهَمْتُ ، وَبِشُكْرِي إِنْ فَهِمْتُ . فَهُوَ بَدْرِي
إِذَا لَيْلَى عَسْعَسَ ، وَشَمْسِي إِذَا صُبْحِي تَنَفَّسَ . وَأَنَا وَإِنْ بَعَثْتُ بِالْأَقَارِ فِي
الْأَطَارِ ، وَبِالشُّمُوسِ فِي خَشَنِ الْمَلْبُوسِ ، فَهُوَ بِرَفْقِهِ وَدَقِيقِ حِذْقِهِ يُلَطِّفُ الْمُجَنِّ ،
وَيُحَسِّنُ الْخُشْنَ ، وَيُقَدِّمُ فِي الْغَيْبَةِ ، مَا يُعِينُ عِنْدَ الْإِقَاءِ عَلَى الْهَيْبَةِ ، بِقَوَى
مُنَّتِهِ ، وَعَظِيمِ مَنَنِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَأَجِيبَ ابْنَ شَرْفِ بَرْقَةِ مِنْ إِنْشَاءِ الْوَزِيرِ الْكَاتِبِ أَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الْبَرِّ
قَالَ فِيهَا :

رُبَّ أُمْنِيَّةٍ شَطَطَ ، قَدْ أَتَا حَاقَهَا قَدَرٌ ، وَنَجِيَّةٍ ^(٢) فَرَطَ ، قَدْ أَرَا حَاقَهَا ظَفَرٌ .
وَقَدْ تَقَرَّبَ الْأُمَانِي مَا يَظُنُّهُ الْمَرْءُ نَازِعًا بَعِيدًا ، كَمَا تُفَيِّتُ مَا يَعْتَدُّهُ حَاضِرًا
عَتِيدًا . وَكَانَتْ أَخْبَارُكَ — أَبْقَاكَ اللَّهُ — تَرِدُ عَلَيْنَا أَرْجَةَ النَّسِيمِ ، عَطِرَةَ
السَّمِيمِ ، شَهِيَّةَ الْمَسْمُوعِ ، رَفِيعَةَ الْحَمُولِ وَالْمَوْضُوعِ ؛ وَأَشْعَارُكَ تَزُفُ إِلَيْنَا
عَرَائِسَ الْأَلْبَابِ ، وَنَفَائِسَ الْأَدَابِ ، فَنُفَدِّيكِ عَلَى الْبُعْدِ بِالْأَنْفُسِ وَالْأَقَارِبِ ،
وَنَسْتَدْنِيكَ بِالْأُمَانِي وَنَحْسَبُهَا مِنَ الْكَوَاذِبِ ؛ حَتَّى أَسْمَعَ الْخَبَرَ بِاِغْتِرَابِكَ ،
وَطَلَعَ الْبَشِيرُ بِارْتِقَابِكَ ^(٣) ، وَوَفَاتَ رُوَادُ خِطَابِكَ ، وَهَقَّتْهُ مُجْلَجِلُ سَحَابِكَ ؛
وَتَصَدَّرَتْ بِحَارِ الطَّلِبِ لِسْقِيَاكَ ، وَتَمَّتْ رِيَاضُ الْأَدَبِ بِرِيَاكَ ، وَهَزَّ الْكَرْمُ
عِطْفَهُ لِلْقِيَاكَ ، وَوَصَلَ الْمَجْدُ الْأَطْرَفُ طَرْفَهُ بِرُعْيَاكَ ؛ وَجُلِّيتُ عَلَيْكَ ^(٤)

(١) بياض في الأصل بقدر كلمة

(٢) في الأصل « نجبه » ولعل الصواب ما أثبتناه

(٣) في الأصل : « ارتعابك » (٤) في الأصل : عليه .

- عرائسه الحالية^(١) في معارض الشدو والإنشاد ، فسعدت من أكرم الأكرام بالقبول والوداد ؛ وحظيت عنده بالترفع والإعزاز ، ووضع ثوبها الأنفس في يدى بزاز . وقد استعملت معك في اسم المعتضد بالله بفضلك — أيده الله — مذهبا من مذاهب رواة الحديث يسمونه بالتدليس ، ويكاد ينسب إلى الإشكال والتليس ، لعلم الحيط أن الكرم من أسمائه وصفاته ، والمجد من ألقابه وسماته . وسترده ، فتستقصر وصفي بما تجد . فاقصد قصده ، تحل بطائل الإفادة ، وأمه وحده ، تحظ بنائل الرفاة . ولا تبغ في سوق الكساد فالنفاق^(٢) أمامك ، ولا تسم ببضاعتك فالشوق قدأمك . واذكر ما أنكره ابن الزيات على حبيب ، وأنت المسكتفى بحالك عن الضمير ، وبما خولك الله عن المشير . فذاتك أنفع شفعائك ، وأدواتك أرجح سفرائك . وقد خاطبك مستقدما ، وجد معتزما ، ووجه نحوك شيئا يكون من زادك إليه ، ويعين على مؤنة طريقك في قدومك عليه ، وذلك ثلاثون مثقالا من ضرب السكة قبله ، ولم يرد بها غير ما أعلمك ، حتى توافي إن شاء الله فتستوفي . وعسى أن يكون وصولك إسفار الفجر الذي صدعته إلينا ، وحلولك نهار الصبح الذي أطلعتة علينا . وكان من البر أن أراجع عن الشعر لكن لا أخطو في ميدانك ولو كنت جريرا ، ولا أرجح في ميزانك ولو احتضنت ثيبرا .

قال ابن بسام : والذي ذكر ابن عبد البر مما أنكر ابن الزيات على أبي تمام لما مدحه بقصيدته التي أولها :

* هان علينا أن نقول وتفعلنا *

وهي من أحسن شعره ، وقع له على ظهرها :

(١) في الأصل : الحالية . (٢) في الأصل : فالنفاق .

رَأَيْتُكَ سَهْلَ الْبَيْعِ سَمَحًا وَإِنَّمَا يُغَالِي إِذَا مَا ضَنَّ بِالشَّيْءِ بِائِعُهُ
فَأَمَّا إِذَا هَانَتْ بَضَائِعُ بَيْعِهِ فَيُوشِكُ أَنْ تَبْقَى عَلَيْهِ بَضَائِعُهُ
هُوَ الْمَاءُ إِنْ أَجْمَمْتَهُ طَابَ وَرَدُّهُ وَيُفْسِدُ مِنْهُ أَنْ تَبَاحَ شَرَائِعُهُ

فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

أَمَّا الْقَوَافِي فَقَدْ حَصَّنَتْ عِذْرَتَهَا فَلَا يُصَابُ دَمٌ مِنْهَا وَلَا سَلْبٌ
وَلَوْ عَضَلْتَ عَنْ الْأَكْفَاءِ أَيْمَهَا وَلَمْ يَكُنْ لَكَ فِي أَطْهَارِهَا أَرْبٌ
كَانَتْ بَنَاتٍ نُصِيبُ حِينَ ضَنَّ بِهَا عَلَى الْمَوَالِي وَلَمْ تَحْفَلْ بِهَا الْعَرَبُ
وَقَدْ قِيلَ إِنَّ أَبَا تَمَّامٍ أَجَابَهُ بِقَوْلِهِ :

أَبَا جَعْفَرٍ إِنْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ شَاعِرًا أَسَامِحُ فِي بَيْعِي لَهُ مَنْ أَبَايَعُهُ
فَقَدْ كُنْتُ قَبْلِي شَاعِرًا تَاجِرًا بِهِ تُسَاهِلُ مَنْ عَادَتْ عَلَيْكَ مَنَافِعُهُ
فَصُرْتُ وَزِيرًا وَالْوِزَارَةُ مَسْكُوعٌ يَغْصُ بِهِ بَعْدَ اللَّذَازَةِ كَارِعُهُ
وَكَمْ مِنْ وَزِيرٍ قَدْ رَأَيْنَا مُسْلَطًا فَعَادَ^(١) وَقَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ مَطَالِعُهُ
وَلِلَّهِ قَوْسٌ لَا تَطِيشُ سِهَامُهَا وَلِلَّهِ سَيْفٌ لَا تُفْلُ مَقَاطِعُهُ
وَقِيلَ إِنَّ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ مَنَحُولَةً لِحَبِيبٍ ، وَقِيلَ قَالَهَا وَلَمْ تَظْهَرْ إِلَّا بَعْدَ مَوْتِهِ .

رَجَعَ . فَتَوَقَّفَ ابْنُ شَرَفٍ عَنِ الْقُدُومِ بِقَدَمِهِ ، وَكَالَّفَ ذَلِكَ سِنَّ قَلَمِهِ .
وَطَرَّزَ تَأْلِيفَهُ « أَبْكَارُ الْأَفْكَارِ » بِاسْمِ عِبَادٍ ، وَبَعَثَ بِهِ إِلَيْهِ عَلَى الْبِعَادِ . وَقَدْ
كَانَ وَسَمَهُ قَبْلُ بِاسْمِ بَادِيسِ بْنِ حَبْشُوسٍ فِي خُطْبَةٍ طَوِيلَةٍ قَالَ فِيهَا : مَا ظَنَنْتُ
الْإِبْتِدَاعَ إِلَّا بَلَّغَ ، وَلَا حَسِبْتُ الْإِخْتِرَاعَ إِلَّا فَرَغَ ، حَتَّى إِذَا اسْتَأْثَرْتُ بُنْيَاتُ
صَدْرِي ، وَلَطَائِفُ فِكْرِي ، بِبَيْتٍ وَاحِدٍ الْجِنْسِيَّةِ ، وَمَعْنَى غَرِيبِ الْأَبْنِيَّةِ ، قُلْتُ
لِنَفْسِي هَيْهَاتَ ! لَاشْكَ أَنَّكَ سُبِقْتَ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ ، وَعِلَّتْكَ قِلَّةُ الرِّوَايَةِ . وَكَثُرَ
سُبُاقُ الرُّوَادِ ، وَفُرَاطُ الْوُرَادِ ، فَمَا تَرَكَوْا لِمَتَأَخِّرِينَ مِنَ الرِّيَاضِ زَهْرَةً ، وَلَا مِنْ

الحياضِ قَطْرَةً ؛ كما أَنَّ جَيْشَ الْكَرَمِ قد انْهَزَمَ ، وَزَائِرُ الشَّرَفِ قد انصَرَفَ ،
 وَمَرْكُوبَ الْمَجْدِ قد نَدَّ ، فَعِشْتُ أَظُنُّ هَذَا الظَّنَّ ، حَتَّى سافَرْتُ إِلَيْنَا رِفاقُ الْأَخْبَارِ
 بِشَهَادَاتٍ زَكَّاهَا مُرُورُ الْأَيَّامِ ، وَدُؤُوبُ الدَّوَامِ ، تَشْهَدُ بِسُودِدِ بَانَ عَنِ السُّودِ
 الْعِصَامِيِّ ، وَحَزَمِ رِفاقِ الْحَزَمِ الْمِشَامِيِّ ، وَجُودِ جَاوِزِ الْجُودِ الْكَعْبِيِّ ^(١) ، وَبَأْسِ
 أَنْسَى الْبَأْسِ الْمُصْعَبِيِّ . ثُمَّ سَفَرُ لِي الدَّهْرُ عَنْ سَفَرٍ إِلَى مَغْرِبِ الدُّنْيَا وَمَشْرِقِ
 الْعُلْيَا ، وَالْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ الْبَادِيَّةِ ، وَالْدَوْلَةِ الْمُظَفَّرَةِ ، وَالْمَمْلَكَةِ الشَّاحِخَةِ
 الْحَمِيرَةِ ، وَالْحَضْرَةِ الشَّرِيفَةِ الْمُنِيفَةِ الْغَرْنَاطِيَّةِ . فَعَايَنْتُ عَالَمًا فِي عَالِمٍ ، قد
 شَرَّكَهُ فِي النَّسَبِ إِلَى آدَمَ ، وَانْفَرَدَ مِنْ مُنَاسَبَتِهِمْ ، وَشَدَّ عَنْ مُجَانَسَتِهِمْ ، بِجَمِيلِ
 طَرَائِقٍ ، وَحَمِيدِ خَلَائِقٍ ، انْفَرَدَتْ انْفِرَادَ سُهِيلٍ ، وَجَمَعَتْ فِي الْمَرَأَى وَالْمَسْمَعِ
 مَا زَادَ عَلَى زَيْدِ الْخَيْلِ . مُغَرَّمِي بِالْأَدَبِ الْمَهْجُورِ بَلِ الْمَطْرُودِ ، سَالِيًا عَنِ الْمَالِ
 الْمَعْشُوقِ بَلِ الْمَعْبُودِ ، مُنْفَقًا لِلْحَمْدِ الدِّينِ ^(٢) الْمَرْسُوسِ ، إِلَى صُنُوفٍ مِنْ
 الْفَضَائِلِ ، وَأَنْوَاعٍ مِنَ الْجَلَائِلِ ، لَا يُحِيطُ بِهَا الْوَصْفُ ، وَلَا يَجْمَعُهَا الرَّصْفُ .
 يُعْنِي النَّقْلُ الْكَافِي وَالتَّوَاتُرُ الْإِجْمَاعِي عَنْ تَأْتِيَتِهَا عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَقْلَامِ إِلَى
 أَفْهَامِ الْأَنَامِ . وَقَدْ قَدَحْتُ زَنْدَ الْفِكْرِ فَأَوْرَى شَرَرًا ، وَامْتَحَنْتُ ^(٣) قَلِيبَ
 الْقَلْبِ فَأَجْرَى نَهْرًا ، فَرَقَمْتُ فِي هَذَا الْمَجْمُوعِ مِنَ الْكَلَامِ الْمَشْهُورِ الْمُسَجَّعِ
 الْأَوْسَاطِ وَالْأَطْرَافِ ، وَالْمَنْظُومِ الْمُكَلَّلِ بِتِيْجَانِ الْقَوَافِ ، مَا اسْتَنْبَطْتُهُ مِنْ
 ذَوَاتِ صَدْرِي ، وَاسْتَنْتَجَيْتُهُ مِنْ بَنَاتِ فِكْرِي . فَغَرَّرًا ابْتَدَعْتُهَا وَسَجَّعْتُهَا ،
 وَمَعَانِي حِكَايَاتٍ اخْتَرْتُهَا ، تُطَرِّزُهَا الْأَقْلَامُ ، وَتُرَقِّمُ بِهَا أُرْدِيَةَ الْكَلَامِ ،
 وَأَنَا أَسْتَغْنِي بِقِرَاءَةِ الْقَارِئِ أَصْنَافَهَا ، عَنْ أَنْ أُقَدِّمَ أَوْصَافَهَا . وَهِيَ بَنَاتُ
 مُؤَلِّفَهَا ، وَأَسْجَاعُ مُصَنِّفِهَا ، وَلَيْسَتْ كَالْأَسْجَاعِ الْمُنْسُوبَةِ لِابْنِ أَبِي الزَّلَازِلِ ،

(١) فِي الْأَصْلِ : الْعَكْبِيُّ . (٢) فِي الْأَصْلِ : مَنْقَعًا لِلْحَمْدِ الدِّينِيِّ .

(٣) فِي الْأَصْلِ : امْتَحَنْتُ .

وهي بَنَاتُ شَتَّى قَبَائِلَ ، لم يَزِدْ على أن بَتَرَ حكاياتِها ، وَطَمَسَ مَعَالِمَ آيَاتِها ،
لِيَصِحَّ له ما شَرَطَ في السَّجْعِ من الأَعْدَادِ ، فَأَضَاعَ ما يُرَادُ لِصَدَقِ الْإِيرَادِ .
وقد تَجَمَّلَ بغيرِ ثِيَابِهِ ، وَأَنْفَقَ مِنْ غيرِ اكْتِسَابِهِ ، وَأَنَا أَنْشِدُ قولَ أَبِي النِّجَمِ :
* أَنَا أَبُو النِّجَمِ وَشِعْرِي شِعْرِي *

٥ وعلى أَىِّ حالٍ كانَ مَجْمُوعُنَا هَذَا ، فَيَشْرَفُهُ شَرَفُ مَنْ لَهُ يُجْمَعُ ، وَإِلَى يَدِهِ
الْعِلْمِيَّةُ يُرْفَعُ ، فَمَسَّتْهُ يُمْنَاهُ ، وَلَحَظَتْهُ عَيْنَاهُ . فلو كانَ صَمَصَامَ عَمْرٍو لِسِوَاهُ ،
ما انْتَهَى مِنَ الذِّكْرِ مُنْتَهَاهُ ؛ وَلَوْلا حَاجِبُ بْنُ زُرَّارَةَ ما ذُكِرَتْ قَوْسُهُ ، وَلَوْلا
حَبِيبٌ ما عُرِفَ أَوْسُهُ ، وَإِنَّمَا عُرِفَ الطُّورُ بِالْكَلِيمِ ، وَشَرُفَ الْمَقَامُ بِإِبْرَاهِيمِ .
وَمِنْ كَلَامِهِ فِي صَدْرِ كِتَابِهِ الْمُتَرْجِمِ بـ « أَعْلَامُ الْكَلَامِ » فَضَّلَ يَقُولُ فِيهِ :
١٠ قد أَطْلُتُ^(١) الْوُقُوفَ بِالْمُسْكُوفِ ، على غيرِ ما تَصْنِيفُ ، فِي شَتَّى الْأَنْوَاعِ ، فلم أَرَهَا
إِلَّا وَلَدًا عَنِ الْوَالِدِ ، وَطَارِفًا عَنِ تَالِدِ ، فلا تَكْدُ ثَرِيكَ غَرِيبَةً وَلَا شَارِدَةً إِلَّا
مَنْقُولَةٌ : « يَحْدِثُنِي فُلَانٌ ، وَسَمِعْتُ عَنْ فُلَانٍ » ، وَالْمُؤَلِّفُونَ قُصَّاصٌ بِأَقْلَامِهِمْ ،
وَإِنْ لَمْ يَقْضُوا بِكَلَامِهِمْ ، وَقَدْ تَكَرَّرَتْ تَوَالِيهِمْ عَلَى الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ ، وَالْمُسْكِرُّ
مَمْلُوءٌ بِالْإِجْمَاعِ ، وَلِلنَّفْسِ صَبَابَةٌ بِالْغَرَائِبِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْأَطْيَابِ ،
لا نَفَرَادِها عَمَّا سَمَّيْتَهُ الْقُلُوبَ ، وَتَجَافَتْ بِهِ الْجُنُوبُ ؛ إِلَّا أَنْ الْإِبْتِدَاعَ وَالْإِخْتِرَاعَ
١٥ بينهما^(٢) وَبَيْنَ الْإِسْتِطَاعَةِ حِجَابٌ . وَقَدْ كُنْتُ حَاوِلْتُ مِنْهُ ما لَمْ أُسَبِّقْ
إِلَيْهِ ، وَلَمْ أَجْعَلْ سِوَى نَظَرِي مُعِينِي عَلَيْهِ ، فَصَنَّفْتُ الْكِتَابَ الْمُقَلَّبَ
بـ « أَبْكَارُ الْأَفْكَارِ » ، يَشْتَمِلُ على مائَةِ نَوْعٍ مِنْ مَوَاعِظَ وَأَمْثالٍ ، وَحِكَايَاتٍ
قِصَارٍ وَطَوَالٍ ، مِمَّا عَزَوْتُهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَحْكِكْهَا ، وَأَضَفْتُ نَسْجَهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَحْكِكْهَا ،

(١) فِي الْأَصْلِ : أَطْلَبُ . (٢) فِي الْأَصْلِ : عَلَيْهِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ... ، وَلَعَلَّهَا :

وَالْإِخْتِرَاعَ بَابٌ ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِسْتِطَاعَةِ حِجَابٌ .

قد طُرِّزَتْ بِلمَحِ الجَدِّ والهَزَلِ ، وحُسِّنَتْ بِمُقَابَلَةِ الضَّدِّ للمِثْلِ ، ليسَ في ذلكَ كُلُّهُ [روايةٌ] رَوَيْتُهَا عَنْ قَدِيمٍ وَلَا جَدِيدٍ ، وَلَا حَدَّثْتُ بِهَا عَنْ قَرِيبٍ وَلَا بَعِيدٍ . وَقَدْ رَفَعْتُ إِلَيْهِ الْبِكْرَ ، ابْنَةَ الْفِكْرِ ، فِي هَوْدَجِهَا الْفَرَجِ ، وَجِلْبَابِهَا الْأَرْجِ ، وَأَنْتَ الْكُفُوُ الْكَرِيمُ ، وَأَشْرَفُ مَنْ أُهْدِيَ إِلَيْهِ الْحَرِيمُ ، الَّذِي لَا يَشُوبُهُ التَّحْرِيمُ ، وَعَلَى كَرَمِكَ الْقَبُولُ ، وَمَا أَهْدَاهُ الْوُدُّ فَمَقْبُولُ .

- فَلَمَّا وَصَلَ الْكِتَابُ وَالْحِطَابُ إِلَى الْمُعْتَصِدِ لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ إِنْفَازِ صِلَتِهِ إِلَيْهِ عَلَى ^(١) الْبُعْدِ . وَرَاجَعَ ابْنَ شَرْفٍ بِرُقْعَةٍ مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ أَيْضًا ، قَالَ فِيهَا : « وَرَدَ كِتَابُكَ الْأَثِيرُ ، فَاقْتَضَتْ مِنَ النُّثْرِ الْبَدِيعُ ، وَالنَّظْمِ الرَّفِيعُ ، مَا يَهْزُ أَعْطَافَ الضَّمَاثِرِ ، وَيَسْرِي فِي حَوَاشِي الْخَوَاطِرِ ، وَتَتَلَقَّاهُ الشُّفُوسُ تَلَقِّيَ ارْتِيَاحٍ إِلَى بَدَائِعِهِ ، وَفِتْنَةٍ بِمَبَادِيهِ وَمَقَاطِعِهِ وَلَا غَرَوُ ، فَإِنَّكَ عِلْمُ الْعِلْمِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يَحْوِي قَصَبَ السَّبْقِ فِي مَيَادِينِهِ ، وَيُهْدِي الْيَانِعَ الْغَضَّ مِنْ رِيَاحِينِهِ .
- وَقَدْ كَانَ لِي نِزَاعٌ إِلَيْكَ ، وَحِرْصٌ عَلَيْكَ ، وَتَصَوُّرٌ لِلْأَنْسِ بِكَ ، لَوْلَا مَنْ جَلَا لَكَ الْغِشُّ فِي بَعْضِ النَّصِيحَةِ إِذْ حَسَدَ ، وَلَمْ يَشُكَّ فِيمَا تَرَدُّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاحِ الْحَالِ فَلَمْ يَأَلُ أَنْ أَفْسَدَ . وَلَا بَدَّ لِعُقَارِبِ الْحَسَدَةِ مِنْ دَيْبٍ ، وَمَا كُلُّ مُؤْتٍ نَصَحَهُ بِلَيْبٍ — وَلَكَ مَعَ تَوْفُؤِكَ وَأَنْتَى سَلَكْتُ بِكَ مَقَاصِدُ تَصَرُّفِكَ — لَدَى
- الْمَحَلِّ الْكَرِيمِ ، فَذِكْرُكَ فِي نَفْسِي الشَّاهِدُ الْمُقِيمُ . وَتَأَدَّى مِنْ قِبَلِ الْوَزِيرِ الْكَاتِبِ التَّأْلِيفُ الرَّائِقُ ، وَالتَّصْنِيفُ الْفَائِقُ ، فَأَجَابْتُ نَظْرِي مِنْهُ فِي سِحْرِ إِلَّا أَنَّهُ خَلَالَ ، وَفَتَقْتُ بِهِ تَبَسُّجَ بَحْرِ إِلَّا أَنَّهُ زُلَالٌ . وَرَأَيْتُ كَيْفَ تَزَحَّمُ ^(٢) فِي الْعِلْمِ بِالْمَنْكِبِ الْعَمَمِ ، وَتَأْخُذُ مِنَ الْبَلَاغَةِ فِي الْمَذْهَبِ الْأَمَمِ . فَمَا شِئْتُ مِنْ مَثَلِ سَائِرِ ، وَبَيْتٍ نَادِرٍ ، وَفَقِرَ مَحْدُودَةٌ بِأَمْثَالِهَا ، وَنُكْتَةٌ غَرِيبَةٌ مُضَافَةٌ إِلَى أَشْكَالِهَا ،

(١) فِي الْأَصْلِ : عَنْ . (٢) فِي الْأَصْلِ : تَزَحَّمُ .

مَّا انصَافَتْ بِهِ يَدُ الإِحَاطَةِ بِصِحَّةِ الْبَرَاءَةِ ، وَتَزَيَّنَتْ دِيْبَاجُهُ الطَّبَعِ بِرَقْمِ الصَّنَاعَةِ .
فَهُوَ مُؤَنِّسِي ، وَشُغْلُ مَجَالِسِي . وَقَدْ وَجَّهْتُ إِلَيْكَ مَعَ الْوَزِيرِ الْمُتَقَدِّمِ الذِّكْرُ ،
مَا أَحَبُّ أَنْ تَضَعَ عَلَيْهِ يَدَ السِّتْرِ ، مَكَانَ لِسَانِ الشُّكْرِ ، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ عَدَدُ
يَقْصُرُ عَنْ قَدْرِكَ ، وَيَقِلُّ فِي جَنْبِ الْإِلَازِمِ لَكَ ، وَذَلِكَ مَائَةٌ مُثْقَالٍ مِنْ ضَرْبِ
السَّكَّةِ قَبْلِي . فَتَفَضَّلْ بِقَبُولِهَا ، وَالْإِعْلَامِ بِوُصُولِهَا .

قَالَ ابْنُ بَسَّامٍ : وَمَعَ وَصُولِ هَذِهِ الصَّلَاةِ إِلَى ابْنِ شَرَفٍ ، لَمْ يَزَلْ عَلَى
مُلُوكِ الطَّوَائِفِ يَوْمُئِذٍ يَتَطَوَّفُ ، وَيَتَنَقَّلُ فِي الدُّوَلِ مِنْ مَنْزِلٍ إِلَى مَنْزِلٍ ، وَمِنْ
بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، إِلَّا حَضْرَةَ الْمُعْتَضِدِ فَإِنَّهُ كَانَ يُخَاطَبُهُ وَيُنَشِّدُهُ :

أُحِبُّكَ فِي الْبُتُولِ وَفِي أَيْبِهَا وَلَكِنِّي أُحِبُّكَ مِنْ بَعِيدٍ

وَتَوْهَمُ جَمَلَةً^(١) أَنْ بَوَادِي إِشْبِيلِيَّةٍ تَمْسَحًا مِنْ تَمَاسِيحِ النِّيلِ ، وَجَعَلَ هِجْرَاهُ
بَيْتِي أَبِي نَوَاسٍ حَيْثُ يَقُولُ :

أَضْمَرْتُ لِلنِّيلِ هِجْرَانًا وَمَقْلِيَّةً إِذْ قِيلَ لِي إِنَّهَا التَّمْسَاحُ بِالنِّيلِ
فَمَنْ رَأَى النِّيلَ رَأَى الْعَيْنَ مِنْ كَشَبٍ فَلَا أَرَى النِّيلَ إِلَّا فِي الْبَوَاقِيلِ

وَقَدْ حَدَّثْتُ أَيْضًا أَنَّهُ خَاطَبَ الْمُعْتَضِدَ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ :

أَنْ تَصِيدْتَ غَيْرِي صَيْدَ طَائِرَةٍ أَوْسَعْتَهَا^(٢) الْحَبَّ حَتَّى ضَمَّهَا الْقَفَصُ
حَسِبْتَنِي فُرْصَةً أُخْرَى ظَفِرَتْ بِهَا هَيْهَاتَ مَا كُلُّ حِينٍ تُمْكِنُ الْفُرْصُ !
وظَاهِرٌ حَسَنٌ أَيْضًا لِقِصَّتِهَا لَكِنْ لَهَا بَاطِنٌ فِي طَيِّهِ قِصَصُ
لَكَ الْمَوَائِدُ لِلْقَصَادِ مُتَرَعَّةً تُرَوِّى وَتُشْبِعُ لَكِنْ بَعْدَهَا غُصَصُ
وَلَسْتُ أَعْجَبُ مِنْ قَوْمٍ بِهَا انْتَشَبُوا لَكِنَّمَا عَجَبِي مِنْ مَعْشَرٍ خَلَصُوا
وَلَمْ يَطِبْ قَطُّ لِي مَنْ يَلْدُ وَلَا سَلَوِي إِذَا كَانَ فِي عُقْبَاهَا مَغْصُ

قال هذا لتواتر الخبر عن المعتضد بازورار رُكْنِهِ ، وخُشُونَةِ حَزْنِهِ ،
فأضربَ عن ضَرْبِهِ ، ولم يتعرَّضْ للنُشْبَةِ في حَبَائِلِ نَشْبِهِ ، خوفاً أن يُورِّطَهُ
الهَوَى في هَوَانٍ ، ويسْقُطَ العِشَاءُ به على سِرْحَانٍ ، ويَطْيَحَ في جُمْلَةٍ مَن طاحَ
على يديه من الخُلَطَاء والنَّدَمَاء .

فصول من نثره في أوصافِ شتى

فصل : جَرَى بكَوْدَنِهِ إلى غايةٍ تَتَبَاطَأُ عنها السَّوَابِقُ ، وتَتَطَاطَأُ عن
سُمُومِهَا السَّوَامِقُ ، فلم يُحِطْ بوصفِهَا ^(١) ابنُ صَفْوَانٍ ، ولا سَحَبَ فيها لِسَانَهُ ^(٢)
سَحْبَانٍ . وأَيْنَ لِسَانُ بِاقِلٍ مِّن سَحْبَانٍ وَائِلٍ ؟ ! فالْفُصْحَاءُ في العَجْزِ عنها
مَعْدُورُونَ ، فكيفَ المَعْدُرُونَ ؟ !

فصل : كم ^(٣) حاولَ دَفَنَ الشَّمْسِ في الرَّمْسِ ، ورَدَّ الأَمْسِ بالخَمْسِ ،
ونَبَلَ النِّجْمَ باللَّمْسِ !

فصل : أَوْضَحُ مِن جِبَالِ تِهَامَةٍ ، لِعَيْنِي زَرْقَاءُ الِيمَامَةِ . أَشْهُرُ مِنَ النَّارِ
على المَنَارِ ، واللَّيْلُ كَالْقَمَارِ . أَبْيَنُ مِنَ الكَعْبَةِ لِلطَّائِفِينَ ، وَمِنَ المَسَاجِدِ لِعَاكِفِينَ .
أَشْهُرُ مِنَ الزَّبْرِقَانِ عِنْدَ جَرُولٍ ، وَمِنَ الأَبْلَقِ الْفَرْدِ عِنْدَ السَّمَوَالِ . أَظْهَرُ فِي
العَيْنَيْنِ مِنَ الهَرَمَيْنِ . أَشْهُرُ فِي العَطَاءِ مِنَ الطَّائِي ، وَفِي الأَيَادِي مِنَ الإِيَادِي .
أَشْهُرُ مِنَ الآسِ فِي الأَعْرَاسِ . أَوْضَحُ مِنَ النُّجُومِ لِبَطْلِيهِمُوسَ ، وَالطَّبُّ
لِجَالِيهِمُوسَ ، وَالْعَاجِ فِي الآبْنُوسِ .

فصل في ضِدِّهِ : هُوَ أَخْفَى مِن نَقْطَةِ الجِيمِ ، وَمِنَ بَيَاضِ الِيمِ . أَخْفَى مِن
الْأَسْرَارِ عِنْدَ الأَحْرَارِ . أَخْفَى مِنَ الشَّهَى ، وَمِنْ دِيلِ الرُّهَا . (الرُّهَا مَدِينَةُ بِالشَّامِ
وكانَ أَهْلُ الإنجِيلِ يُخَفُّونَ هَذَا المِنْدِيلَ في كَنِيستِهَا وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ مِنْدِيلُ عِيسَى

(١) في الأصل : بصفوها . (٢) في الأصل : لسان . (٣) في الأصل : كما

ثُمَّ سُرِقَ وَاشْتَرِيَ فَعُدِمَتْ بَرَكَتُهُ. أَخْفَى مِنْ نَفْسِ الْجَبَانِ [إِذَا التَّقَتْ] ^(١)
حَلَقَتَا الْبِطَانُ . أَخْفَى مِنْ بَيْضَتِي الْخَائِفِ ، وَقَدْ أَحَسَّ بِالطَّائِفِ . أَخْفَى مِنْ
تَفْسِيرِ شَعْرِ لَبِيدٍ ، عَلَى فَهْمِ الْبَلِيدِ . أَخْفَى مِنْ عُطَارِدٍ عَلَى الْمَطَارِدِ . أَخْفَى مِنْ
الشُّوشَةِ فِي الْعُودِ ، وَمِنْ السَّرِّ فِي الرُّعُودِ .

فصل : قَدَحُهُ ^(٢) مُعَلَّى ، وَسَيْفُهُ مُجَلَّى ، وَرِيَاضُهُ أَرْجَهُ ، وَحُلَاهُ مُدَبَّجَةٌ ؛
وَطِبَاعُهُ مُهَذَّبَةٌ ، وَخِلَائِقُهُ مُؤَدَّبَةٌ ، وَعُقْدُهُ مُؤَرَّبَةٌ ، وَأَرْضُهُ مُعَشَّبَةٌ ، وَأَلْفَاظُهُ
رَائِقَةٌ مُعْجِبَةٌ . لَا يَمَلُّهُ جَلِيسُهُ ، وَلَا يَجْفُوهُ أُنَيْسُهُ . عَقْلُهُ أَحْنَفِي ، وَعِلْمُهُ سُرَيْجِي ،
وَذِكَاؤُهُ إِيَّاسِي ، وَأَدَبُهُ خَلِيلِي .

فصل : يُقَدِّمُ الْحَزْمَ ، وَيُثْنِي بِالْعَزْمِ . يُوَاكِبُ الْكَوَاكِبَ ، وَيَتَعَقَّبُ
الْعَوَاقِبَ . يُشَاوِرُ ذَوِي الْأَلْبَابِ ، عَلَى أَنْ رَأَيْهِ لُبَّابٌ . يَثْبُتُ وَثُوبَ اللَّيْثِ ،
وَيَتَدَفَّقُ دُفُوقُ ^(٣) الْغَيْثِ ، وَيُرَاوِثُ ^(٤) بَيْنَ الْعَجَلِ وَالرَّيْثِ . نَوْمُهُ غِرَارٌ
وَاضْطِرَارٌ ، وَحَاجَاتُهُ سِرَارٌ ثُمَّ اقْتِدَارٌ . لَا تُثَبِّطُهُ الظُّلُمُ وَلَا الظُّلَالُ ، وَلَا تَطْبِيهَ
الْكِلَالُ وَلَا يَتْنِيهِ الْكَكَالُ . عَزَمَاتُهُ شَهَابِيَّةٌ ، وَإِضْبَابَاتُهُ عَقَابِيَّةٌ . رَأْيُهُ قَبَسُهُ ،
وَعَزْمُهُ فَرَسُهُ . بَصِيرَتُهُ بَصَرُهُ ، وَصَدْرُهُ وَرْدُهُ وَصَدْرُهُ .

فصل : هَرِمُ الْجُودِ ، عَلَى الْعِلَاتِ وَالْوُجُودِ . كَفَّهُ غَيْثٌ ، لَا يُبَالِي مِنْ
حَيْثُ ^(٥) مَالُهُ أَكْثَرُ جُودِهِ ، عَلَى جُنُودِهِ . أَغْنَى جَيْشُهُ ^(٥) . لَذَاتُهُ فِي الْإِكْثَارِ
وَالْإِيثَارِ ، وَالْأَخْذِ بِالثَّارِ . يَزِيحُ الْأَغْلَالَ ، وَيُبْلِغُ الْأَمَالَ . يُحَدِّثُ بِمَكَارِمِهِ
الرَّكْبَ ، وَيُنَسِّي بِفَرْطِ سَمَاحِهِ حَاتِمُ وَكَعْبِ .

(١) بياض بالأصل : ورسم الجبان في الأصل الجنان .

(٢) في الأصل : قد حمل . (٣) في الأصل : ويتوقف وقوف .

(٤) كذا ، ولعلها : يراوح .

(٥ - ٥) كذا بالأصل ولعل بالعبرة سقطا .

٨١

فصل : أَسَدٌ وَحْدَهُ ، وَدَعَّ جُنْدَهُ . قَلْبُهُ يُخْرِجُهُ عَنِ الْقَلْبِ ، وَضَرَائِبُهُ
تَقْتَادُهُ إِلَى مَكَانِ الطَّغْنِ وَالضَّرْبِ . يَحْمِلُ إِذَا مَالُوا ، وَيَثْبُتُ إِذَا جَالُوا . تَارَةً
هُوَ لِلْمَيْسَرَةِ يَمِينٌ ، وَتَارَةً لِلْمَيْمَنَةِ كَمِينٌ ، وَتَارَةً لِلْقَلْبِ حِصْنٌ حَصِينٌ . تَسْتَأْسِدُ
بِهِ الذُّؤَبَانُ ، وَيَشْجَعُ بِقُرْبِهِ الْجَبَانُ . عُيُونُ عَسَاكِرِهِ ، إِلَى مَغْفَرِهِ . تُعَلِّي^(١)
السَّهَامَ ، عَبْسَى الْإِقْدَامَ ، بِسَطَامَى الْمِرْبَاعِ ، عَامِرَى الطَّبَاعِ ، عِصَامَى السِّيَادَةِ ،
مُصْعَبَى الْجِلَادَةِ .

فصل : عَادِلٌ وَلَا مُجَادِلٌ . مُنْصِفٌ مُنْتَصِفٌ . سُلْطَانُهُ رَحْمَةٌ ، وَسِيرَتُهُ
نِعْمَةٌ . يَأْخُذُ الْحَقَّ وَيُعْطِيهِ ، وَيَرْمِي الْغَرَضَ فَلَا يُخْطِئُهُ . يُنْصِفُ الْمَمْلُوكَ مِنَ
الْمُلُوكِ ، وَيَأْخُذُ لِلرَّئِيسِ مِنَ الصُّعْلُوكِ . مَرْفُوعُ الْحِجَابِ ، مَنْزُوعُ رِذَاءِ الْإِعْجَابِ .
يُقِيمُ الْحَقَّ عَلَى شَقِيقِهِ ، وَيَحْكُمُ بِالْعَدْلِ لِعَدُوِّهِ عَلَى صَدِيقِهِ ، سَوَاءً عِنْدَهُ الْبَعِيدُ
وَالدَّانِي ، وَالْقَحْطَانِيُّ وَالْعَدْنَانِيُّ ، سَيِّانٍ عِنْدَهُ الْقُرْشِيُّ فِي الْحَقِّ وَالْعُكْلِيُّ ،
وَالْعَنْسِيُّ وَالسَّلُولِيُّ ؛ لَا فَرْقَ عِنْدَهُ بَيْنَ مُضَرٍّ فِي الْحَقِّ ، وَحَمِيرٍ وَسَائِرِ الْخَلْقِ .
الْغُرْبَةُ عِنْدَهُ قُرْبَةٌ قَرِيبَةٌ ، مَا لَمْ تَصْحَبْهَا رِيْبَةٌ . لَا يَغْلُو فِي الْهَاشِمِيَّةِ ، وَلَا يَعْدُو
عَلَى الْأُمَوِيَّةِ ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى الْأَهَاجِي الْبَاهِلِيَّةِ . (سُلُولٌ وَعَنْسٌ وَعُكْلٌ وَبَاهِلَةٌ
الْأُمُّ قِبَائِلُ الْعَرَبِ . وَقِيلَ إِنَّ سَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ الشُّعْرَاءَ هَجَّجَتْهَا وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُعْرَاءُ
يَذُبُّونَ عَنْهَا فَلَبِسَهُمُ الذَّمُّ وَأَكَلَهُمُ الْهَجَاءُ) .

فصل : أَمِيرٌ يَأْمُرُهُ حِلْمُهُ فَيُطِيعُ ، وَيُحْمَلُهُ مَا لَا يُسْتَطَاعُ فَيَسْتَطِيعُ . كَمْ
أُعْطِيَ الظُّفَرَ فَغَفَرَ ، وَجُرِّعَ الصَّبْرَ فَصَبَرَ . لَهُ حِلْمٌ مُعَاوِيَةٌ ، عَلَى الْأَعْدَاءِ الْعَادِيَّةِ .
لَهُ ثَبَاتٌ يَلْمَلَمُ ، وَتَحَنُّنٌ الْجَذَعِ الْأَزْلَمُ^(٢) . قَلْبُهُ قَلِيْبٌ وَاسِعٌ ، وَغَوْرُهُ
بَعِيدٌ شَاسِعٌ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : الْأَزْلَمُ .

(١) فِي الْأَصْلِ : تُعَلِّي .

فصل : وزيرٌ يُذِيبُ أميرَه ، مُسْتَوِطِنًا سَرِيرَه . مُتَحَوِّلٌ ^(١) وهو قارٌّ ،
وَيُرَى جَالِسًا وهو مارٌّ ، كَالنَّجْمِ يُرَى وهو سَاكِنٌ ، وقد تَحَرَّكَتْ بِهِ أَمَاكِنُ .
فصل : كَاتِبٌ ، فَضْلُهُ رَاتِبٌ ، وَحَقُّهُ وَاجِبٌ . أَقْلَامُهُ رِمَاحٌ ، وَرِسَالُهُ
فِصَاحٌ ، وَأَخْلَاقُهُ فِصَاحٌ . إِنْ قَرِطَسَ أَصَابَ ، وَإِنْ سُوِّلَ أَجَابَ ، وَأَصَابَ عَيْنَ
الصَّوَابِ . لِسَانُهُ لِسَانُ الْمَلِكِ ، وَمَكَانُهُ وَاسِطَةُ السَّلَاطِ .

٥

فصل : قَائِدٌ عَلَيْهِ عِبءُ التَّعْوِيلِ ، فِي أَوَّلِ الرَّعِيلِ ، إِذَا الصَّبْرُ عَمِلَ .
لَا يُبَاحُ مَا حَمَى ، وَلَا يُشَوَّى إِذَا رَمَى . عَوْدٌ إِذَا زَحَفَ ، وَطَوْدٌ إِذَا وَقَفَ ،
وَسَيْلٌ إِذَا حَمَلَ ، وَكِتَابَةٌ إِذَا اعْتَزَلَ . حُسَامُهُ إِمَامٌ ^(٢) ، يَهْدِي فِي ظُلْمَةِ الْقَتَامِ ،
وَيَهْتَدِي إِلَى مَسَالِكِ الْحِمَامِ . لَا تَرُدُّهُ لَامِعَةُ السُّيُوفِ ، وَلَا تُفْزِعُهُ مُصَارَعَةُ
الْحُثُوفِ . رِمَاحُهُ نُجُومُ ظَلَامِ الْقَتَامِ ، وَنُجُومُهُ رُجُومُ شَيَاطِينِ الْأَنَامِ . لَا تُرَدُّ
حَاجَاتُ مَوَاضِيهِ ، وَلَا تَمُطُّهُ عِنْدَ تَقَاضِيهِ الْمَغَافِرُ الْمُتَيِّمَةُ ، وَلَا الدُّرُوعُ الْمَوْضُونَةُ .

١٥

فصل : قَاضٍ يَشْهَدُ لَهُ عَدْلُهُ ، أَنْ غَلَّهَ سَرِيعُ حَلِّهِ . يَقْسِمُ نَظْرَهُ بِالْقِسْطِ ،
بَيْنَ جَمِيعِ النَّاسِ . حَفِظَ رِسَالَةَ عُمَرَ ، وَعَمِلَ فِيهَا بِمَا نَهَى وَأَمَرَ . لَا يَبِيعُ الْقَضَايَا
بِالْهَدَايَا ، بِهِ عَشَى ، عَنِ الرُّشَى . يَنَامُ الْخَصْمَانِ ، وَهُوَ يَقْظَانِ . إِنْ عَجَلَ فَعَنَ
اسْتِدْلَالٌ ، وَإِنْ عَجَزَ فَلِتَأْمُلِ إِشْكَالٌ . سُرِيجُ الْإِجَابَةِ ، عِمْرَانِي الْإِصَابَةِ .

١٥

فصل : زُهَادٌ تَرَكَوا الْعَرَضَ ، وَأَصَابُوا الْغَرَضَ . اقْتَرَحُوا الْقَنَاءَ ، وَاطَّرَحُوا
الْغِنَى . رَفَضُوا الْمَزَايِلَ ، وَطَلَبُوا الطَّائِلَ ، وَأَعْرَضُوا عَمَّا يَبِيدُ ، وَأَقْبَلُوا عَلَى
مَا يُفِيدُ ^(٣) . لَمْ يُزَاحِمُوا عَلَى الْجَنَافِ ، وَلَا اسْتَخْدَمُوا بِطُونَهُمْ فِي تَعْمِيرِ
الْكُنُفِ . تَرَكَوا ذَلِكَ لِمَنْ تَرَكَوا ، وَقَنَعُوا بِأَقْلٍ مَا مَلَكَوا ، وَجَعَلُوا الزَّادَ

(١) هذه الكلمة غير واضحة بالأصل تماما ، وما أثبتنا أقرب الاحتمالات

(٢) في الأصل : أَمَامَهُ . (٣) بالأصل : يَعِيدُ .

إلى الجنة ، الأنة بعد الأنة ، وظلما الهواجر ، في شهر ناجر . فكروا فبكروا .
علموا فسلموا من العقال ، وتركوا أعناقاً لحمل الأثقال . رجوا فنجوا ، وبنوا
فعلوا ، ومهدوا فرقدوا ، وعملوا فوجدوا .

- وذكرت بهذا الفصل حديث أبي هريرة قال : قال لي رسول الله عليه
السلام : « يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جمعاء بما فيها ؟ قلت بلى يا رسول الله .
فأخذ بيدي ، وأتى وادياً من أودية المدينة ، فإذا منبلة فيها رؤوس وعذرات
في خرق وعظام ، ثم قال : يا أبا هريرة ، هذه الرؤوس كانت تحرصن كحريصكم ،
وتأمل آمالك ، ثم هي اليوم عظام بلا جلد ، ثم هي صائرة رماداً . وهذه
العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ، ثم قذفوها من
بطونهم ، فأضحت والناس يتحامونها . وهذه الخرق البالية كانت ريشهم
ولباسهم ، أصبحت والرياح تصفقها . وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا
ينتجعون عليها أطراف الملاد . فمن كان باكياً على الدنيا فليبك ! » قال :
فما برحنا حتى اشتد بكأونا .

- ووقف سقراط على كساح وقد خرج من الحش بكساحة^(١) فقال : يا أهل
أثينا ، هذا الذي كنتم تغلقون عليه الأبواب ، وتقيمون لحفظه الخزان ،
وكانت شهواتكم تستخدم عقولكم في إعداده ، واليوم نفوسكم آفة منه ،
وطبائعكم نافرة عنه !

فصول له في الذم وبعض ما تقدم

فصل : فلان غوره أقرب قريب ، وقلبه مؤرود القليب ؛ فسراؤه

(١) في الأصل : من الجسر بكساد .

مَكشُوفَةً ، وَدَخِيلَتُهُ مَعْرُوفَةٌ ؛ كِتْمَانُهُ إِخْبَارٌ ، وَتَذْبِيرُهُ إِدْبَارٌ ، رَأْيُهُ وَرَاءٌ ،
وَسَاحَتُهُ عَرَاءٌ ^(١) . حِشَّهُ هَامِدٌ ، وَفَوْمُهُ جَامِدٌ . لَا يَعْرِفُ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ ،
وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ التَّقْبِيلِ وَالْكَيِّ . طَلَلُ بَالٍ ، لَا يَنْخَطِرُ عَلَى بَالٍ . الشَّمْسُ عِنْدَهُ
سُهَيٌّ ، وَالْحُمُقُ نَهْيٌ . لَا يَعْلَمُ رَأْسَهُ ، مِنْ أَيْنَ أَنْفَاسُهُ ؛ وَلَا يَدْرِي دِمَاغَهُ ،
أَيْنَ أَصْدَاغِهِ .

فصل : هُمُّهُ جَوَازُ يَوْمِهِ ، وَحَلَاوَةُ نَوْمِهِ . أَعْلَى هِمَّتِهِ ، إِرْجَالُ جُمَّتِهِ ،
وَاعْتِدَالُ عِمَّتِهِ ؛ وَأَسْرُ سُرُورِهِ ، تَنَاهِي قُدُورِهِ ، وَتَرْوِيقُ خُمُورِهِ . أَعْدَاؤُهُ
سِمَانٌ ، فِي أَمَانٍ ؛ وَأَوْلِيَاؤُهُ فِي هُزَالٍ ، وَانْتِظَارِ النَّكَالِ . حَسَنُ الظَّنِّ بِالزَّمَانِ ،
وَضُرُوبِ الْحَدَثَانِ . رَاحِيَةُ الْقَرَائِحِ ، سَاكِنُ الْجَوَارِحِ . مَسْرُورٌ مَغْرُورٌ . ثَانِي
الْعُطْفِ عَنِ النَّاصِحِ ، مُتَعَمِّمٌ عَنِ الْأَمْرِ الْوَاضِحِ . مُسْتَغْنٍ بِعَبْدِهِ ، عَنِ جُنْدِهِ .
مُتَشَاغِلٌ بِالْأَنْبِيَابِ الطَّاحِنَةِ فِي قَمِهِ ، عَنِ الْأَنْبِيَابِ الْوَالِغَةِ فِي دَمِهِ . يَنَامُ عَنِ
مُسْهِرَاتِ الْأَنَامِ ، وَعَنِ جَبِّ الْغَارِبِ وَالسَّنَامِ . فِكْرَتُهُ سَاهِيَةٌ ، وَخَوَاطِرُهُ
لَاهِيَةٌ ، وَقَوَاعِدُهُ وَاهِيَةٌ ، حَتَّى تَبْغَتْهُ الدَّاهِيَةُ .

فصل : يَجُودُ الْجُلُودُ ، وَلَا يَجُودُ ، وَيَعُودُ إِلَى إِثْمَارِهِ يَابِسُ الْعُودُ ، وَهُوَ
لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ . كَيْسُهُ مُغْلَقٌ ، وَبَنَانُهُ مُطْبَقٌ ، وَدَارُهُ سَمْلَقٌ ، وَجَيْشُهُ
مُمْلَقٌ ، وَمِيزَانُهُ حَبِيسٌ لَا يُطْلَقُ . كِفْتَاهُ ^(٢) كَكْفَيْهِ لَا تَذِيهُمَا ^(٣) النَّارُ ،
وَلَا يَعْرِفَانِ الدَّرْهَمَ وَلَا الدِّينَارَ . وَأَكْيَاسُهُ كَالنَّقْدِ ، قَدْ خَنَقَتْهَا الْعُقْدُ . يَدُهُ حَافِرٌ
وَقَاحٌ ، وَقَفْلُهُ لَيْسَ لَهُ مِفْتَاحٌ . تَمَرُّ الْأَيَّامِ ، وَلَا يُشْمُ لَهُ طَعَامٌ . لَوْ مَلَكَ طُوفَانٌ
نُوحٌ ، لَمْ يَسْمَحْ مِنْهُ بِشَرِبَةٍ لَظْمَانَ مَجْرُوحٍ .

(١) رسم الجملة في الأصل : وشاهه غراء .

(٢) في الأصل : كفتيه . (٣) في الأصل : تذييها .

فصل : هو يوم المطاعنة ، ولد الملائنة . لا حسب يُقاتل عنه ، ولا نسب يستحي منه . يراعة ترعد ، وتقوم وتقعّد . إذا الحرب دعت أبطالها ، وزلزلت الأحشاء زلزالها ، نخب ما بين جنبتيه ، وغاب السودان^(١) من عينيه . مهزّمة الجنوده ؛ ومهذّة لعدته وعديده . يُوسّع أعدار الفرار ، ولا يرى على على الجُبْناء من عار . يبدناه^(٢) في أوّل الرّعيّل ضارب^(٣) ، إذا به وراء الساقّة هارب . يزحف عند الزحف ، إلى خلف ، ويرؤه الواحد وهو في ألف . لو كان سور مدينة لَسار ، ولوربط إليه الطور لطار . إن هذا في الحرب من بني العنبر ، وأدهش من مُستطعم الماء على المنبر . إذا ثار القتام ، سقط من كفه الحسام .

١٠ (وخبر بني العنبر ، أشهر من أن يذكر ، وقرّبط منهم ، ولما استنجدهم فلم يُنجدوه قال :

لكن قومي وإن كانوا ذوي عددٍ ليمسوا من الشرّ في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كان ربك لم يخلق لخشيتيه سواهم من جميع الناس إنسانا

١٥ ومُستطعم الماء على المنبر خالد القسريّ عامل هشام بن عبد الملك على العراق . دهش يوم الجمعة في حرب الخوارج وهو على المنبر ، فقال : أطعموني ماء ! فقيل فيه :

هتفت بكلّ صوتك أطعموني شراباً ثمّ بليت على السّيرير

فصل : أضرّمها^(٤) على الأنام ، على قديم الأيام ، العصبية في الجاهلية

(١) في الأصل : السودان . (٢) كذا ولعلها : بينا هو .

(٣) في الأصل : يضرب . (٤) في الأصل : أضرها .

والإسلام . فما لهذا السلطان ، وخراب الأوطان ! والعصبية تُفسدُ بين الأولياء ،
وتكثرُ في الأدعياء . وأبو نُوَاس كانَ أشدَّهم فيها قَوْلًا ، وهو قِنْ مَوْلى ،
تعصَّبَ لليمنِ على مُضرٍ لكونِ سعدِ العشيرةِ مِنَ اليمنِ وهمُ من مَواليه ، فهجَا
قبائلَ مُضرٍ ، وغَضَّ من قُرَيْشٍ ، هذا وهو مَوْلى مُلصَقٍ ، وليست سعدُ العشيرةِ
له بعشيرة ، بل لها منه الجريرة .

٥

سلطانٌ يشتري بدينه ودمه ، رضا ابن عمه . خاسرُ التَّجَرُّ ، محرومُ الأجر .
لا يُساوى بين أهل القبلة وهم سواء ، ولا يتكافأ عنده المسلمون وهم عند [الله]
أكفاء . وجبلةُ التفاوتِ أفاتتُ جبلةَ الرُّشدِ ، وحميته أحتت عليه دارُ الخلدِ .
تعصَّبَ جاشت له صُدُورُ الجيشِ ، وتكدَّرَ به صفاءُ العيشِ . والمُسَاعَدَةُ في
العصبية طارت الرُّمُوسُ والسَّوَاعِدُ ، وتهدمت الذُّرى والقَوَاعِدُ ، وحالفت
ربيعةُ الأبعادُ .

١٠

فصل : قد يتسمَّى بوزيرٍ مَنْ شغله البَمُّ والزَّيْرُ . يُعْجِبُهُ اللّهُو ، وَيَغْلِبُهُ
السَّهْوُ . دَمَارٌ مَنْ [سَكَنَ] إليه ، وبَوَارٌ مَنْ عَوَّلَ عليه . إن دَبَرَ أَذْبَرَ ، وإن
تَرَكَ هَلَكَ . خِذْنَ لَوَاعِبَ ، وَزِيرُ كَوَاعِبَ . كَيْلُهُ نَاعِسٌ ، وَنَهَارُهُ بَالِسٌ . لم
يَعْلَقْ به مِنَ الْوَزَارَةِ إِلَّا ^(١) حُسْنُ الشَّارَةِ ، وَرُكُوبُ الْمَهَالِيجِ ^(٢) الْمِسْيَارَةِ ،
وَشِدَّةُ الْإِعْجَابِ ، وَالذُّخُولُ عَلَى سُلْطَانِهِ بِلا حِجَابٍ ، وَالْأَكْلُ بِمَلءِ فِيهِ ، هذا
جميعٌ ما فِيهِ ، حتَّى إذا طرقت السَّرَايَا ، وَسِيقَتِ السَّبَايَا ، وَنَفَرَ النَّافِرُ ،
وَضَجَّ الْبَادِي وَالْحَاضِرُ ، وَزَعَّ ثُبَاتُ ^(٣) الْأَجْنَادِ ، فَتَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ ، فُزِعَ
إلى الْوَزِيرِ ، فِي وَجْهِ التَّدْيِيرِ ، فَكَانَ جَوَابُهُ دُمُوعُهُ ، وَصَوَابُهُ هُلُوعُهُ ، فَحِينَئِذٍ

١٥

٨٣

(١) في الأصل : إِلَى .

(٢) في الأصل : الْمَهَالِيجُ .

(٣) في الأصل : ثِقَابُ .

دَارَتْ الدَّائِرَةُ ، واضْطَرَمَّتْ النَّائِرَةُ ، وانصَرَمَّتْ الدُّوَلُ ، وَتَبَدَّاتِ الحِلَالُ .

فصل : كَاتِبٌ مَا عَرَفَ قَطَّ ، كَيْفَ الْبَرِيَّةُ وَالْقَطُّ ، وَلَا نَسَخَ قَطُّ سَطْرًا ، إِلَّا مَسَخَ مِنْهُ سَطْرًا . الْفَاطَةُ مَلْحُونَةٌ ، وَمَعَانِيهِ مَلْقُونَةٌ ، وَمَقَاصِدُهُ خَفِيَّةٌ مَسْكُونَةٌ ، وَخُرُوفُهُ مَطْمُونَةٌ . إِنَّ تَهَجِّي هَجَا ، وَإِنْ تَكَلَّمَ شَجَّ وَشَجَى . أَلِفَاتُهُ سُجُودٌ ، وَلَا مَاتُهُ رُقُودٌ ، وَمِيمَاتُهُ عُقْدٌ لَا عُقُودٌ ، وَقَافَاتُهُ وَاوَتْ ، وَنُونَاتُهُ رَأَات . يَرْفَعُ بِالنَّوَاصِبِ ، وَيُكْثِرُ^(١) النُّقْطَ الْكَوَاذِبَ ، وَيُعْمِي عَيْنَ الْمَعْنَى الْجَلِيَّ ، وَيُخَاطِبُ الْعَدُوَّ مُخَاطَبَةَ الْوَلِيِّ . وَتَقَرُّ كُتُبُهُ بِمَا فِيهَا مِنَ الْفَسَادِ ، بَأَنَّهُ قُرَّةُ عَيْونِ الْأَعْدَاءِ وَالْحُسَّادِ .

فصل : وَلَا يَتَهُ الْقَضَاءُ ، مِنْ سُوءِ الْقَضَاءِ . جَائِرٌ حَائِرٌ . إِنْ جَارَ فَعَنْ تَعَمُّدٍ ، وَإِنْ حَارَ^(٢) فَعَنْ قِلَّةٍ تَعَهَّدَ . لَيْلُهُ مُنْتَشٍ ، وَنَهَارُهُ مُرْتَشٍ . تَعْجِبُهُ الْعَيْنُ فِي النَّقَابِ ، وَلَا يُفَكِّرُ فِي الْعِقَابِ . إِذَا رَأَى الْأُمْرَدَ تَمَرَّدَ عَلَى خَصْمِهِ ، وَمَالَ عَلَيْهِ بِحُكْمِهِ . يُزْرَى بِاخْتِيَارِ سُلْطَانِهِ ، وَيَسْتَخِفُّ بِفُقَهَاءِ زَمَانِهِ . يَجُورُ فِي نَظَرِهِ الْمَقْسُومُ ، وَيَبْصُقُ فِي وَجْهِ الْخُصُومِ ، وَيَرَى كُلُّهُمْ بِرِجْلِهِ ، وَيَلْطِمُهُمْ بِنَعْلِهِ . فصل : إِخْوَانٌ أَخُونُ مِنَ السَّرَابِ لِلْعَيْنِ ، وَمِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ لِلْحُسَيْنِ ، وَأَشَدُّ مِنْ طَالِبِ دَيْنٍ ، عَلَى صِفْرِ الْيَدَيْنِ . لَيْسَ فِيهِمْ نَفْعٌ وَلَا دَفْعٌ ، إِنْ اسْتَنْصَرْتَهُمْ خَذَلُوكَ ، وَإِنْ سَأَلْتَهُمْ إِسْلَامَكَ بَذَلُوكَ .

فصل : تَبَسَّمَ لِلْعَدُوِّ الْعَابِسِ ، وَلِنْ لِمُخْلَقِ الْيَاسِ . عَامِلٌ ظَالِمٌ بِالصَّبْرِ ، وَاجْعَلْ صَدْرَكَ كَالْقَبْرِ ، لَا يَذَرِي مَا فِيهِ رَحْمَةً أَمْ نِقْمَةً ، وَبَلَاءَ أَمْ نِعْمَةً ، حَتَّى تُمْسِكَكَ الْوَثْبَةُ عَلَيْهِ ، فَتَلَّهُ لِجَبِينِهِ وَيَدِيهِ .

(١) بعد كلمة « يكثر » بياض بقدر كلمة لعلها « من » .

(٢) في الأصل : حان .

وَمِنْ تَرْسِيلِهِ

فَصَلِّ لَهُ مِنْ رُقْعَةٍ خَاطَبَ بِهَا الْمُظْفَرُ بْنُ الْأَفْطَسِ

كُتِبَتْ وَشَوَّقِي إِلَى شَرَفِ لُقْيَاهُ ، وَشَيْمٌ ^(١) سُقْيَاهُ ، شَوْقُ الْقَارِظَيْنِ إِلَى سَكُونِ
وَسُكْنَى ، وَالْقَدِيسَيْنِ إِلَى كَيْلَى وَلُبْنَى وَاعْتِلَاقِي بِذِكْرِهِ اعْتِلَاقُ مَالِكٍ بِعَقِيلِ ،
وَقِفَانَبِكِ بِالْمَلِكِ الضَّلِيلِ ، وَبِلَالُ بِشَامَةِ وَطَفِيلِ ، وَاللَّهُ بِبُلُوغِ الْأَمَلِ خَيْرُ
كَفِيلِ . وَحَالُ وَلِيِّهِ بِالنَّاحِيَةِ الَّتِي اسْتَقْدَرْتُهَا حَالُ مَنْ ذَهَبَتْ مِنْهُ اللَّذَازَةُ
وَالْفُتَاءُ ، وَالشَّيْخُ يَهْدِيهِ الشِّتَاءُ . وَقَدْ رَأَيْتُ طُوفَانَ قُرْطَبَةَ يُقِيمُ دَهْرًا ، وَإِنَّمَا
أَقَامَ طُوفَانُ نُوحٍ شَهْرًا . وَأَمَّا صَيْفُهَا فَكَمَا قَالَ :

لَمْ أَسْتَمِ عِنَاقَهُ لِقُدُومِهِ حَتَّى ابْتَدَأَتْ عِنَاقَهُ لَوَدَاعِهِ

وَلَهُ مِنْ أُخْرَى :

لِي رَغْبَةٌ إِلَى مَفَاخِرِهِ ، وَتَطَارُحٌ بَيْنَ يَدَيِ مَآثِرِهِ ، وَإِدْلَالٌ عَلَى سَمَاحَةِ
سَجَايَاهُ ، وَتَحَامُلٌ عَلَى احْتِمَالِ عُلْيَاهُ . وَذَلِكَ أَنَّ شَيْخًا يَفْنَأُ تَصَدَّقِبَائِي ، فَبِكَايَ
حَتَّى بَلَّ بِفَضْلِ دُمُوعِهِ رِدَائِي ، وَمَنْعَهُ الشَّوْقُ بِشَجَاهِ ، مِنْ الْكَلَامِ عَلَى
مَا ارْتَجَاهُ . ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ كَسِبَ نُسَيَّاتٍ ، وَأَبُو بَنِينَ وَبُنَيَّاتٍ ، فَنَسَبَتْهُ فَقَالَ :
أَنَا أَبُو جَعْدَةَ نَهْشَلٍ ، وَذَكَرَ مَوْلَانَا الْمُظْفَرَ فَوَصَفَ خَيْرًا كَثِيرًا هُوَ أَكْثَرُ
مِنْهُ ، وَدَعَا بِخَيْرِ أَجَابَهُ اللَّهُ عَنْهُ ، وَوَصَفَ أَنَّ بُغَاةَ بَغَوْهُ ، وَحَسَدَةَ آذَوْهُ ،
وَتَفَصَّلَ مِنْ ذُنُوبٍ قَرَفُوهُ بِهَا ، وَمَوْلَايَ أَعْلَمُ بِصِدْقِهَا مِنْ كَذِبِهَا . وَلَمْ يُظْهِرْ
حِرْصًا إِلَّا فِي الْمِيْتَةِ الْأَهْلِيَّةِ ، وَالثَّرْبَةِ الْوَطَنِيَّةِ . فَبِكَايَ — عِلْمَ اللَّهِ — مَعَ
بَاكَ ، وَشَكَا مَنِّي إِلَى شَاكَ ؛ وَذُو الشَّكْوَى يَرْحَمُ الشَّكْوَى ، لَعَلَّهُ بِمَرَارَةِ

البَلَوَى . ولا شكَّ أنه سَيَبْلُغُهُ تَفْضُلُ الْمُظْفَرِ بِالِاتِّفَاتِ إِلَى ذِكْرِى ، والعناية
ببعضِ أُمْرِى ؛ فلا يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ باستحقاقى ، وَإِنْ رَقَّانِي مِنَ الشَّرَفِ هَذِهِ
الْمَرَاقِ ، وَمَنْ يَسْمَعُ يَحُلْ ، وما كُلُّ ذِي سِلَاحٍ بَطَل . وقد تَلَطَّفْتُ لَهُ بِإِذْنِ
اللَّهِ فِي الْقَوْلِ ، وَبَرِئْتُ إِلَيْهِ تَعَالَى مِنَ الْقُوَّةِ وَالْحَوْلِ ، ووقَفْتُ عَلَى رَأْيِ
الْمُظْفَرِ الْمُوقِّ ، وَحُكْمِهِ الْعَدْلِ الْمُحَقِّقِ . وَبُودَى لَوْ تَكَفَّلْتُ^(١) بِأَمَالِهِ ؛ وَجَمَعْتُ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَطْفَالِهِ ، فَهُوَ فِي عُقُودٍ^(٢) لُبْدٍ ، وَهَامَةٌ الْيَوْمِ أَوْ الْغَدِ ؛ إِلَّا أُتِيَ — أَيْدِهِ
اللَّهُ — لا أُوتِرُ مُرَادِي عَلَى مُرَادِهِ ، ولا أُشَارِكُهُ فِي الْعِلْمِ بِأَهْلِ بِلَادِهِ ؛ إِلَّا أَنْ
يَتَفَضَّلَ بِالْأَحْسَنِ الْأَجْمَلِ ، عَلَى وَعَلَى أَبِي جَعْدَةَ نَهْشَلٍ ، فَيَعُودَ — أَيْدِهِ اللَّهُ —
بِفَضِيلَةِ الْإِشَارِ ، وَيَكْتَسِي^(٣) فِي النَّاسِ أَطْيَبَ الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ . وَلَقَدْ هَجَمْتُ
فِي الْعِنَايَةِ بِمَا لَا أَعْلَمُ ثِقَةً بِمَا أَعْلَمُ ؛ وَهُوَ الْمُتَطَوَّلُ إِنْ شَفَعَ ، وَالْمَعذُورُ إِنْ دَفَعَ .
وَالْجَوَابُ عَلَى هَذِهِ الشُّطُورِ ؛ الْمُحْتَوِيَّةِ^(٤) عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ ، بِالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ،
مِنْ كَمَالِ الْإِحْسَانِ وَالْإِفْضَالِ .

فَأَجَابَهُ الْمُظْفَرُ بِرُقْعَةٍ مِنْ إِنْشَاءِ الْوَزِيرِ أَبِي مَرْوَانَ بْنِ قُزْمَانَ ، قَالَ فِيهَا :
وَرَدَ كِتَابُكَ الْمُبْتَدَأُ خِطَابُهُ مِنَ الشَّعْرِ بِمَا هُوَ السَّحَرُ الْحَلَالُ ، وَالْمُصَدَّرُ
مِنْ الْقَرِيضِ بِمَا شَهِدَ لَكَ بِالْجَلَالِ . لَوْ قَصَدَ الطَّائِفَانِ قَصْدَهُ لِأَجْبَلَا ، أَوْ حَذَا
الْحَمَّادَانِ حَذْوَهُ لِأَدْبَرَا فِيهِ وَمَا أَقْبَلَا . لَمْ تَدْعُ فِيهِ فَنًّا مِنَ الْحِكْمَةِ إِلَّا أَهْدَيْتَهُ ،
وَلَا مَعْنَى لَطِيفًا إِلَّا أَبْدَيْتَهُ ، وَلَا نَوْعًا مِنَ الْأَدَبِ إِلَّا جَلَبَيْتَهُ ؛ وَلَا غَرِيبًا مِنَ
الْمَثَلِ إِلَّا ضَرَبَيْتَهُ . فَلِلَّهِ بِلَادُ غَذَاكَ هَوَاؤُهَا ، وَرُؤُوسَاءُ تَطَابَقَتْ عَلَيْكَ أَهْوَاؤُهَا .

(١) فِي الْأَصْلِ : تَكَلَّفْتُ .

(٢) رَسَمَ الْكَلِمَةَ فِي الْأَصْلِ : عَقَدَدَ وَلَعَلَّهَا مَا أُثْبِتْنَاهُ .

(٣) فِي الْأَصْلِ : وَيَكْسَى . (٤) فِي الْأَصْلِ : الْحَوِيَّةُ .

لقد بانَ فضلهم على أهل الزمان ، كما ظهرَ تَبَرُّزُكَ في هذا الميْدان . وَمَنْ ^(١)
 انتَحَلَ الأُبَيَّات ؛ فبِمِثْلِ شِعْرِكَ فَلَيات ، وَهَيَّات ! ما أبعدَ الأَرْضَ مِنَ السَّمَاءِ !
 ورَأَيْتُكَ قد شَفَعْتَ القَرِيضَ بِشَفَاعَةٍ ؛ وقرَفْتَهُ بِرَغْبَةٍ أعطتكَ مَقَالِيدَ
 البلاغَةِ والبراعة . وأسَعَفْتُكَ في الشَّيْخِ اليَفَنَ ، والأشيبِ البَدَنَ نَهْشَل .
 ٥ فَلْيُسْرِعْ بالإقبالِ إلى بَلَدِهِ ، وليلْحَقْ بأهْلِهِ وولَدِهِ ، وليأتِ إليهم ذَا لَنَا ،
 وَلَيْشْكُرْنَا سِرًّا وإِعلانًا . واللهُ المَانُّ بكَ برَدِّهِ إلى وطنِهِ وأهْلِيهِ ، يَبْلُغُكَ
 ما تَرْتَجِيهِ ، ويعيدُ حَالَكَ إلى عَهْدِهَا ، والجمعَ بَيْنَكَ وبينَ الطَّبَقَةِ التي كُنْتَ
 واسِطَةً عِندَهَا .

ولابنِ شَرَفٍ مَقَاماتٌ عَارَضَ بِهَا البَدِيعَ في بابِهِ ^(٢) ،

وصَبَّ فيها على قَالِبِهِ

مِنْهَا مَقَامَةٌ فيها بَعْضُ طُولٍ ، لَكِنَّهُ غَيْرُ مَمْلُولٍ ، آخِذَةٌ بِطَرْفٍ مُسْتَطَرَفٍ
 مِنْ أَخْبَارِ الأَدْبَاءِ ، وَذَكَرِ الشُّعْرَ والشُّعْرَاءَ .

قال ^(٣) : جَارَيْتُ أبا الرِّيَّانَ في ذِكْرِ أَهْلِ النِّظامِ ، وَمَنَّا زِلَهُم في الجَاهِلِيَّةِ
 والإِسْلَامِ ، فَمَالَ عَدَدُ الشُّعْرَاءِ أَكْثَرُ مِنَ الإِحْصَاءِ ، وَأَشْعَارُهُمْ أَبْعَدُ مِنْ شُقَّةِ
 ١٥ الاسْتِقْصَاءِ . قُلْتُ : لا أَعْنِيكَ بِأَكْثَرِ مِنَ المَشْهُورِينَ مِثْلِ الضُّلَيْلِ والقَتِيلِ ،
 وَلَبِيدٍ وَعَبِيدٍ ، والنَّوَابِغِ والعُشَى ، والأَسُودِ بْنِ يَعْفُرٍ وَمَنْ سِوَاهُ مِنَ العُمَى ،
 وَابْنِ الصَّمَّةِ دُرَيْدٍ ، والرَّاعِي عُمَيْدٍ ، وَزَيْدِ الخَيْلِ ، وَعَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ ،

(١) في الأصل : وما . (٢) في الأصل : باله .

(٣) نشر هذه المقامة حسن حسني عبد الوهاب باشا وهي ضمن « رسائل البلاغ »
 التي جمعها الأستاذ محمد كرد علي (طبع مصر سنة ١٩١٣) ، كذلك نشرها الخانجي (مصر
 سنة ١٩٢٦) .

والفرزدق وجريز ، وجميل وكثير ، وابن جندل وابن مقبل ، وجزول
والأخطل ، وحسان في أهاجيه ومدحه ، وغيلان في مئته وصيده ، والهدلي
أبي ذؤيب ، وسحيم ونصيب ، وابن حنزة الوائلي ، وابن الرقاع العاملي ،
وعنزة العبسي ، وزهير المزي ، وشعراء فزارة ، ومفلح بني زرارة ، وشعراء
تغلب ويثرب ، وأمثال هذا النمط الأوسط ، كالرماح والطرماح ، والطثري
والدميني ، والسكيت الأسدي ، وصريع الأنصاري ، ودغبل الخزاعي ، وابن
الجهم القرشي ، وحبيب الطائي ، والوليد البختري ، وابن المعتز العباسي ،
وأبي نواس وابن الرثمي .

ومن الطبقة المتأخرة في الزمان ؛ المتقدمة في الإحسان ، كأبي فراس بن
حمدان ، والمتنبّي بن عبدان ، وابن حنبل المصري ، وابن الأحنف الحنفي ،
وكشاجم الفارسي ، والصنوبري الحلبي ، ونضر الخبزري ، وابن عبد ربّه
القرطبي ، وابن هاني الأندلسي ، وعلي بن العباس الأيادي التونسي ، والقسطلي .
قال أبو الريان : لقد سميت المشاهير ، وأبقيت الكثير ؛ قلت : بلى ،
ولكن ما عندك فيمن ذكرت ؟

قال : الضليل مؤسس الأساس ؛ وبنيانه عليه الناس . كانوا يقولون
« أسيلة الخد » حتى قال « أسيلة مجرى الدمع » . وكانوا يقولون « تامة القامة
وطويلة القامة ، وجيّداء وتامة العنق » ، حتى قال « بعيدة مهوى القرط » .
وكانوا يقولون في الفرس السابق « يلحق الغزال والظليم » وشبهه ، حتى قال
« قيّد الأوابد » . ولم يكن قبله من فطن لهذه الإشارات والاستعارات غيره
فامتثلوه بعده . وكانت الأشعار قبل سواذج ، فبقيت هذه جُداً وتلك نواهج ^(١) ؛

(١) في الأصل : جذذا ... نهراج .

وكلُّ شعْرٍ بعدُ ما خلاها فغيرُ رائقِ الذَّسَجِ ، وإنْ كانَ مُستَقِيمَ النَّهْجِ .
وأما طَرَفَةُ فلو طالَ عمرُهُ ، لطالَ شِعْرُهُ ، وعلا ذِكْرُهُ . ولقد خُصَّ بأوفرِ
نَصيبٍ مِنَ الشَّعْرِ ، على أيسرِ نَصيبٍ مِنَ العُمُرِ ، فملاً أرجاءَ ذلك النَصيبِ
بصنوفٍ مِنَ الحِكْمَةِ ، وأوصافٍ مِنَ عُلُوِّ الهِمَّةِ ، والطَّبْعِ مُعَلِّمٍ صادقٍ ،
وجَوادٍ سابقٍ . ٥

وأما الشَّيْخُ أبو عَقِيلٍ فشِعْرُهُ يَنْطِقُ بلسانِ الجَزَالَةِ ، عن جَنَانِ الأصَالَةِ ،
فلا تَسْمَعُ له إلَّا كلاماً فصيحاً ؛ ومعنى مُبيناً صريحاً ؛ وإنْ كانَ الشَّيْخُ والوَقَارُ ،
والشَّرَفُ والفَخَارُ ؛ لهادياتٍ في شِعْرِهِ ؛ وهى دلائلُهُ ؛ قبلَ أنْ يُعْلَمَ قائلُهُ .
وأما العَبَسِيُّ فمُجِيدٌ في أشعارِهِ ؛ ولا كُمُعلِّقَتِهِ ، فقد انفردَ بها انفرادَ
سُهَيْلٍ ، وغبَرَ في وجوهِ الخَيْلِ ، وجمعَ فيها بينَ الحلاوةِ والجَزَالَةِ ، ورقةَ الغَزَلِ
وعِلَظَةِ البَسَالَةِ ، وأطالَ واستطالَ ، وأمنَ السَّامَةَ والكَلالَ . ١٠

وأما زُهَيْرٌ : فأىُّ زُهرٍ بينَ لهَوَاتِ زُهَيْرٍ ، حِكْمُ فَارِسٍ ، ومَقَامَاتُ الفَوَارِسِ ،
ومَوَاعِظُ الزُّهَادِ ، ومُعْتَبَرَاتُ العُبَادِ ، ومِدَحُ تَكْسِبِ الفَخَارِ ، وتَبَقُّ بَقَاءِ
الأعْصَارِ ، ومُعَانَبَاتُ مَرَّةٍ تَعْسُنُ ، ومَرَّةٍ تَخْشُنُ ، وتَارَةً تَكُونُ هَجْوَاً ،
وطَوْرًا تَكَادُ تَعُودُ شَكْوَى . ١٥

وأما ابنُ حِلْزَةِ : فسهْلُ الحَزُونِ ، قَامَ خَطِيبًا بالمَوْزُونِ ، والعادةُ أَنْ
يَسْهَلَ شَرْحُ الشَّعْرِ بالنَّثَرِ ، وهذا سَهْلُ السَّهْلِ بالوَعْرِ ، وذلكَ مِثْلُ قَوْلِهِ :
أَبْرَمُوا أَسْرَهُمْ عِشَاءَ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ
مِنْ مُنَادٍ وَمِنْ مُجِيبٍ وَمِنْ تَضَهَّلِ خَيْلٍ خِلَالَ ذَاكَ رُغَاءِ
فلو^(١) اجْتَمَعَ كُلُّ خَطِيبٍ نَائِرٍ ، مِنْ أَوَّلٍ وَآخِرٍ ، يَصِفُونَ سَفَرًا نَهَضُوا

(١) في الأصل : فلما .

بالأسحار ، وعسكرًا تُفَادِي بالنُّهوضِ إلى طَلَبِ الثَّارِ ، ما زادوا على هذا إن لم يَنْقُصُوا مِنْهُ ، ولم يُقَصِّرُوا عَنْهُ . وسائرُ قصيدته في هذا السُّلُوكِ ؛ شِكَايَةُ وَطِلَابِ نَصْفَةٍ ، وَهَيْتَابُ فِي عِزَّةٍ وَأَنْفَةٍ ، وَهُوَ مِنْ شُعْرَاءِ وَائِلٍ ، وَأَحَدُ أُسْنَةِ هَاتِيكَ الْقَبَائِلِ .

وَأَمَّا ابْنُ كُلْثُومٍ : فَصَاحِبُ وَاحِدَةٍ ، فَلَا زَائِدَةَ ، أَنْطَقَهُ بِهَا عِزُّ الظَّفَرِ ، وَهَزَّهَ فِيهَا جِنُّ الْأَشْرِ ، قَعَقَعَتْ رُغُودُهُ فِي أَرْجَائِهَا ، وَجَمَعَتْ رَحَاهُ فِي أَثْنَائِهَا ، وَجَعَلَتْهَا تَغْلِبُ قِبَلَتَهَا الَّتِي تُصَلِّي إِلَيْهَا ، وَمِلَّتَهَا الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهَا ، فَلَمْ يَتْرَكُوا إِعَادَتَهَا ، وَلَا خَلَعُوا عِبَادَتَهَا ، إِلَّا بَعْدَ قَوْلِ الْقَائِلِ :

أَلْهَى بَنَى تَغْلِبٍ عَنْ كُلِّ مَكْرَمَةٍ قَصِيدَةً قَالَهَا عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ

١٠ عَلَى أَنَّهَا مِنَ الْقَصَائِدِ الْمُحَقَّقَاتِ ، وَإِحْدَى الْمَعْلُقاتِ .

وَأَمَّا النَّابِغَةُ زِيَادُ : فَأَشْعَارُهُ الْجِيَادُ لَمْ تَخْرُجْ عَنْ نَارِ جَوَانِحِهِ حَتَّى تَنْهَى نُضْجُهَا ، وَلَا قُطِعَتْ مِنْ مَنَوَالِ خَوَاطِرِهِ حَتَّى تَكَاثَفَ نَسْجُهَا ، لَمْ تُهْلِكْهَا مِيعَةُ الشَّجَلِ ، وَلَا وَهَاءُ الْأَسْبَابِ ، وَلَا لُؤْمُ الْاِكْتِسَابِ ؛ فَشِعْرُهُ وَسَائِطُ سُلُوكِ ، وَتِيَجَانُ مُلُوكِ .

١٥ وَأَمَّا النَّابِغَةُ الْجَعْدِي : فَفَنَى الْكَلَامِ ، شَاعِرُ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ، وَاسْتَحْسَنَ شِعْرَهُ أَفْصَحُ النَّاطِقِينَ ، وَدَعَا لَهُ أَصْدَقُ الصَّادِقِينَ ؛ وَكَانَ شَاعِرًا فِي الْاِفْتِخَارِ وَالثَّنَاءِ ، قَصِيرَ الْبَاعِ ، لِشَرْفِهِ ، عَنْ تَنَاوُلِ الْهِجَاءِ . وَكَانَ مَغْلُوبًا فِيهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَطَرِيدًا لَيْلَى الْأَخْيَلِيَّةِ .

وَأَمَّا الْعُشَى بِأَجْمَعِهِمْ : فَكُلُّهُمْ شَاعِرٌ ، وَلَا كَيْمُونُ بْنُ قَيْسٍ ، شَاعِرٌ

٢٠ الْمَذْحِ وَالْهِجَاءِ ، وَالْبَأْسِ وَالرَّخَاءِ ، وَالتَّصَرُّفِ فِي الْفُنُونِ ، وَالسَّعْيِ فِي الشُّهُولِ

والحزُون . نَفَقَ مَدْحُهُ بَنَاتِ الْمُحَلَّقِ ، وَكَانَ فِي فَقْرِ ابْنِ الْمُذَلَّقِ ، وَأَبْكَى
هَجْوُهُ عُلُقَمَةَ ، كَمَا تَبْكِ الْأُمَّةَ .

وَأَمَّا الْأَسْوَدُ بْنُ يَغْفَرٍ : فَأَشْعَرُ النَّاسِ إِذَا نَدَبَ دَوْلَةَ زَالَتْ ، أَوْ بَكَى
حَالَةً حَالَتْ ، أَوْ وَصَفَ رَبْعًا خَلَا بَعْدَ عُمَرَانَ ، أَوْ دَارًا دَرَسَتْ بَدَ سَكَّانَ ،
فَإِذَا سَلَكَ [غَيْرَ] ^(١) هَذِهِ السَّبِيلِ ، فَهُوَ مِنْ حَشْوِ هَذَا الْقَبِيلِ ، كَعَمْرٍو وَزَيْدٍ ،
وَسَعِيدٍ وَسَعْدٍ .

وَأَمَّا حَسَّانُ : فَقَدْ اجْتَثَّ ^(٢) بَوَاكِرَ غَسَّانَ ، ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامَ ، وَانْكَشَفَ
الْإِظْلَامَ ، فَجَاحَشَ عَنِ الدِّينِ ، وَنَاضَلَ عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، فَشَعَرَ وَزَادَ ، وَحَسَّنَ
وَأَجَادَ ، إِلَّا أَنَّ الْفَضْلَ فِي ذَلِكَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَتَسْدِيدِ الرُّوحِ الْأَمِينِ .

وَأَمَّا دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ : فَصِمَّةٌ صِمَمَ ، وَشَاعِرُ جُشَمَ ، وَغَزَلُ ^(٣) هَرَمَ ، وَأَوَّلُ
مَنْ تَغَزَّلَ فِي رِثَاءِ ، وَهَزَلَ فِي حُزْنٍ وَبُكَاءِ ، فَقَالَ فِي مَعْبَدٍ أَخِيهِ ؛ قَصِيدَتَهُ
الْمَشْهُورَةَ يَرْتَثِمُهُ :

« أَرْتَّ جَدِيدُ الْحَبْلِ مِنْ أُمَّ مَعْبَدٍ »

وَهِيَ مِنْ شَاجِيَّاتِ النَّوَائِحِ ، وَبَاقِيَّاتِ الْمَدَائِحِ .

وَأَمَّا الرَّاعِي عُبَيْدُ : فَجَبِلَ عَلَى وَصْفِ الْإِبِلِ ، فَصَارَ بِالرَّاعِي يُعْرِفُ ،
وَنُسِيَ مَالَهُ مِنَ الشَّرَفِ .

وَأَمَّا زَيْدُ الْخَيْلِ : فَخَطِيبٌ سَجَّاعَةٌ ، وَفَارِسٌ شَجَّاعَةٌ ، مَشْفُولٌ بِذَلِكَ ،
عَمَّا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَالِكِ .

وَأَمَّا عَامِرُ بْنُ الطَّفَيْلِ : فَشَاعِرُهُمْ فِي الْفَخَارِ ، وَفِي حِمَايَةِ الْجَارِ ، وَأَوْصَفَهُمْ
لِكَرِيمَةٍ ، وَأَنْعَمَهُمْ لِحَمِيدٍ شِيمَةٍ .

(٢) كَذَا وَلَعَلَّهَا : اجْتَنَى .

(١) هَذِهِ الزِّيَادَةُ تَقْتَضِيهَا صِحَّةُ السِّيَاقِ

(٣) فِي الْأَصْلِ : غَزَلَ .

وأما ابن مُقْبِل : فَقَدِيمُ شِعْرُهُ ، وَصَلِيبُ نَجْرُهُ ، وَمُعَلَّى مَدْحُهُ ،
وَمُعَلَّى قَدْحُهُ .

وأما جَرُؤُل : فَخَبِيثُ هِجَاؤُهُ ، شَرِيفُ ثَنَاؤُهُ ، صَحِيحُ بِنَاؤُهُ ، رَفَعَ
شِعْرُهُ مِنَ الثَّرَى ، وَحَطَّ مِنَ الثَّرِيَّا ، وَأَعَادَ بِلَطَافَةِ فِكْرِهِ ، وَمَتَانَةَ شِعْرِهِ ،
قَبِيحَ الْأَلْقَابِ ، فَخَرًّا يَبْقَى عَلَى الْأَحْقَابِ ، وَيُتَوَارَثُ فِي الْأَعْقَابِ .

وأما أَبُو ذُوَيْبٍ : فَشَدِيدُ أَسْرِ الشَّعْرِ حَكِيمُهُ ، شَفْلُهُ فِيهِ التَّجْرِبُ
حَدِيثُهُ وَقَدِيمُهُ ، وَلَهُ الْمَرْتَبَةُ النَّقِيَّةُ السَّبْكُ ، الْمَتِينَةُ الْحَبْكُ ، بَكَى فِيهَا بَنِيهِ ^(١)
السَّبْعَةُ ، وَوَصَفَ الْحِمَارَ فَطَوَّلَ ، وَهِيَ الَّتِي أَوَّلَهَا :

« أَمِنَ الْمُنُونِ وَرَيْبِهِ تَتَوَجَّعُ »

وأما الْأَخْطَلُ : فَسَعْدٌ مِنْ سَعُودِ بَنِي مَرْوَانَ ، صَفَتْ لَهُمُ مِرَاةُ فِكْرِهِ ،
وظَفَرُوا بِالْبَدِيعِ مِنْ شِعْرِهِ ، وَكَانَ بَاقِعَةً مَنْ هَاجَاهُ ، وَصَاعِقَةً مَنْ حَاجَاهُ ^(٢) .

وأما الدَّارِمِيُّ هَمَّامٌ : فَجَوْهَرُ كَلَامِهِ ، وَأَغْرَاضُ سَهَامِهِ ، إِذَا افْتَخَرَ بِمَالِكِ
ابْنِ حَنْظَلَةَ ، وَبِدَارِمٍ ^(٣) فِي شَرَفِ الْمَنْزِلَةِ ، وَأَطْوَلُ مَا يَكُونُ مَدًى إِذَا تَطَاوَلَ
اِخْتِمَالٌ ^(٤) جَرِيرٌ عَلَيْهِ بِقَلِيلِهِ عَلَى كَثِيرِهِ ، وَبَصَغِيرِهِ عَلَى كَبِيرِهِ ، فَإِنَّهُ يُصَادِمُهُ
حِينَئِذٍ بِبَحْرِ مَادٍّ ، وَيُقَاوِمُهُ بِسَيْفٍ حَادٍّ .

وأما ابْنُ الْخَطَطِيِّ : فَزُهْدٌ فِي غَزَلٍ ، وَحِجْرٌ فِي جَذَلٍ ^(٥) ، يَسْبَحُ أَوَّلًا فِي مَاءِ
عَذْبٍ ، وَيَطِيحُ آخِرًا فِي صَخْرٍ صُلْبٍ . كَلْبٌ مُنَابِحَةٌ ، وَكَبْشٌ مُنَاطِحَةٌ ،
لَا تَقُلْ غَرْبَ لِسَانِهِ مُطَاوَلَةَ الْكِفَاحِ ، وَلَا تُدْمِي هَادِيَهُ مُدَاوَمَةَ النُّطَاحِ ،

(١) فِي الْأَصْلِ : بَنُوهُ . (٢) فِي الْأَصْلِ مَا جَاءَ .

(٣) رَسَمَهَا فِي الْأَصْلِ : بِدَوَامٍ .

(٤) فِي الْأَصْلِ : اخْتِيَارٌ ، وَلَعَلَّ الصُّوَابَ مَا أَثْبَتْنَاهُ .

(٥) رَسَمَ السَّكْمَةَ حَذَلَ ، وَلَعَلَّهَا مَا أَثْبَتْنَاهُ .

جَارَى السَّوَابِقَ بِمِطْيَةٍ ، وَفَاخَرَ غَالِبًا بِعُطْيَةٍ ، وَبَلَغَتْهُ بِلَاغَتُهُ إِلَى الْمُسَاوَاةِ ،
وَحَمَلَتْهُ جُرَاتُهُ عَلَى الْمُجَارَاةِ^(١) . وَالنَّاسُ فِيهِمَا فَرِيقَانِ ، وَبَيْنَهُمَا عِنْدَ قَوْمٍ فَرْقَانِ .
وَأَمَّا الْقَيْسَانِ وَطَبَقَتُهُمَا : فَطَبَقَةُ عَشِيقَةٍ تَوَقَّةٌ ، اسْتَحْوَذَتْ الصَّبَابَةَ عَلَى
أَفْكَارِهِمْ ، وَاسْتَفْرَغَتْ دَوَاعِيَ الْحُبِّ مَعَانِي أَشْعَارِهِمْ : فَكُلُّهُمْ مَشْغُولٌ بِهَوَاهِ ،
لَا يَتَعَدَّاهُ إِلَى سِوَاهِ .

وَأَمَّا كَثِيرٌ : فَحَسَنُ النَّسِيبِ فَصِيحُهُ ، أَطِيفُ الْعِتَابِ مَلِيحُهُ ، شَجِيٌّ
الْإِغْتِرَابِ قَرِيحُهُ ؛ جَامِعٌ إِلَى ذَلِكَ رَفَائِقُ الظُّرَفَاءِ ، وَجَزَالَةُ مِدَحِ الْخُلَفَاءِ .
وَأَمَّا الْكُمَيْتُ وَالرَّمَّاحُ ، وَنُصَيْبُ وَالطَّرِمَّاحُ ، فَشُعْرَاءُ مُعَاَصِرَةٍ ،
وَمُنَاقِضَاتٍ وَمُفَاخِرَةٍ ، فَنُصَيْبُ أَمْدَحُ الْقَوْمِ ، وَالطَّرِمَّاحُ أَهْجَاهُمْ ؛ وَالرَّمَّاحُ
أَنْسَبُهُمْ نَسِيبًا ، وَالْكُمَيْتُ أَمْشَهُمْ تَشْبِيهًا .

وَأَمَّا بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ : فَأَوَّلُ الْمُجْدَثِينَ ؛ وَآخِرُ^(٢) الْمُخَضَّرِمِينَ ؛ وَمِمَّنْ
لَحِقَ الدَّوْلَتَيْنِ ، عَاشِقُ سَمْعٍ ، وَشَاعِرُ جَمْعٍ ، شِعْرُهُ يَنْفُقُ عِنْدَ رَبَّاتِ الْحِجَالِ ،
وَعِنْدَ فُحُولِ الرِّجَالِ ، فَهُوَ يَلِينُ حَتَّى يَسْتَعْطِفَ ، وَيَقْوَى حَتَّى يَسْتَكْثِفَ^(٣) ،
وَقَدْ طَالَ عُمرُهُ ، وَكَثُرَ شِعْرُهُ ، وَطَمَأَ بِحُورِهِ ، وَنَقَبَ فِي الْبِلَادِ ذِكْرُهُ .

وَأَمَّا ابْنُ أَبِي حَفْصَةَ ، فَمِنْ شُعْرَاءِ الدَّوْلَتَيْنِ ، وَمِمَّنْ حَظِيَ بِالنِّعْمَتَيْنِ ،
وَوَصَلَ إِلَى الْغِنَى بِالصِّلَتَيْنِ ، وَكَانَ دَرَبَ الْمِعْوَلِ ، ذَرِبَ الْمِقْوَلِ ، وَالِدَ شُعْرَاءَ ،
وَمُنْجِبَ فُصَحَاءَ .

وَأَمَّا أَبُو نُوَّاسٍ : فَأَوَّلُ النَّاسِ فِي خَرْمِ الْقِيَّاسِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَرَكَ السَّيْرَةَ
الْأُولَى ، وَنَكَّبَ عَنِ الطَّرِيقَةِ الْمُثْلَى ، وَجَعَلَ الْجِدَّ هَزْلًا ، وَالصَّغْبَ سَهْلًا ،

(١) فِي الْأَصْلِ . الْمُجَارَاةُ

(٢) فِي الْأَصْلِ : وَأَحَدُ

(٣) فِي الْأَصْلِ : يَنْكَسِفُ ، وَالتَّصْحِيحُ عَنْ نَشْرَةِ الْخَانِجِيِّ .

فَهَلْهَلِ الْمُسَرَّدُ ، وَبَلْبَلِ الْمُنْضَدُ ، وَخَلْخَلَ الْمُنْجَدُ ؛ وَتَرَكَ الدَّعَائِمُ ، وَبَنَى عَلَى
 الطَّامِي وَالْعَائِمِ^(١) ، وَصَادَفَ الْأَفْهَامَ قَدْ نَسَكَتْ ، وَأَسْبَابَ الْعَرَبِيَّةِ قَدْ تَخَلَّخَتْ
 وَانْحَلَّتْ ، وَالْفَصَاحَاتِ الصَّحِيحَةِ قَدْ سُئِمَتْ وَمُلَّتْ ، فَمَالَ النَّاسُ إِلَى مَا عَرَفُوهُ ،
 وَعَلِقَتْ نَفُوسُهُمْ بِمَا أَلْفُوهُ . فَتَهَادَوْا شِعْرَهُ ، وَأَغْلَوْا سِعْرَهُ ، وَشَغَفُوا بِأَسْخَفِهِ ،
 وَكَلَفُوا بِأَضْعَفِهِ . وَكَانَ سَاعِدُهُ أَقْوَى ، وَسِرَاجُهُ أَضْوَى ، لَسَكَنَهُ عَرْضَ
 ٥ الْأَنْفَقِ ، وَأَهْدَى الْأَوْفَقِ ، وَخَالَفَ فَشْهَرَ وَعُزِفَ ، وَأَغْرَبَ^(٢) فَذُكِرَ
 وَاسْتُطْرِفَ . وَالْعَوَامُّ تَخْتَارُ هَذِهِ الْأَعْلَاقَ ، وَأُسُوقُهُمْ أَوْسَعُ الْأُسُوقِ ، فَشِعْرُ
 أَبِي نُوَّاسٍ ، نَافِقٌ عِنْدَ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ ، كَاسِدٌ عِنْدَ أَنْقَدِ النَّاسِ . وَقَدْ فَطِنَ إِلَى
 اسْتِزْعَافِهِ ، وَخَافَ مِنْ اسْتِخْفَافِهِ ، فَاسْتَدْرَكَ بِفَصِيحِ طَرْدِهِ ،^(٣) طَرَفًا [مِنْ]
 ١٠ جَذِّ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ وَجَدَدِهِ^٣ . وَهُوَ مَجْدُودٌ فِي كَثْرَةِ التَّظَاهُرِ ، عَلَى مَنْ غَضَّ مِنْهُ
 بِالْحَقِّ الظَّاهِرِ ، لَيْسَ إِلَّا لَخْفَةِ رُوحِ الْمَجُونِ ، وَسُهُولَةِ الْكَلَامِ الضَّعِيفِ
 الْمَلْحُونِ ، عَلَى جُمْهُورِ الْعَوَامِ ، لَا عَلَى خِصَائِصِ الْأَنَامِ .

وَأَمَّا صَرِيحٌ : فَكَلَامُهُ مُرْصَعٌ ، وَنِظَامُهُ مُصَنَّعٌ ؛ وَجُمْلَةُ شِعْرِهِ صَحِيحَةٌ
 الْأَصُولُ ، مُصَنَّعَةُ الْفُصُولِ ، قَلِيلَةُ الْفُضُولِ .

١٥ وَأَمَّا الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ فَمُعْتَزِلٌ بِهَوَاهِ ، وَبِمُغْزِلٍ عَمَّا سِوَاهِ . رَفَعَ نَفْسَهُ
 عَنِ الْمَدْحِ وَالْمِجَازِ ، وَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْ هَوَاهِ مِنَ الذَّنَاءِ . قَدْ رَقَّقَ الشَّغْفُ
 كَلَامَهُ ، وَثَقَّنَتْ قُوَّةَ الطَّبْعِ نِظَامَهُ ، فَلَهُ رِقَّةُ الْعُشَّاقِ ، وَحَوْلُكُ الْحُذَّاقِ .
 وَأَمَّا دِغْبِيلُ : فَمُذَبَّرٌ مُقْبِلٌ ، الْيَوْمَ مَذْحٌ ، وَغَدًا قَذْحٌ ، يُجِيدُ فِي

(١) فِي الْأَصْلِ : وَالْقَائِمُ . (٢) فِي الْأَصْلِ : فَأَعْرَبَ .

(٣-٣) رَسَمَ هَذِهِ الْعِبَارَةَ فِي الْأَصْلِ : طَرَفًا حَذَّ اللِّسَانِ وَحَدَهُ ، وَفِي رِسَائِلِ الْبُلْغَاءِ
 « حُدُودُهُ » بَدَلَ « حَدَهُ » ، وَفِي نَشْرَةِ الْخَانِجِيِّ : طَرَفًا جَذَّ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ وَحَدَهُ .

الطريقتين ، ويسىء في الخليقتين ، وله أشعار في العصبية . وكان شاعراً علماء ، وعالم شعراء .

وأما علي بن الجهم : فرشيق الفهم ، راشق السهم ، استوصل شعره الشرفاء ، ونادم الخلفاء ، وله في الغزل الرصافية ، وفي العتاب الدالية ، ولولم يكن له سواها ، لكان أشعر الناس بهما .

وأما الطائي حبيب : فمتكلف إلا أنه يصيب ، ومثعب لكن له من الراحة نصيب . وشغله المطابقة والتجنيس ، جيد ذلك أو بيس ، جزل المعاني ، مرصوص المباني ^(١) . مدحه ورنائوه ، لا غزله وهجائوه ، طرفاً نقيض ، وخطباً ^(٢) سماء وحضيض . وفي شعره علم جم من النسب ، وجمله وافرة من أيام العرب . وطارت له أمثال ، وحفظت له أقوال ، وديوانه مقرأ ، وشعره متلو .

قال ابن بسام : أما صفة هذه لأبي تمام ؛ فصفة لم يثن عطفها حمية ، ولا تعلقت بذيلها عصبية ، حتى لو سمعها حبيب لاتخذها قبلة ، واعتمدها ملة . فما آلم ^(٣) من أدب وإن أوجع ، ولا سب من صدق وإن أقذع .

رجع .

وأما البحتري : فلفظه ماء ثجاج ، ودُرُّ رَجَاج ، ومعناه سراج وهاج ، على أهدي منهاج . يسبقه شعره ، إلى ما يجيش به صدره ، يُسرُّ مُراد ، ولين قياد . إن شربته أرواك ، وإن قدحتَه أوزاك . طبع لا تكلف يُعِيبه ^(٤) ، ولا العناد يثنيه ، لا يمل كثيره ، ولا يستكف غزيره ، لم يهف أيام الحلم ، ولم يصف زمن الهرم .

(١) في الأصل : « الهاني » . (٢) في الأصل : خطبا .

(٣) في الأصل : ألام ، وفي رسائل البلغاء والحنجى : لام . (٤) في الأصل : يعيبه

وَأَمَّا ابْنُ الْمُعْتَزِّ : فَلِكِ النَّظَامُ ، كَمَا هُوَ مَلِكُ الْأَنَامِ ، لَهُ التَّشْبِيهَاتُ الْمَثَلِيَّةُ ،
وَالِاسْتِعَارَاتُ الشَّكْلِيَّةُ ، وَالْإِشَارَاتُ السَّحَرِيَّةُ ، وَالْعِبَارَاتُ الْجَهْرِيَّةُ ،
وَالْتَّصَارِفُ الصَّنُوفِيَّةُ ، وَالطَّرَائِقُ الْفَنُونِيَّةُ ، وَالِافْتِخَارَاتُ الْمُلُوكِيَّةُ ، وَالْهِمَمَاتُ
الْعُلُويَّةُ ؛ وَالْغَزَلُ الرَّائِقُ ، وَالْعِتَابُ الشَّائِقُ ، وَوَصَفُ الْحُسْنِ الْفَائِقُ .

وَخَيْرُ الشُّعْرِ أَكْرَمُهُ رِجَالًا وَشَرُّ الشُّعْرِ مَا قَالَ الْعَبِيدُ ٥

وَأَمَّا ابْنُ الرَّوْمِيِّ : فَشَجَرَةُ الْاِخْتِرَاعِ ، وَثَمَرَةُ الْاِبْتِدَاعِ . وَلَهُ فِي الْهِجَاءِ ،
مَا لَيْسَ لَهُ فِي الْإِطْرَاءِ ، فَتَحَّ فِيهِ أَبْوَابُ ، وَوَصَلَ فِيهِ أَسْبَابُ ، وَخَلَعَ مِنْهُ أَثْوَابُ ،
وَطَوَّقَ فِيهِ رِقَابُ ، تَبَقَّى أَعْمَارًا وَأَحْقَابُ ، يَطُولُ عَلَيْهَا حِسَابُ ، وَيُمْنَحَقُ بِهَا
ثَوَابُ . وَلَقَدْ كَانَ وَاسِعَ الْعَطَنِ ، لَطِيفَ الْفِطَنِ ، إِلَّا أَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهِ ضَعْفُ
الْمَرِيرَةِ وَقُوَّةُ الْمَرَّةِ .

١٠

وَأَمَّا كُشَاجِمُ : فَحَكِيمٌ شَاعِرٌ ، وَكَاتِبٌ مَاهِرٌ ، لَهُ فِي التَّشْبِيهَاتِ غَرَائِبُ ،
وَفِي التَّأْلِيفَاتِ عَجَائِبُ ، يُجِيدُ الْوَصْفَ وَيُحَقِّقُهُ ، وَيَسْبِكُ الْمَعْنَى فَيُرَوِّقُهُ وَيُرَوِّقُهُ .

وَأَمَّا الصَّنُوبَرِيُّ : فَفَصِيحُ الْكَلَامِ غَرِيبُهُ ، مَلِيحُ التَّشْبِيهِ عَجِيبُهُ ،
مُسْتَعْمِلُ لَشَوَازِ الْقَوَافِي ، يَغْسِلُ كُدْرَتَهَا بِمِيَاهِ فَهْمِهِ الصَّوَافِي . فَيَجِلُّ

١٥

وَيَدِيقُ ، وَيَعْذُبُ وَيَرِّقُ . وَهُوَ وَحِيدُ جِنْسِهِ فِي صِفَةِ الْأَزْهَارِ ، وَأَنْوَاعِ
الْأَنْوَارِ . وَكَانَ فِي بَعْضِ أَشْعَارِهِ يَتَخَالَعُ ، وَفِي بَعْضِهَا يَتَشَاجَعُ . وَقَدْ مَدَحَ وَهَجَا ،

وَسَرَّ وَشَجَا ، وَأَعْجَبَ شِعْرُهُ وَأَطْرَبَ ، وَشَرَّقَ وَغَرَّبَ . وَمَدَحَ مِنْ أَهْلِ
إِفْرِيقِيَّةِ أَمِيرَ الزَّابِ جَعْفَرَ بْنَ عَلِيٍّ ، مُنْفَقَ سِلْعِ الْأَدَبِ ، فَوَصَلَهُ بِأَلْفِ دِينَارٍ .

وَأَمَّا الْخُبَزَرِيُّ : فَخَلِيعُ الشُّعْرِ مَا جِنَهُ ، رَائِقُ الْلَفْظِ بَائِنُهُ ، كَثِيرَةُ

٢٠

مَحَاسِنُهُ ، صَحِيحَةُ أَصُولِهِ وَمَعَادِنُهُ ، رَائِقَةُ الْبَزَةِ ، مَائِلَةٌ ^(١) إِلَى الْعِزَّةِ ، تُسَلِّيهُ عَنْ

(١) غير موجودة بالأصل وهي في الرسائل والخانجي .

الحبِّ الحَيَاةَ ، وِيرْبُقه^(١) الوفاء والصَّيَانَةَ . وله على خُشُونَةٍ خَلَقَه ، وصُعُوبَةٍ خَلَقَه ، اختراعاتٌ لَطِيفَةٌ ، وابتداعاتٌ طَرِيفَةٌ ، في أَلْفَاظٍ كَثِيفَةٍ ، وفُصُولٍ قَلِيلَةٍ الْفُصُولِ نَظِيفَةٍ^(٢) . حتَّى إِنَّ بَعْضَ كُبَرَاءِ الشُّعْرَاءِ اهْتَدَمَ أَشْيَاءٌ مِنْ مَبَانِيهِ ، واهْتَضَمَ طَرَفًا^(٣) مِنْ مَعَانِيهِ ، وهو مِنْ مُعَاصِرِيهِ ، فَقَلَّ مَنْ فَطِنَ لِعَرَامِيهِ .

وَأَمَّا أَبُو فِرَاسٍ بْنُ حَمْدَانَ : فَقَارِسُ هَذَا الْمِيدَانِ ، إِنْ شئتَ ضَرْبًا وَطَعْنَا ، وَلَفْظًا وَمَعْنَى ، مَلَكٌ زَمَانًا ، وَمُلْكٌ أَوَانًا ، أَشْعَرُ النَّاسِ فِي الْمَمْلَكَةِ ، وَأَشْعَرُهُمْ فِي ذُلِّ الْمَمْلَكَةِ^(٤) . وله الْفَخْرِيَّاتُ الَّتِي لَا تُعَارِضُ ، وَالْأَسْرِيَّاتُ الَّتِي لَا تُتَنَاهَضُ .

وَأَمَّا الْمُتَنَبِّيُّ : فَقَدْ شَغَلَتْ بِهِ الْأَلْسُنُ ، وَسَهَرَتْ فِي أَشْعَارِهِ الْأَعْيُنُ ، وَكَثُرَ النَّاسِخُ لِشِعْرِهِ ، وَالْأَخِذُ لِدِكْرِهِ ، وَالْغَائِصُ فِي بَحْرِهِ ، وَالْمُفْتَشُّ فِي قَعْرِهِ ، عَنْ جَمَانِهِ وَدُرِّهِ . وَقَدْ طَالَ فِيهِ الْخُلْفُ ، وَكَثُرَ عَنْهُ الْكُشْفُ ، وَلَهُ شِيعَةٌ تَغْلُو

فِي مَدْحِهِ ، وَعَلَيْهِ خَوَارِجُ تَتَغَايَا فِي جَرَحِهِ . وَالَّذِي أَقُولُ إِنَّ لَهُ حَسَنَاتٍ وَسَيِّئَاتٍ ، وَحَسَنَاتُهُ أَكْثَرُ عَدَدًا ، وَأَقْوَى مَدَدًا . وَغَرَائِبُهُ طَائِرَةٌ ، وَأُمَثَالُهُ سَائِرَةٌ ، وَعِلْمُهُ فَسِيحٌ ، وَمِيزُهُ صَحِيحٌ ، يَرُومُ فَيَقْدِرُ ، وَيَدْرِي مَا يُورِدُ وَيُضِدِرُ .

وَأَمَّا ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ الْقُرْطُبِيُّ : وَإِنْ بَعْدَتْ عَنَّا دِيَارُهُ ، فَقَدْ صَاقَبْتَنَا أَشْعَارُهُ ، وَوَقَفْنَا عَلَى أَشْعَارِ صَبُوتِهِ الْأَنِيقَةِ ، وَمُكْفَرَاتِ^(٥) تَوْبَتِهِ الصَّدُوقَةِ ، وَمَدَائِحِهِ

الْمَرْوَانِيَّةِ ، وَمَطَاعِنِهِ فِي الْعَبَّاسِيَّةِ . وَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ فَارِسٌ مُمَارِسٌ ، وَطَاعِنٌ مُدَاعِسٌ . وَأَطْلَعْنَا فِي شِعْرِهِ عَلَى عِلْمٍ وَاسِعٍ ، وَمَادَّةٍ فَهْمٍ مُضِيٍّ نَاصِعٍ . وَمِنْ تِلْكَ الْجَوَاهِرِ نَظْمَ عِقْدِهِ ، وَتَرَكَهُ لِمَنْ تَجَمَّلَ بَعْدَهُ .

وَأَمَّا ابْنُ هَانِيٍّ مُحَمَّدُ الْأَنْدَلُسِيُّ وَلَادَةُ ، الْقَيْرَوَانِيُّ وَفَادَةُ وَإِفَادَةُ :

(١) فِي الْأَصْلِ : يَرِيقُهُ . (٢) فِي الْأَصْلِ : نَضِيفُهُ .

(٣) فِي الْأَصْلِ : تَطْرَفًا . (٤) فِي الْأَصْلِ : الْمَلِكُ .

(٥) فِي الْأَصْلِ : تَسْكَفَرَاتُ ، وَفِي النُّسخَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ الذِّكْرُ : تَكْفِيرَاتُ .

فرَعْدِيَّ الكلام ، سَرْدِيَّ النِّظام ، إِلَّا أَنَّهُ إِذَا ظَهَرَتْ مَعَانِيهِ ، فِي جَزَالَةِ مَبَانِيهِ ، رَمَى عَنْ مَنَجْنِيْق ، يُؤَثِّرُ فِي الْعَمِيق . وَلَهُ غَزَلٌ قَفَرِيٌّ لَا عُذْرِيٌّ ، لَا يَقْنَعُ فِيهِ بِالطَّيْف ، وَلَا يَشْفَعُ بِغَيْرِ السَّيْف . وَقَدْ نَوَّهَ بِهِ مَلَأُ الزَّأَب ، وَعَظَّمَ شَأْنَهُ بِأَجْزَلِ الثَّوَاب ، وَكَانَ سَيْفَ دَوْلَتِهِ ، فِي إِعْلَاءِ مَنَزَلَتِهِ . مِنْ رَجُلٍ يَسْتَعِينُ عَلَى صَلَاحِ دُنْيَاهُ بِفَسَادِ أُخْرَاهُ ، لِرَدَاءَةِ عَقْلِهِ ، وَرِقَّةِ دِينِهِ ، وَضَعْفِ يَقِينِهِ ، وَلَوْ عَقَلَ لَمْ تَضِقْ عَلَيْهِ مَعَانِي الشَّعْرِ ، حَتَّى يَسْتَعِينُ عَلَيْهَا بِالْكَفْرِ .

وَأَمَّا الْقَسْطَلِيُّ : فَشَاعِرٌ مَاهِرٌ عَالِمٌ بِمَا يَقُول ، تَشْهَدُ لَهُ الْعُقُول ، بِأَنَّهُ الْمُوَخَّرُ بِالْعَصْرِ ، الْمَتَقَدِّمُ فِي الشَّعْرِ . حَازِقٌ بِوَضْعِ الْكَلَامِ فِي مَوَاضِعِهِ ، لَا سِيَّمَا إِذَا ذَكَرَ مَا أَصَابَهُ فِي الْفِتْنَةِ ، وَشَكَا مَا دَهَاهُ فِي أَيَّامِ الْمِحْنَةِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَهُوَ أَشْعَرُ أَهْلِ مَغْرِبِهِ ، فِي أَعْدِ الزَّمَانِ وَأَقْرَبِهِ .

وَأَمَّا عَلِيُّ الثُّونَسِيُّ : فَشِعْرُهُ الْمَوْرِدُ ^(١) الْعَذْبُ ، وَلَفْظُهُ الْوُلُؤُ الرُّطْبُ ، وَهُوَ يُحْتَرَى الْغَرْبُ . يَصِفُ الْحَمَامَ ، فَيَرَوْقُ الْأَنَامَ ، وَيُسَبِّبُ ، فَيُعَشِّقُ وَيُحِبُّ ، وَيَمْدَحُ ، فَيَمْنَحُ ^(٢) أَكْثَرَ مِمَّا يُمْنَحُ .

هَذَا مَا عِنْدِي فِي الْمَتَقَدِّمِينَ وَالْمَتَأَخِّرِينَ ، عَلَى احْتِقَارِ الْمُعَاصِرِ ، وَاسْتِصْغَارِ الْمُجَاوِرِ ، فَخَاشَ لِلَّهِ مِنَ الْإِنْصَافِ ^(٣) بِقَلَّةِ الْإِنْصَافِ ، لِلْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ ، وَالْعَدُوِّ وَالْحَبِيبِ .

قُلْتُ يَا أَبَا الرِّيَّانِ ، وَقِيَمْتَ مُرُورَ الْحَدَثَانِ ، فَلَقَدْ سُبِكَتَ فَهَمَا ، وَحُشِيتَ عِلْمَا .

مَقَامَةٌ لَهُ أُخْرَى

حَدَّثَنِي الْجُرْجَانِيُّ قَالَ : كَانَ فَتًى بُجْرَجَانٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَقْيَالِ ، قَدْ جَمَعَ إِلَى النَّهْيَةِ فِي الْمَالِ الْغَايَةَ فِي الْجَمَالِ . وَكَانَ مَالِفًا لِلْأَدْبَاءِ ، وَمَأْوًى لِلْغُرَبَاءِ ، وَرِزْقًا

(١) فِي الْأَصْلِ : الْمَوْرُود (٢) فِي الْأَصْلِ : فَنَمْنَحُ (٣) فِي الْأَصْلِ : الْأَوْصَافِ

للفُقراء ، فلا يَخْلُو مَنْزِلُهُ مِنْ أَهْلِ الإِعْدَامِ . فَإِنِّي لَعِنْدَهُ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي إِذْ اسْتُؤْذِنَ عَلَيْهِ لِضَرِيرٍ فَقِيرٍ فَأَمَرَ بِأَكْرَامِهِ وَإِطْعَامِهِ . فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ شَأْنِهِ ، اسْتَدْعَاهُ إِلَى إِيْوَانِهِ ؛ فَدْخَلَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَيْخٌ وَافِرُ السَّبَالِ ، قَدَّعَمَهُ الْبَيَاضُ بِالْكَمَلِ ، مَطْمُوسُ الْعَيْنَيْنِ ، مُسْتَرْخِي الْحَاجِبَيْنِ ، قَدْ صَلَّعَتْ هَامَتُهُ ، وَرَكَعَتْ قَامَتُهُ ، وَقَصُرَتْ مَسَافَةُ خُطَاهُ ، وَثَقُلَ جِسْمُهُ عَلَى عَصَاهُ . فَسَلَّمَ بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ ، وَدَعَا بِلِسَانٍ ثَقِيلٍ . وَأَقْبَلَ يَذْكُرُ شَبَابَهُ ، وَيَتَذَكَّرُ أَحْبَابَهُ ، وَيَنْوَحُ عَلَى سَالِفِ زَمَانِهِ ، وَيَنْدُبُ ثِقَاتِ إِخْوَانِهِ . فَرَقَّ لَهُ الْفَتَى فَأَدْنَاهُ ، حَتَّى أَجْلَسَهُ عَلَى يُمْنَاهُ ، وَصَبَّرَهُ وَسَلَّاهُ . ثُمَّ سَمَرْنَا إِلَى وَقْتِ النَّوْمِ ، فَرَقَدَ سَائِرُ الْقَوْمِ ، وَنَامَ الْفَتَى فِي مَكَانِهِ ، مُرَاعَاةً لِحَقِّ ضَيْفَانِهِ . وَكَانَتْ أَدْنَى مِنَ الْفَتَى مَرْقَدًا ، كَمَا كُنْتُ أَدْنَى مِنْهُ مَقْعَدًا ، وَلِي عَيْنٌ أُخْفُ الْعُيُونِ هَجْعَةً ، وَأَقْرَبُهَا إِلَى الْإِنْتِبَاهِ رَجْعَةً . فَأَيَّقَطَنِي نَهْرَةٌ لَمْ أَكُنْ عَهْدْتُ مِنْ الْفَتَى مِثْلَهَا ، وَلَا أَجْرَاهَا مَعَ ضَيْفٍ قَبْلَهَا . فَعَجِبْتُ مِنْ خَرَقِ الْعَادَةِ ، وَأَصْغَيْتُ أَلْتَمِسُ [الْإِفَادَةَ] . فَسَمِعْتُ الْأَعْمَى يَقُولُ : يَا سَيِّدِي أَنَا صَرُورَةٌ ، وَتَمَّ صَرُورَةٌ ، وَقَدْ طَالَتِ الْغُرْبَةُ ، وَاضْطَرَّتْنِي الْعُزْبَةُ . فَقَالَ لَهُ الْفَتَى : فَمَا وَجَدْتَ لَصَرُورَتِكَ سِوَايَ ، وَلَا لِعُزْبَتِكَ حَاشَايَ ؟ قَالَ لَهُ : فَإِنْ أُبَيَّتَ إِلَّا أَنْ تَمْنَعَ ، فَدَلَّنِي عَلَى مَا أَصْنَعُ . قَالَ لَهُ الْفَتَى : أَرَى لَكَ أَنْ تَتَسَرَّيَ . قَالَ : وَمَنْ لِلصُّعْلُوكِ بِالْمَمْلُوكِ ؟ قَالَ : فَتَمَزَّوَجَ . قَالَ : وَالْمُخَوِّجُ كَيْفَ يَتَزَوَّجُ ؟ قَالَ لَهُ الْفَتَى : فَإِنَّكَ لَوْ خَضَخَضْتَ ، لَكَانَ أَشْبَهُ مِمَّا إِلَيْهِ تَعَرَّضْتَ . قَالَ الْأَعْمَى : وَاللَّهِ يَا مَوْلَايَ لَا يَسْمَعُهُ خُفِّي ، فَكَيْفَ كُنِّي ؟ فَصَاحَ الْفَتَى : السَّلَاحُ السَّلَاحُ : « أَلَا أَيُّهَا النَّوَامُ وَيَحْكُمُ هُبُّوَا » قَالَ الْجُرْجَانِيُّ فَقُلْتُ : « فَلِلشَّيْخِ زُبٌّ لَيْسَ يُشَبِّهُهُ زُبٌّ » . فَقَالَ الْفَتَى : أَسَمِعْتَ الْعَجَبَ الْعَجَابَ ؟ قُلْتُ نَعَمْ ، وَحَفِظْتُ الْعِتَابَ . وَجَعَلْتُ أَقُولُ : مَا سَأَلَكَ الشَّيْخُ فِي عَسِيرٍ ، وَلَا حَمَلَكَ عَلَى خَطِيرٍ ، فَهَلَّا قَضَيْتَهُ فَأَرْضَيْتَهُ ! ؟

٥

١٠

١٥

٢٠

قال : فحسب الأعمى كلامي ردًا ، وظنّه جدًا ، فقال : فديتُك أيُّها الناصِر ،
حينَ خَذَلَنِي الأَوَاصِر ، واحتَقَدَنِي المُعَاصِر ، ثم تَنَهَّدَ وقال : آه واهرَمَناه ! بَقِينَا
حَتَّى شَقِينَا ، آه . طاحَ أَهْلُ البَذْلِ والسَّمَّاح ، وَبَقِيَ أَهْلُ البُخْلِ والجِمَّاح .
أَنْظِرْ أَيَّ أَجْناس ، بَعْدَ أَيِّ نَاس ، لَكِنَّ الفَقِيرَ حَقِير ، قَلَّ المَال ، وَذَهَبَ
الرجال . سَمِعْنَا فطَمَعْنَا ، يَا فَتَى ، أَخْبِرْنَا عَنْكَ خَبْرًا ، مَا رَأَيْنَاهُ أَثَرًا ، وَرَبَّ
مَنْسُوبٍ إِلَى حَال ، مَرْجِعُهَا إِلَى مُحَال ! أَيْنَ السَّكْرَمُ الَّذِي ذُكِر ، وَالخُلُقُ الَّذِي
شُكِر ؟ ! هَبْ مَا سَأَلْنَاكَ يَشُقُّ ، أَيْنَ الْحَقُّ الَّذِي يَحَقُّ ؟ كَذَبَ رَأَيْنَا ، وَقَلَّتْ
فَوَائِدُنَا . فَقَالَ لَهُ الْفَتَى : وَيَحْك ! اتَّقِ اللَّهَ خَالِقَكَ ، فَقَدْ آنَ أَنْ تَتْرَكَ خَلَاتِكَ .
فقال : يَا مَوْلاي ! لَوْ تَرَ كُتْنِي الشَّهْوَةَ لَتَرَكْتُ ، لَكِنْ حَرًّا كُتْنِي فَتَحَرَّرْتُ .
إِنِّي وَإِنْ سَبَقَنِي جُهورُ الأَتْرَابِ إِلَى التُّرابِ ، فلي قَلْبٌ ^(١) لَهْجِي ، وَجِسْمٌ ذَهَبِي ،
لَا يَغْيِرُهُمَا إِدْمَانُ الزَّمان ، وَلَا يَوُدُّهُمَا حَدِيثُ الحَدَثَان . وَلَوْ عَادَتْ إِلَى سَاعَةِ
مِنْ أَيَّامِي ، أَوْ حَصَلَتْ فِي يَدِي إِبْرَةٌ مِنْ حُسَامِي ، لَسَبَقْتُ كُلُّومِي فِيكُمْ كَلَامِي .
وَسَأَجْهَدُ بِهِذِهِ الْعَصَا ، فَأَجَاهِدُ مَنْ عَصَا . ثُمَّ اهْتَزَّ كَأَنَّهُ نَسْرٌ مَقْصُوص ، أَوْ حِمَارٌ
مَرَّ هُوَوص ، فَقُمْنَا وَتَرَكَنَا جَانِبَهُ ، وَجَعَلَ يَضْرِبُ بِعَصَاهُ مَا قَارَبَهُ . فَتَرَكَنَاهُ
وَشَانَهُ ، وَأَدْمَنَّا عِيَانَهُ ، نَصْعَدُ فِيهِ وَنُصَوِّبُ ، وَنَعْجَبُ وَنُعْجَبُ . فَلَمْ تَزَلْ شِقْشِقْتُهُ
تَهْدِير ، وَعَصَاهُ تَشْكِسَّر ، حَتَّى كَلَّتْ يَدَاهُ ، وَانْحَلَّتْ قُؤَاهُ . وَلاحَ وَجْهُ الصَّبَاح ،
وَجِئْنَا إِلَيْهِ بِالمِصْبَاح ، فَإِذَا هُوَ كَالْجِدَارِ المَهْدُوم ، وَالْخِذْرِ المَهْشُوم ؛ قَدْ فَارَقَ
النَّفْسَ النَّمْرُودِيَّةَ ، وَمَاتَ المِيتَةَ الجَاهِلِيَّةَ . فَدَفَنَهُ الْفَتَى فِي أَطْلَاهِ ، وَسَأَلْنَا
كِتْمَانَ أَخْبَارِهِ . وَأَفْنُ لَعَمْرِي أَيُّ أَفْنٍ ، أَنْ يُطْمَعَ لِخَبَرِ هَذَا فِي دَفْنٍ ، بَلْ هُوَ
مَنْشُورٌ ، إِلَى يَوْمِ النُّشُورِ .

ما أخرجته من شعر ابن شرف في أوصاف شتى

النسيب وما يناسبه :

قد كنت في وعد العذار فأنجزا وقضى لحسنك بالكمال فأوجزا
وأنتي لنصر الحسن إلا أنه ولّى إلى فئة الهوى متحيزا
عطف تعلم منك عطفك عطفه وجد الفؤاد به السبيل إلى العزا
لم يكف وجهك حسنه وبهاؤه حتى اكتسى ثوب الجمال مطرزا
سبحان من أعطاك حسنا ثانيا وبثالث من فعل حسنك عززا

وقال :

تصدّ نفس لا صعود تنفس وتريد روح في حشاشه مكروب
فلا القرب يخيمني ولا البعد قاتلي ولا الهجر يسليني ولا الصبر يلوي بي
وأصبحت ذا ضرر ولقياك مبري لضرّي ولكن أين عسى من أيّوب ؟

وقال :

بين أجنانك سحر وعلى غصنك بدر
جرّدت عيناك سيفين (م) لذا أمرك أمر
فعلى خدك من نثر (م) دم العشاق أثر
ومن الكتبان شطر لك^(١) والأغصان شطر
وسواء قلت در ما أرى أو قلت ثغر
وبماذا أصف الخضر وما إن لك خضر
بك شغلي واشتغالي ومضى زيد وعمرو

(١) في الأصل : لك وعلى الأغصان ..

وقال :

وَشَمْسٍ تَرَأَخَتْ أَنْ تَغِيبَ لِقِبْلَتِي كَمَا مَسَكَتْ فِيمَا مَضَى شَمْسُ يُوشَعِ
فِيمَا قَاطِعًا وَصَلَى وَيَا وَاصِلًا غَدَى بِأَمْسِي وَيَوْمِي فِي الْعَذَابِ الْمُمْتَعِ
صَرَفَتْ رَجَائِي عَنْ لَعَلٍّ وَعَنْ عَسَى وَأَبْعَدَتْنِي بِالْيَأْسِ مِنْ كُلِّ مَطْمَعِ
أَعْنَى بِاطْمَاعِ الْوِصَالِ عَلَى النَّوَى ^(١) إِذَا لَمْ تُقَاتِلْ يَا جَبَانَ فَشَجِّعِ
لَدَيْكَ فَوَادٌ مَالَهُ مِنْ مُطَالِبِ أَلْطَلْبُ فِي بَعْضِي وَقَدْ بَانَ أَجْمَعِي ؟
وَدِيعَةٌ مَيِّتٍ أَنْتَ فِيهَا مُحْكَمٌ وَإِنْ شِئْتَ فَاحْفَظْهَا وَإِنْ شِئْتَ ضَمِّعِ
أَرَى مُهْجَاتٍ فِي يَدَيْكَ فَمَا تَرَى بَمَنْ شِئْتَ أَوْ قَعِ أَوْ بِمَا شِئْتَ وَقَعِ
قوله « إِذَا لَمْ تُقَاتِلْ يَا جَبَانَ فَشَجِّعِ » مَثَلٌ مِنْ أَمْثَلِهِمْ ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ أَبُو نُوَّاسٍ
بقوله : فَكَأَنِّي وَمَا أَزِينُ مِنْهَا قَعْدِي يُزِينُ التَّحْكِيمَا

وقال :

وَإِذْ كُرُ لِيَا لَيْكَ الَّتِي ذَهَبَتْ لَنَا نَهَبًا وَعَمِيشًا كَانَ كَالْتِهْ-وَيْمِ
يُسْعِدُكَ وَابِلُ أَدْمَعٍ فِي أَرْبُعِ شَرِبْتَ مِيَاهَ الدَّمْعِ شَرِبَ الْهِيمِ
أَيَّامَ شَمْسِ الْمَشْرِقَيْنِ ضَجِيعَتِي فِيهَا وَبَدُرُ الْمَغْرِبَيْنِ نَدِيمِي
وَنَجُومُ كَاسَاتِي طَوَالِغُ بِالْمُنَى وَالسَّعْدُ يَسْتَعْنِي عَنِ التَّقْوِيمِ
مَحْمُودُ عَيْشٍ جَادَ لِي دَهْرِي بِهِ ثُمَّ اسْتَرَدَّ فَكَانَ فِيهِ خَصِيمِي
وَلَى وَخَلَى جَمْرَةً مَشْهُوبَةً تَذْكِي عَلَى الْأَحْشَاءِ نَارَ سَمُومِ
فَإِذَا رَأَيْتَ لَهَيْبَهَا وَسَلَامَتِي فَإِذْ كُرُ بِذَلِكَ نَارَ إِبْرَاهِيمِ

يَنْظُرُ مَعْنَى الْبَيْتِ الرَّابِعِ مِنْ هَذِهِ إِلَى قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

يُقَرَّرُ لَهُ بِالْفَضْلِ مَنْ لَا يُوَدُّهُ وَيَقْضَى لَهُ بِالسَّعْدِ مَنْ لَا يُنْجِمُ

(١) فِي الْأَصْلِ : النَّوَى .

ولأبي أحمد البصري من أناشيد الثعالب :

كنت إذا ما سرت في حاجة أطلع التقويم والزيج
فصار لي الزيج كتحصيفه وعاد لي التقويم تعويجا
وقال بعض أهل عصرنا وهو أبو بكر الداني :

وبمهجتي نجم له في مهجتي مَسْرَى وَلِي فِي نُورِهِ تَعْدِيلُ
حوَلْتُ عَهْدَ مُنَاخِهِ بِمُنَاخِهِ فَقَضَى بِتَحْوِيلِي لَهُ التَّحْوِيلُ
وقوله : « محمود عيش جاد لي دهرى به » من مُتداولات المعاني ، منها قول
محمد بن هاني :

وَهَبَ الدَّهْرُ نَفِيسًا فَاسْتَرَدَّ رُبَّمَا جَادَ^(١) لَيْمٌ فَحَسَدُ
وأخذه بعض أهل عصره فقال :

يَهَبُ الْقَلِيلَ وَقَدْ يَرَى اسْتِرْجَاعَهُ هِبَةُ اللَّيْمِ أَقْلٌ مِنْهُ وَأَنْزَرُ

ومن قصائده المطوّلة في المدح وما يتشبت به

من سائر الأوصاف

قال في المنصور حفيد ابن أبي عامر :

مَرَّ بِي غُضْنٌ عَلَيْهِ قَمَرٌ مُتَجَلِّ نُورُهُ لَا يَنْجَلِي
هَزَّ عِطْفِيهِ فَقُلْنَا إِنَّهُ ذُو الْفَقَارِ اهْتَزَّ فِي كَفِّ عَلِي
ورأيت الناس صرعى حوله فَكَأَنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ الْجَمَلِ
تلك أخبار زمان قد مَضَى وَأُمُورٌ فِي السَّنِينَ الْأَوَّلِ
زَمَنُ الْمَنْصُورِ قَوَى مُنْتَى وَسَرَا هَمِّي وَأُخْيَا جَذَلِي

(١) رسم الكلمة في الأصل « داد » ، والتصحيح عن الديوان ص ٢٤٥

وَسُرُورُ النَّفْسِ مِنْ بَعْدِ الصَّبَا نَاشِرُهُ عَصْرَ الصَّبَا وَالْغَزَلِ
فَاسْتُطِيبَ الْعَيْشُ فِي بَلَدِهِ فَكَأَنَّ النَّاسَ فِي قُطْرُبُلِ
وَكَأَنَّ الشَّمْسَ مِنْ بَهْجَتِهَا أَبَدًا فِيهَا يُبْرِجُ الْحَمَلِ

ولَهُ مِنْ أُخْرَى فِي عِبَاد :

فَمَا جَشَّاتُ نَفْسِي عَشِيَّةً مُشْرِفِ وَلَا احْتَلَبْتُ عَيْنِي حُزْوَى وَفَيْفَاءَ
وَلَا لُغْرَابِي دِمْنَةَ الدَّارِ^(١) ظَلَّتْ ذَا سُؤَالٍ وَمَا عِنْدَ الْغُرَابِيِّنِ أَنْبَاءَ
مَقَامُ زَمَانٍ مَاتَ عُزُورُهُ حَسْرَةً عَلَيْهِ وَظَلَّتْ تَسْفَحُ الدَّمْعَ عَفْرَاءَ
فَلَوْ نَالَ حَظًّا مِنْهُ غَيْلَانُ لَاتَّقَتْ لَهُ صَيْدَحٌ فِيهِ وَمَيٌّ وَدَهْنَاءَ

ومنها في ذِكْرِ طِفْلَيْنِ لَهُ :

أَجَشَّمَهُمْ لَيْلَ الْقِفَارِ وَظُلْمَةَ الدَّ بِحَارٍ وَكَمْ رِيْعُوا وَلَسَّيْرٍ إِرْخَاءَ
وَلِي مِنْهُمَا سَهْمَانِ هَذَا ابْنُ أَرْبَعٍ وَهَذَا ابْنُ سِتٍّ كُلُّمَا كَانَ إِغْفَاءَ
أَضْمُهُمَا وَاللَّيْلُ دَاجٍ كَأَنَّمَا هُمَا نَقَطَتَا يَاءٍ وَجِسْمِي هَوَايَاءَ
فَطَوَّرَا يُغَشِّيهِمْ عَلَى ذِكْرِكَ الْكَرَى فَتُصْبِحُ أَضْوَاءَ عَلَيْهِمُ وَالْأَلَاءَ
وَطَوَّرَا يَمْجُجُونَ الدُّجَى وَمِطَالَهُ وَمَا كَانَ لِلْغَايَاتِ مَطْلٌ وَإِرْجَاءَ
فَتُصْبِرُ مِنْهُمْ أَنْفُسُ رَبِّمَا بَكَتْ بُكْيٌ هُوَ لِلصَّمِّ الْجَلَامِيدِ إِبْكَاءَ

ومنها :

فَإِنْ أَخْمَتْنَا هَيْبَةً عُمَرِيَّةً لَدَيْكَ لَهَا فِي الشَّعْرِ كَسْرٌ وَإِقْوَاءَ
بَذَلَتْ أَنْبَسَاطَاتٍ لَنَا عَلَوِيَّةً لَهَا بَعْدَ مُوْمَاتِ الْمَهَامِهِ أَفْيَاءَ^(٢)
صَيْدَحَ الَّتِي ذَكَرَهَا نَاقَةُ غَيْلَانَ ، وَالدَّهْنَاءَ وَطَنُهُ ، وَمَيُّ صَاحِبَتِهِ ، وَكَانَ

(١) في الأصل : وَلَا لُغْرَابِ الدَّارِ . . .

(٢) في الأصل : أَمْنَاءَ ، وَلَعَلَّ الصَّوَابَ مَا أَثْبَتْنَاهُ .

٩٠

ذو الرُّمَّة يُلْهَجُ بِذِكْرِ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ فِي شِعْرِهِ . وَقَوْلُهُ « وَلَا لُغْرَابِي دِمْنَةَ الدَّارِ »
الْبَيْت ، أَشَارَ إِلَى قَوْلِ عُرْوَةَ بْنِ حِزَامٍ الْعُدْرِيُّ فِي عَفْرَاءِ بِنْتِ مَالِكِ الْعُدْرِيِّ ،
وَتَشَدُّ الْأَبْيَاتُ لِحُسْنِهَا ، وَلَكُونِ الْمَعْنَى فَرَعًا مِنْ غُضْنِهَا .

أَلَا يَا غُرَابِي دِمْنَةَ الدَّارِ خَبَّرَا أَبَاهُ جُرِّ مِنْ عَفْرَاءِ تَنْتَحِبَانِ ؟
فَإِنْ كَانَ حَقًّا مَا تَقُولَانِ فَانْهَضَا بِلَحْمِي إِلَى وَكْرِي كَمَا فَكَلَانِي
وَلَا يَعْلَمَنَّ النَّاسُ مَا كَانَ مِيتَتِي وَلَا يَا كُلْنَ الطَّيْرُ مَا تَذَرَانِ
جَعَلْتُ لِعَرَافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعَرَافِ حُجْرٍ ^(١) إِنَّهُمَا شَفَقِيَانِي
فَقَالَا : شَفَاكَ اللَّهُ ، وَاللَّهِ مَا لَنَا بِمَا ضُمْنَتْ مِنْكَ الضُّلُوعُ يَدَانِ

وَضَرَبَ الْمَثَلَ بِهَيْبَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَكَانَ مَشْهُورًا بِهَا ، وَبَانْبِسَاطِ عَلِيِّ بْنِ
أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

١٠

وَلَهُ مِنْ أُخْرَى فِي ابْنِ طَاهِرٍ أَمِيرٍ مُرْسِيَّةٍ وَقْتَهُ :

وَعَاجُوا عَلَى عُسْفَانَ وَاللَّيْلِ الْئِيلُ وَهَزُّوا بِذَاتِ الْبَيْنِ وَالضُّبْحِ مُسْفِرُ
وَحَازَتْهُمْ حُزْوَى ضُحَى وَتَرَوْحُوا بِمَنْعِجٍ وَاسْتَعْلَوْا أَبَانًا فَنَوَّرُوا
وَلَمَّا تَوَاقَفْنَا بِذِي سَلَمٍ بَدَا سَلَامٌ لِسَلَمَى ظَلَّ يَخْفَى وَيَظْهَرُ
شَعَرْتُ لَهُ وَالرَّكْبُ حَيْرَانُ غَافِلُ وَمَا شَاعِرُهُ أَمْرًا كَمَنْ لَيْسَ يَشْعُرُ
رَأَتْ ظُبِيَّةَ الْوَعَسَاءِ عَيْنِي فَهَيَّجَتْ لَهَا ذِكْرَهُمْ وَالشَّيْءُ بِالشَّيْءِ يُذَكِّرُ
سَأَبِكِي طُلُولًا كُنْتُ فِيهَا مُطَلَّةً عَلَيْهَا وَكُلُّ اللَّيْلِ تَحْتِكَ مُقْمَرُ
تَصَرَّمْ ذَاكَ الْعَيْشُ إِلَّا اذْكَارَهُ وَإِلَّا كَذُوبًا فِي الْعَنَامِ تَزَوَّرُ
فَتَى طَاهِرِي طَاهِرُ الثَّوْبِ ذِكْرُهُ مِنَ الْمِسْكِ أَذْكَى أَوْ مِنَ الْمَاءِ أَطْهَرُ

١٥

وله من أخرى في المعتضد :

لولا هم لحججت أول حجة
ولزئت حمص العرب أعرب زائر
وزحت واديها بمثل عبايه
وأريته بحرا يفاخر قعره
و منها في مدحه :

يا حاسديه على على خطت له
يخلي الديار من الجسوم ويجتنى
فكأنما (٢) الأجسام بعد رؤوسها
أبيات شعر ما لهن قواف
قال ابن بسام : أظن ابن شرف ، فيما وصف ، شبه الأجسام دون رؤوسها
بأبيات شعره في هذه القصيدة ! فليست لها مبادي ولا قواف ، وما أمتري أن
الغربة فلت غرب طبعه ، وغسلت عن (٣) جوانحه ، وأطفأت نار قرائحه .
ومن أشبه مدائحه قوله في علي بن أبي الرحال بعض أمراء القيروان
من قصيدة :

جاوز عليا ولا تحفل بحادثة
انتم حكاة المسمى في الفعال فقد
فالماجد السيد الحر الكريم له
زان العلا وسواه شأنها وكذا
وربما عابه ما يفخرون به
إذا ادرعت فلا تسأل عن الأسل
حاز العليين من قول ومن عمل
كالنعت والعطف والتوكيد والبدل
للشمس حالان في الميزان والحمل
يُسْنَمِن الخضر ما هو من الكفل

(١) في الأصل : القضاء النون . (٢) في الأصل : كأنها .

(٣) كذا بالأصل ولعلها : « حر جوانحه » .

سَلْ عَنْهُ وَانْطِقْ بِهِ وَانْظُرْ إِلَيْهِ تَجِدْ
مِلَّ الْمَسَامِعِ وَالْأَفْوَاهِ وَالْمُقَلِّ
وَلَهُ مِنْ أُخْرَى :

مَا لِي كَذَا كُلُّ مَا طَلَبْتُهُ عَسِرَ
وَقَدْ أَخَذْتُ بِحُبِّ الْمَطْلَبِ الْعَسِيرِ !
مَا لِي أَجَازِبُ ذِي الدُّنْيَا مُوَلِّيَةً
فَكُلُّ ثَوْبٍ عَلَيْهَا قَدْ مِنْ دُبُرٍ !
ومنها :

يُعْطَى الْجَزِيلَ مِنَ التَّنْوِيلِ مُعْتَذِرًا
وَرُبَّ مُعْطَى قَلِيلٍ غَيْرِ مُعْتَذِرٍ
أَتَى الزَّمَانَ عَلَى يَأْسٍ بِهِ لِابْنِ الدُّ
نْيَا كَبُشْرَى بِمَوْلُودٍ عَلَى الْكِبَرِ
إِنِّي وَجَدْتُكَ صَيَّرْتُ الْوَرَى نَهْرًا
وَقُلْتُ مَا قَالَهُ طَالُوتُ فِي النَّهْرِ
فَأَنْتَ عِنْدِي مِنْهُمْ غُرْفَةٌ بِيَدِي
حَلَّتْ وَحُرِّمَ بَاقِي النَّهْرِ فِي الزُّبُرِ

ومعنى البيت الرابع من هذه كقول أبي تمام ، ونقص فيه عن التمام :

بُشْرَى الْغَنَى أَبِي الْبَنَاتِ تَقَابَعْتُ
بُشْرَاوَهُ بِالْفَارِسِ الْمَوْلُودِ

وذكرت بقوله : * فكلُّ ثَوْبٍ عَلَيْهَا قَدْ مِنْ دُبُرٍ * قول القائل :

قَمِيصُ يُوسُفَ لَمَّا قَدْ مِنْ دُبُرٍ
كَانَتْ بَرَاءَتُهُ فِيهَا مِنَ الْكَذِبِ
وَفِي قَمِيصِكَ لَمَّا قَدْ مِنْ دُبُرٍ
تَمَّا يَدُلُّ عَلَى الْفَحْشَاءِ وَالرَّيْبِ

وفي الحسن بن وهب يقول القائل :

إِذَا لَقِيتَ بَنِي وَهْبٍ بِمَنْزِلَةٍ
لَمْ تَذَرِ أَثَرَهُمَا الْأَنْثَى مِنَ الذَّكَرِ
مُؤَدَّبُونَ عَلَى الْفَحْشَاءِ مِنْ صِغَرٍ
مُدْرَبُونَ عَلَى النَّكْرَاءِ فِي الْكِبَرِ
يُحْنَكُونَ وَلَمْ تُقَطَّعْ سَرَائِرُهُمْ
بَيْنَ الْحَوَاضِنِ وَالذَّائِيَاتِ بِالْكَمَرِ
قَمِيصُ أَنْثَاهُمْ يَنْشَقُّ مِنْ قُبُلٍ
وَقُمُصُ ذُكْرَانِهِمْ تَنْقَعُ مِنْ دُبُرٍ

سائر مقطوعات له في أوصاف شتى

قال :

لعلَّ الله يفتكُّ المعنى الأسيرَ فيغتندي وهو الطليقُ
وإن أرجو التخلص من عظيمٍ
لقد أنفذت من جلدي دروعاً
وصبراً لو تجسّم لي مجنّاً
وأفقد ما طلبت فلم أجده (١)
فأصبح وهو للعنقاء ثانٍ
صحبته هذه الدنيا أناساً
ولم أصحبهم وداً ولكن
لعله ذهب في هذا إلى قول أبي الطيّب :

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى
عدواً له ما من صَدَاقته بُدُّ

وقال :

بعيشك نادِ أيامى وقلْ هل
أراك كما يرى المحتاجُ مالا
أراحـلةً وما أبقيت منى
وقد عاقبت بالعبرات عيني
وجدت الناس كلهم طلولاً
وتسمع منهم ما لا تراه
لديك إلى مرَدٍّ من سبيلٍ ؟
وقد ملكت عليه يدُ البخيلِ
سوى لحظٍ يُترجمُ عن قَتيلٍ ؟
بلا ذنبٍ وما ذنبُ الرسولِ ؟
فلم أطل الوقوفَ على الطلولِ
كسامعِ ضربةِ السيفِ الصَّقيلِ

(٢) في الأصل : عذروا . . فعذرهم .

(١) في الأصل : أجد لي رفيق .

فَمَنْ بِسِوَاكَ بِاعِكَ فَاغْنِ عَنْهُ كَمَا اسْتَغْنَى عَلِيٌّ عَنْ عَقِيلٍ
عَقِيلُ أَخُو عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَانَ وَلَدَ مَعَهُ تَوَاضَعًا ، وَلِذَلِكَ قَالَ : زَوْجَتُ
حَتَّى فِي الرَّحِمِ . وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ صِفِّينَ هَرَبَ إِلَى مَعَاوِيَةَ وَفَارَقَ أَخَاهُ عَلِيًّا .
وَقَوْلُهُ : « أَرَأَيْكَ كَمَا يَرَى الْمُحْتَاجُ مَالًا » الْبَيْتُ ، أَرَاهُ تَوَارَدَ فِيهِ مَعَ لِدَتِهِ
وَابْنِ بَلَدَتِهِ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ رَشِيْقٍ حَيْثُ يَقُولُ :

وَالصَّبْحُ قَدْ مَطَّلَ اللَّيْلُ الْعُمُيُونَ بِهِ كَأَنَّهُ حَاجَةٌ فِي يَدِّ ضَيْئِينَ
وَقَالَ ابْنُ شَرْفٍ :

وَمَا بُلُوغُ الْأَمَانِي فِي مَوَاعِدِهَا إِلَّا كَأَشْعَبَ يَرْجُو وَعَدَ عُرْقُوبٍ
وَقَدْ يُخَالِفُ مَكْتُوبُ الْقَضَاءِ يَدِي فَكَيْفَ يَقْضِي [بِأَمْرِ] غَيْرِ مَكْتُوبٍ ؟

وقال : ١٠

سَلُّ عَنْ رِضَايَ عَنِ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ كَرِضَى الْفَرَزْدَقِ عَنِ بَنِي يَرْبُوعٍ
لِلَّهِ حَالٌ قَدْ تَنَقَّلَ عَنْهَا بِخِلَافٍ نَقْلُ الدَّهْرِ حَالَ صَرِيْعٍ
دَارَتْ دَرَارِيُّ الْخُطُوبِ قَوَاصِدًا حَتَّى نَظَرْنَا إِلَى مِنْ تَرْبِيعٍ
كَانَ صَرِيْعُ الْغَوَانِي خَامِلًا فَوَلَّاهُ بَنُو سَهْلٍ جُرْجَانَ فَشَرُفَ .

وقال : ١٥

أَهْلَ الصَّفَاءِ نَأَيْتُمْ بَعْدَ قُرْبِكُمْ فَمَا انْتَفَعْتُ بِعَيْشٍ بَعْدَكُمْ صَافِرٍ
وَقَدْ قَصَدْتُ نَدَى مَنْ لَا يُوَافِقُنِي فَكَانَ سَهْمِي عَنْهُ الطَّائِشَ الْهَافِي
أُرِدْتُ عَمْرًا وَشَاءَ اللَّهُ خَارِجَةً أَمَا كُنِيَ الدَّهْرَ مِنْ خُلْفِي وَإِخْلَافِي ؟

وقال :

يَقُولُونَ سَادَ الْأَرْدَلُونَ بَعْصَرَنَا وَصَارَ لَهُمْ قَدَرٌ وَخَيْلٌ سَوَابِقُ
تُفَرِّزُنِي فِي أُخْرَى الْبُيُوتِ الْبَيَادِقُ فَلَمْتُ لَهُمْ وَلَّى الزَّمَانُ وَلَمْ تَزَلْ

٢٠

وقال : قالوا تصاهلت الحمير فقلت إذ عديم السوابق

خلت البيوت من الرخا خ فقرزنت فيها البياق

وقال :

شكوت حزني وبشي إلى القريب المجيب

فكان عقباي عقيب نبئيه يعقوب

وقال :

لأك منزل كملت ستارته لنا للهو لكن تحت ذاك حديث

عني الذباب وظل يزمر حوله فيه البعوض ويرقص البرغوث

وهذا كقول الشميسر :

ضاق بلبسية بي وذاد عني غموضي

رقص البراغيث فيها على غناء البعوض

ما أخرجته من مراثيه لأهل القيروان بلده

قال من قصيدة وصف فيها إذلال أهل سوسة جالية القيروان ، وهي طويلة

قطفت عيونها :

آه للقيروان أنه شجو عن فؤاد بجاحم الحزن يصلي

حين عادت به الديار قبوراً بل أقول الديار منهن أخل

ثم لا شمعة سوى أنجم تخطو على أفقها نواعس كسلي

بعد زهر الشماع تودد وقد ومة ان الذبال تفعل فتلا

والجوه الحسان أشرق منهن (م) ويفضلنهن معنى وشكلا

لو رأيت الذين كان لهم سهل لك وغرا قد صيروا الوعر سهلا

ومنها :

بعدَ يومٍ كأنما حُشِرَ الخَدَّاءُ
ولهم زَحْمَةٌ هُنَالِكَ تَحْكِي
وعَجِيجٌ وَضَجَّةٌ كَضَجِيجِ الْإِ
مِنْ أَيْمَى وَرَاءَهُنَّ ^(١) يَتَقَامَى
وَتَكَالَى أَرَامِلًا حَامِلَاتٍ
وَحَصَانٍ كَأَنَّهُنَّ الشَّمْسُ حُسْنًا
فَاتَ كَرْسِيَّهَا الْجِلَاءُ فَأُضْحِتْ
جَارَ فِيهِمْ زَمَانُهُمْ وَأُولُو الْأُمَّةِ
تَرَكَوْا الرُّبْعَ وَالْأَثَاثَ ^(٢) وَمَا يَثُ
لَبِسُوا الْبَالِيَاتِ مِنْ خَشَنِ الصُّو
نَادَبَاتٍ ، عَفْرَاءَ تُسْعِدُ سُعْدَى
لَيْسَ مِنْهُمْ مَنْ يُودَّعُ جَارًا
كَلْهَنٌ اعْتَدَى الْفِرَاقُ عَلَيْهِ
فَإِذَا الْقَفَرُ ضَمَّهُمْ فَوْقَ ^(٣) الدَّهْرِ لَهْمٌ غَيْرَ ذَلِكَ النَّبَلِ تَبْلَا
مِنْ ثَعَابٍ بَيْنَ حَامِلِينَ نِيوبًا ^(٤)
وَشَيَاطِينَ رَاحِمِينَ يُبْلَاوُ
فَتَرَى لِلظُّهُورِ ^(٥) تَعْتَلُ عَمَلًا
قُ حُفَاةً بِهِ عَوَارِي رَجُلِي
زَحْمَةٌ الْحَشِرِ وَالصَّحَائِفُ تُثَلِّي
خَلْقٍ يَبْكُونَ وَالسَّرَائِرُ تُبْلِي
مُلُتُوا حَسْرَةً وَشَجْوًا وَتُكَلَّا
طِفْلَةً تَحْمِلُ الرِّضَاعَ وَطِفْلًا
كَفَنَتْهَا الْأَطْهَارُ نَجْلَاءَ كَحَلَا
فِي ثِيَابِ الْجِلَاءِ لِلنَّاسِ تُجَلَّى
رَفَقُوا وَارْتَجُونَ فِي الْأَرْضِ عَدْلًا
قُلْ لَا حَامِلٌ مِنَ النَّاسِ ثِقَلًا
فِي وَعَادَ ^(٦) النَّبِيَّةُ فِي النَّاسِ غَفْلًا
وَسُعَادٌ تُجِيبُ بِالنُّوحِ جُمْلًا
لَا وَلَا حُرْمَةً تُشَيِّعُ أَهْلًا
فَاقْتَحَمَ الْجِلَاءُ حَفْلًا فَحَفْلًا
رُ لَهْمٌ غَيْرَ ذَلِكَ النَّبَلِ تَبْلَا
عُصْلًا : ذَابِلًا وَنَبْلًا وَنَصْلًا
نَ بَجُونِ الْفَلَا مَسَاكِينَ عَزْلًا
وَتُشَقُّ الْبَطُونُ تُغْسَلُ غَسْلًا

٩٢ | ٥

١٠

١٥

(١) فِي الْأَصْلِ : وَرَاءَهُمْ . (٢) فِي الْأَصْلِ : وَالْإِنَاثَ .

(٣) رَسْمُ الشُّطْرِ فِي الْأَصْلِ : لَتَعْدُوا الْبَنِيَّةُ فِي النَّاسِ عَقْلًا . (٤) فِي الْأَصْلِ : لِيُوْثَا

(٥) فِي الْأَصْلِ « فَرَق » . (٦) فِي الْأَصْلِ : فَتَرَى الظُّهُورَ .

فإذا مطمَعٌ أصْبَحَ أبوه في أح
فإذا نَجَّتْ المقاديرُ منهم
لَقِيَ الهُـونَ في المذلةِ أُنَى
ليس يلقى إلا امرأً مُسْتَطِيلًا
فتَرَى أَشْرَفَ البريةِ نفسًا
فهمُ كلما نَبَتْ بهم أُرْ
مُزَقُّوا في البلادِ شرقًا وغربًا
لا يُلاقى النسيبُ منهم نسيبًا
ليت شعري هل عَوْدَةٌ لِي في الغيِّ
بِإلى ما أطلَّ شَجْوَى أُمِّ لَا ؟

١٠ قوله « حين عادتُ به الديارُ قبورًا » يشبهه من وجه قول أبي تمام :

وما القفرُ بالبيدِ القواءِ بل التي نَبَتْ بِي وفيها ساكنوها هي القفرُ
وأخذهُ بعضُ أهلِ عصرى وزاد فقال :

ثَاوٍ بِحِمَصَ كَأَنَّمَا هِيَ قَبْرُهُ لَوْ لَمْ يُقَاسِ بِهَا صُرُوفَ زَمَانِهِ

وقوله « ثم لا شَمْعَةٌ سِوَى أَنجَمٍ » يَنْظُرُ إِلَى قولِ مُحَمَّدِ بْنِ هَانِيءِ الأندلسيِّ :

١٥ وبَاتَ لَنَا سَاقٍ يَقُومُ عَلَى الدَّجَى بِشَمْعَةٍ صُبْحٍ لَا تُقَطُّ وَلَا تُطْفَأُ

وَيُرَوَّى « بِشَمْعَةٍ لَيْلٍ » ، وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قولِ أَبِي الحَسَنِ سُلَيْمَانَ بْنِ حَسَنِ النَّصِيبِيِّ :

وَإِنْ يَكُ لَيْلُنَا فِيهِ نَهَارًا فَشَمْعَةٌ بِدَرِهِ لَيْسَتْ تُقَطُّ

وَرُبَّمَا تَوَارَدَ مَعَهُ لِأَنَّهُ كَانَ مُعَاصِرَهُ ، إِلَّا أَنَّ ابْنَ هَانِيءٍ أَقْدَمُ مَوْتًا .

حكى أبو علي في رسالة « قراضة الذهب » أنه مات سنة اثنتين وستين وثلاثمائة .

وقال ابن شرف من قصيدة وصف ما كان من صيانة الحرير في أوطانها، ثم ما صارت إليه من الانكشاف في الحِلِّ والتَّرحال، ورُكوبِ ظُهورِ الخطوبِ والأهوال، يقول فيها :

بعدَ خطوبٍ خطبتُ مُهَجَّتِي وكانَ وشكُ البينِ إمهارها
ذا كبدٍ أفلاذُها حَوْلَهَا قَسَمَتِ الغُرْبَةُ أعشارها
أطافلٌ ما سَمِعْتُ بالفِلا قَطُّ فَعَايَنْتِ الفِلا دارها
ولا رَأَتْ أَبْصارُها شاطِئًا ثم جَلَتْ باللُّجِّ أَبْصارها
وكانتِ الأستارُ آفاقَهَا فَعَادَتِ الآفاقُ أَسْتارها
ولم تكنْ تَعْلُو سَرِيرًا عَلا إِلَّا إِذَا وَاْفَقَ مِقْدَارها
ثمَّ عَلَتْ كُلَّ عُمُورِ الخُطَا تَرْمِي بِهَا الأَرْضَ وَأَحْجارها
ولم تكنْ تَلْحَظُهَا مُقَلَّةٌ لو كَحَلَّتْ بِالشَّمْسِ أَشْفارها
فأَصْبَحَتْ لَا تَتَّقِي لَحْظَةً إِلَّا بِأَنْ تَجْمَعَ أَطْمارها

١٥ قوله « وكانت الأستارُ آفاقها » من الكلام الفصيح، والقلب المليح. ويُشبهه مَنْعَاهُ، وإن لم يكنْ في مَعْنَاهُ، قَوْلَ الأوَّل :

فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ الشُّودَ بَيْضًا وَرَدَّ وُجُوهَهُنَّ الْبَيْضَ سُودًا

وكقول الآخر :

نَدِيمَتِي جَارِيَةٌ سَاقِيَةٌ وَنَزْهَتِي سَاقِيَةٌ جَارِيَةٌ

وله من أخرى :

كَأَنِّي وَأَفْرَاحِي إِذَا اللَّيْلُ جَمَعَنَا
حَامُّمُ أَضْلَانِ الْوُكُورَ فَضَمَّهَا
إِذَا أَفْزَعَتْهُمْ نَبُوءَةُ زَاحُوا لَهَا
وَيَصْغُرُ جِسْمِي عَنْ جَمِيعِ احْتِضَانِهِمْ
كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْكُنُوا ظِلَّ نِعْمَةٍ
إِلَى أَنْ غَدَوْا قِنَّ^(١) الْفَيَافِي فَتَارَةً
وَطُورًا عَلَى مَوْجِ الْبَحَارِ كَأَنَّنَا
وَنَحْنُ نَفُوسٌ تِسْعَةٌ لَيْسَ بَيْنَنَا
نَظَمَ هَذَا مِنْ قَوْلِ الْفَيْلَسُوفِ وَقَدْ رَكِبَ سَفِينَةً فَقَالَ الْمَلَّاحُ : كَمْ غِلَظُ

لُوحِ سَفِينَتِكَ ؟ قَالَ : إَصْبَعَانِ . قَالَ : فَأَيُّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمَوْتِ إَصْبَعَانِ !
وَقَوْلُهُ « إِذَا أَفْزَعَتْهُمْ نَبُوءَةُ » الْبَيْتِ ... بَنَاهُ عَلَى قَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ ، إِلَّا
أَنَّ الْوَجْدَ لَدَعَهُ لَدَعَةً أَنْطَقَتْهُ بِالْحَالِ ، وَقَوْلَتِهِ السَّحْرُ الْحَلَالِ ، فَعَلَّتْهُ كَيْفَ
يُفْتَتُّ الْأَكْبَادَ ، وَيُفْتَتُّ فِي الْأَعْضَادِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ :

إِذَا أَخَذَتْهَا هَزَّةُ الرَّوْعِ أَمْسَكَتْ
بِمَنْكَبِ مِقْدَامٍ عَلَى الْهَوْلِ أَرْوَعًا^(٢)

وقال من أخرى :

يَا قَيَّرَوَانُ وَدِدْتُ أَنِّي طَائِرُ
أَهَا وَآيَةُ آهَةٍ تَشْفِي جَوَى
أَبَدَتْ مَفَاتِيحُ الْخُطُوبِ عَجَائِبًا
فَأَرَاكَ رُؤْيَا بَاحِثٍ مُتَأَمِّلٍ
قَلْبِ بَنْدِرَانِ الصَّبَابَةِ مُصْطَلًى
كَانَتْ كَوَامِنَ تَحْتَ غَيْبٍ مُقْفَلٍ

زَعَمُوا ابْنَ آوَى فِيكَ يَعْوَى وَالصَّدَى
يا بَيْدَ رُوطَةَ^(١) وَالشَّوَارِعُ حَوْلَهَا
يَا أَرْبَعِي فِي الْقُطْبِ مِنْهَا كَيْفَ لِي
يَا لَوْ شَهِدْتُ، إِذَا رَأَيْتُكَ فِي الْكُرَى،
لَا كَثْرَةَ الْإِحْسَانِ تُنْسِي حَسْرَةَ
وَإِذَا تَجَدَّدَ لِي أَخٌ وَمُنَادِمٌ
«لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخَرَ عَهْدِهِمْ
وَهَذَا الْبَيْتُ لَجَرِيرٌ، وَإِنَّمَا تَضَمَّنَهُ، وَبَعْدَهُ قَوْلُ جَرِيرٍ:

لو كنتُ أُحَذِرُ وَشَكَ بَيْنَ عَاجِلٍ لَقَنْعَتُ أَوْ لَسَأَلْتُ مَا لَمْ يُسْأَلِ

وقوله «وإذا تجدد لي أخ ومُنَادِمٌ» من قول أبي تمام:

نَقَلَ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهُوَى
وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ الرَّضِيُّ:

مَا سَاعَدَتْنِي اللَّيَالِي بَعْدَ بَيْنِكُمْ
إِلَّا ذَكَرْتُ لِيَالِيَنَا بِذِي سَلَمٍ
وَقَالَ ابْنُ شَرَفٍ مِنْ قَصِيدَةٍ:

كَأَنَّ الدِّيَارَ الْخَالِيَاتِ عَرَائِسُ
وَتُنْكَرُ بُقْيَاهَا الْأَسِرَّةُ حَسْرًا
إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ تَمَكَّنَتْ
وَلَا سُرُجٌ إِلَّا النُّجُومُ وَرَبَّمَا
يَمُرُّ عَلَيْهَا الْمَوْرُ يَسْحَبُ لُحْفَهُ
وَيَمْتَدُّ عَمْرُ الصَّوْتِ فِيهَا وَرَبَّمَا

(١) كذا بالأصل، وروطة من أعمال سرقسطه، ولعلها «روحة» قرية من قرى القيروان.

فلو نَطَقَتْ ما كانَ أَكْثَرُ نُطْقِها
سَوَى قَوْلِها أَيْنَ الخَلِيطُ المَعاشِرُ ؟
أَلَا قَمَرٌ إِلَّا المَقْنَعُ في الدَّجَى
فَأَيْنَ اللّوَاتِي لَيْلُهُنَّ المَعاجِرُ ؟
أَلَا مَنْزِلٌ فِيهِ أُنَيْسٌ مُخَالِطٌ
أَلَا مَنْزِلٌ فِيهِ أُنَيْسٌ مُجَاوِرٌ ؟
تُرْمِي سَيِّئَاتِ القَيْرِوانِ تَهَاظَمَتْ
فَجَلَّتْ عَنِ الغُفَرانِ وَاللهُ غافِرٌ ؟
تُرَاهَا أُصِيبَتْ بالكِبائِرِ وَحَدَّها
أَلَمْ تَكُ قَدَمًا في البلادِ الكِبائِرُ ؟
ضَجَرَ أَبُو عَبْدِ اللهِ — عَفَا اللهُ عَنْهُ ! ، وفيها يقول :

تَرَحَّلَ عَنْها قاطِنُها فلا تَرى
سَوَى سائِرٍ أَوْ قاطِنٍ وهو سائِرُ
تَكشَفَتْ الأَسْتارُ عَنْهم وربما
أُفِيْمَتْ سُسُورُ دُونِهِم وَسَتائِرُ
إذا جاذَبَتْ أَسْتارَها تَبْتَغِي بها
لأَقْدَامِها سِتْرًا تَبَدَّتْ غَدائِرُ
تَبَيَّتْ على فُرْشِ الحَصَى وَغِطَاؤُها
دَوارسُ أَشْمالِ زَوَارٍ حَقائِرُ
فيا لَيْتَ شِعْرَ القَيْرِوانِ مَواطِنِي
أُعائِدُهُ فِيها الِليلى القِصائِرُ ؟
ويا رَوْحِي بالقَيْرِوانِ وَبُكَرَتِي
أراجِعةٌ رَوْحَاتِها والبَواكِيرُ ؟
كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ أياْمنا فَيْكِ طَلَقَةٌ
وَأَوَّجُهُ أَيامِ الشُّرورِ سَـوَافِرُ
كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ كُلُّ وَلا كانَ بَعْضُهُ
سَيَمَضِي بِهِ عَصْرٌ وَيَمَضِي المَعاصِرُ

قوله « كَأَنَّ الدِّيَارَ الخالِياتِ » ينظرُ من وَجْهِ إلى قولِ أَبِي تَمَّام :

وكذلك لَمْ تُفْرِطْ كَأَبَّةٌ عَاطِلٌ

وقال ابنُ شَرَفٍ من أُخْرَى :

سَقَى القَصْرَ فالْمِيدانَ أَخْلَافُ مُزْنَةٍ
وَراحَتٌ على الدُوحاءِ مِنْها أَفاوِيقُ
عَلَى أَنَّهُ مَرَمَى^(١) تَبَتَّ عَنْهُ أَسْهُمِي
فَلا حَدَّ لِي في الأَفْقِ مِنْهُ ولا فَوْقُ
أُنَادِيهِ والبَحْرُ الحَيطُ مُجَاوِي
ودُونِي خَلِيجٌ مِنْهُ أَفِيحٌ مَخْرُوقُ

وَقَرْطَبَةٌ ضَمَّتْ إِلَيْهَا جَوَانِحِي كَمَا ضَمَّ مِنْ عَفَاءِ عُرْوَةٍ تَعْنِيقُ
نَزَلْنَا بِهَا ^(١) لَا نَبْتَغِي الشُّوقَ عِنْدَهَا فَمَا كَانَ بُدًّا أَنْ أُقِيمَتْ لَنَا سَوْقُ
وَأَحْيَا ابْنُ يَحْيَى مَيِّمَاتِ خَوَاطِرِي وَفَسَّحَ آمَالِي وَكَانَ بِهَا ضَيْقُ
أَبَا حَسَنِ أَحْسَنَتْ بَدْءًا وَعَوْدَةً وَلِلْغُضَنِ إِثْمَارُ إِذَا كَانَ تَوْرِيقُ
فَلَمْ يَرِ بَوْسُ إِذْ وَلَيْتَ أُمُورَهَا وَلَا كَسَدَتْ سَوْقُ إِذْ ^(٢) التَفَّتِ الشُّوقُ
وَكَمْ لَقِيتُ حَرْبَ الْأَزَارِقِ مِنْهُمْ وَكَمْ زُرِقْتُ فِي جَانِبَيْهَا الْمَزَارِقُ
قَالَ ابْنُ بَسَّامٍ : وَكَثِيرًا مَا يَذْكُرُ ابْنُ شَرْفٍ فِي شِعْرِهِ أَحْيَاءَ الْأَعْرَابِ
الَّتِي أَخْرَجَتْهُمْ مِنَ الْقَيْرَوَانِ كِبْنَى هِلَالٍ وَقِرَّةَ وَزُغْبَةَ وَهُمْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا حَرْبَ بَلَدِهِ
فِي التَّارِيخِ الْمُتَقَدِّمِ الذَّكْرُ . فَمِنْ ذَلِكَ قَصِيدَةٌ أَوْهَا :

جُسُومٌ عَلَى حُكْمِ الْعُيُونِ صَحَاحُ وَفِي طَيِّ أَحْنَاءِ الضُّلُوعِ جِرَاحُ
يَقُولُ فِيهَا :

إِذَا كَانَ لِلْأَحْبَابِ رُسُلٌ فَرُسَلْنَا بُرُوقٌ إِلَى أَحْبَابِنَا وَرِيَّاحُ
وَمِنْ دُونِ تِلْكَ الرُّسُلِ أَخْضَرُ زَاخِرُ أَجَاجٌ وَمَهْجُورُ الْفِجَاجِ فَيَاحُ
وَلِلسَّهْمِ دُونَ الْقَيْرَوَانِ تَسَهُمُ ^(٣) وَمَا شَوْكُهُ إِلَّا ظُبِّي وَرِمَاحُ
وَقِرَّةٌ قَدْ قَرَّتْ هُنَاكَ عُيُونُهَا وَزُغْبَةٌ رِيشتُ زُغْبَهَا وَرِيَّاحُ
كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ لِي أَمْسٍ فِي عَرَصَاتِهَا مِنْ الْعَيْشِ جِدُّ طَيِّبٌ وَمَزَاحُ
يُخَيِّلُهَا زَوْرُ الْكَرَى لِي فِي الدُّجَى فَأَرْغَبُ فِي أَلَا يَلُوحَ صَبَاحُ
كُسَيْتُ قِنَاعِ الشَّيْبِ قَبْلَ أَوَانِهِ وَجِسْمِي عَلَيْهِ لِلشَّبَابِ وَشَاحُ
وَيَا رَبِّ وَجْهِ فِيهِ لِلْعَيْنِ مَنَزَهُ أُمَانِعُ عَيْنِي مِنْهُ وَهُوَ مُبَاحُ
وَأَهْجَرُهُ وَهُوَ اقْتِرَاحِي مِنَ الْوَرَى وَقَدْ تَهَجَّرُ الْأُمُوهُ وَهِيَ قَرَّاحُ

(١) فِي الْأَصْلِ : نَزَلْنَا لَا نَبْتَغِي (٢) فِي الْأَصْلِ : إِلَّا (٣) كَذَا فِي الْأَصْلِ

وهذا مضمراع بيت المعري :

* والعذب يُهجرُ للإفراطِ في الخصرِ *

وقوله :

* يُخِيلُهَا زَوْرُ الْكَرَى *

ألم فيه ابن شرف بقول العباس بن الأحنف :

حتى أقول إذا استيقظت من أسفٍ يا ليتني كنت دهرى راقدا أبدا
وله من أخرى يمدح الأمين ابن السقاء :

فيا أخوى من أسدٍ وسعدٍ	أحى حى زغبة أم دفين
فلا اشتملت مساكنها بشملٍ	ولا هذا القرار به سكون
ولا سرت الرياح على رياحٍ	لواقع مزنة أنى تكون
فقد دارت علينا من راحها	طحون كل ما لاقت زبون
فلا وطن لنا إلا المطايا	والأ الماء طورًا والسفين
لعلك أيها البرق اليماني	إذا كشفت عن خبر تبين
أفي وكنتها عقبان قوم	كعهدي أم خلت منها الوكون
وبين قباب صبرة والمصلى	نهى ومهى وآساد وعين
وأجبال تمور بها المذاكى	وأقمار تميم بها الغصون
وقرطبة أعيدت قيروانا	لنا لما دعت تلك الفتون
وكيف يضيع مثلى في مكان	يكون به أبو الحسن الأمين
أيا من أن تكون النون راء	وقد وجبت له راء ونون

انتهى ما أخرجه من أخبار ابن شرف ، وتتلو ذلك بطرف من أخبار

ابن السَّقاء مُدَبِّرُ الدَّوْلَةِ الجَهْوَريَّةِ بَقْرُطَبَةِ ، ونُشِيرُ إِلَى مَقْتَلِهِ ، وَنُلَمِّعُ بِذِكْرِ
أَوَّلِهِ ، وَكَيْفَ ارْتَقَى مِنَ الحَضِيضِ ، إِلَى ذِرْوَةِ الجَاهِ العَرِيضِ ، حَتَّى زَاخَمَ
نُجُومَ الأَفْلاكِ ، وَمَلَأَ صُدُورَ الأَمْلاكِ ، وَسَارَتْ عَنْهُ فِي السِّيَاسَةِ أَخْبَارُ ، نَحَتْ
أَضْوَاءُ الأَسْحَارِ ، وَعَطَّرَتْ أَنْفَاسَ الأَزْهَارِ .

جَمَلَةٌ مِنْ أَخْبَارِ ابْنِ السَّقاءِ القُرْطَبِيِّ ، مُدَبِّرِ المُلْكِ الجَهْوَريِّ

قال ابن حَيَّان : كَانَ أَبُو الحَسَنِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ يَحْيَى المَعْرُوفُ بِابْنِ
السَّقاءِ قَدْ كَلَبَ مِنْ شَطَفِ المَعِيشَةِ فِي فِتَاءِ سِنِّهِ مَا لاشَىءُ فَوْقَهُ ، إِذْ كَانَ يُعَالِجُ
السَّقَطَ بِسُويْقَةِ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ فِي قُرْطَبَةِ بِيضَاءَةِ نَزْرَةٍ . وَأَعْلَى مَا انْتَقَلَ إِلَيْهِ
عِنْدَ إِكْدَاءِ تِلْكَ الحَرْفَةِ الاسْتِخْرَاجُ فِي جِهَةِ الأَحْبَاسِ ، وَإِثْرُهُ ^(١) عَنْ وَالِدِهِ
مُحَمَّدِ السَّقاءِ . وَبِأَسْبَابِهَا خَدَمَ القُضَاةَ وَتَمَرَّنَ مَعَ الفُقَهَاءِ ، وَهُوَ يَقْتَاتُ
مَعِيشَتَهُ مِياوِمَةً ، وَيَأْوِي لَيْلَهُ إِلَى بَيْتٍ فِي دَوِيرَةِ وَالِدِهِ مُحَمَّدٍ بِجُوفَى المَسْجِدِ
الْجَامِعِ ، يُحَاضِرُ فِيهِ جَمَاعَةً إِخْوَةً لَا يَجِدُ بَيْنَهُمْ إِلَى مَدِّ سَاقِهِ سَبِيلًا . وَمَا هُوَ
إِلَّا أَنْ حَمَلَ الأَمَانَةَ عَلَى كَاهِلِهِ ، فَوَضَعَهَا أَسْفَلَ رِجْلِهِ . وَتَذَكَّرَ عَضَّ الكِلَابِ
لِعَصَاهُ ، فَتَحَوَّلَ جُرْذَاً لِلسَّرْقِ وَالْخِيَانَةِ ، وَابْتَنَى القُصُورَ المُنِيعَةَ ، وَاقْتَنَى الضِّياعَ
المُغْلَةَ ، إِلَى أَمْلاكٍ لَا تُحْصَى كَثِيرَةً .

قال ابن بَسَّام : وَقَدْ رَأَيْتُ ابْنَ حَيَّانَ مَدَحَ ابْنَ السَّقاءِ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ
مِنْ كِتَابِهِ ، فَقَالَ فِيهِ فِي فَصْلِ :

وَصَارَ مِنَ المَنَاجِحِ لِلدَّوْلَةِ الجَهْوَريَّةِ أَنْ اسْتَعَانَ فِيهَا الوَظِيرُ الرِّئِيسُ
أَبُو الوَلِيدِ جَهْوَزٌ عَلَى أَمْرِهِ بِالْأَمِينِ أَبِي الحَسَنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ ، مُتَوَلَّى النِّظَرِ

(١) لَعَلَّهَا بَغِيرُ وَاوْ ، أَوْ لَعَلَّهَا يَارِثُهُ .

في المسجد الجامع على قديم الأيام ، خادمه الكافي المنقطع إليه ، ونصيحته^(١) المتهالك في طاعته . فتفرس فيه فِراسة مثله ، فقلده القيام بأعباء دولته ، فأصاب نقافاً يخدم^(٢) ، ونفذ فيما يريدُ عنه كالسنان اللّهم ، لجودة استقلاله ، ورعاية وزنه .

- ثم ذكره بعد مقتله فقال : وهذه عصمة من عَصَفَاتِ الدَّهْرِ الخَوْن ،
 ٥ الذي هو لمن أصغى إليه أنصح الواعظين . قَصَفْتُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الظَّالِم
 — كَانَ — لِنَفْسِهِ ، العَاشُّ لِمُصْطَنِعِهِ ، سَرَحَةٌ نَوَّارَةٌ أَطَالَ الْبَاطِلُ مَرَعَهَا
 مِنْ غِرَاسٍ أَوْدَعَ خَضِرَاءَ دِمْنَةٍ . فَمَوَّهُ عَلَى أَهْلِ وَقْتِهِ بِلِيَانَةٍ كَانَتْ فِيهِ
 سُوقِيَّةٌ ، وَخَلَابَةٌ^(٣) جِبِلِّيَّةٌ ، عَضَدَهَا جَدُّ صَاعِدٌ رَقَّاهُ مِنَ الْحَضِيضِ إِلَى
 الشُّهَى ، وَحَرَسَتْهُ إِلَى مُدَّةٍ اجْتَذَبَتْهُ عِنْدَ تَوْفِيهَا أَعْرَاقُهُ اللَّثِيمَةُ . فَتَوَلَّى ذَمِيمًا
 ١٠ أَسْوَأَ أَفْعَالِهِ ، فَلَا سَمَآؤُهُ بَكَتْ عَلَيْهِ وَلَا أَرْضُهُ . وَقَدْ كُنْتُ كَتَبْتُ مِنْ وَصْفِ
 ظَاهِرِ مُحَاسِنِهِ أَوَّانَ اعْتِلَاقِهِ بِقَهْرْمَةِ أَمِيرِنَا مُحَمَّدِ بْنِ جَهْوَرٍ ، وَعَدَدْتُ مِنْ حِسَانِ
 خِصَالِهِ مَا لَمْ يَبْعُدْ عَنِ الصَّدْقِ عَنْهُ ، لِأَخْذِنَا بِظَاهِرِ مَا تَمَوَّهَ فِي الْعُيُونِ وَقَتَ
 بِنَائِهِ لِنَفْسِهِ ، وَتَنْفِيْقِهِ لِكِسَادِهِ ، مِنْ طَاةِ الْخُلُقِ ، وَحُسْنِ الْإِحْتِمَالِ ، وَلَيْنِ
 الْحِجَابِ ، وَخِفَةِ الْمُوَاطَاةِ^(٤) ، وَجَوْدَةِ الْوَسَاطَةِ ، مَعْرِضِينَ فِيهِ عَنْ ذِكْرِ مَا لَمْ
 ١٥ يَكُنْ لَنَا النِّفْتُ عَنْهُ مِمَّا فِي بَاطِنِهِ مِنْ نَذَالَةِ الْخَلِيمِ ، وَنَطْفِ الصُّحْبَةِ ، وَتُهْمَةِ
 الْخَلْوَةِ . وَإِذَا بِهِ مُتَخَلِّقٌ لِيَسْمُوَ إِلَى مُرَادِ أَنَالِهِ الْمِقْدَارُ إِيَّاهُ ، فَتَنَّةٌ مِنَ اللَّهِ . فَلَمْ
 يَلْبَثْ أَنْ أَدْرَكَهُ عِرْقُ الشَّوْءِ ، وَاجْتَذَبَتْهُ إِلَى نَضْرِ ظُبَاعِهِ ، فَاسْتَحَالَ وَتَغَيَّرَ ،
 وَعَتَا وَاسْتَكْبَرَ ، وَخَانَ وَغَدَرَ ، فَاسْتَخَفَّ الْمَظَالِمَ ، وَاسْتَهَانَ الْكِبَائِرَ ، وَاطَّرَحَ

(١) في الأصل : وتصبحه التهلك .

(٢) في الأصل : « يحدث » ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٣) رسم الكلمة في الأصل : خلانة . (٤) في الأصل : الموطأة .

الفروض ، واحتقر الحقوق ، وأغرى^(١) بذوى الهيئات ، وحمل المروآت ، فأذال
صوتهم ، وأغرى غاشيته من سفلة الناس وأوغادهم بهم ، فأصرع^(٢) خدودهم ،
وحطّ أقدارهم ، وأشعر الأعزّة الذلّة ، والصق أنوفها بالرغام ، وأصمتها عن
الكلام . فارتفع الأمر بالمعروف جملةً ، ووسّع أهل السلامة الدخول تحت
التقيّة . فصرنا ممن أخذ بذلك في ذكره ، فيما كتبنا له من ظاهر أخباره
مدة ستر الله عليه ، إلى أن ارتفعت بزوال سلطانِه ، وأمان عدوانِه ، ففارقنا
الحزم^(٣) في ذكره ، ولزِمنا العذر عنه بالنقض لما أسلفناه من تقريره .
قال ابن حيان : ولما^(٤) رآه ولد ابن جهور أخذًا بخطّ الملك أجمعها ،
ومراتب الرئاسة بكتليتها^(٥) ، وتركهم أعطالاً ، وبسط يده إلى مال الخراج
 واحتوى عليه ، يأخذه كيف شاء ، ويُنفقه فيما يُريد ، واصطنع الرجال ، واتخذ
الأصحاب والعلماء ، فخفضت له الرقاب ، وسمت إليه الآمال ، فتوقّل ذروة
الإمارة حالاً حالاً ، حتّى ثنى الجند والرعيّة لنفسه ، وصدّهم عن لقاء أميرهم
ابن جهور . ولم يستحى من الله ولا من عباده في خون أمانته ، ولا تستر عن
الإعلان بغول وديعته ، وقد تولى أمر السلطان وهو فقير فلم يستتر في الاكتساب ،
بل جاهر في التحامل على الجيرة والإكراه للمستضعفين ممن يُصاقبه من ذوى
خطة أو سُهْمَة . له في كل ذلك أمور لا تُحصى كثرة . ثم خلط لأوّل ترقّيه
في الرئاسة بأن اتخذ لنفسه جند سوء ، مال به طبعه الرذل إلى الاستظهار بهم
على أقدم الجند بقرطبة من مرّن على الاستقامة ، فتخيّر هو من أراذل الطبقات
ومصاص شرار الناس ، وانتقاهم من أصناف الدعرة والدائرة والأساود

(١) في الأصل : واغترى (٢) في الأصل : فأصرع .

(٣) كذا ولعلها « الحذر » . (٤) لم يذكر جواب لما في الجمل الآتية .

(٥) رسم الكلمة في الأصل : بكتليتها .

والرقاصة ، نخل^(١) من كل طبقة مرفوضة ما بعث على الناس منهم ذئاباً عادية ،
وأعدّهم ليوم الكريهة فلم يغنوا عنه شيئاً لما حاق به قضاؤه . وكان قد اقفر
دار الخدمة بقرطبة ونقلها إلى داره ، فجعلت المواكب تزدحم على بابه ، ولم
يوفقّه الله لاختيار حاجب لبيب يعلو^(٢) جماعة حجّابه ، فيحمل له وجوه الناس
ويرتب قعودهم بدليله فيطعمهم بخروجه أو يعتذر إليهم عنه بما يؤيسهم منه ،
فيذهبون لسبيلهم معافين من سوء غلمانه . وما كانوا يلقونه إلا [في] فصيل
فيه أقدام^(٣) الرجال لسوء أدب حجّبه في حملهم على الناس بعنف الرد .
ولربّما دقوا الأنوف وفتفوا الشوارب غير مُيزين لطبقة الناس ، فحقّدوا عليه
إلى أشتات من المساوىء نظّمها ، وأنواع من الخازي جمّعها . وألقى له على قلوب
الناس رهبة مع أضغان^(٤) شتّبوا بها أصبغة مساويه ، والأقدار تدفع عنه ، إلى
أن حاقّت به فكبا لفيه . ولم يزل يرتع^(٥) في مراتع الباطل ، ويلبس على الناس
أمرهم ، وصدّهم عن أميرهم ، وأخذ الله بسمّهم وبصرهم ، وتمثّل لهم الجسد
الملقى على كرسي سليمان ، فخارت ألبابهم فيه ، وتاهت منه ، من وزير في قعود
أمير ، وقاض في مسلّخ جندى ، وفتية على دين يحيى بالقول ويقتل بالفعل .
فسبّحان من سواه من الأمم^(٦) طينة فأمهله مدة . من رجل عهر الخلوة لزّهده
في النساء وكلّفه بالغلمان . واتخذ داراً آخر مدّته للخلوة بهم ، فكان لا يخدمه
فيها ولا يحفّ به غير خاصة غلمانه ، ولا يأذن لأحد من طبقات الناس بالدخول
إليه فيها . فأكثر الناس القول في هذه الدار وسمّوها « دار اللذة » لأنّه كان

(١) في الأصل : نخل . (٢) في الأصل : يغلوا .

(٣) رسم العبارة في الأصل : إلا فصيل فيه أقدام .

(٤) في الأصل : اضطغان شتبوا ، والعبارة مبهمّة . (٥) في الأصل : يرجع .

(٦) رسم الكلمة في الأصل : ألم .

يَجِيئُهَا فِي أَكْثَرِ النَّهَارِ عِنْدَ فَرَغِهِ مِنْ أَحْكَامِهِ فَيَقْضِي بِهَا رَاحَتَهُ . فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ عَادَ إِلَى دَارِ سُكْنَاهُ الَّتِي فِيهَا أَهْلُهُ . وَمِنْ تَمَامِ الْعَجَبِ فِي شَأْنِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكْشِفْهُ وَلَا نَبَشَ صَدَاهُ إِلَّا تِلْكَ الطَّائِفَةُ مِنْ بَطَانَتِهِ الَّتِي اخْتَارَهُمْ لِنَفْسِهِ مِنْ أَرَاذِلِ الطَّبَقَاتِ ، وَذَلِكَ مَعَهُودٌ فِي أَمْثَالِهِمْ . فَالْصَّنِيعَةُ لَا تَزْكَو إِلَّا عِنْدَ ذِي حَسَبٍ أَوْ دِينٍ .

قال ابن حَيَّان : فَلَمَّا قَطَعَ أَمْوَالَ النَّاسِ جُمْلَةً عَنْ بَنِي جَهْوَرٍ ، وَأَخْلَى أَبْوَابَهُمْ مِنْ جَمِيعِ الطَّبَقَاتِ ، وَلَمْ يَدَعْ لِبَنِي جَهْوَرٍ مِنْ سُلْطَانِهِ غَيْرَ التَّوْقِيعِ وَحْدَهُ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى جَمِيعِ أَصْحَابِهِ وَحُجَّابِهِ أَنْ يَدْعَى بِالسُّلْطَانِ . فَكَانَ إِذَا رَكِبَ إِلَى دَارِ أَمِيرِهِ ابْنِ جَهْوَرٍ سَأَلَ سَائِلًا : أَيْنَ يَكُونُ السُّلْطَانُ ؟ قَالَ حُجَّابُهُ : فِي دَارِ الْوَزِيرِ . فَيَجِئُونَ بِمَعْكُوسٍ مِنَ الْقَوْلِ يَمْجِّهُ السَّمْعُ ، دَانَ لَهُ النَّاسُ بِذَلِكَ عَنُودًا وَخَاطَبُوهُ بِالْتَّمُويلِ دَعَاءً وَمُسْكَاتِبَةً ، إِلَّا قَلِيلًا تَمَسَّكُوا بِالْمُرُوءَةِ فَاسْتَسَبَّوْا لَدَيْهِ مَقْتَبًا ^(١) . فَظَلَّ يَزْدَادُ مَعَ الْأَيَّامِ اسْتِكْبَارًا ، وَيُبْطِنُ تَدْبِيرًا ، وَيُسَيِّئُ تَفْطِيرًا ^(٢) . أَخْبَرْتُ أَنَّهُ قَالَ [لَهُ] يَوْمًا بَعْضُ بَطَانَتِهِ عِنْدَ مَا رَأَاهُ يَرْتَكِبُ مِنَ الْفَوَاحِشِ : خَفَضَ عَلَيْكَ ! فَقَالَ لَهُ : وَمَا عَلَيْنَا ؟ ! وَاللَّهِ مَا بَهَا كَلْبٌ يُنْبِخُ فَيُجْتَمَعُ إِلَيْهِ ! وَمَا عِلْمُ الْخَائِنِ الشَّقِيُّ أَنْ هُنَاكَ شَيْبَلُ أَسَدٍ جَهْوَرِيٍّ قَدْ لَبَدَ لِبَطْشٍ بِهِ وَهُوَ عَبْدُ الْمَلِكِ الْأَصْغَرُ مِنْ إِخْوَتِهِ ، لَمْ يَسْتَشِرْ فِي الْفَتْكِ بِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ . فَلَمَّا كَانَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ لِسَبْعٍ بَقِيْنَ لِرَمْضَانَ سَنَةِ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ أَعَدَّ لَهُ رَجَالَةً فِي فَصِيلِ أَبِيهِ ، وَأَقَامَ هُوَ يَنْتَظِرُهُ ، وَأَرْسَلَ عَنْهُ رَسُولًا كَانَ أَبُوهُ يُوجِّهُهُ عَنْهُ . فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى بَابِ ابْنِ جَهْوَرٍ وَمَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ الْفَاشِئِينَ مَعَهُ نَزَرُ يَسِيرٍ ، وَأَرَادَ النُّزُولَ عَلَى حَجَرٍ لَاصِقٍ بِالْبَابِ ، وَإِذَا بَعْدَ الْمَلِكِ قَدْ قَامَ عَلَيْهِ بِخَنْجَرٍ أَعَدَّهُ لَهُ فَضَرَبَهُ ثُمَّ خَرَجَ

(١) رَسْمُ السَّكْمَةِ فِي الْأَصْلِ : مَعْنَى . (٢) كَذَا فِي الْأَصْلِ وَلَعَلَّهَا تَفْكِيرًا .

عليه الرجالُ المعدُّونَ له وابتدروه كالصُّقُورَةِ بالسُّيُوفِ وحزُّوا رأسه . وَرَكِبَ
 مِنْ حِينِهِ عَبْدُ الْمَلِكِ وَجَعَلَ رَأْسَهُ عَلَى رُحْمِهِ وَطِيفَ بِهِ الْبَلَدُ كُلُّهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى
 دَارِهِ « دَارِ اللَّذَّةِ » وَرَمَى رَأْسَهُ لِلْعَامَّةِ ، فَعَاثَتْ فِيهِ وَكَسَرُوا أَنْيَابَهُ وَنَتَفَوْا إِيَّاهُ
 فَأَصْبَحَ شَأْنُهُ عَجَبًا . وَاحْتَوَى عَبْدُ الْمَلِكِ عَلَى تِلْكَ الدَّارِ وَحَازَهَا بِمَا فِيهَا ، وَعَلَى
 أَصَاغِيرِ غُلَامِيهِ . وَاجْتَازَ عَلَى السَّجَنِ وَأُطْلِقَ مَنْ فِيهِ . وَسَمِعَ أَبُوهُ مُحَمَّدُ بْنُ
 جَهْوَرٍ خَبَرَ الْوَاقِعَةِ فَخَرَجَ دَهِيْشًا ، وَرَأَاهُ مُجَدَّلًا فَارْتَاعَ وَتَلَهَّفَ وَانْتَهَرَ ابْنَهُ وَهُوَ
 يُحَاوِلُ تَطْوِيفَ الرَّأْسِ وَلَمْ يَقِفْ عَلَى أَبِيهِ . وَأَمَرَ ابْنُ جَهْوَرٍ بِسِتْرِ جَسَدِهِ فِي
 دِهْلِيزِ الْإِصْطَبَلِ . وَتَقَدَّمَ بِإِصْلَاحِ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ ، وَرَكِبَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ
 وَقَدْ دَخَلَ النَّاسُ فِي السَّلَاحِ وَجَاشُوا جَيْشًا عَظِيمًا ، وَأَبْدَوْا بِقَتْلِ ابْنِ السَّقَّاءِ
 سُورًا عَظِيمًا ، وَأَعْلَنُوا بِالشَّمَاتِ بِهِ وَإِقْدَاحِ ^(١) الْقَوْلِ فِيهِ .

١٠

وَقَعَدَ ابْنُ جَهْوَرٍ بِالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ عَلَى كُرْسِيِّ الْمُصْحَفِ ، وَبَادَرَ الْمَجِيءَ
 إِلَيْهِ لِأَوَّلِ الْهَيْئَةِ ^(٢) الْوَزِيرُ الزَّمِنُ ، بِقِيَّةِ وَزَرَاءِ الْفِتْنَةِ ، أَبُو إِسْحَاقَ بْنُ حَمَامٍ
 عَدُوُّ ابْنِ السَّقَّاءِ كَأَنَّمَا أَنْشَطَ مِنْ عِقَالٍ . وَقُتِلَ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ حَاشِيَتِهِ نَحْوُ مِنْ
 عِشْرِينَ رَجُلًا . وَاعْتَصَمَ أَخُوهُ بِمِنَارِ الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ فَفَجَأَ . وَانْطَلَقَتْ أَيْدِي
 النَّاسِ عَلَى [أَتْبَاعِهِ] ^(٣) فَنُهَبَتْ دُورُهُمْ . ثُمَّ أَمَرَ ابْنُ جَهْوَرٍ بِسَوْقِ رَأْسِهِ وَضَمَّ
 إِلَى جَسَدِهِ ، وَوُورِيَ فِي أُخْدُودٍ خُدَّ لَهُ بِبَابِ مَسْجِدِ ابْنِ السَّقَّاءِ فِي أَطْهَارِهِ ،
 وَهِيلَ عَلَيْهِ التُّرَابُ هَيْلًا . وَسُلِبَتْ كُسُوءَةُ الْمَسْجِدِ وَثُرْيَاهُ ، وَعُطِّلَتْ فِيهِ الصَّلَاةُ ،
 فَصَارَ ثَاوِيًا ^(٤) لِلثَّأْوَى .

١٥

(١) لعلها إفداح أو إفداع . (٢) في الأصل الهبشة .

(٣) بياض في الأصل بقدر كلمة واهلها في معنى ما أثبتناه .

(٤) كذا في الأصل ، واهلها مثنوى للثاوى .

فصل في ذكر الأديب الأستاذ أبي الحسن علي بن عبد الغني

الكفيف المعروف بالخصري واجتلاب جملة

من نظمه ونثره

وأبو الحسن هذا ممن لَحِقَتْهُ أيضاً بَعْمَرِي ، وأنشدني شِعْرُهُ غيرُ واحدٍ
من أهلِ عَصْرِي . وكان بَحْرَ بَرَّاعَةٍ ، ورَأْسَ صِنَاعَةٍ ، وزَعِيمَ جَمَاعَةٍ . طرأ على
جزيرة الأندلس مُنْتَصَفَ المِائَةِ الخَامِسَةِ من الهجرة بعد خرابِ وطنه بالقُيْرُوانِ ،
والأدبُ يومئذٍ بِأَفْقِنَا نَافِقُ الشُّوقِ ، مَعْمُورُ الطَّرِيقِ . قَهَادَتُهُ مُلُوكُ طَوَائِفِهَا
تَهَادِي الرِّيَاضِ النَّسِيمِ ، وَتَنَافَسُوا فِيهِ تَنَافُسَ الدِّيَارِ فِي الْإِنْسِ الْمُقِيمِ ، على أنه
كَانَ فِيهَا بَلْغَنِي ضَيْقَ الْعَطَنِ ، مشهورَ اللَّسَنِ . يَتَلَفَّتُ إِلَى الْهَجَاءِ تَلَفَّتِ
الظَّمَائِبُ إِلَى الْمَاءِ . وَلَكِنَّهُ طَوَّى عَلَى عُرَّةٍ ، وَاحْتَمَلَ^(١) بَيْنَ زَمَانَتِهِ
وَبُعْدِ قَطْرِهِ .

ولما خَلَعَ مُلُوكُ الطَوَائِفِ بِأَفْقِنَا حَسَبَ مَا شَرَحْتُ فِيما تَقَدَّمَ من هذا
الْجُمُوعِ وَأَوْضَحْتُ . وَأَخَوْتُ تِلْكَ النُّجُومَ ، وَطُمِسَتْ مِنَ الشُّعْرِ الرُّسُومُ ، اشْتَمَلَتْ
عَلَيْهِ مَدِينَةُ طَنْجَةِ ، وَقَدْ ضَاقَ ذَرْعُهُ ، وَتَرَاجَعَ طَبْعُهُ . وَلَهُ عَلَى ذَلِكَ سَجْعٌ ،
يَمِجُّ أَكْثَرَهُ السَّمْعُ ، لَمْ يَسْمَحْ نَقْدِي أَنْ أَكْتُبَهُ ، وَلَا رَاقِي أَنْ أُرْوِيهِ^(٢) ،
وَمَا أَرَاهُ يَسْلُكُ^(٣) إِلَّا سَبِيلَ الْمَعْرِيِّ فِيما انْتَحَاهُ ، وَكَانَ هُوَ وَإِيَّاهُ كَمَا وَصَفَ
الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ :

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكَنُهَا فِي السَّمَاءِ فَعَزَّ الْفُؤَادَ عَنَاءَ جَمِيلًا

(١) فِي الْأَصْلِ : وَاحْتَمَلَ . (٢) فِي الْأَصْلِ : وَلَا رَأَيْتَنِي أَنْ أُدْرِيه .

(٣) فِي الْأَصْلِ : وَمَا أَرَاهُ إِنْ يَسْلُكُ .

فلنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْهَا الصُّعُودَ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْكَ النُّزُولَ
أَوْ كَمَا قَالَ ابْنُ الرَّثُومِيِّ :

دَعُوا الْأَسَدَ [تَرْبُضُ] فِي غَايِهَا ^(١) وَلَا تَدْخُلُوا بَيْنَ أُنْيَابِهَا
وَهِيَهَاتَ فِي قُدْرَةِ الْعَمَى ، أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَلَا بَتَقَارُبِ
الصِّفَاتِ ، تَقْتَرِنُ مَنَازِلُ الْمُوصُوفَاتِ .

أَكَلْتُ أَبِي ذُوَيْبٍ مِنْ هَذَا يَلٍ وَكَلْتُ أَبِي دُوَادٍ مِنْ إِيَادٍ ؟ !

جُمْلَةٌ مَا أَخْرَجَتْهُ مِنْ نَثْرِ الْحُصْرَى الْمَكْفُوفِ

فَصَلِّ لَهُ مِنْ رَقْعَةٍ : السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْقَلْبُ الثَّانِي ، وَالْبَعِيدُ الدَّانِي .
الرَّاقِي فِي سَمَاءِ الْمَعَالَى ، الْوَاقِي مِنْ دَاءِ الْإِلْيَالَى . أَوَّلُ مَنْ عَدَدْتُ ، وَأَفْضَلُ مَنْ
أَعَدَدْتُ . وَمَنْ لَا زَالَ النَّسِيمُ فِي الْبُكْرِ وَالْعَشِيَّاتِ ، يُهْدِي إِلَيْهِ طَيْبَ
التَّحِيَّاتِ . وَمَنْ جُعِلَتْ وَقَاهُ ، وَلَا عَدِمْتُ لِقَاهُ ، فَإِذَا كَانَ الْكَرِيمُ سَالِمًا ،
كَانَ الزَّمَانُ مُسَالِمًا .

وَلَهُ مِنْ أُخْرَى : وَصَلْ كِتَابُكَ أَبْهَى مِنَ الْحَلَى وَالْحُلَلِ ، وَأَشْهَى مِنَ
الْقَبُولِ وَالْقُبُلِ . وَشَيْءٌ مَرْتُومٌ ، وَدُرٌّ مَنُظُومٌ ، وَأَنْفَاسٌ عِرَاقِيَّةٌ ، وَمِيَاهُ
دِجْلِيَّةٌ لَا زُعَاقِيَّةٌ .

فَلَوْ أَنَّي اسْتَطَعْتُ مِنْ ارْتِيَا حٍ لَطَرْتُ بِبَعْضِ أَجْنَحَةِ الرِّيَّاحِ
وَكُنْتُ أَطِيرُ لَوْلَا قَصُّ رِيَشِي وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ
كِتَابٌ كَأَخْلَاقِكَ لَوْلَا سَوَادُهُ ، الْهُدْبُ حُرُوفُهُ وَالْحَدَقُ مِدَادُهُ .
فَاسْتَقْبَلْتُ مِنْهُ قِبْلَةَ الْحُسْنِ ، وَقَبَّلْتُهُ تَقْبِيلَ الرُّكْنِ ، وَقُلْتُ لِصَاحِبِي : اقْرَأْهُ

(١) رَسْمُ الشَّطْرِ فِي الْأَصْلِ : دَعَا الْأَسَدَ فِي غَايِهَا ، وَلَمْ نَعَثْ عَلَى الْبَيْتِ فِي دِيَوَانِهِ .

على . فلما نظروه عجبوا من خطه ، وتعجبت أنا من لفظه وضبطه . فتَنَزَّهوا
بالناظر ، ونَزَّهوني بالسمع والخواطر . فكنت الأظفر ، وكان حظي الأوفر ،
إذ بصرت بما لم يبصروا به ، من فنون العلم وضروبه .

قوله : « فتَنَزَّهوا بالنواظر ، وتَنَزَّهت بالسمع والخواطر » معنى مُتَدَاوِلٌ
منقول ، وكأنه محلول من قول الرضى حيث يقول :

فَاتَنَى أَنْ أَرَى الدِّيارَ بَعِينِي فَلَعلَى أَرَى الدِّيارَ بِسَمْعِي

وله فصل من أخرى : والعلم منهاج ، وسراج وهاج ، ما صدى من
سقاء صوب صفائه ، ولا عرى من كساه ثوب عرائه ^(١) . ولا حاف عن الحق
لسان من يرويه ، ولا خاف من الخلق جنان من يحويه . هو الجوهر
استخرجته ^(٢) أفكار اليماني من بحورها ، فالتقطته أبقار المعالي لنحورها .
وجمع العلوم كمال ، والأدب منها جمال ، هو لسان النبي العربي ، صلى الله عليه .
فقيه يلحن ، حمار يطحن ، وكاتب غير أديب ، أشبه الحيوان بذيئ ،
وشاعر غير معرب ، أشبه من بان بمخرَّب . رب وزير يُعجب الناس وهو
صامت ، فإذا نطق فكل حاسد به شامت .

وله من رقيقة طويلة : خاطب بها أبا الحسين بن الطرارة ، وجرت بينهما

هنا ، قال في أولها :

يَمُوتُ مَنْ فِي الْبِلَادِ طُرًّا مِنْ طَيِّبٍ كَانَ أَوْ خَبِيثِ
فُسْتَرِيحُ وَمُسْتَرَا حُ مِنْهُ كَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ

ما حياتي بين الحيات ، وثباتي في الجميع أو الثبات ، وقد حانت وفاة

(١) كذا في الأصل ولعلها (غنائه) أو ما يشبهها .

(٢) في الأصل : استخرجته أبقار .

الوفاء ، وخانت صفات الصفاء ، وأرداني الزمان بأردانه ، وأعياني بتقلب أعيانه ؟ الجاهل هو الحاطي ، والعالم مَبْخُوسُ الحاطي^(١) ، والغاوي مَقْبُولُ الدَّعاوي . وما أبعد الخَيْرَ مِنَ الْعَيْرِ ، وَالْكَيْسَ مِنَ التَّيْسِ ، وَالْفَضْلَ مِنَ الْفَسْلِ ! إذا كَانَ الْجَاهُ لِلْجَاهِلِ ، وَالْبَاسُ عَلَى الْبَاسِلِ ، وَالْمُنَافِقُ هُوَ الْنَافِقُ ، وَصَوَّحَتِ الْمَرَاعَى ، وَقَلَّ الْمُسَاعِدُ وَالْمَرَاعَى ، فَيَا دَهْرُ مَا أَشْهَكَ ، وَيَا مَوْتَ مَا أَشْهَكَ ، الْمَنِيَّةُ هِيَ الْأَمْنِيَّةُ . فَالْبَرُّ بَائِرٌ ، وَالْحُرُّ حَائِرٌ ، بَيْنَ أَخَوْنِ^(٢) إِيْخْوَانٍ ، وَأَجُورٍ جِيرَانٍ ، إِنْ وَصَلَهُمْ صَرْمُوهُ ، أَوْ سَأَلَهُمْ حَرْمُوهُ . وَإِنْ أَجَابَ بِالصَّوَابِ ، قَالُوا أَخْطَأَ فِي الْجَوَابِ .

٩٨ | وَمَا أَضْحَكُنِي مِلءٌ فِيَّ ، وَأَطَاشَنِي وَلَيْسَ الطَّيْشُ فِيَّ ، هَذَا الْمُتَنَحَوِيُّ الْمُتَنَحَوِيُّ . سَقَطَ إِلَى دَانِيَةٍ ، وَطَمَعَ فِي الْأَجَادِلِ ، وَإِنْ كَانَ أَوْضَعُ مِنَ الْعِنَادِلِ ، فَعَادَ ذَمِيرًا ، وَإِنْ كَانَ زَمِيرًا ، وَبَعَثَ رَسُولَهُ لِي يَقُولَ : كَيْفَ تَكْتَفِ نَقْرِي ؟ فَقُلْتُ : إِنْ كَانَ الْجُنُونُ دَاءً فَالْكَيُّ يُبْرِئِي . وَنَظَّمْتُ قَصِيدَةً سَمَّيْتُهَا سَهْمُ الشَّهْمِ ، وَضَمَنْتُهَا مَسَائِلَ لَا تَخْفَى عَلَى أُولَى الْفَهْمِ . فَمَا بَلَغْتُهُ حَتَّى دَمَعْتُهُ ، وَأَلْقَاهَا كَأَنَّهَا حَيَّةٌ لَدَغْتُهُ .

١٥ | وَفِي فَصْلِ مِنْهَا : وَأَمَّا زَعْمُهُ أَنِّي لَمْ أَدْرِ اسْمَ سَيْبُويَةٍ فَمِنْ مُضْحِكَاتِ الدَّهْرِ ، أَمَّا كِفَاؤُهُ فِي الْآيَاتِ وَالْأَبْيَاتِ حَتَّى تَعَرَّضَ لِعِرْضِي غُرُورًا : « إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ » ، فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . أَنَا الَّذِي سَبَقْتُ الشُّعْرَاءَ ، وَفَضَحْتُ فِي الْحَافِلِ الْوُزَرَءَ . فَلَوْ لَا ذَا بَسُورٍ حَلَمَى لَحْمِيَّتُهُ ، وَلَوْ عَادَ بَنُورٌ عَلِمَى لَهْدِيَّتُهُ . أَيُّهَا الْمُؤَمَّوَّةُ بِجَهْلِهِ ، وَالْمَدَّعَى الْعَلَمُ وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ ،

سَكِرْتَ فَصَحْوِكَ لَا يُحْرِمُكَ . اعْتَرِفْ بِذَنْبِكَ ، قَبْلَ صَرْعِكَ عَلَى جَنْبِكَ ،
فَيُدْحِضَ حِجَابُكَ ، وَتَطْمِسَ مُحَاجُّكَ ، إِلَامَ تَلَجُّأُ فِتَاوِي ، إِذَا نَفَدَتْ فِيكَ
الْفِتَاوِي ؟! وَكَأَنِّي بَيْنَ ضَمِّكَ قَدْ ضَامَكَ ، وَبَيْنَ لَمَمِكَ قَدْ لَامَكَ ، وَبَيْنَ حَلَاكَ ،
قَدْ خَلَاكَ ! الْحَقَائِقُ وَاضِحَةٌ ، وَالْخَارِقُ فَاضِحَةٌ . تَشَبَّهُ بِالْحَصَى أَمَا يُدْرِي الْفَحْلُ
مِنَ الْخَصَى !! مَثَلُ الْعَالِمِ وَالْجَاهِلِ ، مَثَلُ النَّاهِقِ وَالصَّاهِلِ .

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَفْهَامِ شَيْءٌ إِذَا احتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ
وَزَعَمَ هَذَا الْأَهْوَجُ الْأَعْوَجَ أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ رَمْسِي ، وَلَا سَمِعَ بِاسْمِي ، كَأَنَّمَا
وُلِدَ بِالْأَمْسِ ، أَوْ بُعِثَ مِنَ الرَّمْسِ ، أَوْ عَمِيَ عَنِ الشَّمْسِ ، لَوْ عَلِمَ قَدَّرَ نَفْسِهِ
لَمْ يَجْهَلَ الْعِلْمَ ، وَلَوْ أَرَادَ السَّلَامَةَ لَأَتَى السَّلَامَ .

وَفِي فَصْلِ مِنْهَا : يَا مَهْمُوسَ ، أَنَا الطَّاءُ ، وَأَنْتَ الْهَوَاءُ ، فَلَسْتَ مِنْ طِبَاقِي ،
كَمْ بَيْنَ تَهْمِسِكَ وَإِطْبَاقِي ! لَوْ زُرْتَ تُقْرَانُ^(١) وَنَجْرَانُ ، لَأَلْفَيْتَ ذِكْرِي قَدْ
عَلَا ، وَشِعْرِي قَدْ غَلَا . مَا أَعْيَانِي^(٢) فِي غَيْبٍ ، إِلَّا ذُو عَيْبٍ وَخِيمٍ ، مَعَ لَوْمٍ
مَعْلُومٍ . وَلَوْلَا بَدْوُكَ بِالنَّجْهِ ، لَمَا كَبَيْتُكَ عَلَى الْوَجْهِ . وَكُنْتَ فِيمَا تَظُنُّ نُورًا
فَكَسَفْتُكَ ، وَمَسْتَوْرًا فَكَشَفْتُكَ . وَمَا اسْتَوْعَبْتُ خَطَاكَ وَلَا اسْتَقْصَيْتُهُ ، وَلَوْ رَمْتُ
عَدَدَهُ مَا أَحْصَيْتُهُ . وَهَلْ شِعْرُكَ إِلَّا كَنَحْوِكَ ؟! وَمَا أَبْرَدَ الْهَوَاءُ مِنْ نَحْوِكَ ،
أَلَسْتَ الْمُنْشِدُ فِي الْحَاجِبِ أَبِي حَكَمَ :

أَبَا حَكَمٍ قُتِّ الْمُلُوكُ جَلَالَةً فَكَلَّمَهُمْ فَأَسَّ الْحَافَةَ عَالِكُ

لَوْ زِدْتَ الْيَاءَ فِي فَاكِكَ ، لَسَكَانَ أَشْبَهَ بِأَنْفَاسِكَ ؟
وَلَهُ مِنْ أُخْرَى إِلَى الْأَذِيبِ فَاغْنِ بِمَالِقِهِ : أَبِي صَرْفُ الْقَضَاءِ ، وَشَبِيهِ
لِسَانِكَ فِي الْمَضَاءِ ، وَنَظِيرُ صَدْرِكَ وَيَدَيْكَ ، فِي سَعَةِ الْمَعْرُوفِ وَالْعُلُومِ لَدَيْكَ ،

أَنْ أكونَ مِنْ زُوَّارِكَ ، فأَقْبِسَ مِنْ أنوارِكَ ، وأَقْطِفَ مِنْ أنوارِكَ يا لُبَّابَ
أولى الألباب ، يا سلسبيلَ أبناء السبيل .

فَارَقْتَنِي وأنا والشوقُ الْفانِ فاسألْ رَسولَكَ عني كيفَ الْفاني
قَبِلْتُ كُتُبَكَ مِنْ فَرطِ الهوى قَبِلاً أَقلُّهُنَّ إذا عَدَدْتَ الْفاني

ولما شُفِّتَنِي بِغُرُورِكَ الأثيرِ ، ورُقِّتَنِي بِدُرِّكَ النِّثيرِ ، ذممتُ عبدَ الحميد ،
ومحمدَ بنَ العميد ، وأنشدتُ :

لقد فاتَ في نثرِهِ غانِمٌ بديعَ الزمانِ وقابُوسُهُ

ورَوَّى الظِّماءَ بماءِ النعيمِ فلا عيشَ إلا وقى بُوْسُهُ

وكنْتُ — أَبْقاكَ اللهُ مِنْهَلاً عَذْباً لأودائِكَ ، وَمُنْصِلاً عَضْباً على

أعدائِكَ — صَنَعْتُ قَصِيداً يُحْيِي الطَّرَبَ ، إِذْ كانَ فِيهِ تِمْعَةٌ وتُسْعُونُ بَيْتاً ،

وكنْتُ كَتَبْتُهُ ، فلم أَجِدْهُ إِذْ طَلَبْتُهُ ، وفَكَرْتُ الآنَ فِيهِ ، فلم أَحْفَظْ غَيْرَ

قوافِيهِ ، وهَذِينَ البَيْتَيْنِ :

تَحِيَّتِي وَسَلامِي على الأديبِ البليغِ

المُرْتَدِّي بالمعالي والحلمِ قَبْلَ البُلُوغِ

وأنا ربُّ القريضِ الجيِّدِ ، لأنِّي أَقولُ في الأديبِ السيِّدِ .

مِنْ طِينِ طُوبَى خُلِقْتَ فَذا فَأَنْتَ في ذا الوَرَى غَرِيبُ

بُدِّلَتْ النونُ فِيكَ باءٌ فالناسُ طِينٌ وَأَنْتَ طِيبُ

وله من أخرى إلى أبي الفضلِ ابنِ حَسَدائِ اليَهُودِي^(١) شاكِياً بِصِهرِهِ

ابنِ عَبَّاسٍ : سَيِّدِي الَّذِي حُتِمَتْ عَلَيْهِ المِنَحُ ، فَخُتِمَتْ بِهِ المِذَحُ . حَفِظَ اللهُ

عَلاكَ حَفِظَ سَمائِهِ ، وَأَعَاذَكَ مِنَ العَيْنِ بِأَسْمائِهِ . بِحُسْنِ أوصافِكَ ، احْكُمُ

(١) وقعت لفظة « اليهودي » في الأصل بعد (ابن عباس) بدلا من (ابن حسدای).

بإصافك . أترضى لصهرك المشرف ، بأخلاق البخيل المسرف ؟ قصدت
بالرّهان للسلف ، فعدت بالدّهان والصلف . وسألت في الزّمان ، فأعطيت عطاء
الزّمان ، وأنا شاعر الزّمان فأخط ، فما رفع أو حط ، ولا بدّ أن أنشده لأرشدّه :

أيهما المشرف حاشا لأولى الرأي الخطاء
لا تقل ما بيدي ما ل ولا عندي عطاء
بيت أموالك بحر ما على البحر غطاء
أحمد غير علي حين يشتد الوصاء
هل هافي الهمس والإطباق إلا ها وطاء
وكذاك الخيل منهن سراع وبطاء

وصديقتك إن لم يأت فابسط عُذره بهذه الأبيات :

عرفان عرفك شاقني فلو استطعت لساقني
ما بال صهرك صدني وإلى سنّاك أناخني^(١)
وأنا الرّحيق سقيته فاسأله كيف أراقني
ولقد حلوت وليتي أمررت لما ذاقني

قد كنت رحب الصدر حتى غاظني فأذاقني

هو عقني وبررتني هو عن لقائك عاقني

إني أخف على [الوزير] ولو ثقلت لطاقني

نفسى فداؤك يا أبا الفضل الذي قد راقني

أحببته وأحببني فاشتقته واشتاقني

من سال عنك أحببته ما فقتته بل فاقني

ما أخرجته من شعره في أوصاف شتى

النسيب وما يتشَبَّبُ به :

أَعْبُدُ رِيَّانَ بِمَاءِ النَّعِيمِ أَلْبَسَنِي الشُّقْمَ بِلَحْظِ سَقِيمِ
قَدْ خَطَّ بِالْمِسْكِ عَلَى خَدِّهِ مَا الْحُسْنُ إِلَّا لِأَدِيمِي أَدِيمِ
يَا عَاذِلًا يَحْسَبُنِي ^(١) مِثْلَهُ لَا تَحْسَبِ السَّالِمَ مِثْلَ السَّلِيمِ

وقال :

وَهَبْتُ قُوَايَ لِلْحَدَقِ الضَّعَافِ وَإِنْ كَانَتْ بِسَفْكِ دَمِي تُكَافِي
فَكَانَ الضَّعْفُ قُوَّتَهَا عَلَيْنَا وَهَلْ ذَا الطَّبَعُ إِلَّا فِي الشَّلَافِ !
شَغَلْنَا عَنْ مُسَاعَدَةِ اللُّوَاحِي بِشَاغِلَةِ الْحَجِيجِ عَنْ الطَّوَافِ
خَضِبْتُ الشَّيْبَ أَخْذُعَهَا فَقَالَتْ تَشَبَّهَتْ الْحَمَامَةُ بِالْغُدَافِ
فَقُلْتُ صَدَقْتَ لِمَ أَنْكَرْتَ مِنِّي وَأَنْتِ عَفِيفَةٌ نَبْتُ ^(٢) الْعَفَافِ ؟
فَقَالَتْ بَيْنَنَا فِي الشَّيْبِ خُلْفٌ وَبَيْنَنَا بِمَسْأَلَةِ الْخُلَافِ
وَلَمَّا أَيْنَعْتُ رُمَانَتَهَا وَنَادَى الْوَصْلُ حَيَّ عَلَى الْقَطَافِ
تَأَذَّتْ فِيهِمَا بِفَمِي فَقَالَتْ شَمَائِلُ عَاشِقٍ وَفَعَالٍ جَافِ

قوله : « تَشَبَّهَتْ الْحَمَامَةُ بِالْغُدَافِ » كقول القائل :

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُسَوَّدُ شَعْرَهُ كَيْمَا يُعَدُّ بِهِ مِنَ الشُّبَّانِ
أَقْصِرْ فَلَوْ سَوَّدَتْ كُلَّ حَمَامَةٍ بَيْضَاءَ مَا عُذَّتْ مِنَ الْغُرَبَانِ
وَمَا أَمْلَحَ قَوْلَ أَبِي بَكْرٍ الْخَالِدِيِّ :

مَا كَانَ يَنْفَعُهُ لَدَيَّ شَبَابُهُ فَعَلَامَ يُجْهِدُ نَفْسَهُ بِحِضَابِهِ !

وقال الحضري :

مَنْ لِي بِظُلْمِي جَنَاهَ مَعْسُولُ دَمِي بِدَمْعِي عَلَيْهِ مَغْسُولُ
أَقْرَأُ فِي خَدِّهِ كِتَابَ هَوَى أَنْ دَمَ الْعَاشِقِينَ مَطْلُولُ
حُسَامُ عَيْنَيْكَ مِنْ فُتُورِهَا كَأَنَّهُ مُغَمَّـدٌ وَمَسْلُولُ
اغْمَدْ وَسُـلَّ لَيْسَ لِي وَزَرٌ أَنَا عَلَى الْحَالَةِ بَيْنَ مَقْتُولُ

وقال :

رُدِّي حُشَاشَةَ عَاشِقٍ مَهْجُورٍ بَيْنَ الْمَلُومِ عَلَيْكَ وَالْمَعْدُورِ
لِللُّوْلُوِ الْمَنْظُومِ فِي فَمِكَ انْبَرَتْ عَـبْرَاتُهُ كَاللُّوْلُوِ الْمَنْشُورِ
ذَكَرَ الْفِرَاقَ فَاتَ إِلَّا شَوْقَهُ وَأَوَّلُو الْهَوَى مَوْتِي بَغِيرِ قُبُورِ
وَدَعْتُ مَنْ أَهْوَى بَلِ اسْتَوْدَعْتُهَا قَلْبِي وَسِرًّا مَدَامِي وَزَفِيرِي
فَبَكَتْ بَنَاجِسَتَيْنِ خَفْتُ عَلَيْهِمَا نَفْسِي فَلَمْ أَلِمْ بِغَيْرِ ضَمِيرِي
قَالَتْ : أُرَحِّلُ وَالْأَحِبَّةُ هَهُنَا قُلْتُ : الْقَضَاءُ كَمَا عَلِمْتَ ضُرُورِي
قَالَتْ : مَتَى الرَّجْعِي فَقُلْتُ : إِذَا انْتَهَى (مَقْدُورُ رَبِّ ، مُقَدَّرُ الْمَقْدُورِ)^(١)
وَعَسَى مُفَرَّقُنَا سَيَجْمَعُ بَيْنَنَا
وَلَنْ أَبَى مَنْ تَعْلَمِينَ فَرُبَّمَا إِنْ الْعَسِيرَ عَلَيْهِ غَيْرُ عَسِيرِ
لَا تَجْزَعِي مِنَ نَكْبَةِ الدُّنْيَا وَإِنْ حَدَّثْتُ أُمُورًا لَانْتِقَاضِ أُمُورِ
وَلَهُ فِي غِلَامٍ كَانَ يُسَمَّى هَارُونَ :

يَا غَزَالًا فَتَنَ النَّاسَ سَ بَعِينِيهِ فُتُونَا
أَنْتَ هَارُوتُ وَلَكِنْ صَحَّفُوا تَاءَكَ نُونَا

وقال مما ذهب به مذهب أبي الفتح البستي صاحب الطريقة الأنيقية في
تجنيس القوافي :

أصبحتُ مَفْتُونًا بِكُمْ مُدْنَفًا وَإِنَّمَا بُرُّنِي لِمَى فَاتَنِي
يا أُمْلَحَ النَّاسِ وَحَقَّ الْهَوَى لو كَانَ لِي الْحُكْمُ لَمَّا فَاتَنِي
وقال : رَابَهَ عَلَيَّ ^(١) ضَنِّي فَاتَانِي عَائِدًا فِي يَدِهِ [لِي] يَأْسِمِينُ
فَتَفَاءَلْتُ أَنَّهُ قَدْ تَهَدَّى لَهُ زَالِي فَقَالَ لِي يَا سَمِينُ
وقال : رَبِّ ظَنِّي هَوِيَّتُهُ يَنْتَمِي لِلْهَوَى وَازِنُهُ
قُلْتُ مَا أَثْقَلَ الْهَوَى قَالَ مَا لِلْهَوَى زِنُهُ
وقال : إِنْ كَتَمْتُ الْهَوَى فَقَدْ صَارَ سِرِّي عَلَانِيَهُ
لَسَقَامٍ أَذَابَنِي وَشُحُوبٍ عَلَانِيَهُ
وقال :

فَكَرَّتْ فِي خَلْقِ الْوَرَى فَاسْتَوَى عِنْدِي عَبِيدٌ وَسَلَاطِينُ
أَصْلُ الْفَرِيقَيْنِ — وَمِنْ أَجْلِ ذَا قَلْبِي عَنْ ^(٢) الْهَمِّ سَلَا — طِينُ
وَكَانَ سَأَلَ بَعْضَ الْمُلُوكِ أَنْ يَكْسُوهُ وَمَطْلَهُ ثُمَّ أَعْطَاهُ قَمْحًا مُسَوِّسًا ، فَقَالَ فِيهِ :
يُرِيدُ سِيَاسَةً مَنْ لَا يُسَمَّى وَطَمِعُ فِيهِ يَا بَنِي أَنْ يَسُوسَا
سَأَلْتُ كَسَى فَمَنَّنِي بِقَمَحٍ وَأَعْطَانِي مَكَانَ الْقَمَحِ سُوسَا
وقال أَوَّلَ جَوَازِهِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ :

فِي كُلِّ أَرْضٍ مَوْطِنُ يُعْرِفُ فِيهِ جَاهُنَا
وَإِنَّمَا الْجَانَا إِلَى هُنَا إِلَهْنَا
وقال : يَأْمَنَ تَكْحَلُ طَرْفُهَا بِالسَّحْرِ لَا بِالْإِيمِ
نَفْسِي كَمَا عَذَّبَتْهَا وَقَتَلَتْهَا بِالْإِثْمِ دِي
وَأُنْشَدَ يَوْمًا بَيْتَ الْمَعْرِيِّ :

يَا قُوتَ يَا قُوتَ رُوحِي رُوحِي بِرَاحِ بَرَاكِ

(١) فِي الْأَصْلِ : عَلَى . (٢) فِي الْأَصْلِ : عَلَى .

وفيه ست كلمات مُتجانساتٍ على قِصرِ عَرُوضِهِ .
وكُلِّفَ تَذْيِيلَهُ فقال :

أَوْفَاكِ أَوْفَاكِ رِقِّ رِقِّ بِطَاحِ بِطَاحِ^(١)

فَقِيلَ لَهُ لَوْ ذَيَّلْتَهُ بِبَيْتٍ فِيهِ يَاءُ النِّدَاءِ كَمَا فِي بَيْتِ أَبِي الْعَلَاءِ ، فَقَالَ :

يَا زَوْرُ يَا زَوْرُ فِيهَا فِيهَا نُوَاحِي نُوَاحِي

وَقَدْ قُلْتُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ تَلْخِيصِ التَّعْرِيفِ بِخَبَرِ الْحُضْرِيِّ إِنَّهُ اتَّبَعَ الْمَعْرِيَّ
فِي سُلُوكِ هَذِهِ الْمَسَالِكِ ، فَضَلَّ عَنْهَا هُنَاكَ . عَلَى أَنَّهُ لَا يَتَّفِقُ لِأَحَدٍ لَضِيقِ هَذَا
الْبَابِ ، أَكْثَرُ مِنَ الْوِزْنِ وَالْإِعْرَابِ .

وله في المديح :

قال :

١٠

ظَمِئْتُ وَمُنْهَلْتُ الْمَدَامِيعَ مَنَهْلِي	وَلَا حَوَمَ لِي إِلَّا عَلَى وَرْدٍ حَوَمَلٍ
عَلَى سَلْسَلٍ مِنْ ذِي غُرُوبٍ ^(٢) وَإِنْ غَدَتُ	رِمَالُ الْفَيَافِي كَالرَّوَاءِ ^(٢) الْمُسَلْسَلِ
فِيَا نَعْمُ وَأَفَاكِ النَّعِيمُ فَأَنْعَمِي	وَيَا جُمْلُ وَالْأَكِ الْجَمَالُ فَأَجْمَلِي
حَلَفْتُ لِرَبَّاتِ الْخُدُودِ بِمَا جَنَى	فَمُ الصَّبِّ مِنْ وَرْدِ الْخُدُودِ الْمُقْبَلِ
وَمَا صَامَ مِنْ خَصْرِ لَهْنٍ مُخَفَّفٍ	وَأَفْطَرَ مِنْ رِدْفٍ لَهْنٍ مُثْقَلِ
وَمَا وَرَدَتْ مِنْ أَدْمَعِي بِمُورَدٍ	وَمَا خَلَخْتُ مِنْ أَضْلَعِي بِمُخْلَخَلِ
وَمَا شَاقَنِي مِنْ شَقِّ جَيْبٍ وَمَدْمَعٍ	أَسِيلٍ عَلَى خَدِّ أَسِيلٍ بِمَأْسَلِ
لَأَنْتَنَ أَشْفَى لِلْسَلِيمِ مِنَ الرُّقَى	وَأَطِيبُ لِلظَّالِمَانِ مِنْ كُلِّ سَلْسَلِ
وَإِنْ يَكُ دَهْرِي ضَمَنِي ثُمَّ ضَامَنِي	فَإِنَّ عَلِيًّا خَيْرُ مَوْلَى وَمَوْئِلِ
هُمَامٍ إِذَا [مَا] هَمَّ بِالْأَمْرِ فَاْمَتَطَى	عَزِيمَتَهُ نَاعَتْ بِرِضْوَى وَيَذْبُلِ

١٥

٢٠

(١) هذه الأبيات الثلاثة المحنسة غير واضحة المعنى ولم نعثَر عليها في مظانها الأخرى
(٢ — ٢) رسمها في الأصل : وإن عوت معالي القوافي كالرَّوَاءِ .

وقال من أخرى :

على العدوّة القُصوى وإن عَفَتِ الدارُ
وَحُقَّ بُكَاءُ العَيْنِ وَالْقَلْبُ مُسْعِدُ
أَعَادَى عَلَى فَضْلِي وَاسْتَصْحَبَ الْعِدَى
مَدِيحِي هَجَاءَ وَابْتَسَامِي تَجْهَمُ
وَلَمْ أَرَ مِثْلِي فَاضِلًا يَنْقُصُونَهُ
عَزِيزُ عَلَيْنَا أَنْ نُقِيمَ بِذِلَّةٍ
شَفَى اللَّهُ دَاءَ الْقَيَرَوَانِينَ بَعْدَنَا
وَكَيْفَ غِنَاءُ الطَّيْرِ فِي غَيْرِ أَيْكِهََا
وَإِنِّي لِأَوَّلَى بِالْبُكَاءِ لِأَنَّهَا
أَلَا يَابُرُوقًا لُحْنٌ مِنْ نَحْوِ صَبْرَةٍ
عَسَى فَيْكٍ مِنْ مَاءِ الْحَبِيبَاتِ شَرْبَةٌ
وَمِنْهَا يَعْتَذِرُ مِمَّا كَانَ قُرْفَ بِهِ :

أُصِيبَ قَصِيدٌ فِيهِ كُفْرٌ فَنِيْطَ بِي
وَمِنْ كُلِّ كَفٍّ قَدْ رُمِيتُ بِصَخْرَةٍ
وَلَهُ مِنْ أُخْرَى فِي الْمُعْتَمِدِ :

أَعْنِ الْإِغْرِيبُضِ أُمَ الْبَرَدِ

يقول فيها :

يَا هَارُوتَيَّ الطَّرْفِ تَرَى
فَطَعَنْتَ الْأَسَدَ بِلَا أَسَلِ

ضَحِكَ الْمَتَعَجِّبُ مِنْ جَلْدِي !

[كَمْ لَكَ] نَفَثَاتُ فِي الْعُقْدِ
عَبَثًا وَقَتَلْتَ بِلَا قَوْدِ

سَلَامٌ غَرِيبٍ لَا يُؤُوبُ فَيَزْدَارُ
لِمَنْ بَاتَ مِثْلِي لَا حَبِيبٌ وَلَا جَارُ
وَلِي حَسَنَاتٌ عَنْهُمْ هِيَ أَوْزَارُ
وَشَكُوَايَ كُفْرٌ وَاعْتِرَافِي إِنْكَارُ
بَلَى قَلَمًا يَخْلُو مِنَ الْقَرْضِ دِينَارُ
فَلِمَتَ حَشَايَا الْوُطَيْئَةِ أَكْوَارُ
فَقَدْ مَرَضَتْ لِلْقَيَرَوَانِينَ أَبْصَارُ
وَقَدْ بَعْدَتْ عَنْهَا فِرَاحٌ وَأَوْكَارُ ؟ !
تَطِيرُ إِذَا اشْتَاقَتْ وَمَا أَنَا طَيَّارُ
وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا دُمُوعِي أَمْطَارُ
وَلَوْ مِثْلَ مَا يُورَعِي مِنَ الْمَاءِ مِنْقَارُ

وَكَمْ شَاعِرٍ قِيلَتْ عَلَى فِيهِ أَشْعَارُ
وَفِي رَاحَتِي لَوْ أَمَكَّنَ الرَّأْيُ أَحْجَارُ

رَشَاءً يَصْطَادُ الْأُسْدَ وَكَمْ
وَاهَا لَجْدِيدٍ مِنْكَ وَهَى
رُضْتُ الْأَيَّامَ جَوَامِحَهَا
وَبَلَوْتُ النَّاسَ فَلَسْتُ أَرَى
الْقَوْمَ بِحَارٍّ مَسْجُورًا
لَمْ يَعْدِمَ وَارِدُهَا دُرَّرَ الْ
أَبْنَى عِبَادٍ مَا حَسَنْتَ
نَقَدَ الْكَرْمَاءَ الدَّهْرُ مَعِيَ
وَقَضَى لَكُمْ بِالْفَضْلِ عَلَى
دَانَتْ بَغْدَادُ لِقَرْطُبَةٍ
سَمِعُوا بِرَشَادٍ فَتَى لَيْخِمٍ
قَرَأُوا شِعْرَ الْأَخِي فَمَا
يَا فَرْعَ الْمُنْذِرِ وَالنُّعْمَا
طُفِفَتْ أَنْوَارُ أُمِّيَّةٍ فِي
نَافَسَتْ بِقَصْرِهُمْ إِرْمًا
مُرٌّ وَافْتَحَ بَاقِي أُنْدَلُسٍ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَلِي خَمْسِينَ
لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ بَلَا جَبَلٍ
بَشَّارُ أَمْلِكَ مُمْتَدِّحًا
يَكْبُو عِبُودٌ فِي خَبَبِي

رَامَتْهُ الْأُسْدُ فَلَمْ تَصِدْ
وَشَبَابُ بَانَ فَلَمْ يَعُدْ
وَكِفْتُ اللَّذَّةَ عَنِ اللَّذِّ
كَبْنِي عِبَادٍ مِنْ أَحَدٍ
ت^(١) مَحْفُوفَاتٍ بِالزَّبَدِ
آدَابٍ وَلَا دُرَّرَ الصَّفَدِ
إِلَّا بِكُمْ الدُّنْيَا فَقَدْ
فَتَخَّيَّرَكُمْ فِي الْمُنتَقَدِ
مَنْ فِي أَدْنَى أَوْ فِي الْبُعْدِ
وَخَلَّانِفَهَا لِلْمُعْتَمِدِ
فَنَفَقُوا هُرُونَ عَنِ الرَّشَدِ
يَرْضَ الْمَعْتَرِ عَنْ الْوَلَدِ
نِ بَلِغَتِ النَّجْمَ فَطُلُ وَزِدِ
قَصْرَ الْخُلَفَاءِ فَقُلْتَ قَدِ
فَكَانَ أُمِّيَّةً لَمْ تَشِدِ
مَا فِي صَبَبٍ أَوْ فِي صَعْدِ
وَأَنْتَ تَزِيدُ عَلَى الْعَدَدِ
وَعَلَيْهَا حِلْمُكَ لَمْ تَمِدِ
فَأَنْسَ بَغْرَائِمَهُ الشُّرْدِ
فَالْعَيْرُ وَرَاءَ الْمُنْجَرِدِ

٥

١٠١

١٠

١٥

٢٠

ولعلَّ بلادك لي وطنٌ فأحطَّ الرَّحْلَ عن الأجدِ
وأقابلَ منك سَنَى قمرٍ لو قابله الأعمى لهدي
وله من أخرى : وهي من أعلا حُجَجِه ، وأجلى سُرَجِه ، أنشدها أحمد
ابن سليمان بن هود الملقَّب كان من الألقاب السلطانية بالمقتدر حين غلب
على بن مجاهد على دانية :

كذا تفتضُ أبقار البلادِ ولا مهرٌ سوى البيضِ الجِدادِ
هديت العسكرَ الجرَّارَ ليلًا فأهديتَ الطُّبَاةَ إلى الهوادي
مَلَأَتْ بِهِ الفضاءَ فضاءَ ليلٍ تحتَ فيه الظُّبا شكلَ السَّوادِ
وما أقبلتَ إلَّا بعدَ ما قد سَقَيْتَ الثَّغَرَ من ثَغْرِ الأعادي
وكانَ مَرَامُ دانيةٍ عزيزًا فهانَ على المَسْوَمَةِ الجِيادِ
فآثرتَ العواليَ في المعالي وآثرتَ الصَّلاَدِمَ في الصَّلاَدِ
كانَ سَيُوفُكَ الأقدارُ تجرَى بما شاءَ الإلهَ على العبادِ
ومِثْلُكَ مَنْ جَنَى ثَمَرَ الأمانِ وآتَى حَقَّهُ يَوْمَ الحَصَادِ
تَشَاغَلْتَ الملوِكُ بمن دَهاها وشغلكَ في جهاتِكَ بالجِهادِ
بنالك اللهُ للإسلامِ حِصْنًا وعلمكَ التَّجَلُّدُ للجِلاَدِ
وتَهَضُّ والثَّقِيلُ عليكَ خِفٌّ وتنظُرُ والخَفِيُّ إِلَيْكَ بَادِ
وكيفَ يُنافسونكَ في المعالي وأنتَ سَبَقْتَهُم سَبَقَ الجَوَادِ ؟
فَتَحَتَ مَعَاقِلًا لو أَبْصَرُوهَا لَقَالُوا أَنْتَ لَقْمَانُ [بنُ] عادِ
وفي سَرَقِسطَةٍ لَكَ دارُ مُلْكٍ زَرَيْتَ بِهَا على ذاتِ العِمَادِ
ورَأَيْتُكَ في الإدارةِ لو رآه مُعاويةُ لأغْنَى عن زيادِ
لقد أَرَبْتَ^(١) سَيُوفُكَ يَوْمَ سُلَّتْ على قُسٍّ بنِ سَاعِدَةَ الإيادي

ذكر الخبر عن دانية

وكيف تغلب عليها يومئذ المقتدر

قال ابن بسام: قد قدمت في أول القسم الثالث من هذا المجموع ذكر
مجاهد العامري المنزلي كان، وقته، على دانية، وشرح الأسباب التي
أنشأت سحابه، وريقت^(١) على دانية وهاداه وهضابه.

وغلبت الروم في بعض أيام سلطانه على جزيرة سر دانية، التي كانت
من فتوحه قبل، ففلت شباته، ونهنت شداته. وأسرت ابنه عليًا هذا،
فدشأ عليه متجهماً، وأعجماً طمطمًا، إلى أن افتكته أحد آل حماد أمراء
بنى مناد، فأسدى البيضاء فيه، وخلع على عطفه برديه. فلما خفق علمه،
وتمكن في مقام أبيه قدمه، ألقى السلم، وأغمد السيف وشام القلم. همته كانت
في خراج بحبيبه، لا في معقل يحببيه، وهمه المتجر يميمه، لا المفخر يحميه.
أصب خلق الله بلبوس ومطعم، وأصباه إلى دينار ودرهم. حتى ولأه البر حلى
عقده، ورماه البحر بأفلاذ كبده؛ ورزق عدة بنات أحسن من الشמוש،
وأفتن من الطواويس. فتبارى ملوك الطوائف بأفئنا في نكاحهن، وتنافسوا
في غدوهن إليهم ورواحهن. واغتم هو ذلك منهم، وأذ كاهن عليهم عيونا،
وبناهن بينه وبينهم دروباً وحصونا، معتقداً أن الصهر رحم لا تعجفي، وطريق
إلى رعى الذم لا تخفي. فقل ملك منهم إلا وقد علق له به حبل، واتصل
بينه وبينه نسل. فسما إليه منهم ابن هود المذكور سنة سبع وستين يريه أن
الناس مأكول وآكل، وأن القياس أكثره باطل. من رجل لا يستظل

١٠٢ | إِلَّا أَعْلَامَهُ ، وَلَا يَرْضَى إِلَّا أَحْكَامَهُ ، وَلَا يَسْتَشِيرُ إِلَّا حُسَامَهُ ، فَجَرَّ إِلَيْهِ
الْهَضَابَ كَتَائِبَ ، وَمَلَأَ عَلَيْهِ الشُّعَابَ مُرْدَاً حَبَابَ^(١) وَجَرْدَاً نَجَابَ .

أَخْبَرَنِي غَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّهُ لَمْ يَنْبَقْ مَلَكٌ مِنْ مُلُوكِ أَفْقِنَا سَمِعَ بِمُخْرَجِ ابْنِ
هُودٍ يَوْمَئِذٍ إِلَّا تَوَقَّعَهُ وَتَوَقَّاهُ ، وَظَنَّ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ سِوَاهُ . وَإِنَّمَا كَانَ يُرِيدُهُ ،
زَعَمُوا ، عَلَى قِلَاعٍ كَانَتْ تَتَّصِلُ بِبَلَدِهِ ، لِيَضُمَّهَا إِلَى أَمِيرِ طَرطُوشَةَ وَقَتَهُ ،
مِنْ وَلَدِهِ . فَلَمْ يَرُعْ ابْنُ مُجَاهِدٍ إِلَّا تَجَرَّى الْجِيَادِ بِحَيْثُ يَرَى وَيَسْمَعُ ، وَلَا نَبَهَهُ
إِلَّا تَجَرَّ الصَّعَادُ ، بِحَيْثُ لَا يُعْطَى وَلَا يَمْنَعُ . فَاسْتُطِيرَ فَرَقًا ، وَقَامَ وَقَعْدَ
تَبَلْدًا وَنَزَقًا . وَحِينَ عِلِمَ الْمُرَادُ ، وَفَهُمَ الْجَلِيَّةُ أَوْ كَادَ ، أُعْطِيَ فَضْلَ الْقِيَادِ ،
وَكُتِبَ إِلَى عَمَّالِهِ بِإِخْلَاءِ تِلْكَ الْبِلَادِ .

- ١٠ فَلَمَّا أَخَذَ ابْنُ هُودٍ فِي إِيَابِهِ ، وَخَلَا ابْنُ مُجَاهِدٍ بِطَوَائِفِهِ وَأَحْزَابِهِ ، عَنَّفُوهُ
بِمَا فَعَلَ ، وَزَيَّنُوا لَهُ الْغَدَرَ بِهِ وَقَدْ رَحَلَ . وَأَتَى ابْنُ هُودٍ ، وَقَدْ سَارَ غَيْرَ بَعِيدٍ ،
بِكُتُبِ طَيْرِهَا ابْنُ مُجَاهِدٍ إِلَى عَمَّالِ تِلْكَ الْمَعَاقِلِ ، يَأْمُرُهُمُ بِالتَّحْصِينِ وَالِاحْتِيَالِ ،
وَيَحْضَهُمْ عَلَى الْجِدِّ فِي الْقِتَالِ . فَكَّرَ الْمُقْتَدِرُ ، وَلَمْ يَرُعْ أَهْلَ دَانِيَّةَ إِلَّا تَصْهَالَ
الْخَيْلِ ، وَقَدْ انْصَبَّتْ عَلَيْهَا انْصِبَابَ السَّيْلِ بِاللَّيْلِ . وَضَرَبَ أَبْنِيَّتَهُ بِحَيْثُ
يُسْمَعُ الْحِوَارُ ، وَيُحَمَّدُ الْجَوَارُ ، فَاسْتَوَلَى الْجَزَعَ ، وَضَاقَ الْمَتَّسِعُ . وَأَخْرَجَ إِلَيْهِ
١٥ لَحِيْنَهُ ابْنَهُ الَّذِي كَانَ قَدْ سَمَّاهُ مُعِزَّ الدَّوْلَةِ ، وَرَشَّحَهُ لَجَرِّ أَذْيَالِهَا ، وَعَلَّمَهُ مُمَائِلَةَ
ظِلَالِهَا . فَجَاءَ إِلَى ابْنِ هُودٍ مُدِلًّا بِقَدِيمِ صِهْرِهِ ، عَائِرًا فِي إِدْبَارِ أَمْرِهِ وَانْقِطَاعِ
ذِكْرِهِ ، مِنْ رَجُلٍ فَلِيلِ الطَّمْعِ ، ثَقِيلِ السَّمْعِ ، ضَيِّقِ الذَّرْعِ ، قَدْ غُذِيَ بِالتَّرَفِ
وَاللِّينِ ، « وَنَشَأَ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينِ » . فَطَفِقَ ابْنُ هُودٍ يَقْرَعُ لَهُ
عَصَا الْوَعِيدِ ، وَيَرْمِي بِهِ مُضَلَّاتِ الْبَيْدِ . وَهُوَ يَقُولُ : أَيُّ عَمٍّ ، تَبْلُغُ رِضَاكَ !
٢٠

ومتى اختلفنا عليك أو خالفناك؟ فقال له ابن هود فيما قال : والله لا أرى العرصة
حتى يسهل مرامها ، ويخلى في يدي زمامها ، يعني تلك المعاقيل . فقال له معز
الدولة الجبان الجاهل ، وطنه يريد دانية : أي عم ! وأين تنقلنا ، وإلى من
تكلنا ؟ ولم يفطن ابن هود لما قصد ، وكان إلى جنبه وزيره ابن أحمد ، فغمز
يده وقال له : غرة فاهتبلها ، وعثرة فلا تقلها ، قد ألقى الرجل بيده ، وخلى
بينك وبين بلده . فعمل ابن هود على ذلك ، وأخذ في إحكام ما هنالك ،
فما متع النهار إلا وأشرقت آياتها ، واهتزت في يمين يديه قناتها . ورجع
بابن مجاهد غنيمه باردة ، وأمنية على الأيام شاردة . تعالى من لا يروعه الزمان ،
ولا يغير سلطاناه الحدثنان !

مقطوعات للحصري في أوصاف شتى

قال :

كم من خليل كان عندي شهدة حتى بلوت المر من أخلاقه
كالملح يحسب سكرًا في لونه أو حجه ويحول^(١) عند مذاقه

وقال :

نصبت الفخ ثم قعدت عنه بعيدًا كي أرى فيه فلاحا
إذا قردي مقيم عند رأسي يقول لمقبلات الطير حاحا
واجتاز على قوم فسمعهم يقدحون فيه وفي ابن خناسة قصده وأنشده :

يا أديبا ملكتنى في يديه المكرمات
ليت قوما دأبهم في^(م) وفيك المكر ماتوا

وقال :

خضبت يديها لون فاحمها فما نقص البياض ملاحه بل زاد

(١) في الأصل : يحل

ما بالُ شَيْبِي تُنْكَرِينِ^(١) خِضَابَهُ وَأُرَاكِ صَابِغَةَ الْبَيَاضِ سَوَادَا
قَالَتَ^(٢) نَجِيعُكَ فِي يَدَيَّ وَإِنَّمَا بَدَّلْتَهُ أَسْفَاً عَلَيْكَ حَدَادَا
وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي التَّطَارِيفِ الشُّودُ قَوْلُ ابْنِ الْمُعْتَزِّ :

وَكَفَّ كَأَنَّ الشَّمْسَ مَدَّتْ بَنَانَهَا إِلَى اللَّيْلِ تَجْلُوهُ فَقَبَّلَهَا اللَّيْلُ
وَلَهُ أَيْضًا فِي التَّطَارِيفِ الْحُمْرُ :

أَشَارَتْ بِأَطْرَافِ رِطَابٍ كَأَنَّهَا أَفْنَابُ دُرٍّ قُمِعَتْ بِعَقِيقِ

مَا أَخْرَجْتَهُ مِنْ مَرَاثِيهِ مَعَ مَا يَتَشَبَّثُ بِهَا

قَالَ يَرْتَى أَبَاهُ وَقَدْ وَدَّعَ قَبْرَهُ وَقْتَ جَوَازِهِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ :

أَبِي نَيَّرُ الْأَيَّامِ بَعْدَكَ أَظْلَمَا وَبُنْيَانُ مَجْدِي يَوْمَ مِتَّ تَهْدَمَا
وَجَسْمِي الَّذِي أَبْلَاهُ فَقْدُكَ إِنْ أَكُنْ رَحَلْتُ بِهِ فَالْقَلْبُ عِنْدَكَ خِيَا
سَقَى اللَّهُ عَيْنًا مَنْ تَعَمَّدَ وَقْفَةً بِقَبْرِكَ فَاسْتَسْقَى لَهُ وَتَرَحَّمَا
وَقَالَ سَلَامٌ وَالثَّوَابُ جَزَاءُ مَنْ أَلَمَّ عَلَى قَبْرِ الْغَرِيبِ فَسَلَّمَا
وَأَخَذَ مِنْ تَرَابِهِ فَقَالَ :

رَحَلْتُ وَهَاهُنَا مَشْوَى الْحَبِيبِ فَمَنْ يَبْكِيكَ يَا قَبْرَ الْغَرِيبِ ؟
سَاحِلُ مِنْ تَرَابِكَ فِي رِحَالِي لَكِنِّي أَغْنَى بِهِ عَنْ كُلِّ طِيبٍ
وَقَالَ مِنْ مَرَثِيَةٍ لَهُ فِي الْمُقْتَدِرِ بْنِ هُودَ :

نَعْدُ حُصُونًا كُلَّ دِرْعٍ وَمِغْفَرٍ^(٣) وَتَعْدُو الْمَنَايَا فِي عَرِينِ الْغَضَنْفَرِ
وَإِحْدَى بَنَاتِ الدَّهْرِ تَنْسِفُ أَحَدَهُ وَتَهْدِمُ بِالتَّهْدِيمِ بُنْيَانَ تَدْمُرُ
نَبَا نَابُ عَادٍ وَهُوَ كَاللَيْثِ عَادِيًا وَمَاتَتْ مَنَى كِسْرَى الْمُلُوكِ وَقَيْصَرِ

(١) فِي الْأَصْلِ : تُنْكَرُونَ . (٢) فِي الْأَصْلِ : قَالَ .

(٣) فِي الْأَصْلِ : ذِرْعٍ وَمِغْفَرٍ .

وما دَرَأَتْ^(١) عن تَبَعٍ تَبَعٌ له
أَصَمٌّ وَأَصَمَى ثَغْرَةَ الثَّغْرِ حَادِثٌ
هو البحرُ في ذا الخطبِ أعطاك دُرَّه^(٢)
أَجْدَكَ بَرَّ الدهرِ شُهَبَ بُزَاتِهِ^(٣)
أَعَزَّ مَنْ اقْتَادَ الْخَمِيسَ إِلَى الْوَعَى
تَلَمَّ حَيَاءً يَا زَمَانَ مِنَ الْعَمَلِ
مَضَيْتَ فَمَا لِلْأَرْضِ بَعْدَكَ لَمْ تَمُدْ
بَعَثْتُ بِهَا مَشْقُوقَةَ الْجَنِّبِ ثَاكِلاً
وله مِنْ أُخْرَى :

فاجأتنا والمنــــون مُنْتَظَرَه
أَصَمٌ سَمَى حَدِيثُ حَادِثَةٍ
مُتَوَجِّجٌ مِنْ جُذَامٍ مَاتَ لَهُ
ثَلَاثَةٌ لَا خِلَافَ أَنَّهُمْ
مَا نَفَعَ الْمُشْتَرَى وَلَا زُحْلًا^(٥)
مِنْ جَامِعِ الطَّيِّبَاتِ مُخْتَصَرَه^(٤)
فَلَّ الشَّيُوفَ الذَّكُورَ مَنْ ذَكَرَهُ
ثَلَاثَةٌ فَلْيَعِشْ لَهُ عَشْرَه
خَيْرٌ مِنَ الْفَرَقْدَيْنِ وَالزُّهْرَه
ضَوْءٌ بَلِ اللَّهِ مُنْفَذُ قَدَرَه

ومنها ، وهو من طَرِيفِ الاستطرادِ للاستجداء ، وطلبِ الحَبَاءِ ، وكان الحُصْرَى
مَشْحُودَ الْمُدِيَةِ ، فِي أَبْوَابِ السَّكْدِيَةِ :

بَيِّضَ كُلِّ وَلَا بَيَاضُ مَعِي
فَغَبْتُ عَنْ مَجْلِسِ الْعَزَاءِ عَلَى
يَا أَهْلَ هُوْدٍ إِذَا الْوَرَى حُسِبُوا
إِلَّا بَيَاضَ الْمَشِيبِ وَالْبَشْرَه
رَغْمِي^(٦) وَإِنْ كَانَ مِقْوَلِي حَضْرَه
مِنْ صَدَفِ الْبَحْرِ كُنْتُمْ دُرَّه

(١) رسم الكلمة في الأصل : دارت .

(٣ — ٣) في الأصل : أجْدك بن الدهر شهب بذاته . (٤) كذا بالأصل .

(٥) في الأصل : زحل . (٦) في الأصل : زعمي .

يا كَرَمَاءَ الزَّمانِ لستُ أَرى حُجُولَهُ غَيْرَ مُمٌ وَلَا غُرْرَهُ
ومن قبيح استجداء الحضريِّ ما فعَّلهُ بالمُعتمدِ بنِ عباد ، تصدَّى له في طريقه
بالعدوة على حاله من ^(١) اعتقاله ، ولم يلقه باكيًا على خلعه من مُلكه ، ولا
تأدب معه في وصف ما انتثر من سِلَكه ، بل بأشعارٍ قديمةٍ له ، صدرها في
الرَّبابِ وفرَّتني ، وعجزها في طلبِ اللهِ ^(٢) . وعلى تلك الحال ، وما يُناجي
بالِ المُعتمدِ من البلبال ، قاسمه فيما كان بيده مما كان به زوّد حسب ما وصفتُ
له في أخباره من هذا المجموع .

وله من أخرى في المُقتدرِ بنِ هُود :

نُفِرْطُ في العُمُرِ ^(٣) الذَّاهِبِ وَتَغْتَرُّ بِالْأَمَلِ الكاذِبِ

يقول فيها :

تَنَزَّهَ عَن تَبِعَاتِ المُلُوكِ فَخَفَّ عَلَى المَلِكِ الكَاتِبِ
فَقَدَّنَا الرِّبِيعَ أبا جَعْفَرٍ فَلَا دَرَ خِلْفٍ عَلَى حَالِ
لَبِسْتُ البَيَاضَ وَلَوْلَا الخِلَافُ لَسَوَّدْتُ نَوْبِي كالزَّاهِبِ

ومنها :

نَقَدْتُ القَرِيضَ عَلَى رَبِّهِ وَفَضَلَ الخِطَابِ عَلَى الخِطَابِ
بَدِيعُكَ أَزْرَى بِعَبْدِ الحَمِيدِ وَبَابِنِ العَمِيدِ وبالصاحبِ
فَفَضْلُكَ مَنْ لِي بِإِحْصَائِهِ وَفِي بَعْضِهِ عِلَّةُ الحَاسِبِ

وله في مَوْتِ المُعْتَصِدِ وولاية المُعتمد :

مَاتَ عِبَادٌ وَلَكِنْ بَقِيَ الفَرَعُ الكَرِيمُ

(١) في الأصل : على . (٢) في الأصل : النهي .

(٣) في الأصل : القمر .

فَكَانَ الْمَيِّتَ حَيٌّ غَيْرَ أَنَّ الضَّادَ مِيمٌ
وَمَاتَ لِلْحَضَرِيِّ ابْنٌ بَلَغَ مِنْ جَزَعِهِ عَلَيْهِ النَّهْيَةُ ، وَتَجَاوَزَ فِي ذَلِكَ الْغَايَةَ ،
وَصَنَعَ فِيهِ مِرَاثِيَّ عَلَى حُرُوفِ الْمُعْجَمِ ، مِنْهَا :

عَرَضْتُ لَهُ تُفَاحَةً نَفَّاحَةً بَعْضُ الْإِمَاءِ فَرَدَّ بِالْإِيمَاءِ
وَلَوْ اسْتَطَاعَ الْقَوْلَ قَالَ مُشَافِهًا تُفَاحُ جَنَاتِ الْخُلُودِ شِفَائِي
فَزُ مُطْمَئِنِّ الْقَلْبِ لَا مُسْتَوْفَزًا طَلَّقْتَ دَارَ مَشَقَّةٍ وَشَقَاءِ
عَبْدَ الْغَنِيِّ لَكَ الْمَسْرَّةُ غَائِبًا وَلِيَ الْمَسْرَّةُ مَصْبُوحِي وَمَسَائِي
لَمَّا غَدَوَا^(١) بِكَ جَائِزِينَ كَانَمَا يَمْشُونَ فِي ظُلْمٍ لِدَفْنِ ضِيَاءِ

وقال فيه :

أَسْتُ^(٢) أَنْسَى مَقَامَهُ وَمَقَامِي وَكَلَانَا مِثْلُ الْقَضِيبِ قَضِيبَا
أَنْفُهُ يَنْفُرُ الْعَقِيقَ وَعَيْنِي تَنْفُرُ الدَّمْعَ بِالْعَقِيقِ مَشُوبَا

وقال فيه :

ذَوِي^(٣) رِيحَانِي الْأَرْجُ وَضَاقَ بِخِلِّي الْفَرْجُ
ذَبِيحٌ طُلَّ مِنْهُ دَمٌ وَلَمْ يُقْطَعْ لَهُ وَدَجٌ
رَأَيْتُ دِمَاءَهُ وَدِمَا عَيْنِي كَيْفَ تَمْتَرِجُ
تَرَفَّقَ يَاسَ قَامُ بِهِ أَبْعَدَ الْمُسْتَوَى عَوَجُ ؟
صَدَعْتَ بَمَا أُمِرْتَ وَمَا عَلَيْكَ مَعَ الْقَضَا حَرَجُ
فَأَيْنَ غِرَارُ مِقْوَلِهِ وَأَيْنَ حِجَابُهُ وَالْحُجْبُجُ ؟
شَأَى ابْنَ الْأَرْبَعِينَ وَمَا انْتَهَتْ عَشْرَاهُ بِالْحِجَابِجُ

(١) في الأصل : غدونا . (٢) في الأصل : أمسيت .

(٣) في الأصل : دوا .

عُرُوقُ النَّاسِ كُلِّهِمْ إِلَى عِرْقِ الثَّرَى تَشِجُ
بَنُو الدُّنْيَا كَأَنَّهُمْ لِقَالَةِ هَمِّهِمْ هَمِجُ
وَهْلٌ هِيَ غَيْرُ دَارِ أَدَى إِذَا دَخَلُوا بِهَا خَرَجُوا
تَأْمَلْ كَيْفَ تَأْكُلُهُمْ وَهُمْ وَلَدٌ^(١) لَهَا نَتَجُ

وقال له :

عَلَى تَعْمِيرِ نُوحٍ مَاتَ نُوحٌ فَنَاحِيَةٌ لِأَمْرِ مَا تَمُوحُ
وَكَيْفَ الصَّبْرُ أَمْ كَيْفَ التَّعَزَّى وَمِنْ عَزِينِهِ^(٢) وَلَدِي ذَبِيحُ

وقال فيه :

أَنَا فَرْدٌ بِلَا خَلِيلٍ وَلَا ابْنٍ وَلَا أَخٍ
أَنَا كَالْأَوْرَقِ اشْتَكَى مُبْعَدَ وَكْرٍ وَأَفْرُخٍ
أَنَا كَالزَّرْعِ وَالْعِدَا كَالْجَرَادِ الْمُسْرَخِ
قُرَّةُ^(٣) الْعَيْنِ دُونَهُ بَرْزَخُ أَيُّ بَرْزَخِ
صَاحِبَ الصُّورِ أَنْفًا حَضَرَ الْمَوْتَ فَاَنْفَخِ
عَلَنِي مِنْهُ أَشْتَفَى بِالنَّسِيمِ الْمَضْمَخِ
كُلُّ عُمْرٍ مُؤَقَّتٌ فِي كِتَابِ مُؤَرِّخِ

وقال :

تَنَاقَرْتُ مِنْ مَدَامِي دُرَّرُ أَثْرَى بِهَا ، وَافْتَقَرْتُ ، مَنْ لَقَطَا
إِنَّ دِيَارًا حَلَّتْهُمَا لَفًّا وَإِنَّ سِرْبًا بَكَى مَعِيَ لَقَطَا

وقال فيه :

بِنَفْسِي نَجَمٌ أَظْلَمَ الْأَفْقُ إِذْ هَوَى وَكَادَ يُعْزِيَنِي بِهِ الْقَمَرُ رَانَ

(١) في الأصل : ولدها . (٢) في الأصل : غريبتة .

(٣) في الأصل : عين .

أَحِينَ شَأَى مِنْ فَضْلِهِ كُلِّ سَابِقٍ وَغَنَى شَامٍ بِاسْمِهِ وَيَمَانٍ
وَهَزَّ قَنَازَةَ الْقَصْدِ لِلطَّعْنِ فِي الْعِدَا وَرَاشَ جَنَاحَ الْعِزِّ لِلطَّيْرَانِ
رَمْتَهُ فَأَصْـمُـمَتْهُ السَّهَامُ وَإِنَّهُ لَفِي زَرَدٍ مِنْ دَعْوَتِي وَكِنَانِ

وفيه يقول :

عَبْدُ الْغَنَى بُنْيَى كَلَاهُ بِالْحِفْظِ رَبُّهُ
يَقُولُ قَلْبِي كُلُّهُ وَاشْرَبَهُ مِمَّا أَحْبَبَهُ

وله من قصيدة يندبُ وطنه بالقيروان ، ويتذكرُ من كان هُناك
من الإخوان .

مَوْتُ الْكِرَامِ حَيَاةٌ فِي مَوَاطِنِهِمْ فَإِنْ [هُمْ] اغْتَرَبُوا مَاتُوا وَمَا مَاتُوا
يَا أَهْلَ وَدْيَ لَا وَاللَّهِ مَا انْتَشَكْتُمْ عِنْدِي عُهْدٌ وَلَا ضَاقَتْ مَوَدَّاتُ
لَيْنِ بَعْدْتُمْ وَحَالَ الْبَحْرِ دُونَكُمْ لَبَّيْنِ أَرْوَاحِنَا فِي النَّوْمِ زَوْرَاتُ
مَا نِمْتُ إِلَّا لِكِي أَلْقَى خِيَالَكُمْ وَأَيْنَ مِنْ نَازِحِ الْأَوْطَانِ نَوْمَاتُ ؟
إِذَا اعْتَلَنَّا ————— اتَعَلَّنَا بِذِكْرِكُمْ لَوْ أَحْسَنْتَ بُرْءَ عِلَاتٍ تَعَلَّلَاتُ
مَآذَا عَلَى الرِّيحِ لَوْ أَهْدَتْ تَحِيَّتَهَا إِلَيْكُمْ مِثْلَ مَا تُهْدِي التَّحِيَّاتُ ؟
أَصْبَحْتُ فِي غُرْبَتِي لَوْلَا مُكَاتَمَتِي بَكَتَنِي الْأَرْضُ فِيهَا وَالسَّمَوَاتُ
كَأَنِّي لَمْ أَذُقْ بِالْقَيْرَوَانِ جَنَى وَلَمْ أَقْلُهَا لِأَحْبَابِي وَلَا هَاتُوا
وَلَمْ تَشْقِنِي الْخُدُودُ الْحُمْرُ فِي يَقَقِ وَلَا الْعُيُوفُ الْمِرَاضُ الْبَابِلِيَّاتُ
أَبْعَدَ أَيَّامِنَا الْبَيْضِ الَّتِي سَلَفَتْ تَرُوقُنِي غَدَوَاتُ أَوْ عَشِيَّاتُ ؟
أَمْرٌ بِالْبَحْرِ مُرْتَاحًا إِلَى بَلَدٍ تَمُوتُ نَفْسِي فِيهَا مِنْهُ حَاجَاتُ
وَأَسْأَلُ الشُّفْنَ عَنْ أَخْبَارِهِ طَمَعًا وَأُنْثَنِي وَبِقَلْبِي مِنْهُ لَوَعَاتُ

هل من رسالة حبٍ أَسْتَعِينُ بها
أَلَا سَقَى اللهُ أَرْضَ الْقَيْرَوَانِ حَيًّا
فَانْتَهَا لِدَةُ الْجَنَّاتِ تَرْبَتُهَا
إِلَّا تَكُنْ فِي رُبَاهَا رَوْضَةٌ أَنْفُ
أَوْ لَا يَكُنْ نَهْرٌ عَذْبٌ يَسِيلُ بِهَا
أَرْضٌ أَرِيضَةٌ أَقْطَارُ مُبَارَكَةٍ
لَا يَشْمَتَنَّ بِهَا الْأَعْدَاءُ إِنْ رُزِنَتْ
وَلَمْ يَزَلْ قَابِضُ الدُّنْيَا وَبَاسِطُهَا
هَلْ مَطْمَعٌ أَنْ تُرَدَّ (٣) الْقَيْرَوَانُ لَنَا
مَا إِنْ سَجَا اللَّيْلُ إِلَّا زَادَنِي شَجَنًا
وَلَا تَنْفَسْتُ أَنْفًا (٤) فِي الرِّيَاضِ ضُحَى
هَذَا وَلَمْ تَشْجُ قَلْبِي لِلرَّبَابِ رَبِّي
وَكَمْ دُعَيْتُ لِبُسْتَانٍ فَجَدَدَ لِي
وَلَوْ تَرَانِي إِذَا غَمَّتْ بِلَابِلُهُ
إِنِّي لِأَظْلًا وَالْأَنَّهُ أَرُ جَارِيَةٌ
وَمَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا بِاسِطًا يَدَهُ

ومنها في المدح :

أَبْلِغْ أَحِبَّتَنَا الْبَاكِينَ مِنْ جِهَتِي
مَنْ الضَّرَاعِمِ إِلَّا أَنْ غَابَهُمْ
فَمَنْ يَكُنْ فِيهِ بَيْنَ اثْنَيْنِ مُخْتَلَفٌ

عَلَى سَقَامِي فَقَدْ تَشْفِي الرِّسَالَاتُ
كَأَنَّهُ عَبْرَاتِي الْمُسْتَهْلَاتُ
مِنْكَ كَيْتٌ وَحَصَاها جَوْهَرِيَّاتُ
فَإِنَّمَا (١) أَوْجُهُ الْأَحْبَابِ رَوْضَاتُ
فَإِنْ أَنْهَارُهَا أَيْدٍ (٢) كَرِيمَاتُ
لِلَّهِ فِيهَا بَرَاهِينٌ وَأَيَّاتُ
إِنَّ الْكُسُوفَ لَهُ فِي الشَّمْسِ أَوْقَاتُ
فِيمَا يَشَاءُ لَهُ مَحْوٌ وَإِثْبَاتُ
وَصَبْرَةٌ وَالْمُعْـلَى فَالْحَنِيَّاتُ ؟
فَأَتَبِعْتُ زَفَرَاتِي فِيهِ أَنْتَ
إِلَّا بَدَتْ حَسْرَاتِي الْمُسْتَكْنَّاتُ
وَلَا تَقْصُصْتَهُ مِنْ لُبْنَى لُبَانَاتُ
وَجَدًّا وَإِنْ كَانَ فِي مَعْنَاهُ سَلَوَاتُ
أَشْكُو الْبَلَابِلَ لَوْ تُغْنِي الشَّكَايَاتُ
حَوْلِي وَأَضْحَى وَدُونَ الشَّمْسِ دَوَّاحَاتُ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يُمَكِّنَ الْمَأْسُورَ إِفْلَاتُ

أَتَى حَمَتْنِي أُسُودٌ حَمِيرِيَّاتُ
بَيْضٌ حِدَادٌ وَحُمْرٌ سَمِيرِيَّاتُ
فَذَا الَّذِي اتَّفَقَتْ فِيهِ الْبَرِّيَّاتُ

(١) في الأصل : أبدا .

(١) في الأصل : فإنها .

(٤) كذا في الأصل : ولعلها : شوقا .

(٣) في الأصل : ترى أرض القيروان .

ومن شعره مما خاطب به الفقيه
القاضي أبا المطرف الشعبي بمالقة من جملة قصيدة :

سَرَيْتُ وَخَلَيْتُ الْهَوَى لَكَ صَاحِبِي
فَتَوْبَكَ مَتَى سُلَّ يَا أَسَدَ الشَّرَى
تَفَكَّرْتُ فِي الدُّنْيَا وَفِي غُرْبَتِي بِهَا
لَقَدْ شَعَبَ الشَّعْبِي قَلْبًا صَدَعَتْهُ
نَهْوُضٌ لِأَمْرِ أَمْرَتُهُ خَوَارِجٌ
جَلَى عَدْلُهُ إِظْلَامَ كُلِّ ظُلَامَةٍ
كَفَفْتُ أَكْفَ الظُّلَمِ عَنْ كُلِّ مُسْلِمٍ
تَنَمُّ بَرِيًّا جَنَّةِ الْخُلْدِ رِيَّةٌ
كَأَنَّكَ مِنْهَا مَالِكٌ وَهِيَ طَيْبَةٌ
وَإِنْ أَنْشَدْتَ فِي دَارِ حُكْمِكَ مِدْحَتِي
لَتَمْتُ حَصَى مَغْنَاكَ لَمَّا وَظَّئْتُهُ
غَدَا عَيْسَنَا بِالْبَيْدِ شَدُو حُدَاتِنَا

١٠٥

١٠

١٥

وَقَدِمَ مِنَ الشَّرْقِ (٤) فَأَنْزَلَهُ فِي دَارِهِ وَأَكْرَمَهُ ، فَقَالَ فِيهِ مِنْ جُمْلَةِ قَصِيدَةٍ :
أَمْوَالِي شَرَفْتُ بِهِ أُمَّ صَدِيقٍ
تَمَلَّكْنِي وَمُنَى مِلْكُهُ (٥)
يُؤَاصِلُنِي حِينَ يَجْفُو الشَّقِيقُ
فَحَسْبُ مَعَالِيهِ أَنَا رَقِيقُ

(١) رسم البيت في الأصل :

سريت وخليت السرى لصاحبي فهذا الهوى يصبي وهذا الهوى يبضي
ولعل الصواب ما أثبتناه . (٢) في الأصل : عرض . (٣) في الأصل : لئن .
(٤) في الأصل : الشوق . (٥) في الأصل : ملك .

سَقَانِي وَأَخْلَاقُهُ جَمَّةٌ فَمِنَهَا الرِّيَاضُ وَمِنَهَا الرَّحِيقُ
حَلَّتْ وَأَحْلَتْ كَرِيْقِ الْحَبِيبِ فَطَابَ الصَّبُوحُ بِهَا وَالْغَبُوقُ
وَزَادَ عَلَى الزَّادِ مَا قَاتَنِي زَمَانًا وَإِنْ طَالَ ذَاكَ الطَّرِيقُ

وخرج تميمٌ عن مائقة معزولاً فقال :

أَهْوَاكُمُ جَدًّا مَارِحُهُ وَالْحَمَى لَمْ يَدْنُ نَازِحُهُ ؟
مَارَسْتُ مَنَى الْعِدَا رَجُلًا أَسْمَعَ السَّمَاءِ صَانِحُهُ
إِنْ زَجَرْتُ^(٢) الطَّيْرَ فِي سَفَرِي عَنْ يَمِينِي مَرَّ سَانِحُهُ
عَجِبْتُ أَسْمَاءَ مِنْ جَلَدِي يَوْمَ أَصْمَى الْقَلْبَ جَارِحُهُ

ومنها :

لَا يَضِيقُ مَنَ^(٣) صَدْرُهُ حَرَجٌ شَيْخُنَا الشَّعْبِيُّ شَارِحُهُ
إِنَّمَا أَخْلَاقُهُ زَهْرٌ عَطَّرَ الْآفَاقَ فَاخِحُهُ
إِنَّمَا أَقْلَامُهُ أَسَلٌ هَابَهَا فِي الْجَوِّ رَاحِحُهُ
قَبْلَ الشَّعْبِيِّ حِينَ دَعَا فَكَبَا بِاللَيْثِ سَابِحُهُ^(٤)
بَتَمِيمٍ حِينَ حَانَ بِهِ الْحَيْنُ وَانْقَادَتْ جَوَاحِحُهُ
ضَعُفَتْ مِنْهُ الْقُوَى فَعَدَّتْ مِنْ قَوَارِيرِ قَوَارِحُهُ
وَانْجَلَتْ عَنْ حُسْنِ مَائِقَةٍ بِفَقِيهِهَا قَبِيلُ سَابِحِهِ
وَصَفَا الْبَحْرَانِ مِنْ كَدَرٍ فَارْتَوَى بِالْمَاءِ مَائِحُهُ
ذِكْرُهُ غَنَى الزَّمَانُ بِهِ وَأَنَا فِيهِ أَطَارِحُهُ

(٢) في الأصل : إن زجى الطير .

(١) في الأصل : حلت وحلت .

(٤) في الأصل : سانهه .

(٣) في الأصل : في صدره حرجا

وله من أخرى يمدح القاضي أبا مروان بن حسون :

سَهْلُ الْأَبَاطِحِ مِنْ عُلَاكَ يَفَاعُ وَالنَّجْمُ أَنْتَ وَكفُّكَ الْمِرْبَاعُ
بَلْ أَنْتَ شَمْسٌ لَا تَزَالُ وَلَمْ يَزَلْ فِي سَائِرِ الْآفَاقِ [مِنْكَ] شُعَاعُ
مَنْ يَخْتَلِفُ كُلُّ الْوَرَى فِي حُبِّهِ فَأَبُو الْمَطَرِ فِي حُبِّهِ إِجْمَاعُ
شَهِدَتْ عُقُولُ الْعَالَمِينَ بِفَضْلِهِ فَسَوَاءَ الْأَعْدَاءِ وَالْأَشْيَاعُ
مِصْبَاحُ مَالِقَةٍ أَرَادَ خُودَهُ قَوْمٌ لِيَرْتَفِعُوا وَهُمْ أَوْضَاعُ
فَالْعَامُ لَمْ يَكْمُلْ لَعَزَلَتِهِ بِهَا حَتَّى عَمَلَتْ يَدُهُ وَطَالَ الْبَاعُ
أَنْظُرْ إِلَيْهِ ^(١) [الْيَوْمَ] كَيْفَ أَصَابَهُ صَرَفُ الزَّمَانِ وَلَيْسَ عَنْهُ دِفَاعُ
لَوْلَا إِسَاءَتُهُ إِلَيْكَ وَظُلْمُهُ لَعَدَا وَأَنْتَ لَهُ يَدٌ وَذِرَاعُ
بَيْنَ ابْنِ حَسُونٍ وَشُعْبَى الْهَدَى مِنْ ثَدْيِ خَالِصَةِ الْإِخَاءِ رَضَاعُ
يَا ^(٢) أَجَلَّهُمَا وَأَشْبَهَ ذَا بَذَا حَسُنْتَ وَجُوهٌ مِنْهُمَا وَطِبَاعُ
مَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا بِحُسْنِهِمَا الَّذِي تَلْتَذُّهُ الْأَبْصَارُ وَالْأَسْمَاعُ
خُلِقَا لِنَصْرِ الدِّينِ وَالْكَرَمِ الَّذِي تَخْضَرُّ مِنْهُ بَسِيطَةٌ وَتِلَاعُ
كَهَنَدَيْنِ مُجَرَّدَيْنِ بَرِيَّةِ تَنْبُو الظُّبَا وَكِلَاهَا قَطَاعُ

وله فيهما من أخرى أولها :

بَرِيَّةَ [رِيًّا] رَوْضَةٍ وَرِياضِ بِهَا عُلَمَاءُ عِلْمٍ وَأَعْدَلُ قَاضِ
مَعَالِيهِمَا فَوْقَ النُّجُومِ مُنِيفَةٌ وَرَأْيُهُمَا فِي الْمَشْرِفِيَّةِ مَاضِ
سَمَّتْ حَيَاتِي وَالْمَقَامَ بَطْنُجَةٍ كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ غَيْرُ عِرَاضِ
سَيُورِقُ عُودِي إِنْ سَكَنْتُ بَرِيَّةِ وَيَسُودُ مِنْ فَوْدِي ^(٣) كُلُّ بَيَاضِ
لَدَى قَمَرِيهَا إِنْ فِي غُرَّتَيْهِمَا هِدَايَةَ عُمَيَّانٍ وَبُرْءَ مِرَاضِ

(١) لعل الضمير هنا يعود على تميم المذكور في الصفحة السابقة .

(٢) في الأصل : فما . (٣) رسم الكلمة في الأصل : فؤادي .

أُرِيَّةُ مَرْعَايَ الْمَرْيَعُ وَأُيُنُقِي وَأَنْتِ ابْنَةُ^(١) فِي عِصْمَةِ ابْنِ عِيَاضٍ
وقال :

يا عَجَبًا لِلشُّيُوفِ اسْتَوَى كَلِيلُهَا الْيَوْمَ وَمَا ضِيهَا
وَقَدْ رَأَيْتُ الْعَدْلَ فِي بَلَدَةٍ فَقِيْهُهَا الشَّعْبِيُّ قَاضِيهَا
أَحْكَامُهُ بِالْحَقِّ مَرْضِيَّةٌ وَاللَّهُ بَعْدَ الْخَلْقِ رَاضِيهَا
لَوْ شِوَوْرَتْ فِيهِ بَنُو هَاشِمٍ لَقَدَّمْتُهُ عَنْ تَرَاضِيهَا
كَمْ حُجَّةٍ أَوْضَحَ ، كَمْ حَاجَةٍ قَضَى لَنَا قَبْلَ تَقَاضِيهَا

ذِكْرُ الْأَدِيبِ أَبِي الْحَسَنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ فَضَّالِ الْقَيَّرَوَانِيِّ
وَأَشْتَهَرَتْ مَعْرِفَتُهُ بِأَفْقِنَا بِالْحُلُوَانِيِّ

وَسِيَاقَةُ جُمْلَةٍ مِنْ شِعْرِهِ

وله كلام في النسيب رائق ، ومتأخر سابق ، ومديحه أيضا عليه طلاوة ،
وبالجُمْلَةِ فِي الْفَاطِطِ الْحُلُوَانِيِّ حَلَاوَةٌ . وَمِنْ خَطِّهِ نَقَلْتُ جُمْلَةً مَا هَهْنَا لَهُ أَخْرَجْتُ .

النَّسِيبُ وَمَا يُنَاسِبُهُ

قال :

وَلَمَّا تَنَادَوْا لِلرَّحِيلِ وَقُرْبَتْ كِرَامُ الْمَطَايَا وَالرَّكَبُ تَسِيرُ
جَعَلْتُ عَلَى قَلْبِي يَدَيَّ مُبَادِرًا فَقَالُوا مُحِبُّ الْعِناقِ يُشِيرُ
فَقُلْتُ وَمَنْ لِي بِالْعِناقِ وَإِنَّمَا تَدَارَكْتُ قَلْبِي حِينَ كَادَ يَطِيرُ

(١) في الأصل : أنبه في عنة . ولعل الصواب ما أثبتناه .

وقال الحلواني :

قالوا التحنى فاحمت بالشعر بهجته
مَنْ كَانَ مُنْتَظِرًا لِلصَّبْرِ عَنْهُ بِهِ
خَطَّتْ يَدُ الْحُسْنِ مِنْهُ فَوْقَ وَجْنَتِهِ
وَمَعْنَى هَذَا الْبَيْتِ يَتَطَرَّفُ قَوْلَ ابْنِ شَرَفٍ .

سُبْحَانَ مَنْ أَعْطَاكَ حُسْنًا ثَانِيًا
وَبِثَالِ مَنْ حُسْنِ فَعَلِكَ عَزْزًا

وقال الحلواني :

لِي حَبِيبٌ إِذَا شَكَوْتُ إِلَيْهِ
لَسْتُ أَدْعُو عَلَيْهِ بِالشَّعْرِ [غَيْظًا]
غَيْرَ أَنِّي أَدْعُو بِقَلْبٍ قَرِيحٍ
كَأَنَّهُ عَكْسَ قَوْلِ الْبُحْتَرِيِّ :

أَعِيدُكَ أَنْ تُمْنَى بِشَكْوَى صَبَابَةٍ
وَيَحْزُنُنِي أَنْ تَعْرِفِي الْحُبَّ بِالْجَوَى
وَإِنْ أَسْبَبْتَنَا مِنْكَ عَطْفًا^(١) عَلَى الصَّبِّ
وَإِنْ نَفَعْتَنَا فِيكَ مَعْرِفَةُ الْحُبِّ

وقال :

رُبَّ خَيْطٍ فَتِنْتُ بِهِ
لَاعِبٌ بِالْخَيْطِ يَفْتِلُهُ
لَيْتَ أَنِّي كُنْتُه فَأَرَى
فَعَلْتُ بِالثُّوبِ إِزْرَتَهُ
فِتْنَةً أَفْنَتُ قُوَى جَلْدِي
أَتَرَاهُ ظَنَّهُ جَسَدِي
بَيْنَ ذَلِكَ الْوَرْدِ وَالْبَرْدِ
فَعَلَ سَهْمَ الشَّوْقِ فِي خَلْدِي^(٢)
جَرَى عَيْنَيْهِ عَلَى كَبْدِي
وَجَرَى الْمَقْرَاضُ فِي يَدِهِ

(١) فِي الْأَصْلِ : كَسَبْتَنَا مِنْكَ عَطْف . وَالتَّصْحِيحُ عَنْ دِيَوَانِهِ ص ٢٠٢ ج ١ طَبْعَةٌ
بِירוْت سَنَةِ ١٩١١ . (٢) فِي الْأَصْلِ : جَلْد .

وذكرتُ بذكره الخياط قول أبي محمد عبد الله بن القابلة السبتي في
غلامٍ وسيمٍ رآه يرفو في السوق ثوباً :

يا رافياً قطع كل ثوب
عسى بكف الوصال ترفو
ويا رشحاً حُبُّهُ اعتقادي
ما قطع [الهجر] من فؤادي

وهذا من اللفظ الطيار الخفيف الروح . ومن الكلام الفج الثقل ،

قول عبد الجليل :

بسوق الخياطة مُستمرّد
وأشهد أن الفتى صانع
تود لمن ناكه ألف خير
لطوق عجان على عنق أير

وما أحلى لفظ الحلواني هذا في غلامٍ وسيمٍ أراد النهوض إلى الحج :

يا طالب الحج وهو ذو صغر
إن كنت تبغى مشوبة فعسى
عجلت فاستأنه إلى الكبير
تحمل لي قبلة إلى الحجر
وإن رميت الحمار فارم به
فقال دغى وزمزما فعسى
كل فؤاد عليك لم يطير
أغسل من مقلتي دم البشر

وعلى ذكر قوله « تحمل لي قبلة إلى الحجر » . قال الحسن لغلامٍ رآه

بالمكتب ، فأشار لتقبيل يده ، فقبله :

ظفرت بقبلة منه
أشرت بها إلى يده
على عيني معلّمه
فوصلها إلى فمه

وقال الحلواني :

تمرّضت من شفي هجره
وقلت عساه يرُدّ السلام
ببذاء سلامٍ عليه سفاها
فتبلى نفسي منه مناهها
فجاد على بتقبيل لـ
وقد كان أعرض عني وتاهها

فكنتُ كموسى أتى للضياء ليقبسَ نارًا فنجى الإلهما

وقال :

يا صاحِ خُذْهَا نَصِيحَةً لِمَكَّةَ بالوُدِّ إِنْ كُنْتَ فَاتِكَ الْفَتَكَةَ
اسْفِكْ دَمَ الْمُرْدِ إِنْ وَجَدْتَهُمْ فَلَيْسَ يَلْقَى الْعَذَابَ مَنْ سَفَكَهُ
وَاتْرُكْ هَوَاهِمَ إِذَا هُمْ تَرَكَوْا قَدْ يَتْرُكُ الْحُبُّ حُبَّ مَنْ تَرَكَهُ
وَقُلْ لِمَنْ خَانَ فِي مُحَبَّتِهِ لِي هِمَّةٌ عَنْ هَوَاكَ مُمْتَسِكَةً
كَانَ بَفَرَطِ الْغَرَامِ يَمْلِكُنِي فَأَصْبَحَ الدَّهْرُ عَازِلًا مِلِكَةً
وَكَانَ سِتْرُهُ عَلَيْهِ مِنْ مُلَحٍ لَوْلَا نَبَاتٌ بَخْدِهِ هَتَكَهُ^(١)
وَاللَّهُ لَا صَادَنِي لَهُ شَرِكٌ فَهَذَا بَدَا الشَّعْرُ قَطَعَ الشَّرَكَهُ
أَفَلْتُ مِنْ بَعْدِ نَتْفِهِ ذَنْبِي وَلَسْتُ طَيْرًا يَعُودُ لِلشَّرَكَهُ
وَذِكْرُهُ نَتْفَ ذَنْبِهِ مِنَ اللَّفْظِ الرَّثِّ ، وَالْمُسْتَهْجَنِ الْغَثِّ .

وكان أبو محمد المهدوي المعروف بابن الطلاء أخذ الشعراء الطارئين على

١٠٧

الأندلس كثيرًا ما يأتي بالاستعارة التي تضحك كقوله :

لَحِي جَرَايَاتِي^(٢) مَنْتَوَفَةٌ وَمَرَّةً دَهْرٌ وَهْيَ لَمْ تُنْتَفِ

وقد أُلْعِتُ بُلْعُجٍ مِنْ هَذَا الْبَابِ ، فِي أَخْبَارِ ابْنِ شِمَاخٍ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ .

١٥

وقال الحلواني :

قَدْ حَلَّ فِي سُوقِكَ الْكَسَادُ مُذْ لَاحَ فِي خَدِّكَ السَّوَادُ
كَأَنَّمَا الشَّعْرُ فِيهِ زَرْعٌ وَالنَّتْفُ مِنْهُ لَهُ حَصَادُ

وقال :

صَدَّ فَمَا يُصْغِي لَشَاكٍ إِلَيْهِ وَرَاحَ وَالْأَلْبَابُ فِي رَاحَتَيْهِ

٢٠

مُفَوَّقٌ^(١) السهم إذا ما رمى رمى ولا قوس سوى حاجبيه
يودّ سيف الهند لو أنه تعلم الفتكة من ناظريه
ذو وفرة زاد بها هيبته وقد يهاب الليث في لبدتيه
عندي له من خدعي رقيمة لو أنها مرت على مسمعيه
لا يدعى السقم بالحظه فمهجتي أسقم من مقلتيه
أنظر لحاليه فقد أقسم أن ليس يمجو أحد من يديه
أنظر لحاليه^(٢) فقد أقسم بسيف عيني على وجنتيه
ريحانة تمنع من شمهها^(٣) تفرغ في مدرعيه^(٤)
تاه بوجهه كاد من رقة يقطر ماء الحسن من صفحتيه
رقيبه من فرط ظن به لشخصه ألزم من حافظيه^(٥)

وقال :

يا حامل السكين في وسطه ليس بهذا تعرف العين
هل يحمل السكين من لحظه في مهج العشاق سكين ؟

وقال :

رضاب تغرك يضمنني ويشفني وسحر عينيك يغويني ويغريني
وفي تنميك معني لا يقوم به مافي الغصون من الإرهاف واللين
وهذا كقول أبي الفرج الوأواء :
من أين للبدر حسن صورته وقدّه للقضيب من أين ؟^(٦)
وما أحسن قول بعض أهل عصرنا :

(١) في الأصل : مفرق . (٢) في الأصل : لحاليه .

(٣) في الأصل : وغيره . (٤) في الأصل : مدرعيه .

(٥) في الأصل : ألد من خافضيه .

(٦) راجع ديوانه (نشر كراتشكوفسكي — ليدين سنة ١٩١٣) ص ١٨ .

ما قَدَرُ نَعْمَانِ إِذَا مَا مَشَى وما عَسَى تَبْلُغُهُ عَاجِلُ ؟

وفي هذه القصيدة يَقُولُ الحلواني :

إِذَا وَصَفْتُكَ بِاللَّحْظِ الْفَتُورِ فَمَنْ
وَأَنْ نَعْتُكَ بِالْغَضَنِ الرَطِيبِ فَمَا
جِسْمٌ مِنَ الْمَاءِ لَكِنْ قَلْبُهُ حَجَرٌ
وما سَمِعْنَا بَغْضَنٍ مُثْمِرٍ قَمَرًا
الْوَرْدُ وَالْأَسُّ وَالنَّسْرَيْنِ مُجْتَمِعِ (١)
لَمْ يَرْضَ عَنِّي فُؤَادِي مِنْ ضَمَانَتِهِ
فِي حُبٍّ مَنْ لَوْ رَأَى مِثْلُ مِنْ عَطَشٍ
طَمِعْتُ فِيهِ وَغَرَّتَنِي لَوَاحِظُهُ
قُلْ لَابْنِ عَشْرٍ وَخُمْسَيْهَا مِنْ أَيْنَ جَرَتْ
مَا حُجِّتِي عِنْدَ مَنْ فِي الْحُبِّ يَعْذُلُنِي
إِنْ كُنْتَ فِي الْحُبِّ سُلْطَانًا عَلَى كِبْدِي
أَوْ كَانَ عِنْدَكَ لِلْمَسْكِينِ مَرْحَمَةٌ
وأراه عارضَ بهذه قصيدة ابنِ رَشِيقٍ ، فَضَّلَ عَنِ الطَّرِيقِ . هذا وقد
قُلْتُ إِنَّ لَهُ فِي النَّسِيبِ ، أَوْفَرَ نَصِيبٍ . فَأَمَّا إِذَا وَصَفَ أَوْ مَدَحَ ، فَقَلِمَا رَأَيْتُهُ
فِي ذَلِكَ نَجَحَ وَلَا أَفْلَحَ .

ما أخرجته من قصائده المطوّلة في المديح وما يتشبتُّ به من الأوصاف

قال يَمْدَحُ الشَّيْخَ صَاحِبَ الْخُمْسِ أبا عبد الله محمد بن إبراهيم الكِنَانِيَّ
الشَّامِيَّ بِصَقْلِيَّةٍ مِنْ قَصِيدَةٍ يَقُولُ فِيهَا :

(١) في الأصل : مجمعا . (٢) في الأصل : وآية الله ، ولعلها ما أثبتناه .

شَدُّوا الحُدُوجَ وزَرُّوها على قَمَرٍ
دُرَّانٍ مِنْ فِيهِ شَفَا مُحَدِّثِهِ
فَلَيْتَ شِعْرِي لِمَنْ أَنْهَى ظُلَامَتَهُ
قَدْ قُلْتُ لَوْ قَبَلَ الوَعْظَ الْمُبِينَ لَهُ
فَقَالَ مَنْ ضَرَّجَتْ خَدَّيْ نَظَرْتُهُ

ومنها :

لِلَّهِ مَنْزِلَةٌ بِالْقِيَرَوَانِ مَحَا
شَقَّقْتُ جَنِبَ شَبَابِي بَعْدَ فُرْقَتِهَا
إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ عَنْهَا شَمْلَنَا فَلَنَا

وله فيه من أخرى :

لَيْتَ شِعْرِي وَلَيْتَ حَرَفُ تَمَنٍّ
كَيْفَ يَا قِيَرَوَانُ حَالُكَ لَمَّا
كُنْتُ أُمَّ الْبِلَادِ شَرْقًا وَغَرْبًا
نَحْنُ أَبْنَاؤُهَا وَلَكِنْ غَنِينَا
دِمْنٌ كَانَتْ الْبُرُوجُ وَكُنَّا

ومنها :

وَأَنَا قَدْ أَخَذْتُ إِنْ عَبَثَ الدَّهْرُ

وَقَالَ مِنْ أُخْرَى :

نَطَقْتُ بِسِرِّ ضَمِيرِهِ عِبْرَاتِهِ
بِأَبِي وَأُمِّي بَدْرُ تِمٍّ تَحْتَهُ
يَمْشِي فَيَعُثُّ فِي ذُيُولِ شَبَابِهِ

فِي الْحُسْنِ تَنْجَابٌ عَنْ أَنْوَارِهِ الظُّلْمِ
لِلنَّثْرِ وَالنَّظْمِ مَسْمُوعٌ وَمُلْتَمَسٌ
وغيرُ مُنْتَصِفٍ مَنْ خَصَّمَهُ الْحَكَمُ
خَفِ الْمُهَيِّمَنَ فِينَا إِنَّا نَسَمُ
فَإِنَّ سَيْفَ جَفُونِي مِنْهُ يَنْتَقِمُ

أَيَّامَهَا الْبَيْنُ لَا الْأَيَّامُ وَالْقِدَمُ
حُزْنًا عَلَيْهَا وَلَا شَيْبٌ وَلَا هَرَمٌ
بِصَاحِبِ الْخَمْسِ إِبْرَاهِيمَ مُعْتَصِمٌ

رَبِّمَا عَلَّلَ الْفُؤَادَ السَّاقِيَا
نَثَرَ الْبَيْنُ سِلَكَكَ الْمَنْظُومَا
فَمَحَا الدَّهْرُ وَشَيْكَ الْمَرْقُومَا
بَعْدَ إِنْ لَمْ نُنْطِقْ بِهَا أَنْ نُقِيَا
أَقْمَرًا فِي قِيَابِهَا وَنَجُومَا

رُ ذِمَامًا مِنْ ابْنِ (١) إِبْرَاهِيمَا

وَبَدَتْ بِنَارِ فُؤَادِهِ زَفَرَاتُهُ
غُصْنٌ كَثُرْنَ لَشِقْوَتِي ثَمَرَاتُهُ
مَشَى النَّزِيفِ وَخَرَّةَ رَشْفَاتُهُ

(١) فِي الْأَصْلِ : مِنْ عَفْدٍ .

ومنها :

ولربِّ با كِيَّةٍ رَأَتْ فِي لِمَّتِي بعض^(١) المَشِيبِ تَأَلَّقَتْ ضَحَكَاتُهُ
[قالت] : أَغْصُنْكَ قَدَعْلَاهُ كَمَا أَرَى زَهْرُ الرِّيَاضِ وَمَا بَدَتْ وَرَقَاتُهُ
فَأَجَبْتُهَا : قَارَعْتُ فِي جَنْبِ الْهَوَى صَرَفَ الزَّمَانِ وَهَذِهِ نَكَبَاتُهُ
ومن المديح :

شَيْخُ الْقَبِيلَةِ فِي الْجَزِيرَةِ وَالَّذِي سَبَقَتْ ظُنُونُ الْحَاسِدِينَ أَنَاتُهُ
مَا تَفْعَلُ الْأَيَّامُ غَيْرَ مُرَادِهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّكَاتُهَا أَدَوَاتُهُ
هَذَا الثَّنَاءُ عَلَيْكَ يَعْْبَقُ طَيْبُهُ يَا بَنَ الْكِرَامِ وَحَاسِدُوكَ رُؤَاتُهُ
قَوْلُهُ فِي الشَّيْبِ « صَرَفَ الزَّمَانِ وَهَذِهِ نَكَبَاتُهُ » كَقَوْلِ ابْنِ الْمُعْتَزِّ^(٢) :
قَالَتْ كَبِرْتَ وَشِبْتَ قُلْتُ لَهَا هَذَا غُبَارُ وَقَائِعِ الدَّهْرِ
وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي طَاهِرٍ :

قَالَتْ غُبَارُ قَدَعَلَا كَ فَقُلْتُ بَلْ غَيْرُ الْغُبَارِ
هَذَا الَّذِي نَقَلَ الْمُلُوكَ إِلَى الْقُبُورِ مِنَ الدِّيَارِ

وَقَالَ ابْنُ لَنَكْكَ ، فِي مِثْلِ هَذَا الْمَسَلَكِ :

وَتَعَجَّبْتُ لِلشَّيْبِ ، لَا تَتَعَجَّبَنِي هَذَا غُبَارُ وَقَائِعِ الْأَيَّامِ

وَقَوْلُهُ « حَاسِدُوكَ رُؤَاتُهُ » كَقَوْلِ الْبُحْتَرِيِّ :

لَيْسَ أَيْرَنَكَ رَكْبُ شِعْرِ سَائِرٍ يَرْوِيهِ فَيْكَ لِحْسَنِهِ الْأَعْدَاءُ
وَأَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ حَبِيبٍ :

فَإِنْ أَنَا لَمْ يَحْمَدْكَ عَنِّي صَاغِرًا عَدُوُّكَ فَاعْلَمْ أَنَّنِي غَيْرُ حَامِدٍ

وقال الحلواني من أخرى :

وإذا أردت ترى فضيلة صاحب
فلمه مطوى على عـلاته
وكذا دليل الجود في ابن محمد
وترى الليالي فاعلات أسرته
فانظر بعين البحث من ندمانه
طى الكتاب وصحبه عنوانه
باد بصفحة جبينه برهانه
حتى كأن صروفها أعوانه

ومعنى البيت الأول من هذه كقول الآخر : « واعتبر الصاحب بالصاحب »
وقول الآخر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
ومعنى البيت الأخير لفظ أبي الطيب :
وأراك دهرك ما تحاول في العدا
فكل قرين بالمقارن مقتد
[حتى ^(١)] كأن صروفه أنصار

وقال :

هل بعد [حد] الأربعين تصابي
هل ينفعنك بعد شيبك في الهوى
هيئات ما فخر المهند في الوغى
ذهب الشباب ولات حين شباب
توفير مكتسب وحسن ثياب ؟
بحلي غمد فوقه وقرب !

وهذا كقول المعري :

وإن ^(٢) كان في لبس الفتى شرف له
فما السيف إلا غده والحمائل

أنت الذي قسم الزمان لنفسه
أعطى لمرتبة العلاء نهاره
قسمين بين رياسة ومناب
منها وجنح الليل المبحراب

(١) هذه الكلمة ساقطة في الأصل . انظر الديوان ج ١ ص ٣٠٦ .

(٢) في الأصل « إذا » والتصحيح عن سقط الزند ج ١ ص ١١١ .

قَامَتْ عَلَى أَسِّ الْفَخَارِ عِمَادُهَا وَتَزَيَّنَتْ بِتَأْدِبِ الْحُجَابِ
سَهَلَتْ مَدَاخِلَهَا لَطَالِبِ حَاجَةٍ فَكَأَنَّمَا بُنِيَتْ بِلاَ أَبْوَابِ
«ووجدتُ بخطّه [وقد] مدحَ هذا الشيخِ الكِنَانِي رجلٌ من الأندلس

بشعرٍ [أتهم ابن فضال] فيه وجرى في مجلسه بصقلية^(١)، [فقال يهجوّه] :

يا شاعِرَ العصرِ قد كَلَّفَتْنِي شَطَطًا فاصْرِفْ عِنَانَكَ عَنَّا ، أَوْ تَأَنَّ خُطَا
حَمَلَتْنِي ذَنْبَ غَيْرِي ظَالِمًا وَأَنَا قَدْ كُنْتُ أَقْسَطُ فِي إِنْصَافٍ مَن قَسَطَا
وَمَا حَسَدَتُكَ فِي شِعْرِ أُتَيْتَ بِهِ وَمَنْ يَحَاوُلُ لَمَسًا لِلشَّهَى سَقَطَا
يَا فَارِسَ الشَّعْرِ إِنْ كَلَّتْ فَوَارِسُهُ يَوْمًا^(٢) وَسَابَقُهَا إِنْ أَعْلَمْتَ^(٣) مَرَطَا
إِنَّ ابْنَ دَرَّاجِكُمْ لَوْ قَامَ مِنْ حَدَثٍ وَصِحْتُ يَوْمًا بِهِ مِنْ خَلْفِهِ ضَرَطَا
وَلَيْسَ يَحْسُدُ طَبْعِي أَبْجُنَيْسَكُمْ^(٤) فَكَيْفَ أَنْتَ ، لَقَدْ جَشَّمَتْنِي شَطَطَا

فَخُذْ « قِفَا نَبِكَ » وَانْسُبْهَا لِنَفْسِكَ مَا فِي الْخَلْقِ مِنْ كَاشَفٍ بِالْبَحْثِ عَنْكَ غِطَا
وَلَا تَظَنَّ أَنَّ الشَّعْرَ مَكْرُمَةٌ فَالْحُرُّ إِنْ رَامَ أَنْ يَعْلُو بِهِ هَبَطَا
قُلْتُ أَنَا — صَاحِبَ الْكِتَابِ — نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ يَا أَبَا الْحُسَيْنِ^(٥) إِلَّا

مَارَفَقَتَ بِأَسِيرِيكَ ! فَأَنْهَمَا شَيْخَا الْعَشِيرَةِ ، وَلِسَانَا الْجَزِيرَةِ ؛ فَإِنْ كَانَ
وَلَا بُدَّ فَالرَّمَادِيُّ ، فَإِنَّهُ كَانَ أَقْلَ طَيْشًا ، وَأَوْدَعَ عَيْشًا . وَأَمَّا ابْنُ دَرَّاجٍ فَمَنْخُوبُ
الْقَلْبِ ، مُشْتَرِكُ اللَّبِّ ، يَكْفِيكَ مِنْهُ هَوْلُ الْاِتِّهَامِ وَالْإِنْجَادِ ، وَبَيْعُ الشَّعْرِ فِي
سُوقِ الْكَسَادِ .

وَقَالَ مِنْ أُخْرَى :

طَرَقَتْهُمْ بَدِيعُ الْهِنْدِ لَيْلًا فَعَادَ اللَّيْلُ عِنْدَهُمْ نَهَارًا

(١ — ١) العبارة مضطربة في الأصل وما أثبتناه أقرب الاحتمالات لسياق الكلام .

(٢ — ٢) في الأصل : وَمَنَابِعُهَا إِنْ أَعْلَمْتَ . وَلَعَلَّهَا مَا أَثْبَتْنَاهُ .

(٣) كنية الرمادي الأعجمية « أبو جنيس » .

(٤) رسم الكلمة في هذا الموضع : أبو الحسن .

أطرت فؤادها في الجوِّ دُعْرًا لبرقٍ في يدَيْكَ قد استطارا
بَنَيْتَ الأرضَ فوقَهُمْ سَمَاءً وقد أَجَرَيْتَ مِنْ عُلْقٍ بِحَارَا
فَلَيْسَ تَرَكَ الحَاظُ الدَّرَارِي وَأَنْتَ حَشَوْتَ أَعْيُنَهَا غُبَارَا

وَمَعْنَى هَذَا الْبَيْتِ وَالَّذِي قَبْلَهُ كَقَوْلِ التَّهَامِيِّ :

فَدَحَوْا فَوْقَ الْأَرْضِ أَرْضًا مِنْ دَمٍ ثُمَّ ابْتَنَوْا [دُونَ] السَّمَاءِ سَمَاءَا ٥

وَقَالَ مِنْ أُخْرَى فِي الْوَزِيرِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِبَلَنْسِيَّةٍ :

أَغْلِبُ فِيكَ الشَّكَّ أَنِّي حَالِمٌ وَمَنْ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ الْكَرَى كَيْفَ يَحْلُمُ

وَمِنَ الْمَدْحِ :

وَقَتُّ بِهَا بَيْنَ السَّمَاوَيْنِ مُنْشِدًا كَمَا يَتَغَفَّى الشَّارِبُ الْمَتْرَمُ
بِمَدْحِ امْرِئٍ كُلِّ امْرِئٍ مِنْ غُفَاتِهِ يُخَيِّرُ فِيمَا عِنْدَهُ وَيُحْكَمُ ١٠
كَأَنَّ الَّذِي سَوَّاهُ قَالَ لَكَفِّهِ عَلَيْكَ لِهَذَا الْخَلْقِ رِزْقٌ مُقَسَّمُ
لَقَدْ عَلِمَ الْمَأْمُونُ^(١) أَنَّكَ صَارِمٌ بِئِمْنَاهُ لَا يَنْبُو وَلَا يَتَشَلَّمُ
يَقُولُونَ لِي إِنَّ الْمُلُوكَ كَثِيرَةٌ وَرَأَيْكَ أَمْضَى فِي الْبِلَادِ وَأَحْزَمُ
فَقُلْتُ^(٢) لَهُمْ مَا كُلُّ بَيْضَاءٍ شَحْمَةٌ وَلَا كُلُّ مَصْقُولٍ الصَّفِيحَةِ مَخْذَمُ

وَلَهُ مِنْ أُخْرَى يَسْتَعِظِفُهُ لِأَمْرِ وَقَعَ ، وَلِكَلَامٍ عَلَيْهِ رُفِعَ :

أَتَسْمَعُ فِي مَقَالِ الْوُشَاةِ وَإِنْ جِئْتُ بِالْعُذْرِ لَا تَسْمَعُ ؟
تَقْشَعُ غَيْمٌ بِكَفِّي مِنْكَ وَصَوِّحَ فِي سَاحَتِي مُنْعَرُغُ
فَلَوْلَا اعْتِلَاقِي بِحَبْلِ الرَّجَاءِ لَمَا حَمَلْتُ قَلْبِي الْأَضْلَعُ
فَإِنْ كَانَ قَدْ مَاتَ حَظِّي لَدَيْكَ وَحَاشَاكَ بَلْ أَنْتَ لِي أَرْفَعُ

فَدَعْنِي أَبْيَضُ بِشَيْبِي عَلَيْكَ فَلُبْسُ الْمَشِيبِ لَهُ أَفْجَعُ
وقد كرّر الحلوانيُّ هذا المعنى في شعرٍ قد تقدّم إنشاده .

وقال من أخرى :

نَجْمٌ تَوَلَّدَ مِنْ شَمْسٍ وَمِنْ قَمَرٍ وَأَيْنَ مِنْ أَبْوَيْهِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ؟
شَمْسُ الْعَفَافِ وَبَدْرُ الْجَدِ بَيْنَهُمَا تَوَلَّدَ النُّورُ إِلَّا أَنَّهُ بَشَرُ

وهذا كقول ابن عمارٍ يهنئُ المعتمدَ وقد وُلِدَ له مولودان :

إِهْنَأْ بِنَجَلَيْكَ مِنْ أَنْثَى وَمِنْ ذَكَرٍ لَا تَعْدُمُ الضَّوءَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
وهو من قول ابن الرُّومى :

شَمْسٌ وَبَدْرٌ وَلَدَا كَوْكَبَا أَقْسَمْتُ بِاللَّهِ لَقَدْ أَنْجَبَا
وقد تقدّم إنشاده .

ومن قصيدة الحلواني :

لَا أَقْتَضِيكَ مَوَاعِيدًا بَدَأَتْ بِهَا كَمَا تَنْفَسُ مِنْ أَكْثَامِهَا الزَّهْرُ
وَلَا أَلْوَمُكَ فِي تَأْخِيرٍ عَاجِلِهَا مَنْ بَعْدَ عِلْمِي بِمَا يَجْرِي بِهِ الْقَدَرُ
أَمَّا تَرَى اللَّهَ وَهُوَ اللَّهُ مَوْعِدُهُ مُؤَخَّرٌ بِنَعِيمِ الْخُلْدِ مُنْتَظَرُ ؟

وقال : ١٥

وَمَا كُنْتُ أُدْرِى قَبْلَ لَوْلَوْ تَغْرِه بَأَنَّ اللَّالَى مِنْ نَبَاتِ الْمِبَاسِمِ
ومنها :

مَنَادِيَّةٌ أَنْسَابُهُ خَيْرِيَّةٌ مُتَوَجِّةٌ بِالْجَدِّ قَبْلَ الْعَمَائِمِ
فَمَا انْبَسَطَتْ إِلَّا لُجُودُ أَكْفَهُمُ وَلَا انْقَبَضَتْ إِلَّا لَضَبِّ الْقَوَائِمِ
يَحْرُونَ أَطْرَافَ الرِّمَاحِ إِلَى الْوَعَى كَمَا جَرَّتِ الْعِقْبَانُ سُودَ الْأَرَاقِمِ

ومعنى البيت منها كقول الآخر :

وما خلقت كفاك إلا لأزبع
لتقليب^(١) هندی وإعطاء نائل
عقائل لم تخلق لهن يدان
وتقبيل أفواه وقبض عنان

وقال الحلواني :

يا نفس ويحك في التغرب ذلة
وإذا نزلت بدار قوم دارهم
فتجرعى كاسي أذى وهوان
فالشمس أشرف ما تكون بكبشها
فلهن عليك تعزُّز الأوطان
وسقوطها في كفة الميزان

وصدر هذا البيب الأخير كقول الآخر :

إذا غدا ملك باللّهُو مُستغلاً
أما ترى الشمس في الميزان هابطة
فاحكم على ملكه بالويل والحرب
لما غدا وهو بُرجُ اللّهُو والطرب ؟

وزار بعض إخوانه فحجبه نفاطبه برُقعة يقول في فصل منها :

تصدّيت لقاء سيدي تصدّي الحب الكئيب ، للقاء رسول الحبيب ،
وطفت ببابه الكريم ، طواف الحجاج بالبيت العظيم ، فخال عُشورُ الجَدِّ ،
عن مطالعة القمر السعد ، ومنع سوء البخت ، عن لقاء الكرم البخت .
فحدست أن سيدي وقته ظفرت يدها بمن يهواه ، فغاب مغيب القمر ، تحت
غمام الظفر ، وتعاطيا بكأس الوصال ، مداعى الشرور والجريال ، وضيق بضيق
العناق ، تجرّى الوشاح والأطواق . هنأه الله ببلوغ أمانيه ، وهنأنا فيه بما
يرضيه . فحياتنا بسروره مرتبطة ، ونفوسنا بما يشتهي مغتبطة .

انتهى المجلد الأول

من القسم الرابع

فهرس

صفحة

٢	...	...	...	...	...	أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادي
٣	...	...	...	...	...	قصول من نثره في أوصاف شتى
٣	...	...	...	...	...	كتب إلى الوزير أبي جعفر بن الثبّ مستعظماً
٤	...	...	...	...	...	له إلى مجاهد يصف ظهوره على خيران
٦	...	...	...	...	...	جملة أخبار جرت له مع المنصور بن أبي عامر
٦	...	...	...	...	...	المنصور يختبر صاعداً أول دخوله
٨	...	...	...	...	...	إغراق كتابه (النصوص)
٩	...	...	...	...	...	ابن العريف يفترى على صاعد
٩	...	...	...	...	...	صاعد يرتجل شعراً يصف فيه سقيفة أعداء المنصور لاختباره
١١	...	...	...	...	...	ابن بسام يتحدث عن نفسه وكتابه
١٢	...	...	...	...	...	أبيات لصاعد في الوصف
١٣	...	...	...	...	...	صاعد ومعارضة أبي نواس
١٤	...	...	...	...	...	أبو عبد الله بن شرف وابن رشيق ومعارضتهما المتنبي
١٥	...	...	...	...	...	صاعد ينتحل الشعر
١٦	...	...	...	...	...	بعض أخلاق صاعد
١٦	...	...	...	...	...	أبو مروان عبد الملك بن شهيد في مجلس شراب عند المنصور
١٨	...	...	...	...	...	شعر لابن شهيد المذكور
١٩	...	...	...	...	...	صاعد يغني للمنصور

صفحة

٢٠	صاعد يخلق ألفاظا في اللغة ويكذب
٢٢	إهداؤه إيلاء المنصور
٢٣	البربرية والاربعون في الشعر وأمنه لذلك عند المسارقة والأندلسيين
٣٠	إيجاز الخبر عن أسر غرسية
٣١	أبو مروان بن الجزيري ومقتله
٣٢	رسائل الجزيري على السنة بنات المنصور
٣٤	الجزيري يحرض طرفة على إسقاط عيسى بن سعيد القطاع والاستبداد بالدولة
٣٧	رجع إلى صاعد
٣٧	رسالة صاعد إلى علي بن وداعة
٤٠	مقتل المغيرة بن الفاسر بأمر المصحفي
٤١	بين ابن أبي عامر والمصحفي
٣٩	تلخيص التعريف بدولة ابن أبي عامر
٤٤	جهاد ابن أبي عامر ومحاربه النصارى
٤٦	نكبة أبي جعفر المصحفي وشعره في السجن
٥٢	كبار الأحداث بالدولة العامرية
٥٢	المنصور يستخرج الأموال من قصر الخليفة
٥٤	وفاة المنصور ووصيته
٥٨	قيام عبد الملك بن المنصور بالدولة
٥٩	صفات عبد الملك وفضائله
٦١	زاوي بن زيري يدخل الأندلس في عهد عبد الملك
٦٢	الخليفة هشام وانشغاله وأهل القصر بالخرافات
٦٣	عبد الملك يحارب النصارى

صفحة

٦٧	...	...	...	أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي الدارمي
٦٧	...	...	...	حياة أبي الفضل قبل دخوله الأندلس
٦٩	...	...	...	قصيدة الواساني في يوسف بن علي الفلاحى
٧٣	...	...	...	جملة من أشعار أبي الفضل في النسيب مع تعليقات المؤلف
٨٠	...	...	...	شعره في سائر الأوصاف
٨٩	...	...	...	مقطوعات له في الإخوانيات
٩٣	...	...	...	سليمان بن محمد الصقلي
٩٦	...	...	...	أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني
٩٨	...	...	...	عبد العزيز بن محمد السوسى
٩٩	...	...	...	وصف احتفال المأمون بن ذى النون بأعذار حفيده
١٠٩	...	...	...	محمد بن أحمد بن ذى النون وذكر أولية أمرهم
١١٤	...	...	...	شفف المأمون بن ذى النون ببناء القصور
١١٦	...	...	...	مصير القادر بن ذى النون
١١٨	...	...	...	مقتل الفقيه أبي بكر بن الحديدي
١٢٢	...	...	...	فرار القادر بن ذى النون من طليطلة ودخول المتوكل
١٢٥	...	...	...	خروج المتوكل من طليطلة ورجوع ابن ذى النون إليها
١٢٧	...	...	...	سقوط طليطلة في يد النصارى
١٣٣	...	...	...	أبو عبد الله محمد بن شرف
١٣٤	...	...	...	جملة من نثره
١٣٨	...	...	...	كتابه أبكار الأفكار
١٤٠	...	...	...	كتابه أعلام الكلام

صفحة

١٤٣	فصول من نثره في أوصاف شتى
١٤٧	فصول له في الذم
١٥٢	رقعته إلى المظفر بن الأفتس ورده عليه
١٥٤	مقامة لابن شرف في ذكر الشعراء
١٦٥	مقامة له أخرى
١٦٨	شعر ابن شرف في النسيب
١٧٠	شعره في المديح
١٧٥	مقطوعات له في أوصاف شتى
١٧٧	مراثيه في بلدة القيروان
١٨٦	محمد بن أبيه ابن السقاء القرطبي
١٨٧	أولية ابن السقاء كما رواها ابن حيان
١٨٨	استبداد ابن السقاء
١٩٠	مصرع ابن السقاء
١٩٢	أبو الحسن علي بن عبد الغنى الكفيف المعروف بالحصرى
١٩٣	جملة من نثر الحصرى
١٩٤	رسالته إلى أبي الحسين بن الطراوة
١٩٦	رسالته إلى الأديب غانم بمالقة
١٩٧	له إلى ابن حسداى يشكو ابن عباس
١٩٩	شعره في النسيب
٢٠٢	شعره في المديح
٢٠٥	قصيدته في المقتدر بن هود

- المقتدر بن هود وتعليقه على رابعة ... ٢٠٦
- مقطوعات للحصري ... ٢٠٨
- شعره في الرثاء ... ٢٠٩
- مدائحه في الشعبي ... ٢١٦
- أبو الحسن عبد الكريم بن فضال القيرواني المعروف بالحلواني ٢١٩
- شعره في النسيب ... ٢١٩
- شعره في المديح ... ٢٢٤

جدول الخطأ والصواب

الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ
الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ
أداء	آداء	١١	١٢٧	أخضر	أخضر	١٥	٢٩
يقعد	يقعد	١٥	١٢٧	بن	ابن	٢	٣٧
خلوا	خلوا	٩	١٣٠	مد	مد	٣	٤٢
الأبقاء	الأبقاء	٨	١٣١	وجعفر	جعفر	٣	٤٣
وسبعين	وتسعين	١	١٣٢	صرّفه	صرّفه	١٤	٤٧
الطلب	الطلب	١٨	١٣٦	الملا	الملا	١٤	٥٣
صمصام	صمصام	٦	١٤٠	أمية	أميه	٦	٥٨
السبق	السبق	١١	١٤١	الترع	الترع	١٤	٦٠
صفاء	صفاء	٩	١٥٠	النفى	النفى	٦	٦١
خدن	خدن	١٤	١٥٠	نقاد	نقاد	١٣	٨١
واوات	واوت	٥	١٥١	فعاونى	فعاونى	٤	٨٣
الفتاء	الفتاء	٦	١٥٢	موائد	واند	٤	١٠٥
نسيات	نسيات	١٤	١٥٢	خليفة	خليفة	١٣	١٠٥
عيسى	عسى	١١	١٦٨	فدخلوا	فدخلوا	١	١٠٨
وللسيد	وللسيد	١٠	١٧١	فرطهم	فرطهم	{ ٢١ } { ١١٠ } { ٧ } { ١١١ }	
الخطاب	الخطاب	٩	١٧٢	الملقب	الملقب	٢	١١٣
غرفة	غرفة	٩	١٧٤	ملا	ملا	٦	١٢٠
الطراوة	الطراوة	١٥	١٩٤	بفتكة	بفتكة	٣	١٢١
قوم	قوم	١٧	١٩٥	وأشرب	وأشرب	١٠	١٢٣
أعيد ريان	أعيد ريان	٣	١٩٩	أضل	أضل	٥	١٢٤
سرقسطة	سرقسطة	١٩	٢٠٥	جملة	جملة	٣	١٢٥
أريم	أريم	١	٢٠٨	بطليموس	بطليموس	٩	١٢٥
تقرأ (ولا بياض معي إلا بياض)	تقرأ (ولا بياض معي إلا بياض)	١٧	٢١٠	ظفره	ظفره	١٧	١٢٥
الشعر	الشعر	١٨	٢٢٢	الصغار	الصغار	٥	١٢٦
محدثه	محدثه	٢	٢٢٥	إعذار	إعذار	٧	١٢٦
بعد أن	بعد أن	١٤	٢٢٥				

928.927:11328A pt.4:v.1:c.1

ابن بسام، أبو الحسن علي

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01072270

